

ثبت الإيمان في النفوس

أو:

رِيُّ الظَّمَآن

من أركان الإيمان

تأليف الفقير إلى عفو ربه الغني

ماجد بن سليمان الرسي

جمادى الأولى ١٤٣٤ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلوة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه
أجمعين ، أما بعد :

فإن الإيمان عند أهل السنة والجماعة يقوم على ستة أركان ، وهي الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، خيره وشره .

وهذه الأركان الستة هي أصول العقيدة الإسلامية ، فمن فهمها فهما صحيحا ، موافقا لفهم السلف الصالح ، من الصحابة والتابعين ، أصحاب القرون الثلاثة المفضلة الأولى ، التي شهد لها النبي ﷺ بالخيرية ؟ فقد انفتح له باب عظيم من أبواب العلم والعمل.

والدليل على هذه الأركان الستة قوله تعالى ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾^١ ، وقوله تعالى ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾^٢ الآية.

وَدِلْيَلُ الإِيمَانِ بِالْقَدْرِ قُولَهُ تَعَالَى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدْرٍ﴾ .^٣

ومن السنة حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ؛ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال: يا محمد ، أخبرني عن الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ ، وتقيم الصلاة ، وتهب التكية ، وتصوم رمضان ، وتحجج البيت إن استطعت إليه سبيلا.

قال: صدقت.

قال: فعجنا له؟ يسأله ويُصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان.

قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتومن بالقدر خيره وشره.

١ سورة البقرة: ١٧٧

٢٨٥ سورة البقرة:

تبنيه: لما كانت سورة البقرة تحوي أصول الإيمان كان شأنها عظيماً ، فإنما في الدنيا لا تستطيعها السحرة ، أي لا تُطبق سعادها ، ولا يُنفذ سحرهم فمـا حافظـ علىـ ماـ وـفـىـ الآخـةـ تـأـلـ كـائـنـ سـحـابـةـ تـظـلـ صـاحـبـهاـ .

٤٩ : سورة القمر

وفي آخر الحديث قال النبي ﷺ لعمر: يا عمر ، أتدرى من السائل؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم.^١

وفي هذا البحث المختصر ؛ وددت أن أشارك مشاركة متواضعة بشرح ميسر شامل لأركان الإيمان ، أسأل الله أن ينفع به كاتبه وقارئه ، والله أعلم ، وصلى الله على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم تسلیما كثيرا.

وكتبه ، ماجد بن سليمان الرسي

صبح الجمعة ، الثالث من شهر ذي الحجة لعام ١٤٣٣ هجري

هاتف: ٠٠٩٦٦٥٠٥٩٠٦٧٦١

المملكة العربية السعودية

www.saaid.net/book ، majed.alrassi@gmail.com

^١ رواه مسلم (٨).

مقدمات في الإيمان^١

تعريف الإيمان لغة: الإيمان لغة يتضمن معنيين؛ الأول هو التصديق كما في قوله تعالى ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾^٢، أي صدقوا بما أنزل إليهم من رحمة.

والمعنى الثاني هو (أقرّ له)، وذلك إذا عدّي لفظ الإيمان باللام، كما في قوله تعالى عن إخوة يوسف لأبيهم ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كَنَا صَادِقِين﴾^٣، قوله ﴿فَآمَنَ لَهُ لَوْط﴾^٤، أي: أقرّ له.

تعريف الإيمان شرعاً: اعلم رحمك الله أن عبارات السلف الصالح قد تنوّعت في تعريف الإيمان، ومجمل تعريفاتهم له تدور على أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان^٥، وعمل بالأركان^٦، يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية^٧ رحمه الله في كلام له في معنى الإيمان:

إن الإيمان هو الإقرار لا مجرد التصديق، والإقرار ضمّن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد.^٨

فعلى هذا فالإيمان في الشرع يتضمن التصديق والانقياد، فلا يصح حصر الإيمان بالتصديق فقط، إذ لا بد من الإقرار والطمأنينة، فقد صدق أبو طالب عم النبي ﷺ بنبوة ابن أخيه ﷺ، ولكن لم يُقر له

^١ للأمانة العلمية ، فقد استفادت كثيراً من هذه المقدمات من كتاب «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» ، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله ، وسيأتي التعريف به قريباً إن شاء الله.

^٢ سورة البقرة: ٢٨٥ .

^٣ سورة يوسف: ١٧ .

^٤ سورة العنكبوت: ٢٦ .

^٥ أي القلب.

^٦ أي الجوارح ، وهي الأطراف والحواس.

^٧ هو الإمام العلامة البحر الفقيه ، شيخ الإسلام حقا ، أبو العباس ، تقي الدين ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ، الحراني ثم الدمشقي ، الملقب بابن تيمية ، جدد دين الإسلام عندما استحكمت غربته ، وأظلمت الدنيا بالبدع الكلامية وخرافات الصوفية وشركيات القبورية وإلحاد الفلاسفة والرافضة ، فجدد الدعوة للإسلام الصافي على منهاج الكتاب والسنة ، وجهر بالحق ، وناظر أهل الباطل ، وتحمل السجن في سبيل ذلك ، فكتب الله لعلمه القبول ، و Sarasat بمحضاته الركبان ، وصار من بعده من علماء السنة عيالاً عليه ، أما تلاميذه فصار بعضهم من أئمة الإسلام ، كابن القيم وابن كثير والذهبي وابن عبد المادي وغيرهم ، توفي رحمه الله سنة ٧٢٨ هـ ، وقد جمع بعض الحفظين أقوال من ترجم له في جامع نفيس ، وسموه بـ «الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون» ، بإشراف الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله ، ونشرته دار عالم الفوائد – مكة ، فليرجع إليه من أراد الاستزادة.

^٨ «مجموع الفتاوى» (٦٣٩ - ٦٣٨/٧) ، وقد بحث رحمه الله عقيدة الإيمان بحثاً مستفيضاً في كتابه «الإيمان» ، وهو مطبوع مستقلاً ، ويقع أيضاً في «مجموع الفتاوى» (٤٦١ - ٤/٧) ، وانظر أيضاً «مجموع الفتاوى» (٦٤٢/٧) وما بعدها.

بإسلامه ويتباهي ويطمأن قلبه بالإيمان به ، واستمر على ذلك إلى أن مات ، وفي هذا أنزل الله قوله تعالى ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾^١.

وهكذا بعض الكفار اليوم يؤمنون بنبوة محمد ﷺ ، ويسمونه بذلك ، أي بالنبي محمد ، وهم باقون على دين قومهم ، لم يقروا بالشهادتين ويعملوا بمقتضاهما.

وكذلك النفر من اليهود ، الذين جاؤوا إلى النبي ﷺ وسألوه عن أشياء فأخبرهم ، فقالوا نشهد أنكنبي ، ولم يقروا بالإيمان به ولم يتبعوه.

بل اليهود الذين كانوا في عهد النبي ﷺ كانوا يعرفون أنهنبي كما يعرفون أبناءهم ، كما حكى الله عنهم ذلك في آيات من سورة البقرة ، ومع هذا حكم الله عليهم بالكفر لأنهم لم يتبعوه وينقادوا لشريعته.

وهناك من يقول إنه لا يضر اختلاف الملل إذا كان المعبد واحدا ، ويرى أن النجاة في الآخرة تحصل بمتابعة الرسول ﷺ وبغير متابعته ، كما هو قول الفلسفه الصابعه ، وهو دين التيار ومن دخل معهم ، مع كونهم صدقوا الرسول ﷺ وأطاعوه في أمور أتى بها ، وهذا مذهب خبيث باطل ، إذ لا نجاة للعبد يوم القيمة إلا بعبادة الله وحده ، ومتابعة الرسول ﷺ وحده ، والكفر بما يعبد من دونه.^٢

وفي قصة هرقل عظيم الروم عبرة ، فقد سأله عن النبي ﷺ ، فلما علم أنهنبي وتيقن من خروجه وظهور أمره ؛ رأى أن يبايعه على الإيمان ، ونادى عظماء قومه ليبايعوه ، وقال لهم: يا عشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملکكم ، فتبَايعوا لهذا النبي؟

فأبوا ، فخاف نكولهم عن طاعته ، فنكص على عقبيه وقال: إني قلت مقالي آنفاً أختبر بها شِدتكم على دينكم!

وكان مما قاله هرقل لأبي سفيان: إن يكن ما تقول فيه حقاً فإنهنبي ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه منكم^٣ ، ولو أني أعلم أني أخلص^٤ إليه لأحببت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، وليلبلغن ملکه ما تحت قدمي.^٥

والشاهد من القصة أنَّ عِلْمَ هرقل بأنَّ محمداً ﷺنبي لم يدخله في الإيمان لأنَّه لم يُنقذ له ، لكونه استحب الحياة الدنيا على الآخرة ، وخشي ذهاب ملکه ونکول قومه عن طاعته ، نعوذ بالله من الخذلان.

^١ سورة القصص: ٥٦ .

^٢ انظر «مجموع الفتاوى» (٦٣٩/٧).

^٣ أي العرب.

^٤ أي أصل إليه.

^٥ رواه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

ثم إنه لو كان الإيمان هو التصديق فقط بدون انقياد ، لكن إبليس مؤمنا ، لأنه يعلم الحق من الباطل ، ولكنها لم يُنْقَد للحق استكبارا عليه.

فصل في زيادة الإيمان ونقصانه

ومن عقائد أهل السنة والجماعة في الإيمان أنه يزيد وينقص ، ويقوى ويضعف ، ودليل هذا قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾^١ ، وقوله ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتَ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبِّشُونَ﴾^٢.

وروى ابن أبي شيبة في كتاب «الإيمان» عن علقة بن قيس النخعي^٣ أنه كان يقول لأصحابه: امشوا بنا نزداد إيمانا.^٤

والإيمان يتفاوت في قلوب الناس بتفاوت ما عندهم من العلم والعمل ، فالمؤمنون الكمال عندهم من حسن الاعتقاد والقيام بما أمرهم الله به من الأعمال الصالحة من فرائض ونواقل وأحلاق حميدة وإحسان إلى الخلق ما يُثَبِّتُ الإيمان في قلوبهم ويُنْتَهِيهِ ، وعندهم كذلك من المعرفة بشبهات أهل الباطل والجواب عنها ما يجعل لإيمانهم حصانة مما يُضعفه أو يُزيله.

أما ضعيفو الإيمان ، وهم غالب الناس ؛ فعندهم علوم ضعيفة مجملة ، وأعمال صالحة قليلة ، وربما ادمنوا بعض السيئات ، مما يجعل جذوة الإيمان في قلوبهم ضعيفة ، والله المادي.

والحسُنُ يُدْلُلُ على تفاوت الإيمان في قلب المؤمن ، فإن المؤمن يجد في إيمانه قوَّةً إذا اشتغل بالطاعات ، وفي أحيانٍ أخرى يشعر بالضعف إذا فتر عنها.

تقرير السلف الصالح لمسألة أن الأعمال من الإيمان ، وأن الإيمان يزيد وينقص

روى الإمام أبو بكر ، محمد بن الحسين الأحربي^٥ في كتابه «الشريعة» في باب «ذكر ما دل على زيادة الإيمان ونقصانه» ، آثارا عن السلف الصالح في أن الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، منها قول مالك بن

^١ سورة الأنفال: ٢ .

^٢ سورة التوبة: ١٢٤ .

^٣ علقة بن قيس النخعي ، ثقة ثبت فقيه عابد ، من أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

^٤ رقم (١٠٤) ، وحسن إسناده الألباني في تحقيقه عليه ، والكتاب من منشورات المكتب الإسلامي - بيروت.

ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه «٣٥٣» ، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٧).

^٥ هو أبو بكر ، محمد بن الحسين بن عبد الله الأحربي ، الفقيه الشافعى المحدث ، شيخ الحرم الشريف ، صاحب التواليق المقيدة ، مات سنة

٣٦٠ هـ . انظر ترجمته في «السير» (١٣٣/١٣) و «وفيات الأعيان» لابن حلكان (٢٩٢/٤) .

أنس وأحمد بن حنبل ووكيع بن المحرج وسفياني الثوري وسفياني بن عيينة ومعمر وابن جريج: «الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص».

ثم قال في باب «القول بأن الإيمان تصديق بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالجوارح ، لا يكون مؤمنا إلا
بأن تجتمع فيه هذه الخصال الثلاث»:

«اعلموا — رحمنا الله وإياكم — أن الذي عليه علماء المسلمين أن الإيمان واجب على جميع الخلق ، وهو تصديق بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالجوارح .

ثم اعلموا أنه لا تُجزئ المعرفة بالقلب والتصديق إلا أن يكون معه الإيمان باللسان نطقاً ، ولا تُجزئ معرفة بالقلب ونطق باللسان حتى يكون عمل بالجوارح ، فإذا كملت فيه هذه الثلاث الخصال كان مؤمناً ، دلّ على ذلك القرآن والسنة وقول علماء المسلمين».

ثم ذكر الأدلة على ذلك من القرآن العزيز ، ثم قال:

لَا يَخْفِي عَلَى مَنْ تَدِيرُ الْقُرْآنَ وَتَصْفِحُهُ وَجْهَهُ كَمَا ذَكَرْتُ .

الذِّي قَدْ وَفَقَهُمْ لَهُ ، فَصَارَ الإِيمَانُ لَا يَتَمَّلِّأُ حَتَّى يَكُونَ مُصْدِقًا بِقَلْبِهِ وَنَاطِقًا بِلِسَانِهِ وَعَامِلًا بِجَوَارِحِهِ ،

الصَّالِحُ ، وَقَرَنَ مَعَ الإِيمَانِ الْعَمَلُ الصَّالِحُ ، لَمْ يَدْخُلْهُمُ الْجَنَّةَ بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ حَتَّى ضُمِّنَ إِلَيْهِ الْعَمَلُ الصَّالِحُ

عَنْهُمْ ، وَأَنْهُمْ قَدْ رَضُوا عَنْهُ ، وَأَنَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ الدُّخُولُ إِلَى الْجَنَّةِ وَالنِّجَاهَ مِنَ النَّارِ إِلَّا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ

تَعَالَى أَوْجَبَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ؛ الْعَمَلُ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يُشْرِكْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ قَدْ رَضِيَ

فَقَهُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الدِّينِ بَعْلَمُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ؛ أَنْكُمْ إِنْ تَدْبِرُمُ الْقُرْآنَ كَمَا أَمْرَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى عِلْمَتُمْ أَنَّ اللَّهَ

رَحْمَنُوا - رَحْمَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ - يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ ، وَيَا أَهْلَ الْعِلْمِ ، وَيَا أَهْلَ السِّنَنِ وَالْأَثَارِ ، وَيَا مُعْشِرَ مِنْ

، ورد على من قال: (المعرفة والقول وإن لم يعمل) ، نعوذ بالله من قائل هذا». **برحمة إياهم وبما وففهم له من الإيمان به والعمل الصالح ، وهذا رد على من قال: (الإيمان: المعرفة)** كتاب الله عز وجل ، أن الله تبارك وتعالى لم يدخل المؤمنين الجنة بالإيمان وحده ، بل **أدخلهم الجنة** **ـ رحمنا الله وإياكم ـ** أني قد تصقّحت القرآن فوجدت فيه ما ذكرته في ستة وخمسين موضعاً من

ثم ذكر أدلة كثيرة على ذلك من القرآن العزيز ، ثم قال:

«مِنْهُمْ مَنْ يَعْمَلُ الصَّالِحَاتِ وَلَا يُؤْمِنُ بِهِمْ فَلَمَّا
أَتَاهُمْ مَا أَنْهَا كَانُوا مُشْكِنِينَ

وقال تعالى ﴿إِلَيْهِ يَصُعدُ الْكَلْمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يُرْفَعُ﴾^١ ، فأخبر تعالى بأنَّ الكلم الطيب حقيقته أن يُرفع إلى الله تعالى بالعمل الصالح ، فإن لم يكن عمل بطل الكلام من قائله ورُدَّ عليه ، ولا كلام أطيب وأجلُّ من التوحيد ، ولا عمل من أعمال الصالحات أجلُّ من أداء الفرائض».

ثم ذكر بعض الآثار عن بعض السلف في تقرير أن العمل يصدق الكلام ، ثم قال: «وكذلك ذكر الله تعالى المتقيين في كتابه في غير موضع منه ودخولهم الجنة ، فقال ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^٢ ، وهذا في القرآن كثير ، يطول به الكتاب لو جمعته ، مثل قوله في الزخرف ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْرَثْنَاهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^٣ ، ومثل قوله في سورة ق^٤ ، والذاريات^٥ ، والطور ، مثل قوله ﴿كُلُوا وَاشْرِبُوا هَنِئُوا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^٦ ، وقال في سورة المرسلات ﴿إِنَّ الْمُتَقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعَيْنَوْنَ * وَفَوَّا كُهْ مَا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَاشْرِبُوا هَنِئُوا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^٧.

كل هذا يدل العاقل على أن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني ، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال ، كذا قال الحسن وغيره».

ثم ذكر طائفه من أقوال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم في تقرير قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح ، ثم قال:

«فيما ذكرتُه مَفْنَعٌ لِمَنْ أَرَادَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِالْخَيْرِ ، فَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَتَمَّ لِلْإِيمَانِ إِلَّا بِالْعَمَلِ ، هَذَا هُوَ الدِّينُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ ﴿وَمَا أَمْرَوْا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لِهِ الْدِينَ حَنَفَاءَ وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ﴾^٨ . انتهى باختصار يسير.

قلت: وهكذا قال الإمام الحافظ أبو القاسم ، هبة الله بن الحسن بن منصور الطبرى اللالكائى^٩ ، فقد قرر في كتابه العظيم «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنّة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم»^{١٠} أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح ، قرر ذلك في نحو من ثلاثة

^١ سورة فاطر: ١٠ .

^٢ سورة النحل: ٣٢ .

^٣ سورة الزخرف: ٧٢ .

^٤ أي الآيات ٣٢ - ٣٣ .

^٥ أي الآيات ١٦ - ١٩ .

^٦ سورة الطور: ١٩ .

^٧ سورة المرسلات: ٤١ .

^٨ سورة البينة: ٥ .

^٩ ستأتي ترجمته في قسم الإيمان بأسماء الله وصفاته

^{١٠} قام بتحقيقه د. أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي ، وهو من منشورات دار طيبة - الرياض.

صفحة ، وذكر الأخبار الدالة على ذلك من الكتاب والسنّة وكلام الصحابة وأئمّة التابعين ، ثم ذكر من قال به من فقهاء الأمصار.^١

ثم عطف على مسألة زيادة الإيمان ونقصانه ، فقررها في نحو من أربعين صفحة^٢ ، بذكر الآيات والأحاديث والآثار الواردة في ذلك عن السلف ، فرحمه الله وجراه خيرا.

وكذا قال الإمام أبو عبد الله بن بطة العكيري^٣ في كتابه «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومحانبة الفرق المذمومة»^٤ ، فقد عقد باباً أسماه «باب بيان الإيمان وفرضه» ، وأنه تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح والحركات ، لا يكون العبد مؤمناً إلا بهذه الثلاثة ، وساق الأدلة الشرعية في تقرير ذلك ، كما فعل الآجري واللالكائي ، فذكر الأدلة من الكتاب والسنّة وأقوال السلف ، ثم عطف بذكر من أفتى بذلك من فقهاء الأمصار ، من أهل مكة والمدينة واليمن ومصر والشام والكوفة والبصرة وواسط وأهل المشرق والجزيرة ، من أصحاب القرون الثلاثة المفضلة الأولى ، وما قاله رحمه الله في تقرير أن عمل الجوارح من الإيمان:

فرض الله الإيمان على جوارح ابن آدم ، وقسمه عليها وفرقه فيها ، فليس من جوارحه جارحة إلا وهي مُوكلة من الإيمان بغير ما وُكلت به صاحبتها ، فمنها قلبها الذي يعقل به ويتقى به ويفهم به ، وهو أمير بدنها الذي لا ترِد الجوارح ولا تصدر إلا عن رأيه وأمره ، ومنها لسانها الذي ينطق به ، ومنها عيناه اللتان ينظر بها ، وسمعها الذي يسمع به ، ويداه اللتان يبطش بها ، ورجلاه اللتان يخطو بها ، فليس من هذه جارحة إلا وهي مُوكلة من الإيمان بغير ما وُكلت به صاحبتها بفرض من الله تعالى ، ينطق به الكتاب ويشهد به علينا.^٥

ثم ذكر أدلة القرآن على ما فرض الله على القلب واللسان والجوارح ، جارحة جارحة.^٦
ثم عطف بعد ذلك بتقرير أن الله لم يعد المؤمنين بالثواب الجزييل في الجنة إلا بأعمالهم الصالحة^٧ ، واحتج بالأيات التي احتاج بها الآجري والتي نقلناها آنفاً ، وما قاله:

^١ انظر الصفحات من (٩١١-٩٣٣) ، (٩٥٥-٩٥٩).

^٢ انظر الصفحات من (٩٦٠-٩٨٠) ، (١٠١٢-١٠٣٦).

^٣ هو عبيد الله بن محمد بن حمدان ، أبو عبد الله العكيري ، المعروف بابن بطة ، مات سنة ٣٨٧ هـ . انظر «طبقات الحنابلة» (٢٥٦/٣).

^٤ طبع بتحقيق عدة محققين ، وهو أربعة أقسام: كتاب الرد على الجهمية ، وكتاب الإيمان ، وكتاب القدر ، وكتاب فضائل الصحابة ، وهو من منشورات دار الراية - الرياض.

^٥ كتاب الإيمان ، ص ٧٦٥ ، باختصار يسير.

^٦ انظر الصفحات من (٧٦٠-٧٧٩).

^٧ انظر الصفحات من (٧٨٠-٧٩٥).

﴿وَتُلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُرْشِمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^١ ، ولم يقل: بما كنتم تقولون.
وقال ﴿لِيَلُوكُمْ أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾^٢ ، ولم يقل: أحسن قولًا.

ثم عطف بذكر الأخبار الدالة على أن الإيمان قول اللسان واعتقاد القلب وعمل الجوارح من أحاديث المصطفي ﷺ وآثار السلف الصالح رضي الله عنهم ، في نحو من ثلاثة صفحات.^٣
ثم عطف بذكر أدلة الكتاب والسنّة وآثار السلف الصالح في زيادة الإيمان ونقصانه في نحو من ثلاثة صفحات.^٤

وهكذا الإمام أبو بكر ، أحمد بن محمد الخلال^٥ في كتابه «السنة»^٦ ، فقد عقد أبواباً عدة رد فيها على المرجئة ، الذين ينكرون أن الأعمال من الإيمان ، وينكرون أيضاً أن الإيمان يزيد وينقص ، فرد عليهم قولهم ، وقرر اعتقاد أهل السنة في هذا الباب ، مستنداً على آيات الكتاب والسنّة وآثار السلف الصالح.^٧

وهكذا الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام^٨ ، المتوفى سنة ٢٢٤ هجرية ، فقد قرر في مقدمة كتابه «الإيمان وعمله وسننه واستكماله ودرجاته»^٩ أن الإيمان قول وعمل ، وأنه يزيد وينقص ، معتمداً في ذلك على آيات وأحاديث وآثار رواها بإسناده عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين.

ونختم بخلاصة الإمام الحسين بن مسعود البغوي^{١٠} في هذا الباب ، حيث قال:

اتفقت الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنّة على أن الأعمال من الإيمان ، لقوله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يَنْفَقُونَ﴾^{١١} ، فجعل الأعمال كلها إيماناً ، وكما نطق به حديث أبي هريرة^١.

^١ سورة الزخرف: ٧٢ .

^٢ سورة الملك: ٢ .

^٣ انظر الصفحات من (٧٩٦-٨٢٧) .

^٤ انظر الصفحات من (٨٣١-٨٦١) .

^٥ ستأتي ترجمته إن شاء الله في فصل الإيمان بالأسماء والصفات.

^٦ طبع بتحقيق عدة محققين ، وهو من منشورات دار الرأي - الرياض.

^٧ انظر (٥٦٢/٣) .

^٨ ستأتي ترجمته قريباً في قسم الإيمان بالأسماء والصفات.

^٩ طبع هذا الكتاب بتحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله ، وهو من منشورات المكتب الإسلامي - بيروت.

^{١٠} هو الحافظ الثقة الكبير مستند العالم ، أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المزيان البغوي الأصل ، البغدادي ، مات سنة ٣١٧ هـ ، انظر «تذكرة الحفاظ» (٢/٢١٧) .

^{١١} سورة الأنفال: ٢ .

وقالوا: إن الإيمان قولٌ وعملٌ وعقيدةٌ ، يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية ، على ما نطق به القرآن في الزيادة^٢ ، وجاء في الحديث بالنقضان في وصف النساء^٣. انتهى^٤.

فصل في بيان اهتمام السلف بمسألة الإيمان

هذا ، وقد اعنى السلف الصالح رحمهم الله ومن تبعهم على الحق بمسألة الإيمان ، وألَّفوا فيها مؤلفات كثيرة ، أهمها ما ذكرناه آنفا ، ومنها أيضا كتاب «الإيمان»^٥ لأبي بكر بن أبي شيبة^٦ ، وكتاب «الإيمان»^٧ للحافظ محمد بن إسحاق بن منده^٨ ، رحمهم الله جميعا.

ومن كتب المتأخرین كتاب «الإيمان»^٩ لشیخ الإسلام ابن تیمیة ، وكذا كتاب «الكلام على حقيقة الإسلام والإيمان»^{١٠} له ، رحمهم الله جميعا.

وقد جمع الباحث عبد العزیز بن عبد الله المبدل أقوال التابعين في مسائل الإيمان في كتاب واحد ، ووسّمه «أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان»^{١١} ، فجزاه الله خيرا.

فصل في شعب الإيمان

اعلم – رحمني الله وإياك – أن الإيمان له شعب ، أي فروع ، وهذه الشعب منها ما هو من الأركان التي لا يقوم الإيمان إلا عليها ، ومنها ما هو من لازم الإيمان التي لا يقوم الإيمان إلا بها ، كمحبة الله ومحبة رسوله ، ومنها ما هو من مقتضيات الإيمان ، وهي الأعمال ، كالصدقة وإماتة الأذى عن الطريق ، هذه ثلاثة أقسام لشعب الإيمان.

^١ يعني حديث: الإيمان بضع وسبعين شعبة ... الحديث.

^٢ يعني قوله (ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم).

^٣ يعني حديث: (ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لبِّ الرجل الحازم من إحداكن) ، واللب هو العقل.
رواه البخاري (٣٠٤) عن أبي سعيد الخدري ، ومسلم (٧٩) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

^٤ «شرح السنة» (١/٣٨-٣٩) ، تحقيق: زهير الشاويش ، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت.

^٥ طبع هذا الكتاب بتحقيق الشیخ محمد ناصر الدين الألبانی رحمه الله ، وهو من منشورات المكتب الإسلامي - بيروت.

^٦ هو الحافظ الثبت النحریر أبو بکر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبّسي ، مولاهم الكوفي ، صاحب المسند والمصنف وغير ذلك ، مات سنة ٢٣٥ هـ ، انظر «تذكرة الحفاظ» (١٣/٢).

^٧ طبع هذا الكتاب بتحقيق د. علي بن ناصر الفقیہی ، وهو من منشورات دار الفضیلية - الرياض.

^٨ هو الإمام الحافظ الجوال محدث العصر أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده ، توفي سنة ٣٩٥ هجري ، انظر «تذكرة الحفاظ» (٣/١٥٧).

^٩ طبع هذا الكتاب بتحقيق الشیخ محمد ناصر الدين الألبانی رحمه الله ، وهو من منشورات المكتب الإسلامي - بيروت.

^{١٠} طبع هذا الكتاب بتحقيق محمود حسن أبو ناجي الشیبانی.

^{١١} وهو من منشورات دار التوحيد - الرياض.

وقد جاء تفسير الإيمان بالعقائد - التي هي أعمال القلوب - في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾^١ الآية ، وقوله تعالى في المؤمنين ﴿وحبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾^٢ ، وقوله تعالى ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا وما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾^٣.

كما أنه قد جاء تفسير الإيمان بأعمال الجوارح في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى ﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم حاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾^٤.

وهاتان الآيتان صريحتان في أن الإيمان يشمل العقائد - التي هي أعمال القلوب - وأعمال الجوارح .
فأما ما يختص بالعقائد فالآلية الأولى تقرره ، وهي قوله تعالى ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ ، ويدخل فيه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .
وأما أعمال الجوارح فتقرره بقية الآيات التي وصفت المؤمنين ، وهي نوعان ؛ أفعال وتراك ، فأما الأفعال فنحو قوله تعالى ﴿الذين هم في صلاتهم حاشعون﴾ ، وقوله ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ ، أي فعلوا هذه الطاعات .

وأما التراك فنحو قوله تعالى ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ .

فسر الله الإيمان بهذه الخصال والأعمال ، مما يدل على أن القيام بالواجبات الظاهرة والباطنة ، واحتساب المحرمات والمكرهات ؛ داخل في مسمى الإيمان ، ومن أوصاف المؤمنين حقا .
والإيمان يشمل أيضاً الأخلاق والسلوك ، يدل على هذا قوله ﴿لَا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه﴾^٥ .

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي^٦ رحمه الله: «ومن لم يُؤمِّن بذلك ويحبُّ لهم ما يحب لنفسه ؛ فإنه لم يؤمن بالإيمان الواجب ، بل نقص إيمانه بقدر ما نقص من الحقوق الواجبة عليه».

^١ سورة البقرة: ٢٨٥ .

^٢ سورة الحجرات: ٧ .

^٣ سورة الحجرات: ١٤ .

^٤ سورة المؤمنون: ١ - ١١ .

^٥ رواه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥) عن أنس رضي الله عنه .

وعن أبي شريح أن النبي ﷺ قال: والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن.

قيل: ومن يا رسول الله؟

قال: الذي لا يؤمن جائزة بواقهه.^٣

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : المؤمن من أمن الناس.^٤

ومما يدل على شمول الإيمان لجميع ما تقدم من عمل القلب وقول اللسان وعمل الجوارح :

قوله ﷺ: الإيمان بضع وسبعون – أو بضع وستون – شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدنىها

إماتة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان.^٥

قول لا إله إلا الله ؛ عمل اللسان.

وإماتة الأذى عن الطريق عمل الجوارح.

والحياء عمل قلبي ، وهو من الأخلاق ، بل هو سبب لكل خلق حسن ، وراغع عن كل خلق قبح.

وقد جمع القاضي عياض^٦ رحمه الله هذه الشعب البضع والستين^٧ ، فقال:

هذه الشعب تتفرع عن أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال البدن ، فأعمال القلب فيه المعتقدات

والنبيات ، وتشتمل على أربع وعشرين حوصلة:

١. الإيمان بالله ، ويدخل فيه الإيمان بذاته وصفاته ، وتوحيده بأنه ليس كمثله شيء

٢. والإيمان بملائكته

٣. وكتبه

^١ هو الشيخ العلامة المفسر الفقيه عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، من فحول علماء نجد ، استوطن بلدة عنيزة من مدن القصيم ، ولد عام ١٣٠٧ وتوفي عام ١٣٧٦ هجري ، تلمذ على يده عدد من الطلبة صاروا فيما بعد من علماء المسلمين ، كالشيخ عبد الله بن عبد العزيز

بن عقيل ، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام ، والشيخ محمد بن صالح العثيمين وغيرهم ، رحم الله أمواهم وحفظ أحياهم.

انظر ترجمته في كتاب «علماء نجد خلال ثمانية قرون» ، للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام رحمه الله.

^٢ «التوسيع والبيان لشجرة الإيمان» ، ص ٤٠ .

^٣ بوائقه أي شره ، كما جاء ذلك مفسرا في رواية أخرى ذكرها الإمام عاصي ونقلها ابن حجر في «الفتح».

^٤ رواه البخاري (٦٠١٦).

^٥ رواه ابن حبان (٢/٢٦٤) وأحمد (٣/١٥٤) ، وقال محققو «المسندي»: إسناده صحيح على شرط مسلم.

^٦ رواه البخاري (٩) ومسلم (٣٥) ، واللفظ له ، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

^٧ هو العلامة عالم المغرب عياض بن موسى بن عياض ، القاضي أبو الفضل البصري السفياني ، مات سنة ٥٤٤ ، انظر «تذكرة الحفاظ» (٤/٦٧).

^٨ جاء في رواية أخرى أن الإيمان بضع وسبعون شعبة ، وسيأتي الجمع بين اللفظين قريبا إن شاء الله.

٤. ورسله
٥. والقدر خيره وشره
٦. والإيمان باليوم الآخر ، ويدخل فيه المسألة في القبر ، والبعث ، والنشور ، والحساب ، والميزان ، والصراط ، والجنة ، والنار
٧. ومحبة الله
٨. والحب والبغض فيه
٩. ومحبة النبي ﷺ
١٠. واعتقاد تعظيمه ، ويدخل فيه الصلاة عليه واتباع سنته
١١. والإخلاص ، ويدخل فيه ترك الرياء والنفاق
١٢. والتوبة
١٣. والخوف
١٤. والرجاء
١٥. والشكر
١٦. والوفاء
١٧. والصبر
١٨. والرضا بالقضاء
١٩. والتوكيل
٢٠. والرحمة
٢١. والتواضع ، ويدخل فيه توقير الكبير ورممة الصغير
٢٢. وترك الكبير والعجب
٢٣. وترك الحسد
٢٤. وترك الحقد

٢٥ . وترك الغضب

• وأعمال اللسان ، وتشتمل على سبع حصال:

١. التلفظ بالتوحيد
٢. وتلاوة القرآن
٣. وتعلم العلم
٤. وتعليمه
٥. والدعا
٦. والذكر ، ويدخل فيه الاستغفار
٧. واحتساب اللغو

• وأعمال البدن ، وتشتمل على ثمان وثلاثين حصلة ، منها ما يختص بالأعيان^١ ، وهي خمس عشرة حصلة:

١. التطهير حِسًا وحُكما ، ويدخل فيه اجتناب النجاسات
٢. وستر العورة
٣. والصلوة فرضا ونفلا
٤. والزكاة كذلك
٥. وفك الرقاب
٦. والجود ، ويدخل فيه إطعام الطعام ، وإكرام الضيف
٧. والصيام فرضا ونفلا
٨. والحج والعمرة كذلك
٩. والطواف
١٠. والاعتكاف

^١ أي المكلفين.

١١. والتماس ليلة القدر
١٢. والفرار بالدين ، ويدخل فيه المحرجة من دار الشرك
١٣. والوفاء بالنذر
١٤. والتحرى في الأيمان
١٥. وأداء الكفارات
- ومنها ما يتعلق بالأَّتَابَاع^١ ، وهي ست خصال:
١. التعفف بالنكاح
 ٢. والقيام بحقوق العيال
 ٣. وبر الوالدين ، وفيه اجتناب العقوق
 ٤. و التربية الأولاد
 ٥. وصلة الرحم
 ٦. وطاعة السادة
 ٧. أو الرفق بالعبيد
- ومنها ما يتعلق بالعامية ، وهي سبع عشرة خصلة:
١. القيام بالإمرة مع العدل
 ٢. ومتابعة الجماعة
 ٣. وطاعة أولي الأمر
 ٤. والإصلاح بين الناس ، ويدخل فيه قتال الخوارج والبغاة
 ٥. ولالمعونة على البر ، ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
 ٦. وإقامة الحدود
 ٧. والجهاد ، ومنه المرابطنة

^١ أي الذين هم تحت يد المكلف ، من ولد وزوجة ورقيق ونحوه.

٨. واداء الأمانة
٩. والقرض مع وفائه
١٠. وإكرام الجار
١١. وحسن المعاملة ، ومنه جمع المال من حِلْهِ
١٢. وإنفاق المال في حقه ، ومنه ترك التبذير والإسراف
١٣. ورد السلام
١٤. وتشميّت العاطس
١٥. وقف الأذى عن الناس
١٦. واحتساب اللهو
١٧. وإماتة الأذى عن الطريق

فهذه تسع وستون خصلة ، ويمكن عدّها تسعًا وسبعين خصلة باعتبار أفراد ما ضُمّ بعضه إلى بعضٍ مما ذُكر ، والله أعلم.^١

وقد عُنِي علماء الإسلام بموضوع شُعب الإيمان واجتهدوا في حصرها ، فمن أولئك الإمام الحسين بن الحسن الحلي المتأثر سنة ٤٠٣ هـ ، وهو شيخ الإمام البیهقی ، ألف كتاب «المنهاج في شعب الإيمان» ، وهو مطبوع في ثلاثة مجلدات^٢ ، وقد اختصره بعض الباحثين في مجلد^٣.

وكذلك الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البیهقی ، المتوفى سنة ٤٥٨ هجري ، فقد ألف كتاباً أسماه «شعب الإيمان» ، جمع فيه شعب الإيمان كما وردت في الكتاب والسنة وأقوال

الصحابية والتابعين ، وهو مطبوع في تسع مجلدات^٤.

^١ نقله ابن حجر عنه في «فتح الباري» (٦٨-٦٩/١) في شرح الحديث المتقدم ، باختصار يسير.

^٢ نشرته دار الفكر – لبنان ، بتحقيق حلمي فوده.

^٣ نشرته دار البشائر – دمشق.

^٤ نشرته مكتبة الرشد – الرياض ، بتحقيق عبد العلي عبد الحميد.

وقد اختصره أبو القاسم ، عمر بن عبد الرحمن القزويني ، المتوفى سنة ٦٩٩ هـ ، وأسماه «مختصر شعب الإيمان».^١

واختصره أيضاً الشيخ خالد عبد الرحمن العاك في مجلد واحد ، وأسماه «صحيح شعب الإيمان».^٢

وكذلك الإمام الحافظ أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبراني الالكائي ، فقد جمع شعب الإيمان في كتابه العظيم «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم» ، وبوب له: «باب ذكر الخصال المعدودة من الإيمان ، المروية في الأخبار».^٣

ومن ألف من المؤخرین في شعب الإيمان سراج الدين ، عمر بن رسان البليقني ، المتوفى سنة ٨٠٥ هجرية ، وهو من شيوخ ابن حجر وأبي زرعة العراقي رحمهما الله ، واسم كتابه «ترجمان شعب الإيمان».^٤

^١ نشرته دار البيان – دمشق ، بتحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط رحمه الله.

^٢ وهو من منشورات المكتب الإسلامي.

^٣ يقع في الصفحات ٩٨١ – ١٠١١ .

^٤ قام بتحقيقه د. سعود بن عبد العزيز الدعحان ، ونشرته مكتبة العلوم والحكم بالمدينة النبوية.

فصل في علامات صدق الإيمان

وليعلم أن علامة صدق الإيمان بالله تعالى وكماله ؛ تمام الإنقياد لشريعته ، وعدم تقديم هوى النفس والشيطان وآراء الرجال عليها ، كما قال تعالى ﴿فَلَا وَرِبَّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمُوكُمْ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرْجًا مَا قُضِيَتْ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيْمًا﴾^١.

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله: وهذا شامل لتحكيمه^٢ في أصول الدين ، وفي فروعه ، وفي الأحكام الكلية ، والأحكام الجزئية.^٣

وقال الحسن البصري رحمه الله: إن الإيمان ليس بالتمني ولا بالتحلي ، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال.^٤

ومن علامات صدق الإيمان وكماله ؛ تقديم محبة النبي ﷺ على محبة الناس أجمعين ، كما قال ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى تكون أحب إليه من والده ووالدته والناس أجمعين.^٥

ومن دلائل صدق الإيمان وكماله ؛ الحب والبغض لله ، والعطاء والمنع لله ، والدليل على هذا قول النبي ﷺ : من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع الله ؛ فقد استكمل الإيمان.^٦

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله: اشترط فيها كلها الإخلاص ، الذي هو روح الإيمان ولبّه وسره.^٧

فالحب في الله ؛ أن يحب الله ، ويحب ما يحبه من الأعمال والأوقات والأزمان والأحوال ، ويحب من يحبه من أنبيائه وأتباعهم.

^١ سورة النساء: ٦٥ .

^٢ أي النبي ﷺ ، والمقصود بتحكيمه تحكيم شريعته.

^٣ «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» ، ص ٣٩ ، بتصرف يسير.

^٤ رواه عبد الله بن المبارك في «الزهد» (١٥٦٥) ، واللفظ له ، وابن أبي شيبة في «كتاب الإيمان» (رقم ٩٣) ، والإمام أحمد في «الزهد» (٢٦٣) من زوائد عبد الله على مسنده أبيه ، نشر عبد الرحمن بن قاسم ، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» ، في كتاب الإيمان ، أثر رقم (١٠٩٤) ، والخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» ، ص ٤٢ – ٤٣ ، وزاد: من قال خسنا وعمل غير صالح رده الله على قوله ، ومن عمل حسنا وعمل صالحا رقعاً العمل ، وذلك بأن الله تعالى يقول ﴿إِلَيْهِ يَصْعُدُ الْكَلْمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يُرَفَّعُ﴾.

^٥ رواه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤) عن أنس رضي الله عنه.

^٦ رواه أبو داود (٤٦٨١) عن أبي أمامة رضي الله عنه ، وحسنه الألباني في «الصحيحه» (٣٨٠).

^٧ وعن سهل بن معاذ الجهني عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ : من أعطى الله تعالى ، ومنع الله ، وأحب الله ، وأبغض الله ، وأنكر الله ؛ فقد استكمل إيمانه.

رواه الترمذى (٢٥٢١) وأحمد (٤٤٠/٣) ، وحسن إسناده الألبانى رحمه الله.

والبغض في الله ؛ أن يبغض كل ما أبغضه الله من كفر وفسق وعصيان ، ويبغض من يتصرف بها أو يدعها إليها.^١

وأما قوله ﷺ (واعطى الله ومنع الله) فقال ابن تيمية رحمه الله: (أعطوا من يحب أن يعطي ، ومنعوا من يحب أن يمنع).^٢

قلت: أي أن يقصد ببنفقاته وجه الله ، من صدقة ونفقة على عيال ، وغير ذلك من النفقات الواجبة والمستحبة.

والمنع لله هو الإمساك عن النفقات المحرمة ، فيمسك العبد عنها خوفا من الله لا خوفا من الناس ، من شرطة أو حسبة ونحوها.

وقال الملا علي القاري رحمه الله في «مرقاة المفاتيح»: وكذلك سائر الأعمال ، فتكلّم الله ، وسكت الله ، واحتلّ بالناس الله ، واعتزل عن الخلق الله ، كقوله تعالى «إن صلاتي ونسكي ومحايي وماتي الله»^٣ ، وإنما خص الأفعال الأربع لأنها حظوظ نفسانية ، إذ قلما يُحَضِّرها الإنسان الله ، فإذا مَحَضَها مع صعوبة تمحيضها كان تمحيض غيرها بالطريق الأولى ، ولذا أشار إلى استكمال الدين بتمحيضها بقوله (فقد استكمل الإيمان) أي أكمله.^٤

وقال ابن رجب^٥ رحمه الله:

ومتي كان حبه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهو نفسي ؟ كان ذلك نقصا في إيمانه الواجب ، فيجب عليه التوبة من ذلك والرجوع إلى اتباع ما جاء به الرسول ﷺ ، من تقديم محبة الله ورسوله وما فيه رضا الله ورسوله على هو النفس ومرادها كلها.^٦

^١ «التوضيغ والبيان لشجرة الإيمان» ، ص ٤٧ .

^٢ «مجموع الفتاوى» (١١/٦٠).

^٣ سورة الأنعام: ١٦٢ .

^٤ أي يُحَصِّرها. انظر «لسان العرب».

^٥ (١٨٥/١) ، باختصار يسير ، الناشر: دار الكتب العلمية ، ط ١ .

^٦ هو زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد البغدادي ثم الدمشقي المعروف بابن رجب المحتلي ، من علماء الشام الأفذاذ ، عاش في القرن الثامن الهجري ، بلغ عدة شيوخه أربعين شيخا ، منهم ابن القيم وابن عبد الهادي رحمهما الله ، بُرِزَ في الحديث والفقه فصار من أعلام المذهب المحتلي ، له مؤلفات عديدة أبرزها «فتح الباري شرح صحيح البخاري» ، و«القواعد الفقهية» و«شرح علل الترمذ» و«جامع العلوم والحكم» ، و«ذيل طبقات المخاتلة». جمع بعض الباحثين رسائله المتفرقة في مجموع يقع في خمسة مجلدات ، ونشرتها دار الفاروق الحديثة بمصر. ترجم له ابن حجر رحمه الله في كتابه «إنباء الغمر» وابن العماد في «شذرات الذهب». توفي ابن رجب رحمه الله في دمشق سنة ٧٩٥ هـ .

^٧ «جامع العلوم والحكم» ، شرح الحديث الحادي والأربعين.

فصل في بيان أسباب قوة الإيمان

الأسباب التي يحصل بها قوة الإيمان خمسة:

١. طلب العلم الشرعي ، بتدبر آيات القرآن ومعرفة تفسيرها ، وكذا أحاديث النبي ﷺ ، وذلك أن التّسقّفه في الكتاب والسنة يُعرّف العبد بربه ويُعرّفه بدينه ، فيخشى من الخالق ، فيندفع إلى العمل طالبا رضا الله سبحانه وتعالى ، فيزداد إيمانه.

٢. العلم بالله تعالى ، بمعرفة أسمائه وصفاته الواردة في الكتاب والسنة.^١

٣. التأمل في آيات الله الكونية ، وذلك أن النظر والتفكير في الكون العظيم ، باتساعه وإحكامه ؛ دليل على عظمة خالقه ، وهذا يدعو المؤمن إلى تعظيم ذلك الخالق وشكوه واللهم بذكره والاجتهاد في عبادته وإخلاص الدين له.

وكذلك النظر في فقر المخلوقات إلى الله ، وعدم استغنائها عنه طرفة عين ، سواء كانوا من بني آدم أو البهائم أو الجمادات ؟ فكل هذا يوجب للعبد مزيدا من الخضوع والتذلل بين يدي العزيز ، بطلب ما يحتاجه من منافع دنيوية ، كما يوجب له مزيدا من التوكل على الله وشدة الطمع في بره وإحسانه ، فيزداد تعلق العبد بربه ، وتقريره إليه ، فيزداد إيمانا إلى إيمانه.

٤. فعل الطاعات ، وأول ذلك أداء الفرائض ، كالصلوة والزكاة والصيام والحج ، ثم أداء النوافل كذلك سبحانه تعالى ، بالمحافظة على أذكار الصباح والمساء ، وقراءة القرآن ، والتسبيح والتهليل والتحميد والتکبير ، وفي الحديث أن رجلا قال للنبي ﷺ : يا رسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت على ، فمُرني بأمر أتشبّث به.

فقال: لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله.^٢

ويدخل في النوافل نوافل الصلاة والصدقة والصيام والحج.

^١ ومن المؤلفات التي تُعنى بالتعريف والشرح لأسماء الله وصفاته:

١. كتاب «النھج الأسمی» في شرح أسماء الله الحسنى للشيخ محمد بن حمود النجدي ، الناشر: مكتبة الإمام الذهبي - الكويت ، ويقع في ثلاثة مجلدات.

٢. كتاب «أسماء الله الحسنى» (مجموع كلام ابن القيم في هذا الباب) ، الناشر: دار الكلم الطيب - دمشق.

٣. كتاب «فقه الأسماء الحسنى» للشيخ عبد الرزاق العباد البدر ، الناشر: دار التوحيد - الرياض.

٤. كتاب «صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة» لعلوي بن عبد القادر السقاف ، الناشر: دار الحجرة - الثقبة ، السعودية.

^٢ رواه أحمد (٤/١٩٠) وابن ماجه (٣٧٩٣) عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه ، وصححه الألباني ، وكذا محققون «المستند».

ومن الطاعات المقوية للإيمان ؛ الإحسان إلى المخلوقين ، بطيب الكلام ، والصدقة على الفقير ، وصلة الرحم ، وبر الوالدين ، والإحسان إلى الجيران ، ونحو ذلك.

ومن أعظم وجوه الإحسان إلى المخلوقين دعوئهم إلى دين الله ، سواء كانوا كفاراً أو مؤمنين ، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: فوالله لئن يهدى الله بك رجلاً واحداً خيراً لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعْمٍ.^١

وذلك أن دعوة المخلوقين إلى الله سبب لجاجتهم يوم القيمة من العذاب ودخولهم الجنة ، وهل هناك إحسان إلى المخلوقين أعظم من هذا الإحسان؟

كذلك ، فإن الجزء من جنس العمل ، فكما سعى ذاك الداعي إلى تكميل العباد ونصحهم وتوصيتهم بالحق ، وصَرَّ على ذلك ؛ فإن الله يجازيه من جنس عمله ، ويؤيده بنور منه وروح وقعة إيمان وقوه توكل.^٢

قلت: ويدخل في الإحسان إلى المخلوقين الإحسان إلى البهائم ، فإن الإحسان إليها من وجوه البر ، وكل ما كان من الأعمال الصالحة فإنه سبب لتقوية الإيمان.

٥. ومن أسباب تقوية الإيمان الكف عن ثلاثة: المعاصي والبدع والإصغاء للشبهات ، فأما المعاصي فقد ثبت عن النبي ﷺ أنها تضعف الإيمان جداً ، لاسيما إن كانت من الكبائر ، كما في الحديث أن النبي ﷺ

قال: والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن.

قيل: ومن يا رسول الله؟

قال: الذي لا يؤمن جاره بواقه.^٣

أي لا يؤمن الإيمان الكامل ، وإنما يكون مؤمناً ناقص الإيمان ، فإن أذى الحمار وشرب الخمر ونحوها تعد من الكبائر التي لا توجب خروج الإنسان من الإيمان باتفاق أهل السنة ، وإنما توجب نقصانه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يتهب نحبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين يتهبها وهو مؤمن.^٤

^١ رواه البخاري (٣٧٠١) عن سهل بن سعد رضي الله عنه ، وحر النَّعْم هي من ألوان الإبل المحمودة ، وقيل في المراد بالحديث أي خير لك من أن تكون لك فتصدق بها ، وقيل: خير لك من أن تقتليها وتعلكها.

انتهى المقصود من شرح الحديث لابن حجر في «فتح الباري».

^٢ قاله ابن سعدي في «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» ، ص ٩١ ، بتصرف بسيط.

^٣ تقدم تخرجه.

^٤ رواه البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧).

أي لا يكون كامل الإيمان ، بل ناقص الإيمان.

وأما الإصغاء إلى الشبهات فإن ضرره على قلب العبد المؤمن وعقله أشد من ضرر المعاصي ، وذلك أن مؤدي الإصغاء إلى الشبهات تغيير مفاهيم الدين الصحيحة وقلبها ، ومن ثم يضعف الإيمان وربما آل الأمر إلى زواله إذا كانت الشبهة مُكَفَّرة .

وسبب التعلق بالشبهات يعود إلى أمرين ؛ إما التعلق بأحاديث ضعيفة أو موضوعة ، أو التعلق بشبهات عقلية ليس لها مستند في الكتاب والسنة ، يعارض بها مدلول الكتاب والسنة ، والمعصوم من عصمه الله عز وجل.

وليس بخاف على من اطلع على تاريخ الفرق أن اتباع الشبهات كان هو السبب في تفرق المسلمين وانقسامهم إلى فرق ، والواجب على المؤمن إذا عرضت له شبهة أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم أولاً ، ثم يسأل أهل العلم الراسخين عن جواب تلك الشبهة ، ليمحوا أثرها من قلبه ، ويكون عنده مناعة ضدها ، وبصيرة بالحق ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقُوا إِذَا مَسْهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا إِذَا هُمْ مَبْصُرُونَ﴾^١.

فصل في أقسام الناس بحسب الإيمان

اعلم رحمني الله وإياك أن الله تعالى قسم المؤمنين في سورة فاطر إلى ثلات مراتب ، مرتبة السابقين ومرتبة المقتضدين ومرتبة الظالمين لأنفسهم ، قال تعالى ﴿ثُمَّ أُورثَنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطُفَنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ

ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَضِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِأَذْنِ اللَّهِ﴾^٢ ، فأما السابقين فهم الذين فعلوا الفرائض والنوافل ، وتركوا المحرمات والمكرهات ، جعلنا الله منهم.

وأما المقتضدون ، فهم الذين فعلوا الفرائض واجتنبوا المحرمات ، ولكنهم لم يجتهدوا بالنوافل وترك المكرهات.

وأما الظالمون لأنفسهم فهم المؤمنون الذين كان عندهم إيمان ولكنهم وقعوا في الكبائر أو أصرروا على الصغائر ، فهؤلاء يُطهرون من معاصيهم في النار ، ثم يدخلون الجنة ، إلا أن يغفوا الله عنهم ، وذلك أن الله أذن ألا تدخل الجنة إلا نفس طاهرة.

ويدخل في القسم الثالث أهل البدع الغير مكفرة ، عيادة بالله من ذلك.

^١ سورة الأعراف: ٢٠١ .

^٢ سورة فاطر: ٣٢ .

أما الكفار فليسوا من هذه الأقسام البتة ، ولا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها ، وذلك أن الله حرم على الجنة أن تدخلها نفس كافرة.

ويتفاوت أهل كل مرتبة من المراتب الثلاث في إيمانهم تفاوتاً كبيراً.

فصل في فوائد الإيمان

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله: إذا ثبتت شجرة الإيمان في القلب ، وقويت أصولها ، وتفرعت فروعها ، وزهرت أغصانها ، وأينعت أفنانها ؛ عادت على أصحابها وغيره بكل خير عاجل وآجل.^١

قلت: وفوائد الإيمان كثيرة ، ولكنها تعود إلى ستة ، فأولها الاغباط بولاية الله لذلك المؤمن ، والولاية هي النصرة والمدافعة والمغبة الخاصة ، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿الله ولِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^٢.

ومما كان الله ولِيَ المؤمنين ؛ جعل الله لهم نوراً يمشون به ، فيهتدون به في دنياه معرفة ما ينفعهم وما يضرهم ، فلذا تجد المؤمن يبتعد عما يضره في دنياه وآخرته ، بخلاف ضعيف الإيمان أو عديمه ، فإنك تجده واقع فيما يضره في آخرته صباحاً ومساءً ، كأنه أعمى ، أو مبصر ولكنه يمشي في الظلمات ، فيصطدم بما يضره ، وصدق الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ وَلَا تَكُونُوا كَفَّارٍ لَكُمْ نُورٌ تَمْشُونَ بِهِ وَلَا يَغْفِرُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^٣.

ومما كان النور مصاحباً للمؤمنين ؛ كان المهدى والفلاح مصاحباً لهم أيضاً ، كما قال تعالى في وصف المؤمنين في أول سورة البقرة ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدَىٰ مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ، وقال تعالى ﴿اللَّهُ ولِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

وولاية الله للمؤمن ، وإمداده بالنور يستمر إلى يوم القيمة ، حيث يُمْدُدُ الله بالنور الحسي ، يجُوز به الصراط المضروب على متن جهنم حتى يصل للجنة ، فتبشره الملائكة بها ، قال تعالى ﴿يَوْمَ تُرَى الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بِشَرَكِمِ الْيَوْمِ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^٤.

وثاني تلك الفوائد دفع المكاره عنهم ، وتنجيتهم من الشدائيد ، وذلك أن الله ولِيَهم ، ومن كان الله ولِيهِ فإن الله يدفع عنه السوء والمكره قبل نزوله ، أو يخففه عنه بعد نزوله ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ

^١ انظر «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» ، ص ٩٩ .

^٢ سورة البقرة: ٢٥٧ .

^٣ سورة الحديد: ٢٨ .

^٤ سورة الحديد: ١٢ .

^٥ وانظر ما قاله العلامة الشنقيطي رحمه الله في كتابه «أصوات البيان» في ثمرات ولاية الله تعالى للمؤمنين في تفسير الآية ٢٥٦ من سورة البقرة ، والآية ١٩ من سورة الجاثية.

الذين آمنوا^١ ، وقال تعالى ﴿وَمَنْ يَتَقَبَّلُهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾^٢ ، وقال ﴿وَمَنْ يَتَقَبَّلُهُ مِنْ أَمْرِهِ يُجْعَلُ لَهُ مُخْرَجًا﴾^٣.

وفي الحديث: تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة.^٤

وثالث تلك الفوائد هو الحياة الطيبة في الدنيا ، قال تعالى ﴿مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ مِّنْ ذَكْرِهِ أَوْ أَنْشَأْتِهِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنْ يُحِينَهُ حَيَاةٌ طَيِّبَةٌ وَلَنْ يُحِينَهُمْ أَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^٥ ، وذلك أن الإيمان يشمل طمأنينة في القلب ، وراحة ، وقناعة بما رزق الله ، ورضا بما قدر الله ، وصدق الله إذ يقول ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يَؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾^٦ ، قال ابن حجرير الطبرى^٧ في تفسير الآية: يوفق الله قلبه ، بالتسليم لأمره والرضا بقضاءه.

وقال النبي ﷺ: عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له.^٨

فالإيمان يُسْتَلِّي صاحبه عند المكاره والمصائب ، وهذه من أفضل الفوائد في الدنيا ، بخلاف ضعيف الإيمان أو عديمه ، فإنه لا يزال ساخطاً سواء قل رزقه أو كثر ، متنكداً إذا أصابه مكروه ، لا يشعر باجتماع قلبه ، بل قلبه دوماً في شَعْثٍ^٩ وتفرقٍ ، وصدق من قال: إن للقلب شَعْثاً لا يُلْمُه إلا الإقبال على الله.

ومن دلائل الحياة الطيبة التي تكفل الله بها للمؤمنين ؛ الأمان في الدنيا والآخرة ، دل على ذلك قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْآمِنُونَ﴾^{١٠} ، وقوله ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^{١١} ، والمقصود بالأمان هنا هو الأمان مما مضى وما يُستقبل ، فلا يضيع عليهم شيء من حسناتهم ، وما أصابهم الله به من مصائب فإن الله يعوضهم بدها حسناً يوم القيمة.

^١ سورة الحج: ٣٨ .

^٢ سورة الطلاق: ٤ .

^٣ سورة الطلاق: ٢ .

^٤ رواه أحمد (٣٠٧/١) ، وصححه محققو «المسنن».

^٥ سورة النحل: ٩٧ .

^٦ التغابن: ١١ .

^٧ هو العالم المحتهد المحدث الفقيه المقرئ المفسر ، علامه وقته ، محمد بن حمير بن يزيد ، أبو جعفر الطبرى ، مات سنة ٣١٠ ، انظر ترجمته في «السير» (٤/٢٦٧) ، و«وفيات الأعيان» (٤/٩١-١٩٢).

^٨ رواه مسلم (٢٩٩٩) عن صالح بن سنان رضي الله عنه.

^٩ الشَّعْثُ هو التفرق. انظر «لسان العرب».

^{١٠} الأنعام: ٨٢ .

^{١١} الأنعام: ٤٨ .

كذلك فإن المؤمنين يؤمنون ويسرون عند نزع أرواحهم ، كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزُنُوا وَأَبْشِرُوهُم بِالْحَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تَوْعِدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزْلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾^١ . قوله ﴿أَلَا تَخَافُوا﴾ أي على ما تقدِّمون عليه بعد ماتكم ، قوله ﴿أَلَا تَحْزُنُوا﴾ أي على ما تخلُّفونه وراءكم . قاله ابن جرير في تفسير الآية .

كذلك فإن المؤمنين يؤمنون يوم القيمة من الفزع ، كما قال تعالى ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزعُ الْأَكْبَرُ وَتَلَاقُهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمَكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تَوْعِدُونَ﴾^٢ .

ومن دلائل الحياة الطيبة التي يغتنط بها المؤمنون في الدنيا ؛ بشاشة الإيمان في قلوبهم ، وشعورهم بالنور في صدورهم ، مما يحدث سعادة دائمة ، وراحة قلبية مستمرة ، كيف لا ، وقد صرَّح صاحب الشريعة بأن للإيمان حلاوة في القلب ، كما في قوله ﴿ثَلَاثٌ مِّنْ كُنْ فِيهِ وَجَدَ حلاوةَ الإِيمَانِ ... الْحَدِيثُ﴾^٣ .

ومن دلائل الحياة الطيبة التي ينعم بها المؤمنون في الدنيا سعة الرزق ، قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بِرَكَاتَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^٤ .

ومن دلائل الحياة الطيبة التي ينعم بها المؤمنون في الدنيا التمكين في الأرض ، والاعتزاز بين الأمم الأخرى ، قال تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيُسْتَحْلِفُوكُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَحْلَفْتُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَمْ يُمْكِنْ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِينَ ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيَبْدَلُنَّهُمْ مِّنْ بَعْدِ خُوفُهُمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يَشْرُكُونَ بِي شَيْئًا﴾^٥ .

ورابع ثمرات الإيمان محبة المؤمن لذلك المؤمن ، ومصدق ذلك في كتاب الله قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^٦ ، قال ابن حجر الطبرى رحمه الله في تفسير الآية :

وُدًّا في الدنيا في صدور عباده المؤمنين .
وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إذا أحب الله عبدا؛ نادى جبريل: إني قد أحببت
فلانا فأحببه .

قال: فینادي في السماء، ثم تنزل له الحبة في أهل الأرض، فذلك قول الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ .

^١ سورة فصلت: ٣٠ - ٣٢ .

^٢ سورة الأنبياء: ١٠٣ .

^٣ رواه البخاري (١٦) ومسلم (٤٣) عن أنس رضي الله عنه .

^٤ سورة الأعراف: ٩٦ .

^٥ سورة النور: ٥٥ .

^٦ سورة مرثیم: ٩٦ .

وإذا أغضب الله عبدا نادى جبريل^١: (إني قد أبغضت فلانا) ، فينادي^٢ في السماء^٣ ، ثم تنزل له البغضاء في الأرض.^٤

قلت: وهلذا تجد للمؤمن ثناء عليه في حياته وبعد موته.

وخامس ثمرات الإيمان السّمّت^٥ الحسن الذي يُرِّينَ الله به المؤمن في كلامه وسلوكه ومنظره ، فإن للإيمان نورا في الوجه ، وهو المقصود بقوله تعالى ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾^٦ ، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿سيماهم في وجوههم﴾ قال: السّمّت الحسن. وقال ابن سعدي رحمه الله في تفسير الآية: أي قد أثّرت العبادة من كثرتها وحسّنتها في وجوههم حتى استنارت ، لما استنارت بالصلوة بواطنهم استنارت بالجلال ظواهرهم.

وسادس تلك الفوائد الفوز برضاء الله تعالى ودخول الجنة في الآخرة ، قال تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمُسَاكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرَضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^٧.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدّرّي^٨ الغابر^٩ من الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم. قالوا: يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم.

قال: بلى ، والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين.^{١٠}

وخلاصة القول إن الإيمان شجرة ، عروقها أركان الإيمان الستة ، وساقها شرائع الإسلام ، وثمارها الحياة الطيبة في الدنيا ، والجنة في الآخرة ، جعلنا الله من حق الإيمان ، ودخل جنة الرضوان ، آمين.

^١ أي نادى الله عز وجل جبريل.

^٢ أي جبريل.

^٣ أي ينادي: إن الله يبغض فلانا فأبغضوه.

^٤ رواه الترمذى (٣١٦١) ، وصححه الألبانى رحمه الله.

^٥ السّمّت هو المبيعة والمنظار. انظر «لسان العرب».

^٦ سورة الفتح: ٢٩ .

^٧ سورة التوبه: ٧٢ .

^٨ الدرّي أي الشديد الإضاعة.

^٩ الغابر أي الذاهب الآفل للغروب.

^{١٠} رواه البخارى (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١).

الركن الأول: الإيمان بالله

الإيمان بالله تعالى يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى

الثاني: الإيمان بربوبيته

الثالث: الإيمان بألوهيته

الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته

تفصيل

الأول: الإيمان بوجود الله سبحانه وتعالى

دل على وجوده تعالى الفطرة والعقل والشرع والحس.

أما دلالة الفطرة على وجوده تعالى فإن كل خلوق قد فطر على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير أو تعليم ، ومصداق هذا من كتاب الله قوله ﴿وَإِذْ أَحْزَبَ رِبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مَا ظَهَرَ لَهُمْ وَأَسْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلْسُتْ بِرِبِّكُمْ قَالُوا بَلِّي شَهَدْنَا﴾^١.

ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من طرأ على قلبه طارئ ، لقول النبي ﷺ : ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يُمجسانه.^٢

ولهذا نجد أن الإنسان بطبيعته وفطرته وبدهيته إذا أصابه الضُّرُّ قال (يا الله) ، وقد ذُكر عن بعض الملاحدة أنه إذا أصابه شيء قال على فلتات لسانه (يا الله) من غير أن يشعر ، لأن فطرة الإنسان تدلle على وجود رب عز وجل.

في هذه الآية تدل على أن الإنسان مجبر بفطرته على وجود الله.

وقد أقر المشركون في عهد النبي ﷺ بوجود الله تعالى ، كما قال تعالى عنهم ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^٣ ، والآيات في هذا الباب كثيرة.

^١ سورة الأعراف: ١٧٢ .

^٢ رواه البخاري (١٣٥٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

^٣ سورة الزخرف: ٨٧ .

وأما دلالة العقل على وجود الله تعالى فلأن هذه المخلوقات سابقتها ولاحقها لابد لها من خالقٍ أوجدها ، إذ لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها لأن العدم لم يخلق نفسه ، فإنه قبل وجوده معدوم ، فكيف يكون حالًا لغيره من الموجودات؟!

كذلك فإن وجود تلك المخلوقات صدفة بغير مُوجَدٌ ممتنع لسبعين ؛ الأول: أن كل حادثٍ لابد له من مُحدِثٍ ، دلَّ على ذلك العقل والشرع ، قال تعالى ﴿أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أُمْ هُمُ الْخالقُون﴾^١.

والثاني: أن وجودها على هذا النظام البديع ، والتناسق المتألف ، والارتباط الملائم بين الأسباب ومسبباتها ، وبين الكائنات بعضها مع بعض ، بلا اضطراب ولا تصدام ؛ يمنع منعًا باتًّا أن يكون وجودها صدفةً من غير مُوجَدٍ ، إذ الموجود صدفة ليس على نظام في أصل وجوده ، فكيف يكون منتظمًا حال بقاءه وتطوره؟! استمع إلى قول الله تعالى ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَدْرِكَ النَّهَارَ وَلَا اللَّيلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلُّ فِلَكٍ يَسْبِحُون﴾^٢.

يُذكر عن أبي حنيفة رحمه الله – وكان معروفاً بالذكاء – أنه جاءه قوم من الملاحدة الْدَّهْرِيَّةٌ؛ ويُسمَّون بالسُّمَّانِيَّةٍ^٣ الذين ينكرون وجود الخالق جل وعلا ، وكان أبو حنيفة رحمه الله سيفاً على الْدَّهْرِيَّة ، وكانوا ينتهزون الفرصة ليقتلوه ، فيبينما هو يوماً في مسجده قاعدٌ إذ هجم عليه جماعة بسيوف مسلولة وهموا بقتله ، فقال لهم: أجيبيوني عن مسألة ثم افعلوا ما شئتم.

قالوا له: هات.

فقال: ما تقولون في رجل يقول لكم إني رأيت سفينتين مشحونتين بالأحمال ، مملوءة من الأثقال ، قد احتوشتُهما^٤ في لُحْجَةِ الْبَحْرِ^٥ أمواجٌ متلاطمةٌ ، ورياحٌ مختلفةٌ ، وهي من بينها تجري مستوية ، ليس لها ملاح يجريها ، ولا متعهد يدفعها ، هل يجوز ذلك في العقل؟

قالوا: لا ، هذا شيء لا يقبله العقل.

^١ سورة الطور: ٣٥ .

^٢ سورة يس: ٤٠ .

^٣ انظر في هذا الباب كتاب «إبداع الخالق في نظم خلقه دليل على وحدانيته» ، للشيخ عبد العزيز بن عبد الله الزهراني ، الناشر: دار التوحيد – الرياض.

^٤ الْدَّهْرِي – بفتح الدال وتشديدها – هو الملاحد الذي لا يؤمن بالآخرة ، والْدَّهْرِي – بضم الدال وتشديدها – هو الرجل المُسِّين. انظر «لسان العرب» ، مادة: دهر.

^٥ السُّمَّانِيَّةُ^٦ قوم من أهل الهند ذُهْرِيون ، وقال الجوهري: فرقه من عبادة الأصنام تقول بالتناسخ وتذكر وقوع العلم بالأخبار. انتهى المراد من «لسان العرب» ، مادة: سمن.

^٦ أي أحاطت بها وجعلتها في وسطِها. انظر «لسان العرب» ، مادة: حوش.

^٧ لُحْجَةُ الْبَحْرِ^٧ أي وسطه حيث يكثر ماؤه ولا ثرى اليابسة منه.

فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله ، إذا لم يجز في العقل سفينه تجري في البحر ، مستوية من غير متعهد ولا مجري ؛ فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أعمالها وسعة أطراها وتبانٌ أكناها^١ من غير صانع وحافظ؟!

فبكوا جميعاً وقالوا: صدقت ، وأغمدوا سيوفهم وتابوا.

وسئل الشافعي رضي الله عنه: ما الدليل على وجود الصانع؟
فقال: ورقة التوت ، طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم؟
قالوا: نعم.

قال: فتأكلها دودة القرز^٢ فيخرج منها الإبريسم^٣ ، والنحل فيخرج منها العسل ، والشاة فيخرج منها البعير^٤ ، ويأكلها الطباء فيخرج منها المسك ، فمن الذي جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد؟!
فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا على يده ، وكان عددهم سبعة عشر.

وضرب أحمد بن حنبل رضي الله عنه مثلاً قلعة حصينة ملساء ، لا فُرْجة فيها ، ظاهرها كالفضة المذابة ، وباطنها كالذهب الإبريز^٥ ، ثم انشقت الجدران ، وخرج من القلعة حيوان سميك بصير.
وقد عَنِي بالقلعة: البيضة ، وبالحيوان: الفرج.

وسأله هارون الرشيد مالِكًا عن وجود الصانع ، فاستدل باختلاف الأصوات وتردد النغمات وتفاوت اللغات.

فهذه نقولات عن الأئمة الأربع في هذا الباب.

وسئل أعرابي فقيل له: بم عرفت ربك؟

فقال: البعرة تدل على البعير ، والروث على الحمير ، والأثر يدل على المسير ، فسماء ذات أبرايج ، وأرض ذات فجاج ، وبخار ذات أمواج ، ألا تدل على السميع البصير؟

وروى ابن هانئ^٦ في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟

قال: غَفَرَ لي بأبيات قلتها في التَّرْجِس ، وهي:

^١ أي أطراها.

^٢ القرز هو الحرير على الحال التي يكون عليها عندما يستخرج ، ودودة القرز أي دودة الحرير التي تسنج الحرير. انظر «المعجم الوسيط».

^٣ الإبريسم هو أحسن الحرير. انظر «المعجم الوسيط».

^٤ البعرة هي رجيع الغنم والإبل.

^٥ الإبريز هو الذهب الحالص. انظر «المعجم الوسيط».

^٦ وهو المكنى بأبي نواس.

إلى آثار ما صنع الملِكُ بأحداقٍ ^٢ كما الذهبُ السبيكُ ^٤ بأن الله ليس له شريكٌ	تأمل في نبات الأرض وانظر عيونٌ من لجينٍ ^١ شاخصاتٌ ^٢ على قصب الزيرجدٍ شاهداتٌ ^٥
--	---

وأن مُحَمَّداً عبدُ رَسُولٍ^٦ إلى الشَّقْلَيْنِ^٧ أرسَلَهُ الْمَلِكُ^٨

ومن عجائب خلق الله البعوضة ، فقد أودع الله فيها من الحكم الشيء الكثير ، فأودع الله فيها قوة الحافظة والفكير ، وحاسة اللمس والبصر والشم ، ومنفذ الغذاء ، وأودع فيها جوفاً وعروقاً ومخاً وعظاماً ، فسبحان من قدر فهدي ، ولم يترك شيئاً سدى.

قال أبو العلاء المَعَرِّي مبتهالاً:

في ظلمة الليل البهيم ^٩ الأليل ^٩ والمُحَمَّ من تلك العظام التُّحَلَّ ^{١١} متتفقلاً من مفصلٍ في مفصلٍ	يا من يرى مدَّ البعوضِ جناحها ويرى مناطَ ^{١٠} عروقها في تحرِّها ويرى خرير الدم في أوداجها ^{١٢}
--	--

^١ اللجين هو الفضة ، شبه الناظم زهرة النبات بما لا يُنكر تشبه الفضة في لونها. انظر «لسان العرب» ، مادة: لجن.

^٢ يقال شخص الرجل يبصره إذا فتح عينيه وحدَّ نظرة ورفع حفنه فلم يطير ، وقد وصف الناظم بعض الأزهار في إحدائقها بأنها شاخصات كعين الإنسان إذا شخصت وأحدقت ببصرها. انظر «لسان العرب» ، مادة: شخص.

^٣ الحَدَقَة تطلق على حدقة العين وهي سوادها ، وقد شبه الناظم تلك الأزهار بالأحدائق. انظر «لسان العرب» ، مادة: حدق.

^٤ سبيك أي مسيو، وهو الذهب المفرغ في قالب. انظر «لسان العرب» ، مادة: سبيك.

^٥ قُصْبُ جمع قضيب ، والمقصود غصن النبات ، والزيرجد هو الزُّمرُدُ ، جوهر معروف ، وقد وصف الناظم الغصن بالزمرد للمعانه وبريقه وبقاء منظره. انظر «لسان العرب» ، مادة: «قضب» ، و«زيرجد» ، وكذا «ختار الصحاح» للرازي ، مادة: «زيرجد».

^٦ الثقلان هما الإنسان والجن.

^٧ ذكر بعض المفسرين هذه القصص عن الشافعي وأحمد وهارون الرشيد وأبي نواس عند تفسير قوله تعالى في أول سورة البقرة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رِبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ﴾.

كما ذكر هذه الشواهد الفخر الرازي في الدلالة على وجود الصانع في كتابه «مفاتيح الغيب» (١٠٨/٢ - ١٠٩) ، الناشر: دار الفكر ، ط ١ ، سنة ١٤٠١ هـ .

^٨ البهيم هو الأسود الذي لا يخالطه لون آخر. انظر «اللسان» ، مادة: بحـمـ.

^٩ أليل أي شديد الظلمة. انظر «اللسان» ، مادة: ليل.

^{١٠} المناط من ناط أي علق ، يقال: ناط سلاحه بالشجرة أي علقه عليها ، والمناط هو ما يعلق فيه الشيء ، ومناط العروق في البيت المذكور هو ما تلتحم فيه العروق من جوانبها كأنها معلقة بها.

^{١١} التُّحَلَّ جمع تحليل أي رقيق ودقيق. انظر «لسان العرب» ، مادة: تحـلـ.

^{١٢} الودج عرق يجري فيه الدم. انظر «لسان العرب» ، مادة: ودج.

في ظلمة الأحشا بغیر تَمَقْلِ^١
 في سيرها وحيثها المستعجل
 في قاع بحر مظلم متھول^٢
 ما كان مني في الزمان الأول^٣

ويرى وصول غذى الجنين ببطنها
 ويرى مكان الوطء من أقدامها
 ويرى ويسمع حس ما هو دونها
 امُن على بتوبة تحوها

وعلى هذا فيقال ملئ جحد وجود الله في هذه الأزمنة: هل ما أنتج من الطائرات والصواريخ والسيارات والآلات بأنواعها م跣 صدفة؟

ولو حدثك شخص عن قصرٍ مشيدٍ ، أحاطت به الحدائق ، وجرت بينها الأنهر ، ومليء بالقرش والأسرة ، وزين بأ نوع الرزينة من مقوماته ومكملااته ، وقال لك : إن هذا القصر وما فيه من كمال قد أوجد نفسه ، أو وجد هكذا صدفة بدون موجد ؟ أكنت مصدقة؟ الجواب: لا ، قطعا.

أيجوز بعد ذلك أن يكون هذا الكون الواسع بأرضه وسمائه وأفلاكه وأحواله ونظامه البديع الباهر قد أوجد نفسه ، أو وجد صدفة بدون موجد؟!

والحاصل أنه إذا لم يكن أن توجد هذه المخلوقات نفسها بنفسها ، ولا أن توجد صدفة ؛ تعين أن يكون لها موجد ، وهو الله رب العالمين.

وقد ذكر الله تعالى هذا الدليل العقلي والبرهان القطعي في سورة الطور ، حيث قال ﴿أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالقُون﴾^٤ ، يعني أنهم لم يخلقوا من غير خالق ، ولا هم الذين خلقوا أنفسهم ، فتعين أن يكون خالقهم هو الله تبارك وتعالى.

ولهذا لما سمع جبير بن مطعم رضي الله عنه رسول الله ﷺ يقرأ سورة الطور فبلغ هذه الآيات ﴿أَمْ حَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالقُون﴾ * أَمْ حَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْفَقُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ حَرَائِنُ رَبِّكَ أَمْ

^١ المقلة هي سواد العين وبياضها ، والتقلة هو تقليل العين في المنظور إليه وتحقيق النظر فيها ، يقال: (تقلل في البضاعة) أي قلب نظره فيها ، ومقصود الناظم أن الله تعالى يرى ما في أحشاء البعوضة بغير كلفة.

^٢ أي كثير الأهوال.

^٣ ذكرها شهاب الدين أحمد الأ بشيبي في كتابه «المستطرف في كل فن مستطرف» (ص ٣٧٤) ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، ط ١ ، سنة ١٤١٣ هـ .

وكذا ذكرها الرمخشري مختصرة في تفسيره المعروف بـ«الكتاف» (ص ١١٦٨) ، بتحقيق: مصطفى حسين أحد ، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت ، ط ٣ ، سنة ١٤٠٧ هـ.

^٤ سورة الطور : ٣٥ .

هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ^١ ، وكان جبير يومئذ مشركاً ؛ قال : كاد قلبي أن يطير ، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي.^٢

فصل

وأما دلالة الشرع على وجود الله تعالى ؛ فالكتب السماوية كلها تنطق بذلك ، ولأن ما جاءت به من الأحكام المتضمنة لمصالح الخلق دليل على أنها من رب حكيم عليم بمصالح خلقه ، وكذا ما جاءت به من الأخبار الكونية التي شهد الواقع بصدقها دليل على أنها من رب قادر على إيجاد ما أخبر به.

وأيضاً فإن ائتلاف القرآن وعدم تناقضه وتصديقه بعضه ببعض ؛ يدل دلالة قاطعة على أنه من رب حكيم عليم ، قال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيرًا﴾^٣ ، فهذا دليل أيضاً على وجود من تكلم بالقرآن وهو الله تعالى.

فصل

وأما دلالة الحس على وجود الله فمن وجهين:

أحدهما: أنها نسمع ونشاهد من إجابة الداعين وغوث المكروبين ما يدل دلالة قاطعة على وجوده تعالى ، إذ أن إجابة الدعاء تدل على أن هناك ربا سمع دعاء من دعاه فأجابه ، فإنه لم يدع إلا الله ، قال الله تعالى ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلٍ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾^٤ ، وقال تعالى ﴿إِذْ تَشَغِّلُونَ رَبِّكُمْ فَاسْتَحَابَ لَكُمْ﴾^٥ . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رحلا دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر ، ورسول الله ﷺ قائم يخطب ، فاستقبل رسول الله ﷺ قائماً فقال: يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يغينا.

قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا.

قال أنس: ولا والله ، ما نرى في السماء من سحابٍ ولا قرْعَةٍ ولا شيئاً ، وما بيننا وبين سلْعٍ من بيته ولا دار ، قال: فطلع من ورائه^٦ سحابة مثل التُّرسِ^٧ ، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت ، قال: والله ما رأينا الشمس سَبْتاً.

^١ سورة الطور : ٣٥ - ٣٧ .

^٢ رواه البخاري مفرقاً ، (٤٨٥٣) ، (٤٠٢٣) .

^٣ سورة النساء: ٨٢ .

^٤ سورة الأنبياء: ٧٦ .

^٥ سورة الأنفال: ٩ .

^٦ القرعة هي القطعة من الغيم. انظر «النهاية».

^٧ سلْع اسم جبل بالمدينة.

ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ، ورسول الله ﷺ قائم يخطب ، فاستقبله قائما فقال: يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يمسكها.

قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام^١ والجبال والظّراب^٢ والأودية ومنابت الشجر.

قال: فانقطعت ، وخرجنا نمشي في الشمس.^٣

وما زالت إجابة الداعين أمراً مشهوداً من صدق في لجوئه إلى الله تعالى وأتى بأسباب الإجابة.

الوجه الثاني: أن آيات الأنبياء التي تسمى بالمعجزات ويشاهدها الناس أو يسمعون بها ؛ برهان قاطع على وجود مرسليهم ، وهو الله تعالى ، لأنها أمور خارجة عن نطاق البشر ، يجريها الله تعالى تأييداً لرسله ونصرًا لهم.

مثال ذلك: آية موسى ﷺ حين أمره الله تعالى أن يضرب بعصاه البحر ، فضربه فانفلق أثني عشر طریقاً يابساً ، والماء بينها كالجبال ، قال الله تعالى ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْ مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ كُلُّ فِرْقٍ كَالْطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾.^٤

ومثال ثان: آية عيسى ﷺ حيث كان يحيي الموتى ، ويخرجهم من قبورهم بإذن الله ، قال الله تعالى ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرِيمٍ اذْكُرْ نَعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى الَّذِي أَذْكَرْتَكَ بِرُوحِ الْقَدْسِ تَكَلَّمُ النَّاسُ فِي الْمَهَدِ وَكَهْلَا وَإِذْ عَلِمْتَكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالْتُّورَاةَ وَالْإِنْجِيلِ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهْيَةَ الطِّيرِ فَتَنْفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طِيرًا بِإِذْنِي وَتَبَرِّئُ الْأَكْمَهُ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرُجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾.^٥

ومثال ثالث حصل لمحمد ﷺ حين طلبت منه قريش آية ، فأشار إلى القمر ، فانفلق فرتين فرأاه الناس ، وفي ذلك نزل قوله تعالى ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرُوا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌ﴾^٦ ، فهذه الآيات المحسوسة التي يجريها الله تعالى تأييداً لرسله ونصرًا لهم ؛ تدل دلالة قطعية على وجوده تعالى.

^١ أي من وراء سلع.

^٢ الترس قطعة من الحديد مستديرة يُنقي بها المحارب السهام. انظر «النهاية».

^٣ قال ابن الأثير في «النهاية»: قيل: أراد أسبوعاً ، من السبت إلى السبت ، وقيل: أراد بالسبت مدة من الزمان قليلة كانت أو كبيرة.

^٤ الأكام جمع أكمة وهي الرأبة. انظر «النهاية». قلت: والرأبة معروفة ، وهي المكان المرتفع ، وتسمى بالربوة أيضاً.

^٥ الظّراب جمع ظّرّب ، وهو الجبل الصغير. انظر «النهاية».

^٦ أخرجه البخاري (١٠١٩) ومسلم (٨٩٧).

^٧ سورة الشعرا: ٦٣.

^٨ سورة المائدة: ١١٠.

^٩ سورة القمر: ٢ - ١.

ولما كان الإقرار بوجود الله أمراً فطرياً دل عليه الفطرة والحس ؛ قالت الرسل لأقوامهم ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌ فاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^١ ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسليهم من المجادلة ، وذلك أن أمهما لما واجهوه بالشك فيما جاءوه به من عبادة الله وحده لا شريك له ؛ قالت الرسل ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌ﴾ ، وهذا يتحمل شيئاً ، أحدهما: أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ومحبولة على الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضوري في الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب ، فتحتاج إلى النظر في الدليل المُوصل إلى وجوده ، وهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه ﴿فاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسيير ظاهر عليهما ، فلا بد لهما من صانع وهو الله لا إله إلا هو ، خالق كل شيء وإلهه ومليكه.

والمعنى الثاني في قولهم ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌ﴾ أي أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك ، وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له؟ فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ولكن تعبد معه غيره من الوسائل التي يظلونها تنفعهم أو ترعبهم من الله زلفى. انتهى.

وقال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله في تفسير نفس الآية: أي فإنه أظهر الأشياء وأجلها ، فمن شاك في الله ، فاطر السموات والأرض ، الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده ؟ لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات حتى الأمور المحسوسة ، وهذا خاطبهم الرسل خطاب من لا يُشك فيه ، ولا يصلح الريب فيه.^٢

^١ سورة إبراهيم: ١٠ .

^٢ «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان».

الثاني: الإيمان بربوبيته

الإيمان بربوبية الله تعالى يعني الإيمان بأن الله وحده هو رب لا شريك له ولا معين ، والرب: من له الخلق والملك والأمر – أي أمر تدبّر هذا الكون – ، فلا خالق إلا الله ، ولا مالك إلا هو ، ولا أمر إلا هو ، قال تعالى مبيناً انفراده بالخلق ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾¹ ، وقال ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾² ، وقال ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾³.

وأعظم ما خلق الله عشرة ، وهي السماوات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والناس والدواب والمطر والرياح ، وقد تمدح الله تعالى بخلقه كثيراً في القرآن لاسيما في أوائل بعض السور كسورة الحجية ، قال تعالى ﴿ حَمْ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبْثُثُ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقَنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحِيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقُلُونَ﴾.

ودليل انفراده بالملك قوله تعالى ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الدُّنْلِ وَكَبِيرًا﴾⁴ ، قوله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾⁵ ، قوله ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلَكُونَ مِنْ قِطْمَرٍ﴾⁶.

ودليل انفراده بالأمر قوله تعالى ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ ، وقال ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرْدَنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كَنْ فِي كُونِ﴾⁷ ، وقال ﴿يَدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرِجُ إِلَيْهِ﴾⁸ ، قوله ﴿وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾⁹.
وُسْئَلَ أَعْرَابِيًّا: بِمَ عَرَفْتَ رَبِّكَ؟

فقال: (بنقض العزائم وصرف الهمم) ، وصدق ذلك الأعرابي ، فالإنسان يعمّ أحياناً على الشيء وفي لحظة يجد نفسه قد نقض عزمه وعزم على تركه ، وقد يهم الإنسان بالشيء متوجهها إليه ثم ينصرف بدون سبب ، وهذا يدل على أن للأمور مدبراً فوق تدبّر الإنسان ، وهو الله عز وجل.

¹ سورة الأعراف: 54.

² سورة البقرة: 117.

³ سورة فاطر: 1.

⁴ سورة الإسراء: 111.

⁵ سورة الملك: 1.

⁶ سورة فاطر: 13.

⁷ سورة يس: 82.

⁸ سورة السجدة: 5.

⁹ سورة هود: 123.

فصل

• والأمر نوعان ؛ أمرٌ شرعيٌ ديني وأمرٌ كوني ، فأمره الشرعي الديني هو أمره المتعلق بالشائع والنبوات ، فإن الله هو وحده الذي يأمر بما شاء من الشائع ، وينسخ ما يشاء منها ، بحسب ما تقتضيه حكمته جلَّ وعلا ، وهو الذي يُشرِّع للناس ما يناسبهم وما يُصلح حالمهم ، وما هو مقبول عنده من العبادات والأعمال ، لأنَّه هو الخبير بحالهم ، العليم بما يصلحهم ، الرحيم بهم.

مثال ذلك أنَّ الله جلَّ وعلا نسخ شريعة موسى بشرعية عيسى ، ثم نسخ شريعة عيسى بشرعية محمد ﷺ ، وهي الإسلام ، وجعلها متضمنة لجميع ما في الشائع قبلها من المحسن وزاد عليها ، وألغى ما فيها من التكاليف الشديدة ، وجعلها شريعة سهلة ليس فيها حرج ولا صعوبة.

ومن ذلك أيضاً أنَّ في بعض الشائع التي سبقت شريعة الإسلام أنَّ الإنسان إذا أصاب ثوبه نجاسة (بول مثلاً) فعلَّيه أنَّ يُفْصَّل المكان المت忤س من ثوبه للتخلص من تلك النجاسة ، أما في شريعة الإسلام فيكفي غسل موضع النجاسة بالماء.

ومن ذلك أيضاً أنَّ في شريعة التوراة أنَّ من أراد أن يُصلِّي فعليه الذهاب إلى البيعة ، وكذلك في شريعة عيسى من أراد أن يُصلِّي فعليه الذهاب إلى الكنيسة ، أما في شريعة الإسلام فالإنسان له أن يُصلِّي في أي مكان شاء على وجه الأرض أو في السماء في الطائرة ، أو في البحر – في الباخرة.

ومن أوامر الله الشرعية الدينية أنَّ الله يأمر بالعدل والإحسان ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لِعْلَكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾¹.
وقال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤْدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾² ، أي نعم ما يعظكم الله به ويهديكم إليه.

• والنوع الثاني من أمر الله هو الأمر الكوني ، وهو المتعلق بتدبير أمور الكون ، فالله وحده هو الذي يأمر بجريان السحاب ونزول المطر والحياة والموت والرزق والخلق والتلازل وتفسير الكربارات ونهاية العالم ونحو ذلك من الأمور التي تحدث في الكون ، فإذا أمر الله بشيء منها حصل لا محالة ، لا مُغالب له ولا مُبطل ، كما قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا قَوْلَنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرْدَنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كَنْ فِي كُونِ﴾³ ، وقال تعالى ﴿وَمَا أَمْرَنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾

¹ سورة التحل: 90 .

² سورة النساء: 58 .

³ سورة التحل: 40 .

كلمك بالبصر¹ ، أي: وما أمرنا للشيء إذا أردنا حصوله إلا أن نقول قولهً واحدة وهي (كن) فيكون ذلك الشيء كلمك البصر ، لا يتآخر طرفة عين.

فالحاصل أن أمر الله ينقسم إلى نوعين ؛ أمرٌ كوني² ، وأمرٌ ديني شرعي ، يترتب عليه أحکام الجزاء يوم القيمة.²

فصل

وما يدل على تفرد الله سبحانه بالأمر ؛ قدرته تعالى على إجراء تأثير ذلك الأمر على خلاف العادة ، ومن ذلك أنه جعل النار بـردا وسلاما على إبراهيم عليه السلام ، قال الشنقيطي رحمه الله: ومن أصرح الأدلة في ذلك قوله تعالى ﴿قَنَا يَا نَارَ كُونِي بِرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾³ ، فطبيعة الإحرق في النار معنى واحد لا يتجرأ إلى معان مختلفة ، ومع هذا أحرقت الحطب فصار رمادا من حرها ، في الوقت الذي هي فيه كائنة بـردا وسلاما على إبراهيم ، فدل ذلك دلالة قاطعة على أن التأثير حقيقة إنما هو بمحضه خالق السماوات والأرض ، وأنه يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب ، وأنه لا تأثير لشيء من ذلك إلا بمحضه جل وعلا.

ومن أوضح الأدلة في ذلك أنه ربما جعل الشيء سبباً لشيء آخر مع أنه مناف له ، كجعله ضرب ميت بـنـي إسرائـيل بـعـضـ من بـقرـة مـذـبـوحـة سـبـباً لـحيـاته⁴ ، وضرره بـقطـعة مـيـتـة من بـقرـة مـيـتـة مناف لـحيـاته ، إذ لا تـكـسـبـ الحـيـاة من ضـرـبـ مـيـتـ ، وـذـلـكـ يـوـضـعـ آـنـهـ جـلـ وـعـلاـ يـسـبـ ماـشـاءـ منـمـسـبـاتـ عـلـىـ ماـشـاءـ منـأـسـبـابـ ، وـلـاـ يـقـعـ تـأـثـيرـ الـبـتـةـ إـلـاـ بـمـحـضـتـهـ جـلـ وـعـلاـ .⁵

انتهى كلامه رحمه الله.

فصل

¹ سورة القمر: 50 .

² انظر كلام ابن تيمية رحمه الله في الفرق بين الأمر الكوني والأمر الديني في كتابه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، ص 278 – 279 ، تحقيق: د. عبد الرحمن اليحيى، الناشر: دار الفضيلة – الرياض.

وانظر ما قاله الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿أَلَا لِهِ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ .
سورة الأعراف: 54 .

³ سورة الأنبياء: 69 .

⁴ انظر تفسير «أضواء البيان» ، عند قوله تعالى من سورة مرثيم ﴿وَهُزِئَ إِلَيْكَ بِهِجْرٍ النَّخْلَةُ تُساقطُ عَلَيْكَ رُطْبَانِ جَبِيجًا﴾ .

⁵ يشير إلى قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْرِءُوهُ إِلَيْهَا وَاللَّهُ مَخْرُجٌ مَا كَنْتُمْ تَكْسِمُونَ﴾ فقلنا أضربوه بعضها كذلك يحبه الله المولى⁶.

ولم يعلم أن أحداً من الخلق أنكر ربوبية الله سبحانه ، إلا أن يكون مكابرًا غير معتقد لما يقول ، كما حصل من فرعون حين قال لقومه ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾¹ ، وقال ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ عَيْرِي﴾² ، لكن ذلك ليس عن عقيدة ، بل عن تكبرٍ وتجبرٍ ، قال الله تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنْتُهَا أَنفُسُهُمْ ظَلْمًا وَعُلُوًّا﴾³ ، وقال موسى لفرعون فيما حکى الله عنه ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هُوَ لَكَ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرٌ وَإِنِّي لِأَظْنُكَ يَا فِرْعَوْنَ مَشْبُورًا﴾⁴.

فصل

وقد كان المشركون في عهد النبي ﷺ يُقْرُونَ بربوبية الله تعالى مع إشراكهم به في العبادة ، فأنكر الله عليهم ذلك ، لأن الإقرار بالربوبية لا يكفي للدخول في الإسلام حتى يضم إليه إفراده بالعبودية ، قال تعالى لنبيه حاثا له على أن يقول للمشركين المعرفين الله بالربوبية ، المشركين معه غيره في العبادة ﴿فُلْ لَمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ لَمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَسْقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلْكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِي وَلَا يُحْجِرُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾⁵.

فصل

وعودا على موضوع الخلق ، فيحسن هنا ذكر لفتة طيفة ، وهي أن الله تعالى خلق السماوات والأرض حكم جليلة وغايات عظيمة ، فذكر في بعض الآيات أنه خلقهما لإعلام حلقه أنه على كل شيء قادر ، وأنه حيط بكل شيء ، كما في قوله تعالى ﴿الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن لتعلموا أن الله على كل كل شيء قادر وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾⁶.

¹ سورة النازعات: 24.

² سورة القصص: 38.

³ سورة النمل: 14.

⁴ سورة الإسراء: 102.

⁵ سورة المؤمنون: 84 - 89.

⁶ انظر ما قاله ابن كثير في تفسير هذه الآيات ، وكذا ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير آية يوئيل: 31 ، وآية يوسف: 106 ، وآية الإسراء: 9 من ابتداء قوله: ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جل وعلا ... الخ.

⁷ سورة الطلاق: 12.

وذكر في أكثر المواضع من القرآن أنه خلقهما ليعلم الناس أنه هو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه ، كما في قوله تعالى في سورة البقرة ﴿إِنَّ الْهُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ثم قال بعدها ﴿إِنَّ فِي
خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنellar﴾ إلى آخر الآية.

وذكر في بعض الآيات أنه خلق السماوات والأرض ليتلي الناس كما في قوله تعالى في مطلع سورة هود ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أحسن عملا﴾.

وذكر في الآيات أنه خلق السماوات والأرض ليحرز الناس بأعمالهم كما في سورة النجم ﴿وَلِهُ مَا فِي السماواتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيحرزِ الَّذِينَ أَسَأُوا بِمَا عَمِلُوا وَلِيحرزِ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسْنَى﴾.

قال الشنقيطي رحمه الله: فقد يظن غير العالم أن بين هذه الآيات اختلافاً، مع أنها لا اختلاف بينها ، لأن الحكم المذكور فيها كلها راجع إلى شيء واحد ، وهو معرفة الله وطاعته ومعرفة وعده ووعيده ، فقوله ﴿تعلموا أن الله على كل شيء قادر﴾ و قوله ﴿عبدوا ربكم الذي خلقكم﴾ راجع إلى شيء واحد ، هو العلم بالله ، لأن من عرف الله أطاعه ووحده.

وهذا العلم يعْلَمُهُمُ اللَّهُ إِيَاهُ وَيُرْسِلُ لَهُمُ الرَّسُولَ بِمَا فِي أَعْلَمٍ لِّكُمْ مِّنْ هَذِهِ الْأُجْزَاءِ، وَيُحِيطُهُمْ بِمَا فِي أَعْلَمٍ لِّكُمْ مِّنْ هَذِهِ الْأُجْزَاءِ، فَالْتَّكْلِيفُ بَعْدُ الْعِلْمِ، وَالْجَزْءُ بَعْدُ التَّكْلِيفِ، فَظَاهِرٌ بِهَذَا اتِّفَاقُ الْآيَاتِ، لِأَنَّ الْجَزْءَ لَا يُبَدَّلُ لَهُ مِنْ بَيْنَةٍ، تَكْلِيفُ الْاِبْتِلَاءِ الْمَذَكُورُ فِي الْآيَاتِ، وَالتَّكْلِيفُ لَا يُبَدِّلُ لَهُ مِنْ عِلْمٍ، وَلِنَذَا دَلُّ بَعْضُ الْآيَاتِ عَلَى أَنَّ حُكْمَةَ الْخَلْقِ لِلْمُخْلوقَاتِ هِيَ الْعِلْمُ بِالْخَالقِ، وَدَلُّ بَعْضُهَا عَلَى أَنَّهَا الْاِبْتِلَاءُ، وَدَلُّ بَعْضُهَا عَلَى أَنَّهَا الْجَزْءُ، وَكُلُّ ذَلِكَ حَقٌّ لَا اخْتِلَافٌ فِيهِ، وَبَعْضُهُ مَرْتَبٌ عَلَى بَعْضٍ.

¹ انتهی، کلامه رحمه الله.

قلت: وهذا الذي وضّحه الشيخ رحمه الله من الحِكْمَةِ من خلق السماوات والأرض هو (الحق) الذي أشار الله تعالى إليه في قوله ﴿مَا خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجْلُ مُسْمَى﴾²، وقال ﴿وَمَا خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين * مَا خلقنا هُنَّا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُون﴾³، فقوله ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي حكم باهرة ، ليس عبشا ولا سدى ، وهي إفراده بالعبادة ، وليعلم الناس عظيم قدرته وسعه علمه وإحاطته ، وتکلیف الخلق وابتلاوهم ، ثم جزاؤهم في الآخرة بأعمالهم ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

¹ «أضواء البيان» ، سورة الذاريات ، تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا خلقتُ الْجِنَّا وَالْإِنْسَ إِلَّا يَعْبُدُونَ﴾.

سورة الأحقاف: 3²

٣ سورة الأنبياء: ١٦ - ١٧ .

«ولما ظن الكفار أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلًا ، لا لحكمة تكليف وجزاء وحساب ؛ هدّدهم بالويل من النار بسبب ذلك الظن السيء في قوله تعالى ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلًا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾¹.²

وقد نزه الله تعالى نفسه عن خلق السماوات والأرض عبثا ، كما نزه أولو الألباب رحمة سبحانه وتعالى عن ذلك كما في قوله تعالى في آخر سورة آل عمران ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلًا سبحانك فقنا عذاب النار﴾.

فالحمد لله على نعمة القرآن.³

¹ سورة ص: 27.

² قاله الشنقيطي رحمه الله في «أضواء البيان» ، تفسير سورة الأحقاف ، عند الكلام على قوله تعالى ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾.

³ انظر المرجع السابق فمعنى استفادت عامة ما ذكر من الحكمة من خلق السماوات والأرض ، وانظر كذلك كلامه في سورة الذاريات ، تفسير قوله تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

الثالث: الإيمان بألوهيته

الإيمان بألوهية الله يعني الإيمان بأنه وحده الإله الحق لا شريك له ، المستحق للعبادة دون من سواه ، ومعنى «الإله» أي المألوه ، وهو المعبد حبًّا وتعظيمًا ، قال الله تعالى ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^١ ، وقال تعالى ﴿شَهَدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمٍ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^٢ ، وكل ما اتُّخذ إلها يُعبد من دون الله أو مع الله فعبادته باطلة ، قال الله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾^٣.

فصل في براهين توحيد الألوهية

واعلم رحمك الله أن البرهان الأعظم على استحقاق الله تعالى لأن يُعبد وحده دون ما سواه هو تفرده تعالى بربوبية هذا الكون^٤ ، لا شريك له في ذلك ولا معين ، والرب هو من بيده الخلق والملك والرزق والأمر – أي أمر تدبیر هذا الكون – ، فلا خالق إلا الله ، ولا مالك إلا هو ، ولا رازق إلا هو ، ولا آخر إلا هو ، قال تعالى مبينا تفرده بالخلق ﴿أَلَا لَهُ الْخُلُقُ وَالْأَمْرُ﴾^٥ ، وقال تعالى ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^٦ ، بدیع أي مبدع^٧ ، والمعنى مُوجد السماوات والأرض.

وقال تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^٨ ، ومعنى فاطر أي موجد^٩.

ودليل انفراده بالملك قوله تعالى ﴿وَقُلْ حَمْدُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾^{١٠} ، وقوله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي يَبِدِئُ الْمُلْكَ﴾^{١١} ، وقوله تعالى ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْعَمِيرِ﴾^{١٢}.

^١ سورة البقرة: ١٦٣ .

^٢ سورة آل عمران: ١٨ .

^٣ سورة الحج: ٦٢ .

^٤ سيأتي ذكر براهين أخرى بعد هذا الفصل.

^٥ سورة الأعراف: ٥٤ .

^٦ سورة البقرة: ١١٧ .

^٧ انظر «مفردات ألفاظ القرآن الكريم» للراغب الأصفهاني رحمه الله.

^٨ سورة فاطر: ١ .

^٩ انظر «مفردات ألفاظ القرآن الكريم» للراغب الأصفهاني رحمه الله.

^{١٠} سورة الإسراء: ١١١ .

^{١١} سورة الملك: ١ .

^{١٢} سورة فاطر: ١٣ .

ودليل انفراده بالأمر – ويعبر عنه أيضاً بالتدبر – قوله تعالى ﴿لَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ ، قوله ﴿إِنَّا قَوْلَنَا لَشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كَنْ فِي كُونٍ﴾^١ ، قوله ﴿يَدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاوَاتِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾^٢ ،
وقوله ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾^٣.

فتدبّر هذا الكون من إحياء وإماتة ، ومطرِّ وجديب ، وغنى وفقرٍ ، وصحّة ومرضٍ ، وأمنٍ وخوفٍ ،
وغير ذلك مما يجري في هذا الكون ؛ إنما هو بأمر الله تعالى.

ودليل انفراده بالرزق قوله تعالى ﴿الَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَحْيِيْكُمْ هُلْ مِنْ شَرَكَائِكُمْ مِنْ يَفْعُلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾^٤.

وقد كانت دعوة الرُّسُل - عليهم الصلاة والسلام - مُنْصَبَّةً على هذا النوع من التوحيد - أي توحيد الألوهية - ، وكانوا قاطبة يقولون لأقوامهم ﴿أَعْبُدُو اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٌ عَيْنُهُ﴾^٥ ، ولكن أبي ذلك المشركون ، واتخذوا من دون الله آلهة ، يعبدونهم مع الله سبحانه وتعالى ، ويستنصرُون بهم ويستغيثون.

و ضد توحيد الألوهية الشرك في عبادته تعالى ، وهو صرف شيء من العبادات لغير الله ، أيًّا كانت تلك العبادة ، كعبادة القبور ، بدائعها ، والذبح لها ، والنذر لها ، والطّواف بها ، والتَّمَسُّحُ بأعتابها ، ونحو ذلك من الأفعال ، فهذه من الأفعال الشركية التي تنقض إيمان العبد بأن الله وحده هو المستحق لأن يعبد دون ما سواه.

فصل في ذكر البراهين الشرعية والعقلية على بطلان الشرك في عبادة الله

وقد أبطل الله تعالى اتخاذ المشركين آلهة يعبدونها معه ببراهين شرعية وعقلية كثيرة ، فأما الشرعية فمثل قوله تعالى ﴿إِنَّهُ مَنْ يَشْرُكُ بِاللَّهِ عَلَيْهِ حَرَمٌ حَرَمٌ الْجَنَّةُ وَمَأْوَاهُ النَّارِ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾^٦ ، قوله تعالى لنبئه ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْتُ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لِي حَبْطَنَ عَمْلَكَ وَلَتَكُونُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلَّ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَاكِرِينَ﴾^٧.

وأما البراهين العقلية على بطلان الشرك فكثيرة ، منها:

^١ سورة يس: ٨٢ .

^٢ سورة السجدة: ٥ .

^٣ سورة هود: ١٢٣ .

^٤ سورة الروم: ٤٠ .

^٥ سورة الأعراف: ٥٩ .

^٦ سورة المائدة: ٧٢ .

^٧ سورة الزمر: ٦٦ .

الأول: أنه ليس في هذه الآلة التي اخندوها شيء من خصائص الألوهية ، فهي مخلوقة لا تخلق ، ولا تحلب نفعاً لعابديها ، ولا تدفع عنهم ضرراً ، ولا تملك لهم حياة ولا موتاً ، ولا تملك شيئاً من السماوات والأرض ، ولا تشارك الله في ملكيتها ، قال الله تعالى ﴿وَاحْكُمُوا مِنْ دُونِهِ آللَّهُ لَا يَحْكُمُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُحَكَّمُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾^١ ، وقال تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِيكٍ وَمَا لَهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْقُعُ الشَّفَاعَةُ عِنْهُ إِلَّا لِمَنْ أَذْنَ اللَّهُ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُرِغَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾^٢ ، وقال ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخَلِّقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيغُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾^٣.

إذا كانت هذه حال تلك الآلة ، فإن اتخاذها آلة من أسفه السفه وأبطل الباطل.

الثاني: أن هؤلاء المشركين كانوا يُقرُّون بأن الله تعالى هو وحده رب الخالق الذي يبيه ملوكوت كل شيء ، وهو يُحيّر ولا يُجاري عليه ، وهذا يستلزم أن يوحدوه بالألوهية كما وحدوه بالريوبية ، كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ التَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنَدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^٤ ، وقال تعالى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾^٥ ، وقال ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَدَلِيلُكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرُفُونَ﴾^{٦٧}.

فصل

^١ سورة الفرقان: ٣ .

^٢ سورة سباء: ٢٣ - ٢٢ .

^٣ سورة الأعراف : ١٩١ - ١٩٢ .

^٤ يُحيّر أي ينقذ ، قوله: (ولا يُجاري عليه) أي لا يستطيع أحد أن ينقذ أحداً من عذابه.. انظر «لسان العرب» ، مادة: جور.

^٥ سورة البقرة: ٢١ - ٢٢ .

^٦ سورة العنكبوت: ٦١ .

^٧ سورة يونس: ٣٢ - ٣١ .

^٨ والبراهين العقلية على بطلان الشرك كثيرة ، وقد يسر الله إعداد بحث بعنوان «خمسون دليلاً على بطلان دعاء غير الله» ، حشدت فيه جمعاً من الأدلة الشرعية والعلقية على بطلان الشرك ، وهو منتشر على شبكة المعلومات ، فليراجعه من أراد الاستزادة.

وقد اعنى علماء المسلمين من المتقدمين والمؤخرين بموضوع توحيد الألوهية ، وألقوها في بيانه وبيان ما ينافقه مؤلفات عدّة ، وغالبها يقع ضمن مؤلفات أخرى وليس مؤلفات مستقلة ، إلا أن كتاب «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله من أفضل الكتب في توحيد الألوهية ، ففيه ذكر فضل التوحيد وأنواعه ونواصيه ومكملاته ، وقد اعنى العلماء به منذ ألف تدريساً وشرحـاً ، فله شروح كثيرة تتراوح العشرين شرحـاً ، أنفسها شرحـان ؛ الأول «تيسير العزيز الحميد بشرح كتاب التوحيد» لحفيد الشـيخ سليمان بن محمد بن عبد الوهاب رحمـه الله^١ ، والثانـي «القول المفيد بشرح كتاب التوحيد» للـشيخ محمد بن صالح بن عثيمـين رـحمـه الله^٢.

^١ الشـيخ سليمان من فحول علماء نجد ، ولد سنة ١٢٠٠ هـ ، درس على عدة مشايخ ، وعنده إجازة في رواية الكتب الستة ، درـس وولي القضاء ، وتوفي شاباً شهيداً بإذن الله سنة ١٢٣٤ هـ ، له عدة مؤلفات ، من أشهرها كتابه «تيسير العزيز الحميد» ، والكتاب على مدى ثلاث قرون ينهـل منه العلماء وطلبة العلم إلى وقتنا هذا ، وهو عمدة في علم توحيد العبادة ، وما بعده عيال عليه ، رـحمـه الله رحمة واسعة.

^٢ هو الشـيخ الأصولي الفقيـه المفسـر محمد بن صالح بن عثيمـين ، من علمـاء القرن الخامس عشر الهجري ، بـرـز في العقـيدة والفقـه والتفسـير ، نفعـ الله به الناس في زمانـه نفعـاً عظـيماً ، وانتشر علمـه في الآفاق ، سواء منه ما كان مسجـلاً على الأشرـطة أو ما كان مدونـاً في الكـتب ، له طلـبة كـثـر ، جـمعـت فـنـواهـ ورـسـائـله فوقـعت إلى حينـ كتابـه هذه الأـسـطـرـ في ٢٩ مجلـداً ، وبعد وفـاته استـؤـجـرت قـناـة فـضـائيـة لـبثـ علمـه ، فـتضـاعـفـ انتـشارـ علمـه على ما كانـ في حـيـاته ، وهذا من دلـائلـ الإـخلاـصـ ، نـحـسـبـهـ كذلكـ واللهـ حـسـيـبهـ ، واللهـ يـؤـتيـ فـضـلـهـ منـ يـشاءـ . انظرـ تـرـجمـتهـ فيـ كتابـ «ابـنـ عـثـيمـينـ الإـمامـ الزـاهـيـ» لـالـدـكـتورـ نـاصـرـ بـنـ مـسـفـرـ الزـهـرـانيـ ، النـاـشرـ: دـارـ ابنـ الجـوزـيـ – الدـمـامـ .

الرابع: الإيمان بأسماء الله وصفاته

مدخل

الإيمان بأسماء الله وصفاته له مكانة عظمى في العقيدة الإسلامية ، فقد تمدح الله كثيراً في كتابه العزيز بأسمائه وصفاته ، كقوله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ، قوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ، وغير ذلك مما لا يحصى كثرة.

كما أثني النبي ﷺ على ربه في موضع كثيرة من السنة الشريفة ، ونعته فيها بنعوت الجلال وصفات الكمال.

والإيمان بأسماء الله وصفاته يوجب للعبد حشيته ، ومن ثم عبادته على الوجه الذي يرضي الله تعالى ، فإن الأمر كما قيل: (من كان بالله أعرف كان له أخوف)¹ ، ولهذا كان العلماء بأسماء الله وصفاته هم أخشى الناس لله تعالى ، كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

ولما كان الإيمان بأسماء الله وصفاته بهذه الأهمية ؛ وجب على المؤمن الإيمان بها على الوجه المطلوب شرعاً ، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ من الأسماء والصفات على الوجه اللائق به ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تمثيل ، ودليل وجوب إثبات الأسماء الحسنى لله تعالى قوله ﴿وَلَلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾² ، ودليل وجوب إثبات صفات الكمال له قوله تعالى ﴿وَلَلَّهِ الْمُثَلَّى﴾³ ، أي الوصف الكامل ، قوله ﴿لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.⁴.

والإيمان الصحيح بأسماء الله وصفاته يقتضي أمرين ؛ الأول: فهمها كما جاءت ، وضده تحريف معانيها عمما تقتضيه اللغة العربية وفهم السلف الصالح لها.

والامر الثاني: الوقوف في أسماء الله وصفاته عند ما ورد في الكتاب والسنة ، وضده ابتداع اسم أو وصف الله لم يرد في أحدهما.

وقبل الدخول في تفصيل الكلام في هذين الأمرين فإنه يحسن بنا التنبية إلى قاعدة هامة جداً في باب فهم الأسماء والصفات ، وهي أن معيار الفهم الصحيح للأسماء والصفات هو مطابقة ذلك الفهم لفهم السلف

¹ رواه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (786) عن أحمد بن عاصم الأنطاكي.

² سورة الأعراف: 180 .

³ سورة النحل: 60 .

⁴ سورة الشورى: 11 .

الصالح ، وهم الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين لهم بإحسان وأتباعهم ، أهل القرون الثلاثة المفضلة الأولى ، التي شهد لها النبي ﷺ بالخيرية في قوله: خير الناس قرني ، ثم الذين يلوهم ، ثم الذين يلوهم.¹ وكيف لا تكون تلك القرون خير القرون وهم أتباع الصحابة ، الذين شهد لهم الله تعالى بالخيرية في القرآن في قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾. وأخبر أنهم أحق بكلمة التقوى وأنهم أهلها ، فقال في سورة الفتح ﴿وَأَزْمَمُهُمْ كَلْمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقُّ بِهَا﴾.

وشهد لهم في آخر سورة الأنفال بأنهم هم المؤمنون حقا ، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آتَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًا لَّهُمْ مَغْفِرَةً وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾. ونَوَّهَ سبحانه وتعالى برضاه عنهم في سورة التوبة ، فقال عز من قائله عليهما ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأُولَئِنَّ مِنَ الْمَهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَعْدَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

بل قد أثني الله عليهم في الكتب السابقة – التوراة والإنجيل – فقال في آخر سورة محمد ﴿مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجَدًا يَتَغَافَلُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرَضُوا نَا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثْرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مُثْلُهُمْ فِي التُّورَاةِ وَمُثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَأَهُ فَازْرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يَعْجَبُ الزَّرَاعُ لِيغَيِظُ بَهُمُ الْكُفَّارُ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أقول: وكيف لا تكون تلك القرون الثلاثة خير القرون ، وهم أتباع الصحابة ، الذين قال الله تعالى فيهم ﴿إِنَّمَا يَمْنَوْا بِمَثْلِ مَا آمَنُوا إِنْ تَهْتَدُوا إِنْ تُولُوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شَقَاقٍ فَسِيَّكَفِيَكُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾²? أي: فإن آمن الناس بمثل إيمانك يا محمد وإيمان أصحابك – ويدخل في ذلك إيمانهم بالأسماء والصفات – فقد اهتدوا ، وإن تولوا عن طريقكم وحادوا عنه فإنما هم يشاققون الله ورسوله وقد قال الله تعالى ﴿وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعُ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُولَهُ مَا تُولِي وَنُصْلِهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.³

وبموجب هذه الأدلة وغيرها مما ورد في فضل الصحابة مما لا يحصى كثرة ؛ أجمع المسلمون على عدالتهم وفضلهم وسبقهم في الإسلام على كل من جاء بعدهم ، وأنهم القدوة الدينية لمن جاء بعدهم.

¹ تقدم تخرجه.

² سورة النساء: 115 .

³ سورة البقرة: 137 .

إذا تقرّر هذا ؛ فلا أحد أعلم بمراد الله ورسوله في باب الأسماء والصفات – أو غيره من أبواب الدين – منهم ، أي الصحابة رضوان الله عنهم وأتباعهم ، أصحاب القرون الثلاثة المفضلة الأولى ، والمعتبر عنهم بالسلف الصالح ، فالواجب على كل من جاء بعدهم انتفاء أثرهم ، ورد كل ما حالف فهمهم ، واعتقاد أنه فهم باطل ، وافتراء للكذب على الله تعالى ، إذ كيف تجهل القرون الثلاثة المفضلة الفهم الصحيح لمعاني الأسماء والصفات ثم يفهمها من جاء بعدهم بقرون؟! هذا لا يقبله شرع ولا عقل.

فصل في بيان الواجب الأول في أسماء الله وصفاته

وعوداً على بدءٍ ؛ فالواجب الأول على كل مؤمن بالله تعالى في باب الأسماء والصفات هو فهمها كما جاءت ، كما تقتضيه اللغة العربية ، وكما فهمها السلف الصالح ، لأن فهمهم هذا قد تلقّوه عن النبي ﷺ ، وأنعم به من فهم ، وكل ما حالف فهم الصحابة فليس من دين الله ، بل هو منهج مختصر مُحدث ، ليس من الإسلام في شيء ، لأن ما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً.

و ضد هذا المنهج النبوي في فهم الأسماء والصفات هو الإلحاد فيها ، وهو ثمانية أنواع ، تدور كلها إما على تحريف المعنى الصحيح إلى معنى غير مراد ، أو إبطال المعنى بالكلية ، ويسمى التعطيل ، أو استيقاًق أسماء المخلوقين من أسماء الله تعالى ، وسيأتي الكلام على كل نوع من هذه الأنواع بالتفصيل إن شاء الله تعالى.¹

والإلحاد في أسماء الله وصفاته منافي للإيمان بأسماء الله وصفاته ، ومن القول على الله بلا علم ، ومن البدع الكلامية التي اشتد نكير السلف الصالح وأتباعهم على القائلين بها ، ومن المعاصي التي توعد الله فاعليها بالعذاب عيادة بالله ، قال تعالى ﴿وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَىٰ فَادْعُوهُ بِمَا وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْهُدوْنَ فِي أَسْمَائِهِ سِيْجِزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾².

فصل في ذكر بعض الآثار عن السلف في فهم الصفات

فإن قيل: هل وردَ عن السلف – رضوان الله عليهم – ما يثبت أنهم كانوا يفهمون الأسماء والصفات كما جاءت ولا يتعرضون لمعانيها بأي نوع من أنواع التحريف؟

فالجواب نعم ، فقد روى البيهقي في «الأسماء والصفات» عن أبي داود الطیالسی³ قال:

¹ انظر للفائدة كلاماً مختصراً للشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَىٰ فَادْعُوهُ بِمَا وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْهُدوْنَ فِي أَسْمَائِهِ سِيْجِزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. (الأعراف: 180)

² سورة الأعراف: 180 .

³ هو سليمان بن داود بن الجارود ، أبو داود الطیالسی البصري ، ثقة حافظ ، مات سنة 204 ، انظر «تقریب التهذیب».

كان سفيان الثوري¹ وشعبة² وحماد بن زيد³ وحماد بن سلمة⁴ وشريك⁵ وأبو عوانة⁶ لا يُحذّرون⁷ ولا يُشبّهون ولا يُمثّلون ، يَرُوون الحديث ، لا يقولون (كيف) ، وإذا سُئلوا أجابوا بالأثر . قال أبو داود: وهو قولنا.

قلت⁸: وعلى هذا مضى أكابرنا. انتهى.⁹

¹ هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، الكوفي ، أبو عبد الله ، ثقة حافظ ، فقيه عابد ، إمام حجة ، سيد أهل زمانه علمًا وعملا ، حدث عنه خلق لا يُحصون ، ويقال إنه أحد عن ست مئة شيخ ، مات سنة 164 هـ ، انظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» (4/382).

² هو شعبة بن الحجاج بن الورد العتكبي مولاهم ، أبو بسطام الواسطي ثم البصري ، ثقة حافظ متقن ، كان الثوري يقول: (هو أمير المؤمنين في الحديث) ، وهو أول من فتش بالعراق عن الرجال وذب عن السنة ، وكان عابدا ، مات سنة 160 هـ ، انظر «تقريب التهذيب».

³ هو حماد بن زيد بن درهم الأزدي الجهمي ، أبو إسماعيل البصري ، ثقة ثبت فقيه ، كان من أئمة العلماء في زمانه ، مات سنة 179 هـ ، انظر «تقريب التهذيب» ، و «السير» (456/7).

⁴ هو حماد بن سلمة بن دينار البصري ، أبو سلمة ، الإمام القدوة ، شيخ الإسلام ، من المكترين من رواية الحديث النبوى ، ثقة عابد ، قال أحمد بن حنبل: إذا رأيت الرجل يغمز حماد بن سلمة فاغمزه على الإسلام ، فإنه كان شديدا على المبتدعة. مات سنة 167 هـ ، انظر «تقريب التهذيب» ، و «السير» (444/7).

⁵ هو شريك بن عبد الله النخعي الكوفي ، القاضي بواسط ثم الكوفة ، أبو عبد الله ، صدوق يخطئ كثيرا ، تغير حفظه منذ ولد القضاء بالكوفة ، وكان عادلا فاضلا عابدا ، شديدا على أهل البدع ، مات سنة 177 أو 178 هـ ، انظر «تقريب التهذيب».

⁶ هو أبو عوانة ، وضاح بن عبد الله اليشكري الواسطي الباز ، ثقة ثبت ، مات سنة 175 أو 176 هـ ، انظر «تقريب التهذيب».

⁷ أي لا يصفون الله بـ «الحد» ، لأن الله سبحانه وتعالى لم يصف نفسه بذلك.

⁸ القائل هو البيهقي رحمه الله.

⁹ كتاب «الأسماء والصفات» (334/2-335)، وهو في «السنن الكبرى» (3/3).

وقال الوليد بن مسلم¹: سألت سفيان² والأوزاعي³ ومالك بن أنس⁴ والليث بن سعد⁵ عن هذه الأحاديث ، فقالوا: *مُرِئُها كما جاءت*.⁶

قال شمس الدين الذهبي الشافعي⁷ في سفيان الثوري: وقد بثَّ هذا الإمام الذي لا نظير له في عصره كثيراً من أحاديث الصفات ، ومذهبة فيها الإقرار والإمارة والكفر عن تأويلها ، رحمه الله تعالى.⁸

وقال سفيان بن عيينة⁹ في أحاديث الصفات: هذه الأحاديث نرويها ونُقرُّ بها كما جاءت بلا كيف.¹⁰ أي: بلا تكييف ، وهو ذكر كيفية الصفة¹¹ ، وسيأتي الكلام على تعريف التكييف إن شاء الله. علق شمس الدين الذهبي على كلام سفيان فقال: أي على ظاهره ، لا يجوز صرفه إلى المجاز بنوع من التأويل.¹²

وقال سفيان أيضاً: ما وصف الله نفسه فقراءاته تفسيره ، ليس لأحد أن يفسّره إلا الله عز وجل.¹³

¹ الوليد بن مسلم الدمشقي ، الإمام عالم أهل الشام ، كان من أوعية العلم ، ثقة حافظاً ، من رواة الحديث النبوى ، توفي سنة 195 ، انظر ترجمته في «السير» (211/9).

² أي الثوري.

³ هو عبد الرحمن بن عمرو بن يُحْمَد ، شيخ أهل الشام ، وعالم الإسلام ، له رواية معروفة في الحديث ، توفي سنة 151 ، وقد ترجم له الذهبي ترجمة مطولة في «السير» (107/7).

⁴ مالك بن أنس هو الإمام المشهور ، شيخ الإسلام ، حجة الأمة ، إمام دار المحرّة ، عُرف به مذهبة الفقهى ، وصاحب كتاب «الموطأ» ، الذي جمع فيه حديث رسول الله ﷺ ، ترجم له الذهبي ترجمة عاطرة مطولة في ثمانين صفحة ونيف ، انظر «السير» (135 - 48/8).

⁵ هو الإمام الحافظ شيخ الإسلام ، وعالم الديار المصرية ، الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي ، أبو الحارث المصري ، ثقة ثبت ، فقيه إمام مشهور ، من رواة الحديث النبوى ، ومن أقران الإمام مالك ، مات سنة 75 هـ ، انظر ترجمته في «السير» (136/8).

⁶ رواه أبو بكر الخالل - تلميذ الإمام أحمد - في كتابه «السنة» (259/1) واللفظ له ، والبيهقي في «السنن الكبير» (2/3) ، والآجري في «الشريعة» (104/2) ، والدارقطني في «الصفات» (67).

⁷ هو العالمة المؤرخ ، شيخ الجرج والتتعديل ، أبو عبد الله ، محمد بن أحمد الذهبي ، تركمان الأصل ، شافعى المذهب ، له مؤلفات لا يستغني عنها من جاء بعده ، كـ «سير أعلام النبلاء» ، وـ «تاريخ الإسلام» ، وـ «تذكرة الحفاظ» ، وـ «العلو للعلي الغفار» ، له رواية للحديث النبوى ، وهو من تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله ، توفي سنة 748 ، انظر ترجمته في «شذرات الذهب» (3/153).

⁸ «العلو» ، ص 138 .

⁹ هو الإمام الكبير حافظ العصر ، شيخ الإسلام ، أبو محمد ، سفيان بن عيينة بن أبي عمران ، الكوفي ثم المكي ، من المكتوبين من رواية الحديث النبوى ، توفي سنة 198 ، انظر ترجمته في «السير» (8/454).

¹⁰ رواه ابن عبد البر عنه في «التمهيد» (136/6) ، كتاب القرآن ، باب ما جاء في الدعاء ، وهو في (7/148 - 149) من ط المغربية.

¹¹ انظر «فتح رب البرية بتلخيص الحموية» ، ص 31 ، للشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله ، الناشر: دار ابن الجوزي - الدمام.

¹² «العرش» ، ص 149 .

¹³ أي: ليس لأحد أن يفسّرها بذكر كيفيةه إلا الله تعالى ، لأنّه هو العالم بذلك وحده ، أما البشر فهو غائب عنهم فكيف يفسّرون؟

¹⁴ رواه ابن بطة في «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية» (3/166) ، وابن منده بنحوه في كتاب «التوحيد» (895) ، تحقيق محمد حسن إسماعيل ، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

زاد البيهقي: أو رسله صلوات الله عليهم.¹

وفي رواية: كل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته ، والسكوت عليه.²

وفي رواية: كل شيء وصف الله به نفسه في القرآن فقراءته تفسيره ، لا كيف ولا مثل.³

وقال الإمام وكيع بن الجراح⁴ لما سُئل عما يُروى أن الكرسي موضع القدمين ، ونحو هذا ، قال: كان إسماعيل بن أبي خالد⁵ والثوري ومسعر⁶ يروون هذه الأحاديث لا يُفسّرون شيئاً.⁷ واقشعرَ رجُلٌ في مجلسِ وكيع لما سمع حديث عمر رضي الله عنه قال: إذا جلس الرب عز وجل على الكرسي ...⁸

فغضب وكيع¹⁰ وقال: أدركنا الأعمش¹¹ وسفيان¹² يُحدّثون بهذه الأحاديث لا ينكرونا.¹³

وقال وكيع: نُسَلِّمُ¹ بهذه الأحاديث كما جاءت ، ولا نقول (كيف كذا؟) ، ولا (لم كذا؟) ، يعني مثل حديث: (يحمل السماوات على إصبع).²

¹ «الأسماء والصفات» (2/338-339) لأبي بكر البيهقي ، وصححه محققه.

² رواه الصابوني في «عقيدة السلف وأصحاب الحديث» (ص 49) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (2/307)، واللفظ للصابوني.

³ رواه الدارقطني في كتاب «الصفات» (ص 70) ، تحقيق د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي ، واللالكاني في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (3/478).

⁴ الإمام وكيع بن الجراح ولد سنة 129 ، كان من بحور العلم وأئمة الحفظ ، مات سنة 197 ، انظر ترجمته في «السير» (9/140).

⁵ هو الإمام الكبير الحافظ ، أبو عبد الله البجلي ، الأحسسي ، مولاهم الكوفي ، من رواة الحديث النبوي ، سمع من خمسة من أصحاب النبي ﷺ ، مات سنة 146 . انظر ترجمته في «السير» (6/176).

⁶ هو الإمام الشافعي ، الحافظ ، مسعود بن كدام بن عبيدة ، من رواة الحديث النبوي ، قال شعبة بن الحجاج: (كنا نسمى مسعاً: المصحف) ، يعني من إتقانه. توفي سنة 155 . انظر ترجمته في «السير» (7/163).

⁷ معنى (لا يُفسّرون) أي لا يُكْفِفُونَ شيئاً من صفات الرب عز وجل بأن يَدْعُوا معرفة كيفية شيء منها ، لأن معرفتها من الغيب الذي استأثر الله بعلمه.

⁸ رواه الذهبي في «العلو» ص 146 .

⁹ هو أثر موقوف على عمر وليس بحديث مرفوع ، وتمامه: ... سمع له أطيط كأطيط الرجل الجديد.

وقد رواه عبد الله بن أحمد في كتاب «السنة» (1/231) وغيره.

¹⁰ أي غضب من كون الرجل اقشعر لما سمع ذكر جلوس الرب على الكرسي في الحديث.

¹¹ هو سليمان بن مهران ، الإمام شيخ الإسلام ، شيخ المقرئين والحدّثين ، رأى أنس بن مالك وروى عنه ، مات سنة 147 ، له ترجمة مطولة في «السير» (6/226).

¹² أبي الثوري.

¹³ «السنة» لعبد الله بن أحمد (1/232).

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام³:

هذه الأحاديث حقٌ لا يُشكُّ فيها ، نَقَلَها الثقات بعضهم عن بعض حتى صارت إلينا ، نصدق بها ونؤمن بها على ما جاءت.

قال أبو الفضل⁴: ونحن نقول في هذه الأحاديث ما قال أَحْمَدُ بْنُ حَبْلٍ ، متبوعين له ولأثاره في ذلك.⁵ عَلَّقَ الذَّهَبِيُّ عَلَى كَلَامِ أَبِي عَبِيدٍ قَوْلَهُ:

قد صَنَفَ أَبُو عَبِيدَ كِتَابًا «غَرِيبُ الْحَدِيثِ» ، وَمَا تَعْرَضَ لِأَخْبَارِ الصَّفَاتِ الْإِلَاهِيَّةِ بِتَأْوِيلٍ أَبَدًا ، وَلَا فَسَرَّرَ مِنْهَا شَيْئًا ، وَقَدْ أَخْبَرَ بِأَنَّهُ مَا لَحِقَ أَحَدًا يَقْسِرُهَا⁶ ، فَلَوْ كَانَ اللَّهُ تَفْسِيرُهَا سائِغاً أَوْ حَتَّمَاً لَأَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ اهْتِمَامَهُ بِذَلِكَ فَوْقَ اهْتِمَامِهِمْ بِأَحَادِيثِ الْفَروعِ وَالْآدَابِ ، فَلَمَّا لَمْ يَتَعَرَّضُوا لَهَا بِتَأْوِيلٍ ، وَأَقْرَوْهَا عَلَى مَا وَرَدَتْ عَلَيْهِ ؛ عُلِمَ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا حَيْدَةَ عَنْهُ.⁷

وقال أبو بكر الخلال⁸: سمعت عبد الوهاب الوراق⁹ يقول: سألت أسود بن سالم¹⁰ عن هذه الأحاديث فقال: نخلف عليها بالطلاق والمشي¹¹ إنها حق.¹²

فصل في ذكر تقريرات بعض أئمة المذاهب في فهم الأسماء والصفات

¹ التسليم هو الانقياد والخضوع ، فمعنى قوله (تَسْلِمُ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ) أي نؤمن بما دلت عليه ولا نتجاوز ذلك بتأويل معانيها أو تكييفها أو تعطيلها.

² ذكره الذهبي في «سیر أعلام البلاء» (9/165) في ترجمة وكيع.

³ هو الإمام المجتهد أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي اللغوي الفقيه ، صاحب المصنفات ، مات سنة 224 هـ ، انظر «تذكرة الحفاظ» (6/1).

⁴ هو عباس بن محمد الدوري ، راوي الأثر عن أبي عبيد.

⁵ رواه أبو بكر الخلال في «الستة» (258/1)، والآخر في «الشريعة» (622) ولفظه: هذه عندنا حق ، نقلها الناس بعضهم عن بعض.

⁶ أي ما أدرك أحداً من قبله يفسرها بذلك الكيفية.

⁷ «السير» (8/162).

⁸ هو الإمام العلامة الحافظ الفقيه ، شيخ الخطابة وعالمهم ، أبو بكر ، أَحْمَدُ بْنُ هَارُونَ الْبَغْدَادِيُّ الْخَالِلُ ، مِنْ أَجْلِ تَلَمِذَةِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ ، أَحَدُ الْفَقِهِينَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَكَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ، صَنَفَ كِتَابًا «الْسَّنَةِ» ، جَمَعَ فِيهِ أَحَادِيثَ وَآثَارَ رَوَاهَا بِإِسْنَادِهِ فِي الْعِقِيدَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَالصَّحَابَةِ وَالْتَّابِعِينَ ، وَلَهُ مَصْنَفَاتٌ جَمِيعُهَا مَسَائلٌ كَثِيرَةٌ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ ، فَكُمْ مِنْ حَسَنَةِ لِهِ عَلَى مَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، تَوْفَى سَنَةُ 311 ، انظر ترجمته في «السير» (297/14) و«طبقات الخطابة» (3/22).

⁹ هو الإمام القدوة الرياني الحجة ، أبو الحسن ، عبد الوهاب بن نافع ، البغدادي الوراق ، من رواة الحديث النبوى ، توفي سنة 251 ، انظر «السير» (12/323).

¹⁰ (كان ثقة ورعاً فاضلاً ، مات سنة ثلث عشرة أو أربع عشرة ومئتين) ، قاله ابن حجر الطبرى ، سمع الحديث من حماد بن زيد وسفيان بن عيينة وغيرها ، وروى عنه الحديث ، انظر ترجمته في «تاريخ بغداد» (7/498).

¹¹ أي النذر بالمشي إلى المسجد الحرام إن لم تكن أحاديث الصفات حق على ظاهرها.

¹² «الستة» لأبي بكر الخلال (1/258-259)، وانظر «الإبانة» (3/61).

أقوال الحنفية

قال محمد بن الحسن الشيباني¹ – صاحب أبي حنيفة – : اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب عز وجل من غير تفسير ولا وصفٍ ولا تشبيهٍ ، فمن فسر شيئاً من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ وفارق الجماعة ، فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا ، ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا ، فمن قال بقول جهنم² فقد فارق الجماعة ، لأنَّه قد وصفه بصفةٍ لا شيءٍ.³

أقوال الشافعية

قال الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله: آمنت بكلام الله على مراد الله ، وآمنت بكلام رسول الله على مراد رسول الله.⁴ وروى الخطيب البغدادي الشافعي⁵ في «الكتفافية» بإسناده إلى الشافعي أنه قال: الأصل قرآن وسنة ، فإن لم يكن فقياً عليهمَا ، وإذا اتصل الحديث عن رسول الله ﷺ وصحّ الإسناد منه فهو سنة.

ثم قال: والخبر المفرد على ظاهره ، وإذا احتمل المعانِي فما أشبه منها ظاهره أولاهَا به.⁶ وقال الإمام الشافعي فيما رواه عنه يونس بن عبد الأعلى – وقد سُئل عن صفات الله – فقال: لله أسماء وصفات لا يسع أحداً قامت عليه الحجة ردّها ، لأنَّ القرآن نزل بها ، وصح عن رسول الله ﷺ القول بها ، فإنَّ خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر ، فأما قبل ثبوت الحجة عليه من جهة الخبر فمعدور بالجهل ، لأنَّ عِلْم ذلك لا يُدرك بالعقل ، ولا بالرَّوَيَّةِ والفكَر.⁷

¹ هو محمد بن الحسن بن فرقان الشيباني ، صاحب أبي حنيفة وأبي يوسف ، فقيه العراق ، روى عن أبي حنيفة ومالك بن أنس والأوزاعي ، أخذ عنه الشافعي فأكثر جداً ، واستفاد منه أحمد ومالك ، ولي القضاء ، وتوفي سنة 189 ، انظر «سير أعلام النبلاء» (134/9).

² يقصد جهنم بن صفوان ، مؤسس مذهب الجهمية ، وبشّس المذهب والمؤسس.

³ «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (480/3).

⁴ ذكره عبد الله بن أحمد بن قدامة (620 هـ) في كتابه «ذم التأويل» (ص 222 ، 256) ، ويقع ضمن مجموعة يحيى ثالث كتب (لمعة الاعتقاد المادي إلى سبيل الرشاد ، إثبات صفة العلو ، ذم التأويل) ، بتحقيق بدر بن عبد الله البدر ، الناشر: دار ابن الأثير – الكويت.

⁵ هو الحافظ الكبير الإمام محدث الشام والعراق أبو بكر أحمد بن ثابت البغدادي ، مات سنة 412 هـ. انظر ترجمته في «تذكرة الحفاظ» (221/3).

⁶ أي إذا احتمل الخبر عدة معانٍ فإنَّ أولاهَا بأنَّ يفسر به هو المعنى الظاهر المتباذر القريب للذهن.

⁷ رواه الخطيب في «الكتفافية في علوم الرواية» (564-565/2) ، الناشر: دار المدى – مصر.

وقال الخطيب البغدادي رحمه الله: أما الكلام في الصفات؛ فأما ما رُوي منها في السنن الصّحاح فمذهب السلف إثباتها ، وإجراؤها على ظواهرها ، ونفي الكيف والتشبيه عنها ، والأصل في هذا أن الكلام في الصفات فرعٌ عن الكلام في الدّلائل ، ونحتذى في ذلك حذوه ومثاله ، وإذا كان معلوماً أن إثبات رب العالمين إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف ؛ فكذلك إثبات صفاتِه ، فإنما هو إثبات وجود ، لا إثبات تحديد وتكييف ، فإذا قلنا: يدُ سمعٍ وبصرٍ ؛ فإنما هو إثبات صفاتِ أثبتها الله لنفسه ، ولا نقول إنَّ معنى اليد القدرة ، ولا نقول إنَّ معنى السمع والبصر ؛ العلم ، ولا نقول إنما جوارح وأدوات الفعل ، ونقول: إنما وَجَبَ إثباتَهَا لِأَنَّ التَّوْقِيقَ² وَرَدَ بِهَا ، وَوَجَبَ نَفْيُ التَّشْبِيهِ عَنْهَا ، لقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾³ ، وقوله ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾⁴.

وقال الإمام البغوي الشافعي⁵ رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدُاهُ مُبْسُوتَانِ يَنْفَقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾⁶: قال أئمة السلف من أهل السنة في هذه الصفات: أَمْرُوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفَ.

وقال شمس الدين الذهبي الشافعي رحمه الله في مقدمة كتابه «العلو للعزيز الغفار»: فإن أحبيب يا عبد الله الإنلاف فقف مع نصوص القرآن والسنة ، ثم انظر ما قاله الصحابة والتابعون وأئمة التفسير في هذه الآيات ، وما حکوه من مذاهب السلف ، فإنما أن تنطق بعلم ، وإنما أن تسكت بِحِلْمٍ.

وَدَعَ الْمِرْأَةَ وَالْجَدَالَ إِنَّ الْمِرْأَةَ فِي الْقُرْآنِ كُفُرٌ ، كَمَا نَطَقَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ الصَّحِيفَ⁷.

¹ هكذا بنصه من كتاب «الأربعين في صفات رب العالمين» للذهبي ، ص 84 ، تحقيق: عبد القادر بن محمد عطا ، الناشر: مكتبة العلوم والحكم – المدينة ، سنة 1413 .

² أي الأدلة الشرعية التي يجب الوقوف عندها.

³ سورة الشورى: 11 .

⁴ رواه الذهبي بإسناده عنه كما في كتاب «العرش» له (148 - 149).

⁵ هو الشيخ الإمام العلامة القلوة الحافظ شيخ الإسلام محيي السنة ، أبو الحسين ، الحسين بن مسعود بن الفراء البغوي ، الشافعي المفسر ، صاحب التصانيف ، كـ «شرح السنة» في الحديث ، و «معالم التنزيل» في التفسير ، توفي سنة 516 . انظر ترجمته في «السير» (439/19).

⁶ سورة المائدة: 64 .

⁷ رواه أبو داود (4603) وأحمد (258/2) بلفظ (جدال في القرآن كفر) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وحكم عليه الألباني بأنه حسن صحيح ، وانظر «الصحيححة» (546/5) و «المشكاة» (1/79).

روواه أحمد (300/2) عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ أطول: نزل القرآن على سبعة أحرف ، الجراء في القرآن كفر – ثلاث مرات – ... الحديث.

قال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي حفظه الله في شرحه لهذا الحديث:

ومعنى الحديث أن الجدال بالقرآن من الأعمال الكفرية ، فلا يجوز للإنسان أن يجادل في القرآن ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنَّا هُنَّ كَبُرَ مُفْتَنًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّنَكَّرٍ جَبَارٍ﴾.

وسترى أقوال الأئمة في ذلك على طبقاتهم بعد سرد الأحاديث النبوية ، جمع الله قلوبنا على التقوى ، فإننا على أصل صحيحٍ وعُقْدٍ متينٍ من أن الله تقدّس اسمه لا مثل له ، وأن إيماناً بما ثبت من نعمته كإيماناً بذاته المقدسة ، إذ الصفات تابعة للموصوف ، فنعقل وجود الباري ونميز ذاته المقدسة عن الأشباه من غير أن تتعقل الماهية.

فكذلك القول في صفاته ؟ نؤمن بها ، ونعقل وجودها ، ونعلمها في الجملة ، من غير أن نتعقلها أو نشبهها أو نكيفها أو نمثلها بصفات خلقه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.¹ اهـ.

وقال الإمام الحافظ أبو الفداء ، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي² رحمه الله عند تفسير قوله تعالى ﴿ثُمَّ استوى على العرش﴾:

وأما قوله تعالى ﴿ثُمَّ استوى على العرش﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها ، وإنما يُسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح ؛ مالك والأوزاعي والشوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قدِّيماً وحدِيثاً ، وهو إماراتها كما جاءت من غير تكليف ولا تشبيه ولا تعطيل ، والظاهر المتباخر إلى أذهان المُشَبِّهين منفي عن الله ، لا يُشَبِّهُ شيءٌ من خلقه ، و﴿ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير﴾ ، بل الأمر كما قال الأئمة ، منهم نعيم بن حماد الخزاعي⁴ - شيخ البخاري - قال: (من شَبَّهَ الله بخلقه كفر) ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه) ، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصرحة والأخبار الصرحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ، ونفي عن الله تعالى النقائص ؛ فقد سلك سبيل الهدى. انتهى كلامه رحمه الله.

فلا يجوز المراء والجدال في القرآن ، فقد يكون كفراً أكبر ، وقد يكون كفراً أصغر ، بحسب قصد فاعله ، فإن جادل في آيات الله على وجه التعتن والعناد والإنكار لما دلت عليه يكون كفراً أكبر ، وإن كان جداله دون ذلك يكون كفراً أصغر. انتهى
«الإعانة على تقريب الشرح والإبانة» ، حديث: «الماء في القرآن كفر» ، باختصار يسير.

¹ انظر (101/1 ، 183) ، تحقيق محمد بن ربيع بن هادي ، ط 2 ، الناشر: دار الراية – الرياض.

² هو عماد الدين ، إسماعيل بن عمر بن كثير ، البصري الأصل ، الدمشقي الشافعي ، ولد في مطلع القرن الثامن ، درس على شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، و碧ع في الفقه والتفسير والنحو والتاريخ ، له تصانيف مفيدة ، أشهرها كتابه «تفسير القرآن العظيم» ، وكتاب «البداية والنهاية» في التاريخ ، توفي سنة 774.

انظر ترجمته في «الدرر الكاملة» لابن حجر ، و«شدرات الذهب» لابن العماد ، و«البدر الطالع» للشوكاني ، رحمهم الله.

³ سورة الأعراف: 54 .

⁴ هو الإمام العلامة الحافظ الفرضي صاحب التصانيف ، حدث عن جماعة منهم عبد الله بن المبارك ، وروى عنه جماعة منهم البخاري وأبو داود والترمذى وابن ماجه ، قال الذهبي: كان من كبار أوعية العلم.

انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (10/595) و«تنكزة الحفاظ» (6/2).

قلت: وانظر ما قاله إمام الشافعية في وقته الإمام قوام السنة ، إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني¹ رحمه الله في كتابه «الحجۃ في بيان الحجۃ وشرح عقیدة أهل السنة»².

أقوال الحنابلة

قال الحال في كتاب «السنة»: حديثنا أبو بكر المروي رحمه الله قال: سألت أبا عبد الله³ عن الأحاديث التي تردها الجهمية في الصفات والرؤبة والإسراء⁴ وقصة

العرش⁵ ، فصححها أبو عبد الله وقال: قد تلقنها العلماء بالقبول ، نسلم الأخبار كما جاءت.

فقلت له: إن رجلاً اعترض في بعض هذه الأخبار كما جاءت. فقال: يُجفى⁶.

وقال: ما اعتراضه في هذا الموضوع؟ يُسلّم الأخبار كما جاءت.⁷

وقال حنبل⁸: سمعت أبا عبد الله يقول: قال النبي ﷺ: (يضع قدمه)⁹ ، نؤمن به ، ولا نزد على رسول الله ﷺ ما قال ، بل نؤمن بالله وبما جاء به الرسول ، قال الله عز وجل ﴿وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾¹⁰.¹¹

¹ هو الإمام الحافظ أبو القاسم ، إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني ، أحد أئمة الشافعية وحفظ الحديث ونقاده ، مات سنة 535 . انظر ترجمته في «السير» (20/80).

والذي وصفه بأنه إمام الشافعية في وقته الإمام ابن القيم في كتابه «اجتماع الجيوش الإسلامية» ، ص 268 ، الناشر: دار عالم الفوائد – مكة.

² 101/1 ، 183 ، 188 - 190) ، تحقيق: محمد بن ربيع بن هادي ، الناشر: دار الراية – الرياض.

³ يعني الإمام أحمد.

⁴ الجهمية تنكر حديث عروج النبي ﷺ بجسمه وروحه إلى السماء يقطلة ، والذي ورد في قصة الإسراء ، قالوا: (عُرِجَ بروحه دون جسده) ، ليُفِرُّوا بذلك من القول بعلو رب عز وجل بظنهم ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وحديث المراجغ مخرج في البخاري (3207) ومسلم (163) ، وانظر «بيان تلبيس الجهمية» (6/116) لابن تيمية رحمه الله ، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – المدينة.

⁵ الجهمية تؤول النصوص الواردة في ثبوت العرش واستواء الله عليه وتقول إن الله في كل مكان ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

⁶ أي يُهجر.

⁷ «السنة» لأبي بكر الحال (1/246-247).

⁸ هو حبيل بن إسحاق بن حنبل ، ابن عم الإمام أحمد ، رحمهما الله ، انظر ترجمته في «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى الفراء (1/383).

⁹ انظر صحيح البخاري (7384) ومسلم (2848) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

¹⁰ سورة الحشر: 7 .

¹¹ «طبقات الحنابلة» (1/386).

وقال العالمة ابن القيم¹ رحمه الله ما مُحَصِّلُه أن الصحابة اختلفوا في تأويل بعض الآيات ، وذكر أمثلة على ذلك ، ثم قال: ولم يتنازعوا في تأويل آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد ، بل اتفق كلّهم وكلمة التابعين بعدهم على إقرارها وإمارتها مع فهم معانيها وإثبات حقائقها ، وهذا يدل على أنها أعظم النوعين بيانا ، وأن العناية ببيانها أهم ، لأنها من قام تحقيق الشهادتين ، وإثاثها من لوازم التوحيد ، فبَيْنَهَا الله ورسوله بيانا شافيا لا يقع فيه لبسٌ ولا إشكال يُؤْقِعُ الراسخين في العلم في منازعة ولا اشتباه.

ومن شرح الله لها صدره ، ونور لها قلبها ؛ يعلم أن دلالتها على معانيها أظهر من دلالة كثير من آيات الأحكام على معانيها ، ولهذا آيات الأحكام لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصة من الناس ، وأما آيات الأسماء والصفات فيشتَرك في فهم معناها الخاص والعام ، أعني فهم أصل المعنى ، لا فَهْم الْكُنْدِ والكيفية ، ولهذا أشكال على بعض الصحابة² قوله تعالى ﴿حتى يتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخِيطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخِيطِ الْأَسْوَدِ﴾³ حتى بَيْنَ لَهُم بِقَوْلِهِ ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ ، ولم يُشَكِّلْ عَلَيْهِ⁴ ولا على غيره قوله ﴿وَإِذَا سَأَلْتُكُمْ عَبْدِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾⁵ الآية ، وأمثالها من آيات الصفات.

وأيضا فإن بعض آيات الأحكام محملة عُرِفَ ببيانها بالسنّة كقوله تعالى ﴿فَقَدْ يَرَى مَنْ صَيَامٌ أَوْ صَدَقَةً أَوْ نِسَكًا﴾⁶ ، فهذا مُحملٌ في قدر الصيام والإطعام ، فبَيْنَتِهِ السُّنْنَةُ بِأَنَّهُ صَيَامٌ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ أَوْ إِطَاعَةُ سَبْطٍ مُسَاكِينٍ أَوْ ذِبْحٍ شَاهٍ ، ونظائره كثيرة كآية السرقة وآية الصلاة وآية والحج.

وليس في آيات الصفات وأحاديثها مُحملٌ يحتاج إلى بيان من خارج ، بل ببيانها فيها ، وإن جاءت السنّة بزيادة في البيان والتفصيل.

فلم تكن آيات الصفات محملة مختَلِفة ، لا يفهم المراد منها إلا بالسنّة ، بخلاف آيات الأحكام.⁷ انتهى.

وقال أيضا رحمه الله في «إعلام الموقعين»: فصل في تحريم الإفتاء في دين الله بالرأي:

¹ هو محمد بن أبي بكر بن سعد الزرعبي ثم الدمشقي ، المعروف بابن قيم الجوزية ، من علماء المائة الثامنة ، لازم شيخه ابن تيمية إلى أن مات سنة 728 ، فكان من كبار تلامذته ، ثم حمل بعده لواء الدعوة والجهاد العلمي إلى أن مات سنة 751 ، كان واسع المعرفة ، قوي الحجة ، دقيق الاستبطاط ، كثير المصنفات ، مؤلفاته مقبولة عند جميع الناس ، حتى صار من بعده عبلا عليه ، نصر العقيدة الإسلامية نصراً مؤزراً ، ورد على المبتدعة نظماً ونثراً ، لاسيما المتكلسفة والقبورية والمأولية والمتصوفة ، رحمه الله رحمة واسعة ، فقد جدد هو وشيخه دين الله ، فكانا منقطعاً في حياة الأمة الإسلامية. انظر ترجمته في «شذرات الذهب» لابن العماد و«ذيل طبقات الخنابلة» لابن رجب ، ومن أجمع من ترجم له الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد رحمه الله في كتابه «ابن قيم الجوزية ، حياته وأثاره».

² يعني عدي بن حاتم رضي الله عنه.

³ سورة البقرة: 187.

⁴ يعني عديا ، الصحابي نفسه.

⁵ سورة البقرة: 186.

⁶ سورة البقرة: 196.

⁷ «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» (210/1 – 212) باختصار.

وقد نَتَازَ الصَّحَابَةُ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَسَائِلِ الْأَحْكَامِ، وَهُمْ سَادَاتُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَكْمَلُ الْأُمَّةِ إِيمَانًا ، وَلَكِنْ بِحَمْدِ اللَّهِ لَمْ يَتَنَازَعُوا فِي مَسَأَلَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ مَسَائِلِ الْأَسْمَاءِ وَالصَّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ ، بَلْ كُلُّهُمْ عَلَى إِثْبَاتِ مَا نَطَقَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنْنَةُ كَلِمَةً وَاحِدَةً مِنْ أَوْلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ ، لَمْ يَسُومُوهَا¹ تَأْوِيلًا ، وَلَمْ يُجْرِفُوهَا عَنْ مَوَاضِعِهَا تَبَدِيلًا ، وَلَمْ يُبْذُدُوا لِشَيْءٍ مِنْهَا إِبْطَالًا ، وَلَا ضَرَبُوا لَهَا أَمْثَالًا ، وَلَمْ يَدْعُوهَا فِي صُدُورِهَا وَأَغْجَارِهَا ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ: (يَجِبُ صَرْفُهَا عَنْ حَقَائِقِهَا وَحَمْلُهَا عَلَى بَحَارِهَا) ، بَلْ تَلَقُّوهَا بِالْقَبُولِ وَالتَّسْلِيمِ ، وَقَابِلُوهَا بِالْإِيمَانِ وَالتَّعْظِيمِ ، وَجَعَلُوا الْأَمْرَ فِيهَا كُلَّهَا أَمْرًا وَاحِدًا ، وَأَجْرَوْهَا عَلَى سَنَنِ وَاحِدٍ² ، وَلَمْ يَقْعُلُوا كَمَا فَعَلَ أَهْلُ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ ، حَيْثُ جَعَلُوهَا عِصْبَيْنَ³ ، وَأَفْرَوْهَا بِعَضِّهَا وَأَنْكَرُوهَا بَعْضَهَا مِنْ عَيْرِ فُرْقَانٍ مُبِينٍ ، مَعَ أَنَّ الْلَّازِمَ لَهُمْ فِيمَا أَنْكَرُوهُ كَاللَّازِمِ فِيمَا أَفْرَوْهُ بِهِ وَأَنْبَتوهُ.⁴

وقال ابن عبد المادي الحبلي⁵ رحمه الله في «الصَّارِمُ المنْكِي»:

وَلَا يَجُوزُ إِحْدَاثُ تَأْوِيلٍ فِي آيَةٍ أَوْ سُنْنَةٍ لَمْ يَكُنْ عَلَى عَهْدِ السَّلْفِ وَلَا عُرْفُوهُ وَلَا بَيْنُوهُ لِلْأُمَّةِ ، فَإِنْ هَذَا يَضْمُنُ أَنْهُمْ جَهَلُوا الْحَقَّ فِي هَذَا وَضَلُّوا عَنْهُ ، وَاهْتَدَى إِلَيْهِ هَذَا الْمُعْتَرَضُ الْمُسْتَأْخِرُ⁶ ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ التَّأْوِيلُ يَخَالِفُ تَأْوِيلَهُمْ وَيَنَاقِضُهُ؟⁷

ولما كان إثبات الصفات كما جاءت هو طريق الصحابة؛ لم يختلفوا رضي الله عنهم في شيء منها، بخلاف من أتى بعدهم من أهل التحرير والتمثيل وغيره من المسالك المعوجة.

أقوال المالكية

¹ السُّوْمُ هُوَ تَجْشُمُ إِنْسَانٍ مِشْتَقَةُ أَوْ ظُلْمٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى (يَسُومُنَّكُمْ سُوءُ الْعَذَابِ) ، فَسُومُ الْأَسْمَاءِ وَالصَّفَاتِ تَأْوِيلًا – كَمَا فِي السِّيَاقِ هُنَّا – أَيْ ظُلْمُهَا بِذَلِكِ التَّأْوِيلِ ، وَغَمْطُهَا حَقُّهَا الشَّرْعِيُّ وَهُوَ إِمْرَاهَا كَمَا جَاءَتْ.

² أي طريقة واحدة.

³ عِصْبَيْنِ أَيْ مُفْرَقَةٍ ، تَفَرَّقُ كَلَامُهُمْ فِيهَا وَانْخَلَفُ.

⁴ (91/2)، تَحْقِيقُ مُشْهُورِ حَسَنِ سَلْمَانَ ، النَّاشرُ: دَارُ ابْنِ الجُوزِيِّ – الدَّمَامُ.

⁵ هُوَ الْإِمَامُ الْعَالَمُ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنُ عَبْدِ الْمَادِيِّ بْنُ قَدَّامَةِ الْمَقْدُسِيِّ الْحَبْلِيِّ ، مِنْ تَلَامِذَةِ جَمَالِ الدِّينِ الْمَزِيِّ وَشِيخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةِ وَالْذَّهَبِيِّ ، قَالَ الذَّهَبِيُّ: (مَا اجْتَمَعَتْ بِهِ قُطُّ إِلَّا وَاسْتَفَدَتْ مِنْهُ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى). عَنِ الْحَدِيثِ وَفُنُونِهِ ، عَدَّ لَهُ ابْنُ رَحْبَرٍ فِي تَرْجِمَتِهِ فِي كِتَابِ «ذِيلِ طَبَقَاتِ الْخَنَابَلَةِ» مَا يَنْبَدِدُ عَلَى سِعْيِهِ مِنْ صِنْفِهِ ، تَوَفَّ فِي سَنَةِ 744 وَعُمُرُهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً أَوْ أَقْلَى.

انظر ترجمته في آخر كتاب «تذكرة الحفاظ» للذهبي ووصفه هناك بـ«إمام الأوحد»، و«ذيل تذكرة الحفاظ» لـمحمد بن علي الحسبي، ص 32، و«الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لـابن حجر، و«ذيل على طبقات الخنابلة» لـابن رحبي الحبلي، (5/115)، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة العبيكان - الرياض.

⁶ أي الذي جاء في القرون المتأخرة، التي تلت القرون الثلاثة المفضلة.

⁷ ص 321، الناشر: دار الإفتاء بالمملكة العربية السعودية.

روى الإمام محمد بن عبد الله بن أبي زمنين الأندلسبي رحمه الله بسنده عن عبد الرحمن بن القاسم رحمه الله¹ قال: لا ينبغي لأحد أن يصف الله إلا بما وصف به نفسه في القرآن ، ولا يُشَبِّهَ يديه بشيء ، ولا وجهه بشيء ، ولكن يقول: له يدان كما وصف نفسه في القرآن ، وله وجه كما وصف نفسه ، يقف عند ما وصف به نفسه في الكتاب ، فإنه تبارك وتعالى لا مثل له ولا شبيه ، ولكن هو الله لا إله إلا هو كما وصف نفسه ، ويداه مبسوطتان كما وصفها **﴿والأرض جيئا قبضته يوم القيمة والسموات مطويات بيمينه﴾**² كما وصف نفسه.³

وقال الإمام أبو عمرو الداني⁴ رحمه الله بعدهما روى عن مكحول والزهري قولهما في الصفات: (أمير الأحاديث كما جاءت) ، قال:

وهذا دين الأمة ، وقول أهل السنة في هذه الصفات أن ثُمَرَّ كما جاءت بغير تكيف ولا تحديد ، فمن تجاوز المروي فيها وكيف شيئاً منها ومثلها بشيء من حوارينا وآلاتنا فقد ضلَّ واعتدى ، وابتَدَعَ في الدين ما ليس منه ، **وخرق إجماع المسلمين** ، وفارق أئمة الدين.⁵

وقال حافظ المغرب أبو عمر ، ابن عبد البر⁶ المالكي رحمه الله: ليس في الاعتقاد كُلُّه في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء منصوصاً في كتاب الله أو صَحَّ عن رسول الله ﷺ أو أَجْمَعَت عليه الأمة ، وما

جاء من أخبار الآحاد في ذلك - كُلُّه أو نحوه - يُسَلِّمُ له⁷ ولا يُنَاطِرُ فيه.

¹ هو الإمام عبد الرحمن بن القاسم ، قال عنه الذهبي في «تاريخ الإسلام» (1149/4): أحد الأعلام ، وأكبر أصحاب مالك القائمين بمذهبة ... توفي سنة إحدى وتسعين وستة. انتهى.

² سورة الزمر: 67 .

³ «أصول السنة» ، ص 42 ، تحقيق أحمد بن علي القفيلى ، الناشر: دار الفرقان – مصر.

⁴ هو الحافظ الإمام شيخ الإسلام أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الأموي القرطبي الداني ، كان أحد الأئمة في علم القراءات ، وله عدة تواлиيف ، وله كتاب «الأرجوزة في أصول السنة» في نحو ثلاثة آلاف بيت ، قال الذهبي: بلغني أن مصنفاته مئة وعشرون تصنيفاً. مات رحمه الله سنة 444 ، انظر ترجمته في «تنكرة الحفاظ» (212/3) ، و«تاريخ الإسلام» (659/9) ، و«معرفة القراء الكبار» كلها للذهبي.

⁵ «الرسالة الواقية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الديانات» ، 56 – 59 .

⁶ هو شيخ الإسلام ، حافظ المغرب ، أبو عمر ، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر التمّري ، الأندلسبي ، القرطبي ، المالكي ، محدث فقيه ، صاحب التصانيف الفائقة ، أشهرها كتاب «الممهيد» في شرح أحاديث موطأ مالك ، وكتاب «الاستذكار» في شرح آثاره ، وكتاب «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» ، و«جامع بيان العلم وفضله» ، له رواية للحديث البوي ، توفي سنة 463 ، انظر ترجمته في «تنكرة الحفاظ» (217/3).

⁷ أي يُسَلِّمُ للخبر ، فأخبار آحاد الناس مقبولة إن صحت.

ثم روى بسنده عن الأوزاعي قال: كان مكحول² والزهري³ يقولان: أرُووا هذه الأحاديث كما جاءت ، ولا شارطوا فيها.

قال أبو عمر⁴: نحو حديث التنزيل ، وحديث: إن الله عز وجل خلق آدم على صورته ، وأنه يدخل قدمه في جهنم ، وأنه يضع السماوات على إصبع ، وأن قلوب بني آدم بين أصابع من أصابع الرحمن ، يُقلّلها كيف يشاء ، وإن ربيكم ليس بأعور ، وما كان مثل هذه الأحاديث.⁵

وقال الإمام محمد بن أحمد القرطبي المالكي⁶ رحمه الله:

إذا كان معلوماً أن إثبات الباري سبحانه إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية ؛ فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف ، فإذا قلنا: (يد وسمع وبصر ونحوها) ؛ فإنما هي صفات أثبتها الله تعالى لنفسه ، لا نقول (إن معنى اليد: القوة والنعمة) ، ولا (معنى السمع والبصر: العلم) ، ولا نقول: (إنما جوارح وأدوات الفعل) ، ذهب إلى القول بهذا جماعة من الأئمة ، فلم يتأولوا ، وكذلك جميع الصفات أجروها على ظاهرها ، ونفوا الكيفية والتشبيه عنها.⁷

قلت: وانظر ما قاله الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي⁸ رحمه الله وهو من متأخري المالكية ، فقد قرر ما قرره أسلافه ، ولولا خشية الإطالة لنقلنا كلامه ، ولذا نكتفي بالإحالـة على ما قرره في هذا الباب.¹

¹ المناقضة هي المناقشة بين طرفين ، فقوله (لا يُنظر فيه) أي لا يجعل صفات الله تعالى عرضةً للمناقشة والجدل ، بل الواجب هو التسلیم لمعناها الظاهر وإمارتها كما جاءت.

² هو عالم أهل الشام ، أبو عبد الله مكحول بن أبي مسلم المذلي ، الفقيه الحافظ ، مات سنة 113 . انظر «تذكرة الحفاظ» (1/82).

³ هو أعلم الحفاظ ، أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري ، مات سنة 124 ، وقيل غير ذلك. انظر «تذكرة الحفاظ» (1/83).

⁴ أبو عمر هي كنية ابن عبد البر رحمه الله.

⁵ «جامع بيان العلم وفضله» ، باب ما يكره فيه المناقضة.

⁶ «إمام متمن متبحر في العلم ، له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور فضله ، وقد سارت بتفسيره العظيم الشأن الركبان ، وهو كامل في معناه ، وله كتاب «الأنسى في شرح أسماء الله الحسنى» ، وكتاب «التذكرة» وأشياء تدل على إمامته وذكائه وكثرة اطلاعه». انتهى باختصار يسير من «تاريخ الإسلام» للذهبي (15/229-230). توفي رحمه الله سنة 671 هـ.

⁷ «الأنسى في شرح أسماء الله الحسنى» (10/2) ، باختصار يسير. الناشر: دار الصحابة للتراجم - طنطا.

⁸ هو الشيخ العالمة الأصولي المفسر ، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، من علماء القرن الرابع عشر الميلادي ، كان غزير العلم ، متقد الذكاء ، ذو حافظة نادرة ، ذو بصيرة بمناذب المتكلمين ووجوه بطلاخها ، انظر ما قاله رحمه الله عند تفسير الآية 54 من سورة الأعراف.

والشيخ نحو عشرين كتابا ، أكثرها في التفسير والفقه والعقيدة ، أشهرها ذكر «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» ، و «مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر» ، وقد جُمعت مؤلفاته في موسوعة علمية واحدة «آثار الشيخ محمد الأمين الشنقيطي».

خلاصة

خلاصة ما تقدم من التقريرات العلمية أن أهل السنة يفهمون صفات الله تعالى كما فهمها النبي ﷺ وصحابته والتابعون ، أصحاب القرون الثلاثة الأولى ، من غير غلو ولا جفاء ، فلا يُغالون في إثبات الصفات بتمثيلها بصفات المخلوقين ، ولا يقفون من صفات الرب موقف الجفاء بنفي حقائقها ومعانيها كما فعلت الجهمية ، بل يقفون موقفاً وسطاً ، فيؤمنون مثلاً بمحيء الرب يوم القيمة لفصل القضاء بين العباد بحسب معنى المحيء المفهوم في اللغة العربية التي خاطبهم الله بها ، ويؤمنون به ، ولكنهم لا يُمثلونه على نحو معين ، وذلك لسببين ؛ الأول: أن كيفية صفات الرب من الغيب الذي أحفاه الله عنا ، وما كان من الغيب فتصوره في الذهن من العبث.

والثاني أن أهل السنة يؤمنون أن الله ﷺ ليس كمثله شيءٌ ، والمثلية تعم ذاته وصفاته ، فإذا كان الأمر كذلك فادعاء علم كيفية صفاته من الكذب والقول على الله بغير علم ، حمانا الله من ذلك.

فصل في بيان الواجب الثاني في أسماء الله وصفاته

أما الأمر الثاني الواجب في أسماء الله وصفاته فهو التوقف في إثبات الأسماء والصفات على ما جاء في الكتاب والسنة² ، وعدم اختراع أسماء وصفات الله لم ترد فيهما ، وهذا هو هدي السلف رحهم الله ، قال الإمام أحمد: لا يوصف الله بشيء أكثر مما وصف به نفسه عز وجل.³

توفي رحمه الله عام 1393 هـ.

باختصار من ترجمته المذكورة في مقدمة كتاب «الأضواء» ، الناشر: دار عالم الفوائد - مكة.

¹ انظر المراجع التالية:

1. «منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات» ، وقد طبع عدة طبعات.

2. كتابه «أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن» ، تفسير سورة الأعراف: الآية 54 .

3. كتابه «منع جواز المجاز في المتن للتبعد والإعجاز» ، فصل: (بيان معنى الحقيقة في آيات الصفات) ، وهو مطبوع مع كتابه «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» ، ضمن مجموعة مؤلفاته الموسومة: (آثار الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي) ، الناشر: دار عالم الفوائد - مكة.

² ما تقدم ذكره هو الأمر الأول الواجب في أسماء الله وصفاته ، وهو: فَهُمْ هُنَّا كَمَا جَاءَتْ ، كما تقدمت الإشارة إليه في أول هذا القسم من الكتاب ، ومن هنا يبدأ الكلام في الأمر الثاني الواجب في أسماء الله وصفاته.

³ رواه القاضي أبو يعلى عنه في «طبقات المحابية» (386/1) في ترجمة حبيل بن إسحاق.

وقال مُطَرِّف بن عبد الله بن الشَّحْيَر¹: الحمد لله الذي من الإيمان به الجهل بغير ما وصف من نفسه.
ثم أخذه عنه عبد العزيز بن الماجشون² ، ثم أخذه عنه سحنون³.
وقال ابن عبد البر المالكي رحمه الله:
ألا ترى أنا نقول: له عرش ، ولا نقول: له سرير ، ومعناهما واحد.
ونقول: هو الحكيم ، ولا نقول: هو العاقل.
ونقول: خليل إبراهيم ، ولا نقول: صديق إبراهيم ، وإن كان المعنى في ذلك كله واحدا.

لا نسميه ولا نصفه ولا نطلق عليه إلا ما سمى به نفسه ، على ما تقدم ذكرنا له من وصفه لنفسه لا
شريك له ، ولا ندفع ما وصف به نفسه ، لأنه دفع للقرآن⁵.

¹ هو الإمام القدوة الحجة مطرف بن عبد الله بن الشَّحْيَر العامري البصري ، أحد الأعلام ، حدث عن عثمان وعلي وأبي ذر وأبيه وعمار بن ياسر وعمران بن حصين وعائشة وعياض بن حمار وعبد الله بن مغفل رضي الله عنهم.

انظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» (1172/1) ، و«السير» (187/4) ، كلاماً للذهبي رحمه الله.
وقال ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (72/7): كان ثقة ، له فضل وورع ورواية وعقل وأدب.

² هو الإمام العلم الفقيه ، عبد العزيز بن عبد الله بن الماجشون ، من أفران الإمام مالك ، قال ابن وهب: حججت مرة فسمعت منادٍ ينادي:
لا يفتي إلا مالك وعبد العزيز بن الماجشون". توفي رحمه الله سنة 164 . انظر ترجمته في «تذكرة الحفاظ» (1/163).

³ سحنون يفتح السنين وضمنها هو الإمام العلامة فقيه المغرب ، عبد السلام بن حبيب الشَّتوحي المالكي ، قاضي القیروان ، ساد أهل المغرب في تحرير المذهب المالكي ، وانتهت إليه رئاسة العلم. من أعظم آثاره العلمية كتاب «المدونة» ، والتي دوَّنَ فيها أسئلة أسد بن الفرات لابن القاسم المالكي ، شيخ سحنون. توفي رحمه الله سنة 240 هـ. انظر ترجمته في «السير» (12/63).

⁴ قال ابن عبد البر في «التمهيد» (6/136): قال سحنون: من العلم بالله ؟ الجهل بما لم يخبر به عن نفسه.
وذكره ابن قدامة المقدسي الحنبلي عنه في «ذم التأويل» ، ص 263 .

وهذا الكلام أخذه سحنون عن ابن الماجشون ، قال: أخبرني الثقة عن الحسن بن أبي الحسن قال: لقد تكلم مطرف ابن عبد الله بن الشَّحْيَر على هذه الأعواد بكلام ما قبله ولا يقال بعده.

قالوا: وما هو يا أبي سعيد؟

قال: الحمد لله الذي من الإيمان به الجهل بغير ما وصف من نفسه.

انتهى كلام ابن عبد البر رحمه الله من «التمهيد» من كتاب القرآن ، باب ما جاء في الدعاء ، وهو في (7/146) من ط المغربية.
⁵ أي رد للقرآن.

⁶ «التمهيد» (6/129) ، كتاب القرآن ، باب ما جاء في الدعاء ، وهو في (7/136) من ط المغربية.

فصل في بيان ما ينافي الإيمان بأسماء الله وصفاته

مقدمة

ضد الإيمان بأسماء الله وصفاته الإلحاد فيها ، قال تعالى ﴿وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُوا الَّذِينَ يَلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سِيْجِزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾¹.

والإلحاد في اللغة هو الميل ، ومنه سمي اللحد في القبر لحدا ، لأنَّه مائل إلى جانب القبر ، فالإلحاد في أسماء الله وصفاته هو الميل فيها عمَّا يجب فيها من الحقوق² ، وهو منافٍ للإيمان بأسماء الله وصفاته ، ومن القول على الله بلا علم ، ومن البدع الكلامية التي اشتَدَّ نكير السلف الصالح وأتباعهم على القائلين بها ، ومن المعاصي التي توعَدُ الله فاعليها بالعذاب عيادة بالله كما في الآية المتقدمة ﴿سِيْجِزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

والإلحاد أنواع ثمانية ، نذكرها على سبيل السرد ، ثم نشرح كل واحدٍ منها بما يسر الله تعالى:

الأول: التعطيل

الثاني: التمثيل

الثالث: التكثيف

الرابع: التحرير

الخامس: التفويض

السادس: تسمية الله بما لم يُسمِّ به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ ، أو وصفه بما لم يصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ .

السابع: إنكار أن يكون لله أسماء

الثامن: اشتقاء أسماء للمعبودات الباطلة من أسماء الله الحسنى

فصل

قبل الدخول في شرح أنواع الإلحاد في أسماء الله وصفاته ؛ فإنه يحسن التنبيه إلى أن هذه الأنواع الثمانية أو أكثرها ليست إلا منتجات ما يسمى بعلم الكلام ، وهو العلم الذي يبحث في ذات الله وصفاته على

¹ سورة الأعراف: 180 .

² تقدم في أول هذا البحث ذكر أن الواجب في أسماء الله تعالى وصفاته أمران: الأول: فهمها كما جاءت ، والثاني: الوقوف على الوارد منها.

طريقة الفلاسفة ومنتجات عقول البشر ، وليس من منطلق فهم السلف الصالح ، الذي قاعدهته التسلية للكتاب والسنّة ، وفهم النبي ﷺ وصحابته لآيات الصفات.

تعلم الكلام يدور على إثبات أمور العقائد بالأدلة العقلية والطرق الجدلية مع الإعراض عمّا في القرآن والسنّة من الأدلة النقلية الدالة على أصول الدين.

ولا شك أن من قدم العقل على الشرع ، واستغنى بفهمه وعقله عن فهم النبي ﷺ وصحابته فإنه ضال ، ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله: لا يفلح صاحب كلام أبدا ، ولا تكاد ترى أحدا نظر في الكلام إلا وفي قوله دغل¹.

وقال الشافعي رحمه الله: من ارتدى بالكلام لم يفلح.³

وقال أيضا: حكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال ، ويُحملوا على الإبل ، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل ، وينادي عليهم: هذا جزء من ترك الكتاب والسنّة ، وأقبل على الكلام.⁴

قال ابن القيم رحمه الله بعدما نقل كلام الشافعي: وقد اتفقت الأئمة الأربع على ذم الكلام وأهله ، وكلام الإمام الشافعي ومذهبة فيه معروف عند جميع أصحابه.⁵

قلت: وما يبين بطلان علم الكلام تراجع بعض أئمته عنه ، فمن ذلك ما قاله إمام الحرمين ، شيخ الشافعية ، أبو المعالي ، عبد الملك بن الإمام عبد الله بن يوسف الجونياني النيسابوري⁶ رحمه الله في مرض مorte متراجعاً عن المقالات الكلامية التي كان يقول بها:

¹ الدغل هو الفساد. انظر «لسان العرب».

² رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (1796).

³ رواه البيهقي بإسناده عن الشافعي في كتابه «مناقب الشافعي» (463/1).

⁴ رواه البيهقي بإسناده عن الشافعي في كتابه «مناقب الشافعي» (462/1) ، وابن أبي حاتم الرازي في «آداب الشافعي ومناقبه» (ص 143) ، وكذا ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (1794).

⁵ «إعلام الموقعين» (220/4) ، فصل: فقهاء المذهب المقلدون – إخراج النصوص عن ظاهرها بالتأويل الفاسد.

⁶ هو إمام الحرمين ، أبو المعالي ، عبد الملك بن الإمام عبد الله بن يوسف الجونياني ، النيسابوري ، شيخ الشافعية في زمانه ، وقع في الاعتزال في أول أمره ، ثم لما أراد الله به خيراً رجع إلى طريقة أهل السنّة والجماعة ، وألف في ذلك كتاب «رسالة الناظمة في الأحكام الإسلامية» ، وله مقالات مشهورة عنه قالها بعد تراجعه عن الاعتزال ، منها قوله: (لو استقبلت من أمري ما استدررت ما اشتغلت بالكلام) ، أي علم الكلام ، وهو العلم الذي يبحث في ذات الله وصفاته على طريقة الفلسفه ومنتجات عقول البشر ، وليس من منطلق فهم السلف الصالح ، الذي قاعدهته التسلية للكتاب والسنّة ، وفهم النبي ﷺ وصحابته ، فهو لا يعود عن كونه كلام البشر ، فسمي بعلم الكلام ، وهو مذموم بلا شك ، ودرجة الانحراف فيه تتفاوت بحسبه.

وما قاله رحمه الله متراجعاً عن المقالات الكلامية ؟ قوله في مرض مorte: أشهدوا عليّ أني قد رجعت عن كل مقالة تخالف السنّة ، وأنّي مorte على ما يموت عليه عجائز نيسابور.

وقال يوماً لأصحابه: يا أصحابنا ، لا تستغلوا بالكلام ، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به.

اشهدوا علي أني قد رجعت عن كل مقالة تخالف السنة ، وأني أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور .
وقال يوماً لأصحابه: يا أصحابنا ، لا تشتبهوا بالكلام ، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به .

وقال مرّةً: لو استقبلت من أمري ما استدررت ما اشتغلت بالكلام .
وله كلام طويل في تراجعه عن مذهب الكلام ذكره في رسالته المعروفة بـ «الرسالة النظمية» ، ونقلها الذهبي في ترجمته في «سير أعلام النبلاء»¹ .

وكلام السلف في ذم علم الكلام كثير جداً ، وقد ألف شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري المروي كتاباً ضخماً بعنوان «ذم الكلام وأهله» ، فليراجعه من أراد التوسع .

توفي رحمه الله سنة 478 ، وقد ترجم له الذهبي في «السير» (468/18).
¹ (468/18).

شرح أنواع الإلحاد الشمانية

الأول: التعطيل ، وهو التفريغ ، أي تفريغ الاسم أو الصفة عما ذكرت عليه من معنى ، لأن معنى التعطيل في اللغة هو التخلية والترك ، ومنه قوله تعالى ﴿وَيُرِكُ مَعْتَلَةً﴾¹ ، أي متراكمة ومهجورة ، وحقيقة التعطيل إنكار ما أثبت الله لنفسه من الأسماء والصفات ، سواء كان تعطيلاً كلياً أو جزئياً ، سواء كان ذلك بتحريف المعنى أو جحده.

وتعطيل أسماء الرب وصفاته هو منهج الجهمية كما ذكرنا في أول هذا الكتاب ، ولذا يسمون أيضاً بالمعطلة ، وشبهتهم فيما ذهبا إليه أن إثبات الأسماء والصفات يستلزم تشبيه الله بخلقه ، وهذا الرعم باطل لوجوه منها:

الأول: لو كان إثباتها يستلزم التشبيه للزم التناقض في كلام الله ، وتکذيب بعضه بعضاً ، وهذا مُحال ، والحق أن الله تعالى أثبت لنفسه الأسماء والصفات ، مع نفيه أن يكون كمثله شيء.

الثاني: أنه لا يلزم من اتفاق الشيئين في اسمٍ أوصفيه أن يكونا متماثلين ، فأنت ترى الشخصين يتفقان في كون كُلِّ منهما سعيًا بصيراً متكلماً ، ولا يلزم من ذلك أن يتماثلا في قُدرات السمع والبصر التي يتمتع بها كل واحد منهم ، وترى الحيوانات لها أيدٍ وأرجلٍ وأعینٍ ، ولا يلزم من هذا الاتفاق أن تكون أيديها وأرجلها وأعینها متماثلةً في صورها.

إذا ظهر التباين بين المخلوقات فيما تتفق فيه من أسماء أو صفات ؛ فالتباهي بين الخالق والمخلوق أبيض وأعظم.

وما من معطلٍ عطلٌ صفةً لله تعالى إلا وقع في شرٍّ مما زعم أنه فرّ منه ، فالذين تأولوا نصوص العلو والفوقة والاستواء بداعٍ لتنزيه الله – بزعمهم – من التحيز والمحسّر ، وقالوا: (هو في كل مكان) ؛ وقعوا في شرٍّ من تنزيههم المزعوم ، وهو ما يلزم من كلامهم من أن الله يحل في أجوف الحيوانات وأماكن الخلاء ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.²

¹ سورة الحج: 45 .

² انظر للتوضي في معرفة بطلان مقوله الجهمية والمعطلة (إن إثبات الصفات لله يستلزم التشبيه) هذان المصادران:
الأول: «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» ، الفصل الثامن: في بيان خطفهم في فهمهم من النصوص المعانى الباطلة التي تأولوها لأجلها ، فجمعوا بين التشبيه والتعطيل. وقد رد هذه الشبهة من أحد عشر وجهاً.

الثاني: ما ذكره الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي رحمة الله في «أضواء البيان» ، تفسير سورة محمد ، الآية 24 من عند قوله رحمة الله: وما ذكرنا يتبيّن أن من أعظم أسباب الضلال ادعاء أن ظواهر الكتاب والسنة دالة على معانٍ قبيحة ليست بلاشرقة ...

كلمة جامعة في هذا الباب

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في كتابه «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» في تفسير قول الله تعالى ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلْلٍ مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُور﴾¹:

وهذه الآية وما أشبهها دليل مذهب أهل السنة والجماعة المثبتين للصفات الاختيارية ، كالاستواء ، والنزول ، والمجيء ، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه ، أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ ، فيشيرونها على وجه يليق بجلال الله وعظمته ، من غير تشبيه ولا تحريف ، خلافاً للمعطلة على اختلاف أنواعهم ، من الجهمية والمعتزلة والأشعرية ونحوهم من ينفي هذه الصفات ويتأول لأجلها الآيات بتاويلات ما أنزل الله عليها من سلطان ، بل حقيقتها القدح في بيان الله وبيان رسوله ، والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصل به المداية في هذا الباب ، فهو لاء ليس معهم دليل نقلني ، بل ولا دليل عقلي ، أما النقل ف قد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة ، ظاهرها بل صريحها ، دال على مذهب أهل السنة والجماعة ، وأنها تحتاج لدلائلها على مذهبهم الباطل أن تخرج عن ظاهرها ويزاد فيها وينقص ، وهذا كما ترى لا يرضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأما العقل فليس في العقل ما يدل على نفي هذه الصفات ، بل العقل دل على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر على الفعل ، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه والمتعلق بخلقه هو كمال ، فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه ، قيل لهم: الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات ، فكما أن الله ذاتا لا تشبهها الذوات ، فليله صفات لا تشبهها الصفات ، فصفاته تبع لذاته ، وصفات خلقه تبع لذواتهم ، فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه بوجه.

ويقال أيضاً من أثبت بعض الصفات ونفي بعضاً ، أو أثبت الأسماء دون الصفات: إما أن ثبت الجميع كما أثبته الله لنفسه وأثبته رسوله ، وإما أن تنفي الجميع وتكون منكراً لرب العالمين ، وأما إثباتك بعض ذلك ونفيك لبعضه فهذا تناقض ، ففرق بين ما أثبتتُه وما نفيتُه ، ولن تجد إلى الفرق سبيلاً.

فإن قلت: ما أثبتتُه لا يقتضي تشبيها ، قال لك أهل السنة: والإثبات لما نفيته لا يقتضي تشبيها. فإن قلت: لا أعقل من الذي نفيتُه إلا التشبيه ، قال لك النفاهة: ونحن لا نعقل من الذي أثبتتُه إلا التشبيه ، فما أجبت به النفاهة أجابك به أهل السنة لما نفيتُه.

والحاصل أن من نفي شيئاً وأثبت شيئاً مما دل الكتاب والسنة على إثباته فهو متناقض ، لا يثبت له دليل شرعي ولا عقلي ، بل قد خالف المعقول والمنقول.

¹ سورة البقرة ، الآية 210.

انتهی کلامہ رحمہ اللہ۔

نوع الثاني من أنواع الإلحاد هو التمثيل ، وهو دعوى أن صفات الله - أو بعضها - تمثل صفات المخلوقين ، وشبهة من ادعى ذلك أن الله خاطب الناس بما يفهمون ويعقلون ، فإذا وصف الله نفسه بأن له وجهًا ؛ ليم من ذلك - بزعمهم - أن وجهه كوجوه المخلوقين ، بزعمه ، لأن الوجه هو ما يتعارف الناس عليه ، وأكمل الوجوه وجوه البشر ، فوجه الله كوجه الإنسان ، هكذا قالوا!
وهذا الأعم باطلٌ من أربعة أوجه:

الأول: أن مشابهة الله تعالى لخلقه أمر باطل يبطله الشرع والعقل ، فاما دليل الشرع فقوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ ، قوله ﴿فلا تضربوا الله الأمثال﴾¹ ، قوله ﴿هل تعلم له سبيلا﴾² ، والسمعي هو المُسامي أي المماثل ، قوله ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾³ ، قوله ﴿فلا تجعلوا الله أندادا﴾⁴ ، والآندر هو النظير والمماثل ، ولا يمكن أن يكون مقتضى نصوص الكتاب والسنة أمراً باطلا.

وأما دلالة العقل على بطلان مماثلة الخالق للمخلوق ظاهرٌ ، لما بينهما من التباين العظيم ، فالخالقُ مُوَجَّدٌ والمخلوقُ مُوْجَدٌ ، والخالق أَبِدِيُّ الْوَجُودِ والمخلوقُ فَانٍ.

الثاني: أن الله تعالى خاطب العباد بما يفهمون من حيث أصل المعنى ، أما حقيقة وُكْنَه ذلك المعنى فهو من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه ، سواء فيما يتعلق بذاته أو صفاتاته.

فإذا أثبتت الله لنفسه أنه سميع ، فإن السمع معلوم من حيث أصل المعنى ، وهو إدراك الأصوات ، لكن حقيقة ذلك بالنسبة إلى سمع الله تعالى غير معلومة ، لأن حقيقة السمع تتباين حتى في المخلوقات ، فالتبابين فيها بين الخالق والمخلوق أبين وأعظم.

وإذا أخبر الله تعالى عن نفسه أنه استوى على عرشه ؛ فإن الاستواء من حيث أصل المعنى معلوم ، لكن حقيقة الاستواء التي هو عليها غير معلومة ، لأن حقيقة الاستواء تبادر في حق المخلوق ، فليس الاستواء على كرسي مستقر كالاستواء على رَحْلٍ⁵ بغير صعبٍ نفور ، فإذا تبادرت في حق المخلوق ؛ فالتبادر فيها بين الخالق والمخلوق أبين وأعظم.

١ سورة الشورى ، الآية: ١١ .

٦٥ الآية ، مريم ، سورة ٢

3 سورة الاخلاص : ٤

٤- سورة الرقة، الآية: ٢٢

⁵ الرَّحْمَةُ هُوَ مَا يَوْضِعُ عَلَى ظَهِيرَةِ الْعَيْنِ لِلرَّكَبِ. انظر «المعجم الوسيط».

الثالث: أن تشبيه الخالق بالملحق فيه تنقصُ للخالق ، لأن المخلوق ناقص في صفاته كما هو معلوم ، وتنقصُ الخالق كفُرٌ عيادةً بالله ، كما هو معلوم.¹

الرابع: أن الوجه الوارد في الآية مضاد إلى الله تعالى ، والمضاف يكون بحسب ما أضيف إليه ، فوجه الإنسان يليق بالإنسان ، ووجه الله يليق بالله ، ووجه المهر يليق بالمهر ، وهكذا.

فنحن نثبت للإنسان وجها وللأسد وجها وللهر وجها ، ولا يلزم من هذا الإثبات التماشى.

والمنهج الذي يسير عليه أهل السنة والجماعة – جعلنا الله منهم – إثبات الصفات لله عز وجل بدون مماثلة ، فيقولون: إن الله عز وجل له حياة ولكنها ليست كحياتنا ، فحياة الله كاملة ، ليس لها بداية ولا نهاية ، كما قال تعالى ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾² ، أما المخلوق فحياته محدودة ببداية ونهاية.

وكذلك يصفون الله بالعلم ، ولكنه علم كامل ، لا يعتريه نقص ولا نسيان كما هو الحال بالنسبة لعلم المخلوقين ، وكذلك يصفونه بأن له يدا ، ولكنها ليست كيد المخلوق ، وهكذا العين والستار والوجه وغيرها من الصفات الواردة في الكتاب والسنة.

فصل في ذكر بعض ما جاء عن السلف في ذم تشبيه الله بخلقه

الأثر الأول: روى الذهبي بإسناده إلى نعيم بن حماد الخزاعي – شيخ البخاري – قال: من شبَّهَ الله بخلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيها.³

وذكره اللالكائي⁴ عن عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: قال نعيم بن حماد: من شبَّهَ الله بشيءٍ من خلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، فليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيها.⁵

وذكر اللالكائي عن عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: قال إسحاق بن راهويه⁶:

¹ «العلو» رقم 464 ، وكذا ذكره في كتاب «العرش» ص 93 - 94 ، وصححه.

² سورة الحديد: 3 .

³ «العلو» رقم 464 ، وخرجه في «سير أعلام النبلاء» (610/10) من طريق آخر ، وذكره في كتاب «العرش» ص 93 - 94 وصححه.

⁴ هو الإمام الحافظ المُحَكَّم ، أبو القاسم ، هبة الله بن الحسن بن منصور الطبراني الرazi الشافعي اللالكائي ، صنف كتابه المشهور «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم» ، وهو كتاب مصنف بالأسانيد ، توفي رحمه الله سنة 418 . انظر ترجمته في «السير» (419/17).

⁵ «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» ، رقم (936).

⁶ هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي أبو محمد بن راهويه المروزي ، ثقة حافظ مجتهد ، مات سنة 38 . انظر ترجمته في «السير» (358/11).

من وصفَ الله فشبَّه صفاتَه بصفاتٍ أُحدِّ من خلقَ الله فهو كافر بالله العظيم ، لأنَّه وصفَ لصفاته ، إنما هو استسلام لأمرَ الله ولِمَا سَنَ الرسول ﷺ.¹

وقد علَّقَ الذهبي رحمه الله على قول نعيم بن حماد المتقدم بقوله:

هذا الكلام حق ، نعوذ بالله من التشبيه ومن إنكار أحاديث الصفات ، فما يُنكر ثابت منها مَنْ فَتَّه ، وإنما بَعْدَ الإيمان بها هنا مقامان مذمومان:

تأويلها وصرفها عن موضوع الخطاب ، فما أَوْلَاهَا السلف ولا حرَفوا ألفاظَها عن مواضعها ، بل آمنوا بها ، وأَمْرُوها كما جاءت.

المقام الثاني: المبالغة في إثباتها ، وتصوُّرها من جنس صفات البشر ، وتشكُّلها في الذهن ، فهذا جهل وضلال ، وإنما الصيغة تابعة للموصوف ، فإذا كان الموصوف عز وجل لم نَرُه ، ولا أخربنا أحدًّا أنه عاينَه – مع قوله لنا في تنزيله ﴿لَيْسَ كَمُثْلِه شَيْءٌ﴾ - ؛ فكيف يُقْرَى لأذهاننا مجالٌ في إثبات كيفية الباري؟ تعالى الله عن ذلك.

فكذلك صفاتِه المقدسة ، نُقْرُّ بها ونعتقد أنها حق ، ولا مُثُلُّ لها أصلاً ولا نتشكُّلُ لها.²

الأثر الثاني: قال الترمذى في «سننه»⁴ لما روى حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيديه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مُهْرَة⁵ ...) ، قال:

وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث وما يشبه هذا من الروايات من الصفات ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا قالوا:

قد ثبتت الروايات في هذا ، ويؤمن بها ، ولا يُتوهُّم ، ولا يُقال: كيف؟

هكذا رُوي عن مالك وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك أنهم قالوا في هذه الأحاديث: (أمُروها بلا كيف) ، وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة.

وأما الجهمية فأنكرو هذه الروايات ، وقالوا: هذا تشبيه.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى في غير موضعٍ من كتابه اليَدِ والسمعِ والبصرَ ، فتأولتِ الجهمية هذه الآيات ، ففسروها على غير ما فَسَرَ أهل العلم ، وقالوا: إن الله لم يخلق آدم بيده ، وقالوا: إن معنى اليَدِ هُنَا القوة.

¹ «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» ، رقم (937).

² أي لا نتصورها في الذهن.

³ «سير أعلام النبلاء» (610/10-611).

⁴ رقم (662).

⁵ المُهْرَة هو صغير الخيل.

وقال إسحاق بن إبراهيم¹: إنما يكون التشبيه إذا قال (يُدْكِيدٌ)² ، أو: (مثل يدٍ) ، أو: (سمع كسمع) ، أو: (مثل سمع) ، فإذا قال: (سمع كسمع) أو (مثل سمع) فهذا التشبيه ، وأما إذا قال كما قال الله تعالى: (يُدْوِسْمَعْ وبصْرٌ) ، ولا يقول (كيف) ، ولا يقول: (مثل سمع) ، ولا (سمع) ؛ فهذا لا يكون تشبيها ، وهو كما قال الله تعالى في كتابه ﴿لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ . انتهى كلام الترمذى رحمه الله.

فالحاصل أن تشبيه الله بخلقه شرك بالله تعالى سواء كان ذلك في أسمائه الخاصة به كالتسمية بالله أو الرحمن ، أو في صفاته ، كوصف بعض المخلوقين بعلم الغيب ، وأما من تسمى بأسماء مشتركة بين الله وبين خلقه ، أو وصف المخلوقين بأوصاف مشتركة بين الله وبين خلقه ، كالرحيم والجميل ونحوها ، فهذا جائز ، لأن الله تعالى قد جعلها مشتركة.

وبكل حال فالواجب هو إفراد الله بصفات الكمال على الوجه اللائق به ، ووصف المخلوق بصفاته على وجه النقص اللائق به.

فائدة: ذكر الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في شرحه على «العقيدة الواسطية»³ بعض الأحاديث التي يوهم ظاهرها التشبيه ، وأجاب عنها ، فليرجع إليها من أراد الاستفادة.

¹ هو ابن راهويه ، الإمام المعروف.

² أي: يُدْكِيدُ كذا من المخلوقين.

³ (105/1 - 110)

النوع الثالث من أنواع الإلحاد: التكثيف

مقدمة

الصفات من حيث معناها الكلية في الذهن معناها واحد ، فالسمع مثلا هو إدراك الأصوات ، والبصر هو إدراك المرئيات ، والعلم هو إدراك المعلومات ، وهلْ جَرِّاً ، لكن هذه الصفات إذا أضيفت إلى الذوات فإن كيفيتها تختلف بحسب من أضيفت إليه ، فالسمع يتفاوت بين المخلوقين ، بعض المخلوقات مرهفة السمع جدا كالغزال ، وبعضاها أقل منه كبني آدم ، فلمقدرة على إدراك الأصوات تتفاوت بين أصناف المخلوقات تفاوتا نسبيا ، وهو في حقها غير كامل بكل حال ، فليس أحد من المخلوقات يسمع كل ما يدور في الكون قطعا.

أما الله تعالى فإنه سميع ، والسمع في حقه كامل ، فهو يسمع كل شيء ، يسمع كل ما يدور في الكون ، يسمع السر وأخفى ، يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، فكيفية السمع في حق الله كاملة ، وفي حق المخلوقين ناقصة.

وعودا على بدء ؛ فأصل معنى السمع مشترك بين الله وبين خلقه ، وهو إدراك الأصوات ، أما كيفيته فتختلف بحسب من أضيفت إليه ، ففي حق المخلوق الناقص فإن السمع محدود ، لأن المخلوق ناقص أصلا في خلقته وفي صفاتيه ، أما الله تعالى فإن سمعه كامل ، لأن الله كامل في صفاتيه أصلا ، فسمع المخلوق كما يليق به ، وسمع الخالق كما يليق به ، وقس على ذلك باقي الصفات.¹

تعريف التكثيف وبيان حكمه

التكثيف هو ادعاء معرفة كيفية الصفة من صفات الله تعالى ، أو تشكيلها وتقديرها بالذهن ، كتصور صفة الجيء والاستواء والنزول والكلام لله تعالى على نحو معين ، فهذا المسلك في فهم الصفات حرام ، لأنه ضرب بالغيب ، ودليل التحرير سعي وعلقى ، فأما الدليل السمعي فقوله تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾² ، ففي هذه الآية الكريمة قطع الله الطمع عن إدراك كيفية صفاته.

وقال تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانُوا عَنْهُ مَسْئُولاً﴾³.
ولا يفهم من تحريم تكثيف صفات الله أن ليس لها كيفية ، حاشا لله ، بل لها كيفية ، ولكن البشر بجهلها لأنها من الغيب ، وليس المراد نفي الكيفية مطلقا.

¹ استندت هذه المقدمة من كتاب «الآئي البهية في شرح العقيدة الواسطية» (1/498) للشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله.

² سورة طه: 110 .

³ سورة الإسراء: 36 .

فمن كيّفَ صفةً من صفات الله فقد كذب على الله ، وقال عليه ما لا يعلم ، لأنَّه ادعى الاطلاع على أمر غيبي في حين أنه لم يطلع عليه في حقيقة الأمر.

وقد تقدم في أول الكلام على الإيمان بأسماء الله وصفاته ذكر بعض أقوال السلف الصالح رضوان الله عنهم في ذم التكثيف ، وبيان أنه منهج مبتدع ، منافٍ للإيمان بأسماء الله وصفاته ، وسيأتي إن شاء الله بيان مزيد منها.

أما الدليل العقلي لامتناع التكثيف فإنه لا يمكن لأي إنسان أن يعرف كيفية الشيء إلا بأحد أمور ثلاثة ؛ بمشاهدة أو مشاهدة نظيره أو الخبر الصادق عنه ، فإذا لم يتمكن من واحدة منها فلا سبيل إلى العلم بكيفيتها.

فلو أن رجلاً شاهد آلة وهي تعمل ؛ فإنه سيعرف كيفية عملها لأنَّه شاهد ذلك بعينه . ولو أنه شاهد نظيرَ تلك الآلة ومثيلتها لعرف كيفية الآلة الأولى ، لأنَّه شاهد مثيلتها ونظيرتها . ولو أن رجلاً صادقاً قال له: عندي آلة صفتها كذا وكذا ، وذكر من أوصافها كما لو أنه يراها رأي عين ؛ لعلم كيفية تلك الآلة.

فإذا حاولنا تطبيق هذه القاعدة العقلية على صفات الله عز وجل فإننا نجد أنه لا يمكن معرفة صفات الله بهذه الوسائل الثلاثة ، لأنَّنا لم نشاهد صفاتِه ، ولم نَرَ مثيلها ، ولم نُخْبَرَ عن كيفية مثيلتها ، فمن أين سنعرف كيفية تلك الصفات إذَا ؟!

وما يدل على بطلان التكثيف عقلاً ؛ أنَّ ادعاء ذلك سيؤدي إلى اضطراب عظيم ، لأنَّ كل إنسان سيَدَعُ معرفة كيفية صفة من صفات الله على غير دعوى الآخر ، لأنَّه ليس هناك ضابط يضبط تصوّرهم لتصوّر تلك الصفة على طريقة واحدة ، لكون دعاوهم ما هي إلا تتاج عقول بشرية قاصرة وفرضيات ذهنية ودعاوی غيبية ، ولا يَسْلِمُ من هذا كله إلا من سَلَّمَ أمره لله ، ووقف عند ما أُمِرَ بالإيمان به ، وترك الخوض والراء¹ في الدين.

وثمة وجه آخر ، وهو أنَّا قد أُمِرْنَا بأن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالجنة ونعمتها ، وبالنار ووحيمها ، مع كونه من المعلوم أنَّا لا نُحيط علمًا بكيفية كل شيء منها ، فلسنا نعلم كيفية الملائكة ، ولا كيفية الأنبياء ، ولا كيفية الجنة ، كما قال تعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قَرَأْتَ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ، وقال النبي ﷺ : أعددت لعبادِي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

¹ المرأة هو الجدال على مذهب الشك والرببة ، وقد حصل ابن الأثير المرأة المذموم بالكلام في القدر وما تضمنه كلام أهل الكلام من الخوض في صفات الرب عز وجل ، أما الكلام في الأحكام والحلال والحرام فجائِر ، إذ قد ورد عن الصحابة الكرام رضي الله عنهم. انظر «النهاية» ، مادة: مرا.

كذلك فإننا لا نعلم صفة النار وهكذا ، وما ذاك إلا لأننا كُلّفنا بالإيمان بها على سبيل الإجمال ، ولم نؤمر بالخوض في كيفية التفاصيل ، ولم يكن ذلك قادحاً في الإيمان بهم ، فكذلك الأمر بالنسبة لأسماء الله تعالى وصفاته.¹

ولما كان التكليف مسلكاً باطلًا ، وضريباً بالغيب ؛ قال ابن القيم رحمه الله إن التكليف يتربّ عليه ثلاثة محاذير ؛ نفي الحقيقة ، وإثبات التكليف بالتأويل ، وتعطيل الرب عن صفتة التي أثبتتها لنفسه.² وصدق رحمه الله ، فمن كيّف صفة من صفات الرب على نحو معين فقد نفى عن الله كيفية صفتة الحقيقة بإثباته له كيفية من عنده.

كذلك فإنه أول صفة الرب الحقيقة – أي حَرَفُها – بإثباته لله كيفية تلك الصفة من عنده ضريباً بالغيب . كذلك فإنه قد عَطَلَ صفة الرب الحقيقة بنفيه لها وإثباته كيفية معينة لها من عنده.

تبديع السلف لمن طلب علم الكيفية

ولما كان طلب علم الكيفية باطلًا ؛ أنكر أئمة السلف رحمهم الله على من قال به إنكاراً شديداً ، وقد ورد في ذلك بضعة آثار:

الأثر الأول: جاء رجل إلى مالك بن أنس فقال: يا أبا عبد الله ، ﴿الْرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَ﴾ ، فكيف استوى؟

قال الراوي: فأطرق مالك رأسه حتى علاه الرُّخَضَاء³ ، ثم قال: الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول⁴ ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أراك إلا مبتداعاً ، فأمر به أن يخرج.⁵

قال مقيده عفا الله عنه: كلام الإمام مالك ميزان لجميع صفات الله تعالى¹ ، فمن سُأله عن كيفية صفة من صفات الله فإنه يقال له: أنت مبتدع ، والواجب عليك أن تؤمن بما أنزل إليك ، وتستكئن على ما لم يبلغك ، وتترك التعمق في الدين ، وتكتُلَ علمَ ما لم تؤمر بعلمه.

¹ انظر «الحجّة في بيان المحجّة» (190/1) ، وما نقله القرطبي عن الخطابي في كتابه «الأنسى في شرح أسماء الله الحسنى» (10/2 – 12).

² انظر «اجتماع الجيوش» ، ص 190.

³ أي العرق.

⁴ أي غير معقول الكيفية ، ولا تدركه العقول.

وقد جمع طرق هذا الأثر وشرحه شرحاً موسعاً فضيلة الشيخ عبد الرزاق بن عبد الحسن العباد البدر في مؤلف له بعنوان: «الأثر المشهور عن الإمام مالك رحمه الله في صفة الاستواء» ، وهو مطبوع ضمن كتابه «الجامع للبحوث والرسائل» ، الناشر: دار كنوز إشبيليا – الرياض.

⁵ رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (867، 866).

وقد جمع طرق هذا الأثر وشرحه شرحاً موسعاً فضيلة الشيخ عبد الرزاق بن عبد الحسن العباد البدر في مؤلف له بعنوان: «الأثر المشهور عن الإمام مالك رحمه الله في صفة الاستواء» ، وهو مطبوع ضمن كتابه «الجامع للبحوث والرسائل» ، الناشر: دار كنوز إشبيليا – الرياض.

وقل له أيضاً: إن الله أخبرنا عن الصفة ولم يخبرنا عن كيفيةها.

وقال يحيى بن إبراهيم بن مzin² معلقاً على كلام مالك:

والنجاجة في هذا³؛ الانتهاء إلى ما قال الله عز وجل ووصف به نفسه ، بوجهه ويدين وبنسيط⁴ واستواء وكلام ، فقال ﴿فَأَيْمَا تَوْلِيَا فَثُمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾⁵ ، وقال ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوتَان﴾⁶ ، وقال ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتِهِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتِ مَطْرُوبَاتٍ بِيَمِينِهِ﴾⁷ ، وقال ﴿رَحْمَنٌ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ، فلَيَقُلْ قَائِلٌ بِمَا قَالَ اللَّهُ وَلْيَتَبَرَّأْ إِلَيْهِ ، وَلَا يَعْدُوهُ وَلَا يُفْسِرُهُ ، وَلَا يَقُلْ كَيْفُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ الْهَلاَكَ ، لَأَنَّ اللَّهَ كَلَّفَ عَبْدَهُ الْإِيمَانَ بِالْتَّنْزِيلِ وَلَمْ يُكَفِّهِمْ الْخَوْضُ فِي التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ ، وَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ أَبْنَى الْقَاسِمِ أَنَّهُ لَمْ يَرِ بِأَسَا بِرْوَاهِ الْحَدِيثِ: (إِنَّ اللَّهَ ضَرِحَكَ) ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الضَّحْكَ مِنَ اللَّهِ وَالْتَّنْزِيلِ وَالْمَلَالَةِ وَالْتَّعْجَبِ مِنْهُ لَيْسَ عَلَى جَهَةِ مَا يَكُونُ مِنْ عِبَادِهِ.⁸

وقال ابن تيمية معلقاً على كلام مالك:

وكلام مالك صريح في إثبات الاستواء ، وأنه معلوم ، وأن له كيفية ، لكن تلك الكيفية مجهرة لنا ، لا نعلمها نحن ، ولهذا بدأ السائل الذي سأله عن هذه الكيفية ، فإن السؤال إنما يكون عن أمر معلوم لنا ، ونحن لا نعلم استواه ، وليس كل ما كان معلوماً له كيفية تكون تلك الكيفية معلومة لنا.⁹ اهـ.

وقال أيضاً: إذا قال لك قائل: كيف ينزل إلى سماء الدنيا؟

فقل له: كيف هو في نفسه؟

فإن قال: نحن لا نعلم كيفية ذاته.

فقل: ونحن لا نعلم كيفية صفاته ، وكيف نعلم كيفية صفة ولا نعلم كيفية موصوفها؟¹⁰

¹ وللفائدة ؛ فقد ألغت رسالة علمية في عقيدة الإمام مالك بعنوان: «منهج الإمام مالك رحمه الله في إثبات العقيدة» للشيخ سعود بن عبد العزيز الدعحان ، الناشر: مكتبة الإمام ابن تيمية – القاهرة.

² هو يحيى بن إبراهيم بن مzin ، أبو زكريا ، عالم بلغة الحديث ورجاله ، من أهل قرطبة ، توفي سنة 259 ، انظر «الأعلام» للزركي (134/8).

³ أي في باب فهم أسماء الله وصفاته.

⁴ أي البسط الوارد في قوله ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوتَان﴾.

⁵ سورة البقرة: 115.

⁶ سورة المائدة: 64.

⁷ سورة الزمر: 67.

⁸ ذكره ابن عبد البر في كتاب «التمهيد» (138/6) ، كتاب القرآن ، باب ما جاء في الدعاء ، وهو في (7/151 – 152) من ط المغربية.

⁹ «مجموع الفتاوى» (181/5).

¹⁰ بتصرف من «مجموع الفتاوى» (12/575).

وقال أيضاً: ومثل هذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك¹ ، وقد رُوي هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفاً ومروفاً ، ولكن ليس إسناده مما يعتمد عليه ، وهكذا سائر الأئمة ؛ قولهم يوافق قول مالك في أنا لا نعلم كيفية استواه كما لا نعلم كيفية ذاته ، ولكن نعلم المعنى الذي دل عليه الخطاب ، فنعلم معنى الاستواء ولا نعلم كيفية ، وكذلك نعلم معنى النزول ولا نعلم كيفية ، ونعلم معنى السمع والبصر والعلم والقدرة ولا نعلم كيفية ذلك ، ونعلم معنى الرحمة والغضب والرضا والفرح والضحك ولا نعلم كيفية ذلك.²

وقال الذهبي معلقاً على كلام مالك:

هذا ثابت عن مالك ، وهو قول أهل السنة قاطبة ؛ أن كيفية الاستواء لا نعقلها بل نجهلها ، وأن استواه معلوم كما أخبر في كتابه ، وأنه كما يليق به ، لا نتعقب ولا نتحذق ، ولا نخوض في لوازم ذلك نفياً وإثباتاً ، بل نسكت ونقف كما وقف السلف ، ونعلم أنه لو كان له تأويل لبادر إلى بيانه الصحابة والتابعون ، ولما وسعهم إقراره وإمارأة والسكوت عنه ، ونعلم يقيناً مع ذلك أن الله جل وعلا لا مثل له في صفاته ولا في استواه ولا في نزوله ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.³

وقال ابن عثيمين رحمه الله معلقاً على كلام مالك ما مُحَصَّلٌ إِنْ كَلَامُ مَالِكٍ مِيزَانٌ لِجَمِيعِ الصَّفَاتِ ، والذين يسألون عن كيفية الصفات سؤالهم هذا بدعة ، لأن الصحابة أحقر الناس على الخير وعلى العلم بما يجب لله عز وجل من الصفات ، ومع هذا لم يسألوا قط عن كيفية صفة من صفات الله عز وجل.⁴

وقال د. أحمد بن عطيه الغامدي رحمه الله معلقاً على كلام مالك:

وقد رُوي مثل هذا القول عن ربيعة شيخ الإمام مالك ، وهو قول أهل السنة قاطبة ، وإن من أعجب العجب أن نرى كثيراً من أصحاب مالك المتأخرين فارقوا عقيدته ، ودانوا بغيرها ، فسلكوا مسلك الأشاعرة في منهجم العقدي ، الذي يتسم بمخالفـة منطق الوحي ، خاصة ما يتعلق بمسائل الصفات ، وهم بهذا ينزعون ثقتـهم بإمام جليل لا يـحـيدـونـ عنـ مـذـهـبـهـ فيـ الفـروعـ قـيـدـ آنـمـلـةـ⁵ ، ويـضـرـيونـ بـمـذـهـبـهـ فيـ الأـصـوـلـ – الملتمـ بالـوـحـيـ – عـرـضـ⁶ـ الـحـائـطـ ، وهذا شأنـ بعضـ أـتـابـعـ مـذـاهـبـ الـأـئـمـةـ الـآخـرـينـ ، أـبـيـ حـنـيفـةـ وـالـشـافـعـيـ وأـحـمـدـ ، حيثـ ذـهـبـواـ مـذـاهـبـ فـارـقـواـ بـهـاـ مـاـ عـلـيـهـ أـمـتـهـمـ الـذـينـ اـعـتـصـمـواـ بـالـتـنـزـيلـ وـلـمـ يـفـارـقـوهـ ،

¹ سأّي ذكر الأثر الوارد عن ربيعة قريباً إن شاء الله.

² بتصرف من «مجموع الفتاوى» (5/365).

³ كتاب «العلو» ، ص 139 ، باختصار يسير.

⁴ بتصرف من «شرح العقيدة الواسطية» لابن عثيمين ، (100/1).

⁵ الأئمة هي المفصل الأعلى الذي فيه الظفر من الإصبع ، ومعنى (قيـدـ آنـمـلـةـ) ، أي قدرها في الطول. انظر «لسان العرب» مادة: نمل.

⁶ عـرـضـ الـحـائـطـ أيـ نـاحـيـتـهـ ، هـكـذـاـ بـضـ العـيـنـ ، وـعـرـضـ الـحـائـطـ – بـفتحـ العـيـنـ – خـلـافـ طـولـهـ. انظر «لسان العرب» مادة: عرض.

أما أولئك الأتباع المفارقون فقد ارتضوا لأنفسهم مذاهب الكلام والسفسطة¹ ، التي أودت بهم إلى الزيغ والضلالة ، نسأل الله الهداية والثبات على الحق.²

الأثر الثاني: سُئل ربيعة³ شيخ مالك عن قوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ؟ كيف استوى؟
قال: الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاع ، وعلينا التصديق.⁴

وفي رواية أنه قال: الكيف مجهول ، والاستواء غير معقول ، ونجيب علي وعليكم الإيمان بذلك كله.⁵
فالشاهد قولهم: الاستواء منه غير مجهول ، أي معلوم معناه في لغة العرب ، وهو العلو والارتفاع.
قال الذهبي رحمه الله: هذا القول محفوظ عن جماعة ، كريبيعة الرأي ، وممالك الإمام ، وأبى جعفر الترمذى⁶.

وقال أيضا رحمه الله: فانظروا لهم كيف أثبتوا الاستواء لله ، وأخبروا أنه معلوم ، لا يحتاج لفظه إلى تفسير ،
ونفوا الكيفية عنه ، وأخبروا أنها مجهولة.⁷

الأثر الثالث: روى الذهبي بإسناده عن أبي جعفر الترمذى ، شيخ الشافعية في زمانه ، أنه سأله سائل عن حديث نزول الرب: فالنَّزُولُ كَيْفُ هُو؟ يقى فوقه علو؟ فقال:
النَّزُولُ مَعْقُولٌ ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ ، وَالإِيمَانُ بِهِ وَاحِدٌ ، وَالسُّؤالُ عَنْهُ بَدْعَةٌ.

¹ السفسطة قياس فلسفى أسسه فلاسفة اليونان قبل ميلاد المسيح عليه السلام ، وهو قياس مركب من الوهميات ، يقوم على أساس نفي الحقائق الثابتة ، وقد أطلقه بعض علماء الإسلام كابن تيمية رحمه الله على من أنكر شيئاً معلوماً من الدين بالضرورة من تأثير بطريقه الفلسفة السوفسطائية وإن كان مقراً بأمور أخرى.
باختصار وتصريف من «معجم ألفاظ العقيدة» ، تأليف عامر عبد الله فالح ، تقسم الشیخ عبد الله بن جبرین ، الناشر: مکتبة العییکان - الرياض.

وانظر تعريف السفسطة في «شرح الرسالة التدميرية» ، (ص 473 ، 479) لفضيلة الشیخ د. محمد بن عبد الرحمن الخميس حفظه الله.
² حاشيته على كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد» ، ص 86 - 87 .

³ هو الإمام ، مفتى المدينة ، وعالم الوقت ، المشهور بريبيعة الرأي ، من أئمة الاجتهاد ، من رواة الحديث النبوى ، كان من أوعية العلم ، ومن شيوخ الإمام مالك ، توفي سنة 136 . انظر ترجمته في «السير» (89/6).

⁴ رواه الالكائى في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (441/2) ، وابن بطة في «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية» (164/3).

⁵ رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (306/2) ، وصححه محقق الكتاب الشیخ عبد الله الحاشدي في حاشيته عليه.

⁶ هو الإمام العلام ، شيخ الشافعية في وقته ، أبو جعفر ، محمد بن أحمد بن نصر الترمذى ، توفي سنة 295 ، انظر ترجمته في «السير» (545/13).

⁷ «العلو» ، ص 81 .

⁸ كتاب «العرش» ، ص 73 .

قال الذهبي معلقاً: صدق فقيه بغداد وعلمه في زمانه ، إذ السؤال عن النزول ما هو عَيٌّ¹ ، لأنَّه إنما يكون السؤال عن كلمة غريبة في اللغة ، وإلا فالنَّزول والكلام والسمع والبصر والعلم والاستواء عبارات جلية واضحة للسامع ، فإذا اتصف بها من ليس كمثله شيء فالصَّفة تابعة للموصوف ، وكيفية ذلك مجهولة عند البشر ، وكان هذا الترمذى من بحور العلم ، ومن العُباد الورعين ، مات سنة خمس وستين ومئتين.²

الأثر الرابع: قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام ، المتوفى سنة 224هـ - وقد ذُكر عنده ما يُروى في الرؤية ، والكرسي موضع القدمين وأشباه ذلك - فقال:

هذه أحاديث صحاح ، حملها أصحاب الحديث والفقهاء بعضهم عن بعض ، وهي عندنا حُقْ لَا نَشَكُ فيها ، ولكن إذا قيل لنا: **كيف وضع قدمه ، وكيف ضحك ؟** قلنا: لا نفَسِّر هذا³ ، ولا سمعنا أحداً يفسِّره.⁴

الأثر الخامس: عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: يُدْ الله ملائِي ، لَا تَغْيِضُهَا⁵ نفقة ، سَخَاء⁶ الليل والنَّهار ، وقال: أرأيتم ما أَنْفَقَ مِنْذَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ إِنَّه لَمْ يَغْنِ⁸ مَا فِي يَدِه ، وَكَانَ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ ، يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ.⁹

قال أبو عيسى الترمذى عَيْبه: وهذا حديث قد روتَه الأئمة ، نؤمن به كما جاء ، من غير أن يُفَسَّرَ أو يُتَوَهَّمَ ، هكذا قال غير واحد من الأئمة ؛ الثورى ومالك بن أنس وابن عيينة وابن المبارك ؛ إنه ثُرُوى هذه الأشياء ويؤمن بها ، فلا يُقال: **كيف.**

¹ العَيٌّ هو الجهل.

² «العلو» ، ص 213 – 214.

³ أي لا نذكر له كيفية معينة.

⁴ روأه الذهبي في كتاب «العلو» ، ص 173.

⁵ الشاهد ليس الحديث التالي وإنما الأثر بعده.

⁶ تَغْيِضُهَا أي تُنْقُصُهَا. انظر «النهاية» لابن الأثير.

⁷ أي دائمة العطاء. انظر «النهاية».

⁸ أي يُنْقُص. انظر «لسان العرب».

⁹ روأه البخاري (4684) ومسلم (993) والترمذى (3045) ، واللفظ للبخاري.

الأثر السادس: روى ابن عبد البر رحمة الله عن ابن وضاح¹ قال: سألت يحيى بن معين² عن التنزيل فقال: أَقْرَرَ بِهِ وَلَا تَحْدُّ فِيهِ بِقَوْلٍ ، كُلُّ مَنْ لَقِيَتْ مِنْ أَهْلِ السَّنَةِ يُصَدِّقُ بِهِ حَدِيثُ التَّنْزِيلِ .
قال³: وقال لي ابن معين: صَدِّقْ بِهِ وَلَا تَنْصِفْهُ.⁴

ثم قال بعدها بورقتين: وقول رسول الله ﷺ : (ينزل رينا إلى السماء الدنيا) عندهم⁵ مثل قول الله عز وجل
﴿فَلَمَّا تَحَلَّ رِبَّهُ لِلْجَبَلِ﴾⁶ ، ومثل قوله ﴿وَجَاءَ رَبِّكَ وَالْمَلَكُ صَفَا صَفَا﴾⁷ ، كلهم يقول: ينزل ويتجلى
ويحيى ، بلا كيف ، لا يقولون: كيف يحيى ، وكيف يتجلى ، وكيف ينزل ، ولا من أين جاء ، ولا من
أين تجلى ، ولا من أين ينزل ، لأنه ليس كشيء من خلقه ، وتعالى عن الأشياء ، ولا شريك له .
وفي قول الله عز وجل ﴿فَلَمَّا تَحَلَّ رِبَّهُ لِلْجَبَلِ﴾ دلالة واضحة أنه لم يكن قبل ذلك متجليا للجبال .
وفي ذلك ما يفسر معنى حديث التنزيل .

ومن أراد أن يقف على أقوال العلماء في قوله عز وجل ﴿فَلَمَّا تَحَلَّ رِبَّهُ لِلْجَبَلِ﴾ ؛ فلينظر في تفسير بقى
بن مخلد⁸ ، محمد بن جرير ، وليقف على ما ذكرنا من ذاك ، ففيما ذكرنا منه كفاية ، وبالله العصمة
وال توفيق.⁹

الأثر السابع¹⁰: روى البيهقي في «الأسماء والصفات» عن أبي داود الطيالسي قال: كان سفيان الثوري
وشعبة وحماد بن زيد وحمد بن سلمة وشريك وأبو عوانة لا يُحذِّرون ، ولا يُشَبِّهُون ، ولا يُمَثَّلون ، يَرَوُون
الحادي ، لا يقولون (كيف) ، وإذا سُئلوا أجابوا بالأثر .

قال أبو داود: وهو قولنا .

¹ هو الإمام الحافظ محدث الأندلس ، محمد بن وضاح المرواني ، من علماء الحديث النبوى ، له كتاب «البدع والنهي عنها» ، توفي سنة 287 ، انظر ترجمته في «السير» (445/13).

² هو الإمام الحافظ الجهمي ، شيخ المحدثين ، أبو زكريا ، يحيى بن معين بن عون ، من رواة الحديث النبوى ، توفي سنة 233 ، انظر ترجمته في «السير» (71/11).

³ أي ابن وضاح .

⁴ ذكره ابن عبد البر في كتاب «التمهيد» (137/6) ، كتاب القرآن ، باب ما جاء في الدعاء ، وهو في (151/7) من ط المغربية .

⁵ أي عند السلف الصالح .

⁶ سورة الأعراف: 143 .

⁷ سورة الفجر: 22 .

⁸ هو الإمام القدوة ، شيخ الإسلام ، بقى بن مخلد بن يزيد ، الأندلسي ، القرطبي ، الحافظ ، صاحب «التفسير» و «المسندة» اللذين لا نظير لهما ، أدخله هو ومحمد بن وضاح إلى الأندلس علما جما ، كان من كبار المجاهدين في سبيل الله ، مات سنة 273 ، انظر ترجمته في «السير» (285/13).

⁹ ذكره ابن عبد البر في كتاب «التمهيد» (139/6) ، كتاب القرآن ، باب ما جاء في الدعاء ، وهو في (153/7) من ط المغربية .

¹⁰ تقدم ذكر هذا الأثر والأثنين بعده آنفا ، وإنما أعدتها هنا لقصد جمع الكلام في هذا الباب في موضع واحد .

قلت: وعلى هذا مضى أكابرنا. انتهى.

الأثر الثامن: قال سفيان بن عيينة في أحاديث الصفات: هذه الأحاديث نرويها ونُثْرُ بها كما جاءت بلا كيف.¹

الأثر التاسع: قال وكيع: نُسَلِّمُ هذه الأحاديث كما جاءت ، ولا نقول (كيف كذا؟) ، ولا (لم كذا؟) ، يعني مثل حديث: (يحمل السماوات على إصبع).

تنبيه

ما ينبغي أن يعلم أن ترك السؤال عن كيفية صفات الله تعالى لا يعني أنه ليس لها كيفية ، بل لها كيفية يعلمهها الله تعالى ، ولكن المنفي علم تلك الكيفية ، فاستواء الله على العرش له كيفية ، ونزول الله في الثالث الأخير من الليل له كيفية ، ومجيء الله يوم القيمة له كيفية ، ولكننا لا نعلم شيئاً من تلك الكيفيات ، فلا ندري كيف استوى ولا كيف نزل ولا كيف يجيء ولا كيف وجهه ولا كيف يده ، لا نكيف ذلك بعقولنا ولا بآلسنتنا ، لأنها من الغيب وليس من الشهادة ، وتكييف ذلك سيؤدي إما إلى التمثيل أو إلى التعطيل.²

تنبيه آخر

الفرق بين التمثيل والتكييف هو أن التمثيل هو ذكر الصفة مقيّدةً بمثال ، كما تقول: يد فلان مثل يد فلان.

وأما التكييف فليس فيه ذكر مثال ، بل تذكر الصفة مجردة عن ذكر مثيلتها ، كقول: يد فلان هذه كيفيتها.³

النوع الرابع من أنواع الإلحاد هو التحريف ، والتحريف هو التغيير ، والتحريف في صفات الله نوعان ؛
تحريف في اللفظ وتحريف في المعنى ، فأما التحريف في اللفظ فلا يكاد يقع إلا من جاهل القراءة ، كان يقرأ إنسان القرآن فإذا مر بصفة من صفات الله أخطأ في قراءتها ، وهذا لا يضره إن كان حريصاً على تعلم القراءة ، ولم يكن عن عمدٍ.

¹ تقدم تخرجه.

² وانظر «مجموع الفتاوى» (181/5).

³ ذكر هذا ابن عثيمين رحمه الله في «شرح العقيدة الواسطية» (112/1).

والتحريف اللغطي جرأة عظيمة على كتاب الله ، وقد وقع فيه اليهود والنصارى لما حرفوا التوراة والإنجيل ، ومن ذلك تحريف اليهود لقول الله ﴿حطة﴾ إلى ﴿حنطة﴾ ، وذلك لما أمرهم الله بدخول القرية ودعائهم بأن يخط عنهم ذنوبهم بأن يقولوا ﴿حطة﴾ ، فقالوا مستهزئين بالأمر الشرعي ﴿حنطة﴾ .

وأما التحريف في المعنى – وهو الذي يعبر عنه كثيراً بالتأويل – فهو الذي وقع فيه كثير من الناس ، وهو صرف المعنى عن ظاهره لمعنى غير المعنى الظاهر المتأذر ، والذين فعلوا هذا زعموا أن إثبات الصفات يلزم منه التشبيه ، قالوا: إننا إذا أثبتنا الله صفة كصفة اليد – مثلاً – فإننا نكون قد شبّهنا يد الله بيد المخلوق ، هكذا قالوا ، ولا شك أن هذا خطأ ، لأن يد الله كما تليق به ، ويد المخلوق كما تليق به ، وإذا كانت أيدي المخلوقين تتفاوت في صفاتها عن بعضها البعض فكذلك يد الله ليست كأيدي المخلوقين من باب أولى ، وهكذا باقي صفاته جل وعلا.

وبعدما نفت المؤولة عن الله ما نفته من الصفات ؛ أثبتوا الله معانٍ مجازية لتلك الصفات من عند أنفسهم وليسحقيقة ، كقولهم عن اليد مثلاً: إن معناها القوة ، ليكون معنى قوله تعالى ﴿بِلَ يَدُهُ مَبْصُطَة﴾ عندهم أي: قوتها مبوسطتان ، وهكذا أولاً وأكثر صفات الرب عز وجل.

ومن وقع في مسلك التأويل جمهور الأشاعرة ، الذين أثبتوا الله سبع صفات على ظاهرها ، وحرّفوا معاني الصفات الباقيّة عن ظاهرها.

ومن تحريفهم: قولهم عن صفة الاستواء للرب عز وجل إن معناها الاستياء ، ليكون معنى قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ عندهم أي: الرحمن على العرش استوى ، وهلّمَ حَرَّاً.

ولا شك أن هذا خطأ عظيم وتحريف لكلام الله تعالى ، فإن الله خاطب الناس بلسان عربي مبين ، ومعنى الاستواء في اللغة العربية هو العلو والارتفاع ، ولم يأت في شيء في كلام العرب الفصيح أو في معاجم اللغة العربية إطلاقاً أن معنى الاستواء هو الاستياء ، وسيأتي الكلام على ذلك بشيء من التفصيل.

فالحاصل أن أهل البدع رددوا جملة من صفات الرب عز وجل بتأويلها عن ظاهرها ، ومنشئ ذلك أنهم أقحموا عقولهم لفهمها مع كونها غيبة ، فلم يفهموا من إثبات الصفات لله تعالى إلا أن ذلك يقتضي التشبيه ، فبناء على هذا قالوا: ليس أمامنا إلا تأويل تلك الصفات وصرف معانيها عن ظواهرها لثلاً تُشبّه الله بخلقه ، فأولوا الصفات ، وصرفوا معانيها عن ظواهرها ، فضلوا في الفهم عن فهم السلف الصالح ، ولو أنهم عقلوا لقالوا إن صفات الرب غيبة ، وأيقنوا أن الله خاطب الناس بما يفهمون ، مما علينا أن نفهم هذا الباب كما فهمته القرون المفضلة ، فثبتت الله صفاتـه كما تليق به كما ثبت للمخلوقين صفات تليق بهـم ، فكما أن ذاته لا تشبه الذوات ؛ فكذلك صفاتـه لا تشبه الصفات؟

ولكن الشيطان حاد بهم عن الطريق السوي ، ولعب بعقولـهم.

فصل في بيان ارتباط التحرير بالتعطيل

والتحريف - أو التأويل - مرتبط بالتعطيل ، فالتحريف في الدليل ، والتعطيل في المدلول ، فالتحريف سبب والتعطيل نتيجة وأثر ، فإذا حرف المحرف في الدليل نتج عنه تفريغ الدليل مما دل عليه ، فإذا حرف مثلا قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوْى﴾ فقال معناها: الرحمن على العرش استوى ؛ نتج عن هذا تفريغ الآية مما دلت عليه وهو صفة الاستواء ، وهذا تعطيل بحد ذاته.

ثم إن التحريف من ذهب اليهود ، فهم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، قال تعالى عنهم ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾¹ ، فكل من حرف نصوص الكتاب والسنة فيه شبه من اليهود ، عياذا بالله تعالى.

فصل في بيان وجوه بطلان التأويل

اعلم رحمك الله أن تأويلي الصفات باطل من وجوه عقلية كثيرة ، فمن ذلك ما نقله ابن القيم عن شيخه ابن تيمية رحمة الله في هذا الباب ، حيث قال:

إن كان الحق فيما يقوله هؤلاء النفاة ، الذين لا يوجد ما يقولونه في الكتاب والسنة وكلام القرون الثلاثة المعمظمة علىسائر القرون ولا في كلام أحد من أئمة الإسلام المقتدى بهم ؛ لزم من ذلك لوازم باطلة ، منها:

أن يكون الله سبحانه قد أنزل في كتابه وسنة نبيه من هذه الألفاظ ما يضللهم ظاهره ويوقعهم في التشبيه والتمثيل.

ومنها أن يكون قد نزل بيان الحق والصواب لهم ولم يفصح به ، بل رمز إليه رمزاً وألغزه إلغازاً ، لا يفهم منه ذلك إلا بعد الجهد الجميد.

ومنها أن يكون قد كلف عباده أن لا يفهموا من تلك الألفاظ حقائقها وظواهرها ، وكفلهم أن يفهموا منها ما لا تدل عليه ، ولم يجعل معها قرينة تفهم ذلك.

ومنها أن يكون دائما متكلما في هذا الباب بما ظاهره خلاف الحق بأنواع متنوعة من الخطاب² ، ولا يتكلم فيه بكلمة واحدة يوافق ما يقوله النفاة ، ولا يقول في مقام واحد ما هو الصواب فيه ، لا نصا ولا ظاهرا ، ولا يبينه.

¹ سورة النساء: 46 .

² يقصد بذلك رحمة الله الآيات التي تقرر أن الله تعالى استوى على عرشه ، وأنه فوق عباده ، وأنه العلي الأعلى ، وأن الملائكة تَعْرِجُ إِلَيْهِ ، وأن الأعمال الصالحة تُرفع إِلَيْهِ ، وأن الملائكة في نزولها من العلو إلى أسفل تنزل من عنده ، وأنه رفع الدرجات ، وأنه في السماء ، وأنه الظاهر الذي ليس فوقه شيء ، وأنه فوق سمواته على عرشه ، وأن الكتاب نزل من عنده ، وأنه ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا ، وأنه يُرى بالأبصار عياذا ، يراه المؤمنون فوق رؤوسهم ، إلى غير ذلك من تنوع الدلالات على علو رب عز وجل.

ومنها أن يكون أفضل الأمة وخير القرون قد أمسكوا من أو لهم إلى آخرهم عن قول الحق في هذا الشأن العظيم الذي هو من أهم أصول الإيمان ، وذلك إما جهلٌ ينافي العلم ، وإما كتمانٌ ينافي البيان ، ولقد أساء الظن بخيار الأمة من نسبهم إلى ذلك ، ومعلوم أنه إذا ازدوج التكلم بالباطل والسكوت عن بيان الحق ؛ تولّد من بينهما جهل الحق وإضلال الخلق ، وهذا لما اعتقد النفاة التعطيل صاروا يأتون من العبارات بما يدل على التعطيل والنفي نصاً وظاهراً ، ولا يتكلمون بما يدل على حقيقة الإثبات لا نصاً ولا ظاهراً ، وإذا ورد عليهم من النصوص ما هو صريح أو ظاهر في الإثبات حرفوه أنواع التحريفات ، وطلبوه مُستكِرْه التأويلاً.

ومنها أنهم التزموا لذلك تجاهيل السلف ، وأنهم كانوا أميين مقبلين على الزهد والعبادة والورع والتسبیح وقيام الليل ، ولم تكن الحقائق من شأنهم.

ومنها أن ترک الناس من إنزال هذه النصوص كان أفعى لهم وأقرب إلى الصواب ، فإنهم ما استفادوا بنزولها غير التعرض للضلالة ، ولم يستفيدوا منها يقيناً ولا علماً بما يجب لله ويعتنى عليه إذ ذاك ، وإنما يستفاد من عقول الرجال وآرائهم. انتهى¹.

قلت: ومن وجوه بطلان التأويل في صفات الرب عز وجل إجماع علماء المسلمين – من الصحابة والتابعين ومن بعدهم – على بطلانه ، وقد حكى إجماعهم الإمام ابن عبد البر رحمه الله حيث قال: أهل السنة مجتمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة ، والإيمان بها ، وحملها على الحقيقة لا على المجاز ، إلا أنهم لا يكثرون شيئاً من ذلك ، ولا يحدُّون فيه صفة مخصوصة ، وأما أهل البدع والجهمية والمعتزلة كلها والخوارج فكلهم ينكروا ، ولا يحملون شيئاً منها على الحقيقة²، ويرعُّون أن من أقر بها مُشَبِّه ، وهم عند من أثبتهما نافون للمعبد ، والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله ، وهم أئمة الجماعة ، والحمد لله.³

علق الذهبي على كلام ابن عبد البر بقوله:

صدق والله ، فإن من تأول سائر الصفات ، وحمل ما ورد منها على مجاز الكلام ؛ أداه ذلك السَّلْب إلى تعطيل الرب ، وأن يُشابه المعدوم ، كما نُقل عن حماد بن زيد أنه قال: مثل الجهمية كقوم قالوا: في دارنا خلة.

قيل: لها سعف؟

قالوا: لا.

¹ «الصواعق المرسلة» ، ص 314 – 316 ، باختصار يسير.

² أي عندهم.

³ «التمهيد» (6/134-135) ، كتاب القرآن ، باب ما جاء في الدعاء ، وهو في (7/145) من ط المغربية.

قيل: فلها كَرَبٌ؟¹

قالوا: لا.

قيل: لها رطب وقُنْوَ?²

قالوا: لا.

قيل: فلها ساق؟

قالوا: لا.

قيل: فلما في داركم نخلة.³

وقال الذهبي رحمه الله: وقد أغنى الله تعالى عن العبارات المبتدة عن الصفات واضحة ، ولو كانت الصفات تُرد إلى المجاز لبطل أن يكون صفات الله ، وإنما الصفة تابعة للموصوف ، فهو موجود حقيقة لا مجازا ، وصفاته ليست مجازا ، فإذا كان لا يمثل له ولا نظير ؛ لزم أن تكون لا يمثل لها.⁴

وقال ابن تيمية رحمه الله: إن جميع ما في القرآن من آيات الصفات ليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها ، وقد طالعت التفاسير المنقوله عن الصحابة وما رَوَوهُ من الحديث ، ووقفت من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغرى أكثر من مائة تفسير ، فلم أجد إلى ساعتي هذه عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئاً من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاه المفهوم المعروف ، بل منهم من تقرير ذلك⁵ وتشييه وبيان أن ذلك من صفات الله ما يخالف كلام المتأولين ما لا يخصيه إلا الله.⁶

قلت: ومن وجوه بطلان التأويل أيضاً ما ذكره عبد الله بن تيمية⁷ أخوه شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحهما الله ، ونقله عنه ابن القيم رحمه الله ، قال:

¹ الكَرَب هو أصول سعف النخل.

² القُنْوَ هو العُذُق الذي يتدلّى منه الرطب ، وهو في النخلة كالعنقود من العنبر.

³ «العلو» ، ص 250 .

⁴ «العلو» ، ص 239 - 240 .

⁵ أي: ورد عنهم في تقرير ذلك ... ، بمحذف الفعل وتقديره: ورد.

⁶ «مجموع الفتاوى» (394/6).

⁷ هو المفتى الزاهد القدوة شرف الدين عبد الله بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ثم الدمشقي الخنلي ، أخوه الشيخ تقى الدين ، ولد في حادي عشر محرم ، سنة ست وستين وستمائة بجَرَان ، وقام مع أهله إلى دمشق رضيعا ، سمع المسند والصحابيين وكتب السنن ، وتلقى في المذهب حتى أفقى ، و碧ع أيضاً في الفرائض والحساب وعلم الهيئة وفي الأصلين والعربية ، وله مشاركة قوية في الحديث ، ودرس بالحنبلية مدة ، وكان صاحب صدق وإخلاص ، قاتلاً باليسير ، شريف النفس ، شجاعاً مقداماً ، مجاهداً زاهداً عابداً ورعاً ، كثير العبادة والتائله والمراقبة والخوف من الله تعالى ، توفي رحمه الله تعالى سنة 727 هـ بدمشق . باختصار من ترجمته في «شذرات الذهب» ، أحداث سنة 727 .

(ومن أبين الحال وأوضح الضلال حمل ذلك كله¹ على خلاف حقيقته وظاهره ودعوى المجاز فيه والاستعارة ، وأن الحق في أقوال النفاة المعطلين ، وأن تأويلاً لهم هي المراده من هذه النصوص ، إذ يلزم من ذلك أحد محاذير ثلاثة لا بد منها أو من بعضها ، وهي القدح في علم المتكلّم بها ، أو في بيانه ، أو في نصحه. وتغريب ذلك أن يقال: إما أن يكون المتكلّم بهذه النصوص² عالماً أن الحق في تأويلات النفاة المعطلين أو لا يعلم ذلك ، فإن لم يعلم ذلك والحق فيها كان ذلك قدحاً في علمه.

وإن كان عالماً أن الحق فيها فلا يخلو ؛ إما أن يكون قادراً على التعبير بعباراتهم – التي هي تنزيه الله بزعمهم عن التشبيه والتلميذ والتجمسيم ، وأنه لا يعرف الله من لم ينرّه بها ، أو لا يكون قادراً على تلك العبارات ، فإن لم يكن قادراً على التعبير بذلك لزم القدح في فصاحته ، وكان ورثة الصابحة وأفراد الفلسفه وأوقاح المعتزلة والجهمية وتلامذة الملاحدة أفصح منه وأحسن بياناً وتعبيرًا عن الحق ، وهذا مما يعلم بطلاً أنه بالضرورة أولياؤه وأعداؤه ، موافقوه ومخالفوه ، فإن مخالفيه لم يشكُوا في أنه أ瘋ح الخلق وأقدرهم على حسن التعبير بما يطابق المعنى ويخلصه من اللبس والإشكال.

وإن كان قادراً على ذلك ولم يتكلّم به وتتكلّم دائماً بخلافه وما ينافيه ؛ كان ذلك قدحاً في نصحه ، وقد وصف الله رسله بكمال النصح والبيان ، فقال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾³

وأخبر عن رسله بأنهم أنصح الناس لأنهم ، فمع النصح والبيان والمعرفة التامة كيف يكون مذهب النفاة المعطلة أصحاب التحريف هو الصواب ، وقول أهل الإثبات – أتباع القرآن والسنة – باطل؟! فليتذرّب الناصح لنفسه الموقن بأن الله لا بد سائله عما أجاب به رسوله في هذا المقام ، ولتحيز بعد إلى أين شاء ، فلم يكن الله ليجمع بين النفاة المعطلين المحرفين وبين أنصاره وأنصار رسوله وكتابه إلا جمّع امتحانٍ وابتلاء ، كما جمّع بين الرسل وأعدائهم في هذه الدار).⁵

قلت: ومن وجوه بطلان التأويل أن تيسير القرآن للذكر ينافي حمله على التأويل المخالف لحقيقة وظاهره ، قال ابن القيم رحمه الله:

¹ أي الكم الهائل من النصوص الواردة في إثبات الصفات.

² وهو النبي ﷺ .

³ سورة إبراهيم: 4 .

⁴ ومن المعلوم أن القدح في نصيحة النبي ﷺ لأمته باطل قطعاً كما سيأتي بيانه.

⁵ باختصار من «الصواعق المرسلة» (324-326).

(أنزل الله سبحانه الكتاب شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، ولذلك كانت معانيه أشرف المعاني ، وألفاظه أفصح الألفاظ وأبينها وأعظمها مطابقة لمعانيها المراد بها ، كما وصفَ سبحانه به كتابه في قوله ﴿وَلَا يَأْتُونَكُمْ بِمِثْلِ إِلَّا جِئْنَاهُ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾¹.

فالحق هو المعنى والمدلول الذي تضمنه الكتاب ، والتفسير الأحسن هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق ، فهي تفسيره وبيانه ، وكلما كان فهم المعنى منه أوضح وأبين كان التفسير أكمل وأحسن ، وهذا لا تجد كلاماً أحسن تفسيراً ولا أتم بياناً من كلام الله سبحانه ، ولهذا سماه سبحانه بياناً ، وأخبر أنه يَسِّرُ للذكر ، وتيسيره للذكر يتضمن أنواعاً من التيسير ؛ إحداها تيسير ألفاظه للحفظ ، الثاني تيسير معانيه لفهم ، الثالث تيسير أوامره ونواهيه للامتثال.

ومعلوم أنه لو كان بالفاظ لا يفهمها المخاطب لم يكن مُيسِّراً عليه ، فهكذا إذا أريد من المُخاطِب أن يفهم من ألفاظه ما لا يدل عليه من المعاني أو يدل على خلافه ؛ فهذا من أشد التعسير ، وهو مناف للتيسير ، فإنه لا شيء أصعب على الأمة من أن يجهدوا أنفسهم ويكتيدوا بأعظم المشقة في طلب أنواع الاستعارات وضروب المجازات ووحشية اللغات ليحملوا عليه آيات الصفات وأخبارها ، فيصرفوا قلوبهم وأفهامهم عمّا تدل عليه ، ويفهموا منها ما لا تدل عليه بل تدل على خلافه ، ويقول: اعلموا يا عبادي أني أردت منكم أن تعلموا أني لست فوق العالم ولا تحته ، ولا فوق عرشي ، ولا تُرفع الأيدي إلىّي ، ولا يعرج إلىّي شيءٌ ، ولا ينزل من عندي شيءٌ ، من قولي² ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ، ومن قولي³ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ﴾ ، ومن قولي⁴ ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ ، ومن قولي⁵ ﴿بِلَ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ، ومن قولي⁶ ﴿رَفِيعُ الْدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ ، فإنكم إذا فهمتم من هذه الألفاظ حقائقها وظواهرها فهمتم خلاف مرادي منها ، بل مرادي منكم أن تفهموا منها ما يدل على خلاف حقائقها وظواهرها ! فأيّ تيسير يكون هناك وأي تعقيد وتعسير لم يحصل بذلك ، ومعلوم أن خطاب الرجل بما لا يفهمه إلا بترجمة أيسر عليه من خطابه بما كُلُّفَ أن يفهم منه خلاف موضوعه وحقيقة بكثير ، فإن تيسير القرآن مناف لطريقة النفاة المحرفين أعظم منفأة⁷.

فهل بعد هذا يكون مذهب المؤولة هو الصواب ، ومذهب المثبتة هو الباطل؟ سبحانه هذا بختان عظيم.

¹ سورة الفرقان: 33.

² أي اعلموا ما تقدم ذكره من قولي² ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ وما سرد بعدها من الآيات.

³ سورة النحل: 50.

⁴ سورة المعارج: 4.

⁵ سورة النساء: 158.

⁶ سورة غافر: 15.

⁷ «الصواعق المرسلة» (330-335)، باختصار.

كلام جامع لابن القيم رحمة الله في ذم التأويل

وبناء على ما تقدم ؛ فالأسباب الحالية للتأويل أربعة: إما نقصان بيان المتكلم ، أو سوء قصده ، وإما سوء فهم المستمع ، أو سوء قصده ، فإذا انتفت هذه الأمور الأربع انتفى التأويل ، وإذا وُجدت أو وُجد بعضها وقع التأويل ، قاله ابن القيم رحمة الله في الفصل الحادي والعشرين من كتابه النفيس «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة».¹

وقد تكلم رحمة الله في الكتاب نفسه على مسألة التأويل بما لا مزيد عليه ، فيبين معناه لغة واصطلاحا ، ووجوه بطلانه ، وأنه لا ينضبط بضابط ولا يُحدَّ بحدٍ ، ثم يبيّن جنائية التأويل على أديان الرسل ، وأنه كان سبباً لخراب العالم ، وفساد الدنيا والدين ، وأنه إن سُلطَ على العلوم أفسدتها جميعا ، ورفع الشقة عن المتكلم ، ثم بين أسبابه ، وأنواع الاختلافات الناشئة عنه ، ثم عمد إلى الشبهات الأربع التي يعتمد عليها أصحاب التأويل ففنَّدَها جميعا ، وقد سماها رحمة الله الطواغيت الأربع ، فردَّ رحمة الله الطاغوت الأول – وهو قوله: إن كلام الله ورسوله أدلة لفظية لا تفييد علما ولا يقينا – من ثلاثة وسبعين وجها ، ثم رد الطاغوت الثاني – وهو قوله: إذا تعارض العقل والنقل وجب تقسم العقل – من متين واحد وأربعين وجها.

وقد ذكر رحمة الله أنه استفاد في رد هذه الشبهة من كتاب شيخه ابن تيمية رحمة الله «درء تعارض العقل والنقل»².

ثم ردَّ الطاغوت الثالث – وهو قوله: إن آيات الصفات مجازات لا حقيقة لها – من خمسين وجها ، استغرقت متين وأربع وثلاثين صفحة من «مختصر الصواعق».³

ثم ردَّ الطاغوت الرابع وهو قوله: إن أخبار الرسول الصحيحة لا تفييد العلم ، وغايتها أن تفييد الظن ، ففنَّدَ هذه الشبهة من عشرة وجوه ، استغرقت إحدى وثمانين صفحة ، وهو نهاية «المختصر».

استطراد

ولغير ابن القيم رحمة الله من علماء أهل السنة كلام في بيان بطلان تأويل صفات الرب عز وجل ،

¹. (500/2).

² وهو مطبع في أحد عشر مجلدا مع الفهارس ، بتحقيق د. محمد رشاد سالم رحمة الله ، وهو من منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض.

³ ينبغي التنبيه إلى أن الجزء الأخير من كتاب «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» مفقود ، وهو المحتوى على جواب ابن القيم عن الطاغوت الثالث والرابع ، وقد اختصره قبل فقدانه الشيخ محمد الموصلي ، وضممه ذكر ابن القيم لهذين الطاغوتين والجواب عنهما ، فليراجعه من أراد الاطلاع على جوابه ، والمختصر من منشورات دار الحديث بالقاهرة.

فمن ذلك الفصل الذي عقده الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله في كتابه «توضيح الكافية الشافية» بعنوان «فصل في جنائية التأويل ، والفرق بين المقبول منه والمردود» قال فيه:

«لا يرتاب عارف أن جميع المصائب التي حرت في صدر الإسلام وبعد ذلك ، ووقوع الفتنة والقتال والتحزبات ؛ كلها متفرعة عن التأويل الباطل الذي لا يُنْتَجُ إِلَّا شرًا ، فالتأويل الباطل سبب فتن الأقوال والبدع الاعتقادية والفتنة الفعلية ، فلم يزل التأويل يتواتر.

وكل بدعة متأخرة تحدث من التأويلات الباطلة غير ما أحدثته التي قبلها ، حتى وصلت التوبة إلى ابن سينا واتباعيه ، فتأولوا جميع الشرائع العلمية والعملية ، وأبطلوا القرامطة جميع الشرع ، وفسروا شرائع الكبار بتفسير يعلم الصبيان بطلاً، فهذه البدع أصلها الذي تأسست عليه ؛ التأويل الباطل المردود.

وأما التأويل الذي يراد به تفسير مراد الله ومراد رسوله والطرق الموصلة إلى ذلك ؛ فهذه طريقة الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وهي التي أمر الله رسوله بها ، ومدح أهلها.

وكذلك التأويل الذي هو بمعنى ما يُؤْوَلُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ ، مِنَ الْعَمَلِ بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَمِنْ فِيهِمْ مَا يُؤْوَلُ إِلَيْهِ الْخَبَرُ ، فلفظ التأويل في الكتاب والسنة الغالب عليه هذان الأمران ؛ إما نفس وقوع ما أخبر الله به ورسوله ، وإما العمل بما أمر الله به ورسوله ، فالأول راجع إلى التصديق ، والثاني راجع إلى الطاعة والإيمان بالله ورسوله.

وطاعة الله ورسوله هو الخير كله ، وسبب السعادة والفرح.

فتبين أن التأويل الصحيح كله يعود إلى فهم مراد الله ورسوله ، وإلى العمل بالخبر ، وأن التأويل الباطل يراد به ضد ذلك ، ويراد به صرف النصوص عن معناها الذي أراده الله ورسوله إلى بدعهم وضلالهم ، وهو من أعظم ما يدخل في القول على الله بلا علم وقول غير الحق.

وكل من ادعى تأويلاً يخالف لفظ لم تَصِحْ دعوه إلا بأربعة أمور ، لو احتل واحد منها فتأويله باطل:

أحدها: أن يأتي بدليل يدل على قوله ، لأنه خلاف الأصل ، فإن الأصل حمل اللفظ على ظاهره وحقيقةه ، فمن ادعى خلاف ذلك فعليه البرهان.

فإذا أتى بدليل طولب بأمر ثان وهو أن ذلك الذي تأوله إلى ذلك المعنى يتحمله ، لأنه لا بد أن يكون بين الألفاظ والمعاني ارتباط وتناسب ، لأنه باللسان العربي ، أنزله الله ليعقله العباد إذا تدبوا ألفاظه ، فهل يمكن أن يقلعوا أو يفهموا ما ليس له ارتباط ودلالة على المعاني من ذات اللفظ ونفس العبارة بحيث لا يحتاجون إلى أمور خارجية؟

فإذا أتى بما يدل ويتحمل ذلك المعنى الذي عَيَّنه – وهيئات له ذلك – طولب بأمر ثالث وهو تعينيه المعنى الذي تأول اللفظ له ، فَهَبْ أن ظاهره غير مراد ، فلا بد من دليل يُعِينُ المعنى الذي صرفة إليه

ويُخصّصه به ، فإن التخصيص من دون دليل من باب التكهن والتخرص ، لأن اللفظ لا يدل عليه بخصوصه ، فقد يكون القصد به معنى غير الذي عَيَّنوه.

فإن فرض أنه تأوّل على غير ظاهره ، وأتى بدليل على الاحتمال وعلى التعين ؛ طولب بأمر رابع وهو الجواب عن المعارض ، لأن الدعوى لا تتم إلا بذلك ، والمعارض للنبي هو جميع الأدلة النقلية من الكتاب والسنة والأدلة العقلية والفتراة ، كما تقدمت الإشارة إليها ، ومن المستحبيل أن يعارض وحيه وتنتزيله وقول رسوله وأصحابه والتابعين بإحسان بأقوال النفاة الذين بنوا أمرهم على الحال ، فتبين أن المعطلين النافعين لا سبيل لهم إلى إثبات قولهم أبداً بوجه من الوجوه وهو المطلوب". انتهى كلامه رحمة الله باختصار يسير.

وقال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي أيضاً:

والحال أن المشابهة الحقيقة لليهود منطبقة على الجهمية ، فإن اليهود قد جمعوا بين تبديل النصوص وكتمانها ، وبين تحريف ما لا يمكن فيه أحد الأمرين ، فهو لاء الجهمية لما تذر عليهم التبديل والكتمان – لأن الله نَزَّل الذكر وحفظه فيستحبيل تبديله وكتمانه – عمدوا إلى تحريف معاني النصوص وتبديلها ، فنفوا المعنى الذي أراده الله ورسوله ، وأثبتو لها معاني من تلقاء أنفسهم ، وهذا هو الشَّيْءُ الْحَقِيقِي باليهود.¹

قلت: وللقاضي أبي يعلى ، محمد بن الحسين بن الفراء² كتاب «إبطال التأويلات لأخبار الصفات» ، رد فيه على نفاة الصفات ، المؤولين لها ، الخرفين لمعانيها ، وهو من أقوى الكتب في بابه ،تناول فيها أحاديث الصفات التي تأوّلها المؤولة ، وناقش الشبهات التي أثاروها.³

¹ «توضيح الكافية الشافية» ، ص 341 – 342 ، من «المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله». قلت: وقد ذكر ابن القيم رحمة الله هذه الشروط الأربع في كتابه «الصواعق المرسلة» ، الفصل التاسع ، ص 288 – 295 ، كما ذكرها في «نوينته» في «فصل فيما يلزم مدّعي التأويل لتصيّع دعواه».

² هو الإمام العالمة شيخ الحنابلة ، القاضي أبو يعلى ، محمد بن الحسين الغدادي ، صاحب التصانيف المفيدة ، له رواية للحديث النبوي ، كان عالم العراق في زمانه ، توفي سنة 458 . انظر ترجمته في «السير» (89/18).

³ وقد حققه الشيخ محمد بن حمد الحمود ، حجاز الله خيراً ، وهو من منشورات مكتبة دار الإمام الذهبي – الكويت.

فصل في توبه بعض مشاهير مؤولة الصفات ، ورجوعهم إلى طريقة أهل السنة في فهم صفات الرب عز وجل

قال العالمة محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي رحمه الله:

واعلم أن أئمة القائلين بالتأويل رجعوا قبل موتهم عنده ، لأن مذهب غير مأمون العاقبة ، لأن مبناه على:

- ادعاؤه أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها لا تليق بالله ، لظهورها وتبادرها في مشابهة صفات الخلق.
- ثم نَفَيَ تلك الصفات الواردة في الآيات والأحاديث لأجل تلك الدعاوى الكاذبة المشؤومة.
- ثم تأويلها بأشياءٍ آخرَ دون مستند من كتاب أو سنة أو قول صحابي أو أحد من السلف.

وكل مذهب هذه حاله فإنه جدير بالاعقل المفكر أن يرجع عنه إلى مذهب السلف. انتهى كلامه رحمه الله.¹

ثم ذكر كلاماً جيداً في بيان أن أئمة المتكلمين المشهورين رجعوا كلهم عن تأويل الصفات ، بدءاً من القاضي محمد بن الطيب ، المعروف بأبي بكر الباقلاني² ، ثم أبي الحسن الأشعري³ ، ثم أبي حامد الغزالى⁴ ، ثم الفخر الرازى⁵ ، في نحو سبع عشرة ورقة ، فليراجعه من أراد الاستزادة.

¹ انظر «أضواء البيان» (499/7 - 500) ، تفسير سورة محمد ، الناشر: دار عالم الفوائد - مكة.

² هو العالمة الأصولي محمد بن الطيب بن محمد البصري ثم البغدادي ، ابن الباقلاني ، مات سنة 403 ، قال النبي في «العلو»: (ليس في المتكلمين الأشعرية أفضل منه مطلقاً) ، وانظر تقريره لإجماع المسلمين على علو الله على خلقه في كتابه «إبانة» ، وقد أورد النبي كلامه في «العلو» ص 238 ، وترجم له في «السير» (190/17) ، و «تاريخ الإسلام» (9/63).

³ هو العالمة إمام المتكلمين ، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري الياني البصري ، تعلم الاعتراض ثم تاب منه وتبرأ منه على المنبر ، قال النبي في ترجمته في «السير» (15/86): رأيت لأبي الحسن أربعة تواريف في الأصول ، يذكر فيها قواعد مذهب السلف في الصفات ، وقال فيها: (ثُمَرٌ كَمَا جاءت) ، ثم قال: (وبدلك أقول ، وبه أدرين ، ولا ثُمُرٌ). اهـ .
قلت: وقد قرر الأشعري إجماع أهل السنة على علو الله على خلقه في كتابه «رسالة إلى أهل الغرب» ، ص 232 .
توفي رحمه الله سنة 330 .

⁴ هو الشيخ أبو حامد ، محمد بن محمد بن محمد الطوسي ، الشافعى الغزالى ، لازم إمام الحرمين ، أبو المعالي الجوهري ، خاض في الفلسفة فنشَّب فيها ، وما استطاع الخروج منها ، بل تأثر بها كثيراً ، وصنف كتاب «إحياء علوم الدين» وملاهٌ بالأحاديث الباطلة والأقوال الفلسفية الساقطة ، وقد رد عليه جمع من العلماء ونقل كلامهم النبي في «سير أعلام النبلاء» (19/322) في ثنايا ترجمته.

توفي أبو حامد سنة 505 وله 55 سنة ، ولو أنه انكب على كتب الحديث والأثر لكن شيخ الإسلام بحق.

⁵ هو العالمة الكبير ذو الفنون فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين القرشي البكري الطبرistani ، الأصولي المفسر الكبير ، كبير الأدكين والحكماء والمصنفين ، وقد بدت منه في تواريفه بلايا وعظام وسحر وانحرافات عن السنة ، والله يعفو عنه فإنه توفي على طريقة حميدية ، والله يتولى السرائر ، مات سنة 606 هـ. انظر «سير أعلام النبلاء» (21/500).

ذكر كلام بعض من أول الصفات ثم تراجع عنه

قال أبو محمد ، عبد الله بن يوسف الجويني¹ رحمه الله في كتابه «رسالة في إثبات الاستواء والفوقية»: "وكنت متحيرا في الأقوال المختلفة الموجودة في كتب أهل العصر في جميع ذلك من تأويل الصفات وتحريفها وإمرارها والوقف فيها ، أو إثباتها بلا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل ، فأجد النصوص في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ناطقةً مُنبئَةً بحقائق هذه الصفات ، وكذلك في إثبات العلو والفوقية ، وكذلك في الحرف والصوت ، ثم أجده المتأخرين من المتكلمين في كتبهم منهم من يؤكّل الاستواء بالقهر والاستيلاء ، ويؤكّل النزول بنزل الأمر ، ويؤكّل اليدين بالقدرتين أو النعمتين ، ويؤكّل القدم بقدم صدق عند رحمة ، وأمثال ذلك.

ثم أجدهم مع ذلك يجعلون كلام الله تعالى معنى قائما بالذات بلا حرف ولا صوت ، ويجعلون هذه الحروف عبارة عن ذلك المعنى القائم.

ومن ذهب إلى هذه الأقوال وبعضها قوم لهم في صدرى منزلة ، مثل طائفة من فقهاء الأشعرية الشافعيين ، لأني على مذهب الشافعى رضي الله عنه ، ومنه² عرفت فرائض ديني وأحكامه ، فأجد مثل هؤلاء الشيوخ الأجلة³ يذهبون إلى مثل هذه الأقوال وهم شيوخى ، ولهم الاعتقاد التام لفضلهم وعلمه.

ثم إنني مع ذلك أجده في قلبي من هذه التأويلات حزارات لا يطمئن قلبي إليها ، وأجد الكدر والظلمة منها ، وأجد ضيقاً الصدر وعدم انشراحه مقرضاً بها ، فكنت كالمحظى المصطرب في تحيره ، المتملل من قلبه في تقلبه وتغييره ، وكنت أخاف من إطلاق القول بإثبات العلو والاستواء والنزول مخافة الخسر والتشبيه.

ومع ذلك ؛ فإذا طالعت النصوص الواردة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أحدها نصوصاً تشير إلى حقائق هذه المعانى ، وأجد الرسول ﷺ قد صرّح بها مُخْبِراً عن ربه ، واصفاً له بها ، وأعلم بالاضطرار أنه ﷺ كان يحضر في مجلسه الشريف والعالم والجاهل ، والذكي والبلدي ، والأعرابي والجاهي ، ثم لا أجده شيئاً يعقب تلك النصوص التي كان يصف ربه بها ، لا نصاً ولا ظاهراً مما يصرفها عن حقائقها ، ويؤكّلها كما تأوّلها

¹ هو شيخ الشافعية ، وصاحب وجه في المذهب ، له عدة تواليف ، وهو والد إمام الحرمين ، أبو المعالي الجويني ، انظر ترجمته في «السير» (617/17).

² كلمة (ومنه) ليست في المطبوع ، وأنظمه سقط لأن الكلام لا يستقيم إلا بإثباتها.

³ الأجلة جمع جليل.

هؤلاء ، مشايخي الفقهاء المتكلمين ، مثل تأویلهم الاستیلاء بالاستواء¹ ، ونزول الأمر للنزوء ، وغير ذلك.

ولم أجد عنه كذلك أنه كان يحذر الناس من الإيمان بما يظهر من كلامه في صفتة لديه من الفوقة واليدين وغيرها ، ولم ينقل عنه مقالة تدل على أن هذه الصفات معاني آخر باطنية غير ما يظهر من مدلولها ، مثل فوقيـة المرتبة ، ويد النعمة ، والقدرة ، وغير ذلك".²

ثم قال بعد كلام له في تقرير العلو وفوقية الله عز وجل :

"إذا علمنا ذلك واعتقدناه ؛ تخلصنا من شبه التأویل وعمادة التعطيل وحمافة التشبيه والتمثيل ، وأثبتنا على ربنا سبحانه وفوقيته واستواءه على عرشه كما يليق بجلاله وعظمته ، والحق واضح في ذلك ، والتصور تنشرح له ، فإن التحريف تأباه العقول الصحيحة ، مثل تحريف الاستواء بالاستیلاء وغيره ، والوقف في ذلك جهلٌ وغَيْرِه ، مع كون أن الرب تعالى وصف لنا نفسه بهذه الصفات لنعرفه بها ، فوقوفنا على إثباتها ونفيها عدول عن المقصود منه في تعريفنا إليها ، فما وصف لنا نفسه بها إلا لثبتت ما وصف به نفسه لنا ، ولا نقف في ذلك.

وكذلك التشبيه والتمثيل حمافة وجهالة ، فمن وفقه الله تعالى للإثبات بلا تحريف ولا تكيف ولا وقوف فقد وقع على الأمر المطلوب منه إن شاء الله تعالى.

فصل

والذي شرح الله صدری في حال هؤلاء الشيوخ الذين أولوا الاستواء بالاستیلاء ، والنزول بنزول الأمر ، واليدين بالنعمتين والقدرتين ؛ هو علمي بأنهم ما فهموا في صفات الرب تعالى إلا ما يليق بالملائقيـن ، فيما فهموا عن الله استواء يليق به ، ولا نزولا يليق به ، ولا يديـن تليق بعظمته بلا تكيف ولا تشبيه ، فلذلك حرروا الكلم عن مواضعه ، وعطّلوا ما وصف الله نفسه به".

انتهى كلامه رحمه الله.³

وهكذا فخر الدين الرازي ، فقد تراجع عن مذهبـه في تحريف معاني صفات الله ، العلو وغيره من الصفات ، وقال كلاما يكتب بماء الذهب والله في رجوعه إلى طريقة أهل السنة والجماعة في إثبات معاني صفات الله وإمارتها كما جاءت بلا تأویل ، وذكر منها آيات العلو ، قال رحمـه الله:

¹ هكذا في المطبوع ، ولعل الصواب: (الاستیلاء للاستواء) ، أي تأویل الاستواء بالاستیلاء ، وبه يتّسق السياق.

² ص 30 – 33 .

³ ص 72 – 73 .

نِهايَةُ إِقدَامِ الْعَقْلِ عِقَالٌ

وَأَكْثُرُ سعيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالٌ

وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَدَّى وَبَالٌ

سُوِيَّ أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

وَأَرَوَاهُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ حُسُومِنَا

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثَنَا طَوْلَ عَمْرَنَا

واعلم أنه بعد التوغل في هذه المضائق ، والتععمق في الاستكشاف عن أسرار هذه الحقائق ؛ رأيت الأصوب الأصلح في هذا الباب طريقة القرآن العظيم والفرقان الكريم ، وهو ترك التعمق ، والاستدلال بأقسام أجسام السماوات والأرضين على وجود رب العالمين ، ثم المبالغة في التعظيم ، من غير خوض في التفاصيل ، فاقرأ في التنزية قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفَقَرَاءُ﴾ ، وقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ، وقوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، واقرأ في الإثبات قوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ، وقوله تعالى ﴿يَخْفَفُونَ رَحْمَمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ ، وقوله ﴿إِلَيْهِ يَصْعُدُ الْكَلْمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يُرْفَعُ﴾¹ وعلى هذا القانون فقسنْ.²

فصل في بيان فضل الرد على المؤولة

ولما كان ضرر التأويل الفاسد عظيماً وجنايته كبيرة في الدين ؛ رد علماء الإسلام على القائلين به ، وحثّ بعضهم بعضاً على بيان زيف كلامهم ، فمن ذلك ما قاله ابن القيم رحمه الله في حق المؤولة:

"فكشف عورات هؤلاء وبيان فضائحهم وفساد قواعدهم من أفضل الجهاد في سبيل الله ، وقد قال النبي ﷺ لحسان بن ثابت: إن روح القدس³ لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله.⁴

وقال عن هجائه لهم: اهجوا قريشاً ، فإنه أشد عليها من رشق النبل.⁵

وكيف لا يكون بيان ذلك من الجهد في سبيل الله ، وأكثر هذه التأويلاط المخالف للسلف الصالحة من الصحابة والتابعين وأهل الحديث قاطبة وأئمة الإسلام الذين لهم في الأمة لسان صدق ؛ يتضمن من عبث المتكلم بالنصوص وسوء الظن بما من جنس ما تضمنه طعن الذين يلمزون الرسول ودينه ، وأهل النفاق والإلحاد⁶ ، لما فيه من دعوى أن ظاهر كلامه إفك ومحال ، وكفر وضلال ، وتشبيه وتمثيل أو تخيل ، ثم صرفها إلى معان يعلم أن إرادتها بتلك الألفاظ من نوع الأخاجي والألغاز ، لا يصدر مِمَّنْ قَصْدُهْ نُصْحَّ.

¹. سورة فاطر: 10 .

² انتهى كلامه ، نخلا من «اجتماع الجيوش» ص 305 – 306 .

³ أي جبريل.

⁴ رواه مسلم (2489) عن عائشة رضي الله عنها.

⁵ رواه مسلم (2490) عن عائشة رضي الله عنها.

⁶ أي: وطعن أهل النفاق والإلحاد ، حذف الفعل (وطعن) لتقديره ، وعطف الجملة على الجملة التي قبلها.

وبيانٌ ، فالمدافعة عن كلام الله ورسوله والذب عنه من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله وأنفعها للعبد ، ومن رزقه الله بصيرة نافذة على سخافة عقول هؤلاء المحرفين ، وأنهم من أهل الضلال المبين ، وأنهم إخوان الذين ذمّهم الله بأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، الذين لا يفهون ولا يتذمرون القول ، وشبيههم بالحمر المستنفرة¹ تارة ، وبالحمار الذي يحمل أسفاراً تارة ، ومن قبل التأويلات المفتراء على الله ورسوله التي هي تحريف لكلام الله ورسوله عن مواضعه فهو من جنس الذين قبلوا قرآن مسيلمة المختلق المفترى².

النوع الخامس من أنواع الإلحاد هو التفويض ، وهو ادعاء أن أسماء الله وصفاته ليس لها معانٍ يعلمها الناس ، فالغفور – بزعمهم – ليس له معنى ، والرحيم ليس له معنى ، وهلْمَ بحراً ، وهذا القول هو من شر قول أهل البدع والإلحاد ، قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «درء تعارض العقل والنقل»³ ، وبيان ذلك من وجهين⁴:

الأول: أن القول بالتفويض يلزم منه الطعن في بيان القرآن والتکذیب له ، لأن الله يقول ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيَّنَ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾⁵ ، وكيف يكون البيان إذا كانت أسماء الله وصفاته – التي هي أكثر ما يتكرر ذكره في القرآن لا سيما في خواتم الآيات – لا يُدرى معناها؟ أين البيان إذًا؟

والثاني أن قوله بالتفويض يقتضي تجھیل الرسول ﷺ ، لأن لازم كلامهم أن النبي ﷺ لا يدري معانٍ القرآن فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته ، أي أن النبي ﷺ كان يقرأ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ، ولا يدري ما معنى قوله ، وكذلك يقول الرسول ﷺ : (ينزل ربنا إلى سماء الدنيا) ، ولا يدري ما معنى كلامه ، وهذا باطل قطعاً.

قال الشيخ صديق حسن خان القنوجي⁶ رحمه الله في كتابه «قطف الشمر في عقيدة أهل الأثر»:

"من ظن أن نصوص الصفات لا يعقل معناها ، ولا يُدرى ما أراد الله تعالى ورسوله منها ، وظاهرها تشبيه وتشبيه ، واعتقاد ظاهرها كفر وضلال ، وإنما هي ألفاظ لا معانٍ لها ، وأن لها تأويلاً وتوجيهًا لا

¹ وقع التشبيه في قوله تعالى ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفَرٌ﴾ ، ويعني بالحمر المستنفرة حمر الوحش إذا رأت صائد لها فخافت وفررت ، فهكذا هم يفرون من الحق كفار الحمر.

² «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» (301/1-303) باختصار.
³ (205/1).

⁴ انظر «شرح الواسطية» (93/1 - 94).

⁵ سورة النحل: 89.

⁶ هو الإمام العلامة الحق محيي السنة وقائم البدعة ، أبو الطيب صديق بن حسن بن علي لطف الله القنوجي ، نبيل «جوبل» بالمهند وأميرها ، له عدة مؤلفات ، منها في العقيدة «الدين الخالص» و«قطف الشمر في بيان عقيدة أهل الأثر» ، وله في الفقه «الروضة الندية شرح الدرر البهية» ، وله غيرها في التفسير والحديث ، توفي رحمه الله سنة 1307.

باختصار وزيادة من مقدمة د. عاصم بن عبد الله القربي تحقيق كتاب الشيخ صديق «قطف الشمر» ، الناشر: عالم الكتب – لبنان.

يعلمه إلا الله ، وأنها منزلة ﴿أَلَم﴾ ، و﴿كَهِيْعَص﴾ ، وظن أن هذه طريقة السلف ، ولم يكونوا يعرفون حقيقة قوله ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتِهِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ ، قوله ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيْدِي﴾¹ ، قوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ونحو ذلك ؛ فهذا الظاهر من أحجأ الناس بعقيدة السلف وأضلهم عن المهدى ، وقد تضمن هذا الظن استجهال السابقين الأولين ، من المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة ، وكبار الذين كانوا أعلم الأمة علمًا وأفقهم فهمًا وأحسنهم عملاً وأتبعهم سنتاً ، ولازم هذا الظن أن الرسول ﷺ كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه ، وهو خطأ عظيم وجسارة قبيحة ، نعوذ بالله منها".² والخلاصة أن معاني أسماء الله وصفاته معلومة ، وليس كما قالت المفوضة ، أما كيفية صفاته فهي الجھولة ، لأنها من الغيب ، فكيفية مجيء الرب يوم القيمة – مثلاً – مجھولة ، لأن العقل البشري لم يُحيط به ، وليس بمقدوره إدراكه بالحسن ، أما معنى الجھيء في لغة العرب فمعروف ، وهكذا تُفهم باقي الصفات ، والله أعلم.

النوع السادس من أنواع الإلحاد: تسمية الله بما لم يُسمّ به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ ، أو وصفه بما لم يصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ ، كما سماه الفلاسفة بـ«العلة الفاعلة» ، وسماه النصارى «أب» ، وهذا باطل لكون أسماء الله توقيفية ، أي متوقف العلم بها على الكتاب والسنة ، فلا يجوز أن يُسمى الله باسم أو بصفة إلا اعتماداً على نصٍّ من كتاب أو سنة ، وإلا كان إلحاداً وميلاً عن المنهج الصحيح في فهم أسماء الله تعالى وصفاته ، ومن القول على الله تعالى بغير علم.³

النوع السابع من أنواع الإلحاد: إنكار أن يكون لله أسماء ، كما وقع من غلاة الجھمية ، الذين قالوا إنه ليس لله اسم أبداً ، تعالى الله عن ذلك ، ومحجّتهم في ذلك أنهم لو أثبتوا لله اسمًا لأشبه المخلوقات – بزعمهم – من جهة أن للمخلوقات أسماء أيضاً ، وبطهتان هذا واضح لا يحتاج إلى كبير رد ، فإن كثيراً من آيات القرآن تختتم بذكر أسماء الله تعالى وصفاته ، فإنكار الجھمية لأسماء الله تعالى يلزم منه أن ذكر تلك الأسماء والصفات كان عبثاً ، والبعث ينزع عنه الله تعالى ، وصدق الله تعالى ﴿وَلَلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْخَيْرُ فَادْعُوهُ بِمَا وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْهُدوْنَ فِي أَسْمَائِهِ سَيَجِزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.⁴

النوع الثامن من أنواع الإلحاد في أسماء الله وصفاته: اشتقاء أسماء منها للعبادات الباطلة ، كما فعل الجahليون لما اشتقو بعض أسماء أصنامهم من أسماء الله تعالى ، فاشتقو «اللات» من الإله ، و

¹ سورة ص: 75.

² ص 53 – 54.

³ انظر «شرح الواسطية» لابن عثيمين رحمه الله (120/1).

⁴ انظر «شرح الواسطية» لابن عثيمين رحمه الله (120/1 – 121).

«العزى» من العزيز ، و «مناة» من المنان ، وهذا تعدّ على حق الله تعالى الواجب له في تعظيم أسمائه وصفاته ، والواجب هو أن تُعظَّم أسماء الله تعالى ، فلا يُشتق لغيره منها.¹ فهذه ثمانية أنواع الانحراف في فهم أسماء الله وصفاته ، ينبغي للمسلم أن يحذرها غاية الحذر ، إذ القول ببعضها يدخل في ارتكاب البدع ، والقول ببعضها الآخر يؤدي إلى الكفر عيادة بالله ، والواجب تنزيه الله عن جميع صفات النقص ، وهو معنى التسبيح ، لأن معنى التسبيح هو التنزيه والتقديس للرب تبارك وتعالى.

نبیهات وفوائد

تنبیه

الكفر يطأ في باب الأسماء والصفات من باب الشك ، فمن شك في صفة من صفات الله أو اسم ثابت له من أسمائه كفَر ، كمن شك في قدرة الله ، أو شك في رحمته ، أو شك هل الرحمن من أسماء الله أو لا ، ووجه كفريه أن أسماء الله وصفاته ثابتة له بالقرآن والسنة ، فمن ردَّ شيئاً منها فإنما هو يرد خبر الله ، وهذا كفر ، والواجب هو الإيمان واليقين بأسماء الله وصفاته ، وكذا كل ما دل عليه القرآن العظيم والسنة الصحيحة.

تنبیه آخر

تنزيه الله تعالى عن صفات النقص هو المُعَبَّر عنه بالتسبيح ، فالتسبيح هو التنزيه² ، والتسبيح من أفضل أعمال القلب واللسان ، ولذا جاء أمر الله تعالى به بكلمة وأصيلا ، أي في الصباح والمساء ، وقد كان النبي ﷺ يكثر من تسبيح الله تعالى في عموم أحواله ، فقد كان يسبح الله إذا أصبح وإذا أمسى ، وإذا فرغ من الصلاة ، وإذا نزل واديا ، وإذا تعجب من شيء ، وعند المنام ، وغير ذلك من الأحوال.

فائدة

والتسبيح أحقره عظيم ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: من قال: (سبحان الله وبحمده) في يوم مائة مرة ؛ خطّت عنه خطاياه وإن كانت مثل زيد البحر.³ وعنده قال: من قال حين يُصبح وحين يُمسى (سبحان الله وبحمده مائة مرة) ؛ لم يأت أحد يوم القيمة بأفضل مما جاء به ، إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه.¹

¹ انظر «شرح الواسطية» لابن عثيمين رحمه الله (1/123).

² انظر «لسان العرب» لابن منظور.

³ رواه البخاري (6405) ، ومسلم (2691).

وعنه عن النبي ﷺ قال: كلمتان حفيتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيتان إلى الرحمن ؛ سبحان الله العظيم ، سبحان الله وبحمده.²

أقول: فكم حرم الواقعون في تأويل صفات الله عز وجل من ثواب وأجر التسبيح بسبب تأويلهم لصفات الرب عز وجل التي وصف نفسه بها؟

تنبيه

والواقعون في التأويل لم يخسروا ثواب التسبيح فحسب ، بل قد باهروا بإثيم عظيم بسبب عدم إيمانهم بمعاني تلك الصفات على مراد الله ومراد رسوله ﷺ ، ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله: لأن يلقى الله عز وجل المرء بكل ذنب ما خلا الشرك بالله تبارك وتعالى خير له من أن يلقاء بشيء من الأهواء.³

فائدة

ومما يدل على عظيم شأن توحيد الأسماء والصفات أيضاً أن أعظم آية في القرآن هي آية الكرسي ، والتي تتضمن كل جملة منها اسم أو صفة من أسماء الله وصفاته ، فعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : يا أبا المندر ، أتدرى أي آية من كتاب الله معك أعظم؟

قال: قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: يا أبا المندر ، أتدرى أي آية من كتاب الله معك أعظم؟

قال: قلت: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾⁴ ، قال: فضرب في صدري وقال: والله ، لِيَهُنَّا العلم أبا المندر.⁵

أي: هنئا لك العلم.

قال النwoي⁶ رحمه الله في شرح الحديث: قال العلماء: إنما تميزت آية الكرسي بكونها أعظم لما جمعت من أصول الأسماء والصفات من الإلهية والوحدانية والحياة والعلم والملك والقدرة والإرادة ، وهذه السبعة أصول الأسماء والصفات ، والله أعلم. انتهى.

¹ روah مسلم (2692).

² روah البخاري (6406) ، و مسلم (2694).

³ روah البيهقي في «آداب الشافعي ومناقبه» ، ص 143 ، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

⁴ سورة البقرة: 255.

⁵ روah مسلم (810).

⁶ هو الإمام العالم ، مفتى الأمة في زمانه ، الفقيه الشافعي الزاهد ، أبو زكريا ، محبني الدين ، يحيى بن شرف النwoي ، نفع الله الأمة بتصانيفه نفعاً عظيماً ، كشرح صحيح مسلم ، و «رياض الصالحين» و «المجموع» وهو شرح «المهذب» ، وغيرها ، انظر ترجمته في

وما يدل على عظيم شأن توحيد الأسماء والصفات أيضاً أن سورة الإخلاص – التي تتضمن صفة الرحمن – تعدل ثلث القرآن في ثواب القراءة ، يدل لهذا حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟
قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟
قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن.¹

فائدة من فوائد العلم بمعاني أسماء الله وصفاته ذكرها ابن القيم رحمه الله تعالى

قال رحمه الله:

والأسماء الحسنى والصفات العلا مقتضية لآثارها من العبودية والأمر اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكونين ، فليكل صفة عبودية خاصة هي من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها ، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح ، فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة ؛ يشمر له عبودية التوكيل عليه باطنا ، ولوازم التوكيل وثراته ظاهرا.

وعلمه² بسمه – تعالى – وبصره وعلمه ، وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات والأرض ، وأنه يعلم السر وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ؛ يشمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطارات قلبه عن كل مالا يرضي الله ، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاها ، فيشمر له ذلك الحياة باطنا ، ويشمر له الحياة اجتناب المحرمات والقبائح.

ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته ؛ توجب له سعة الرجاء ، وتشمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه.

وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه ؛ تتمر له الخضوع والاستكانة والمحبة ، وتشمر له تلك الأحوال الباطنة³ أنواعاً من العبودية الظاهرة هي موجباتها.

وكذلك علمه بكماله⁴ وجماله وصفاته العلي يوجب له محبة خاصة منزلة أنواع العبودية ، فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات ، وارتبطت بها ارتباط الخلق بها ، فخلقه سبحانه وأمره هو موجب أسمائه وصفاته في العالم وآثارها ومقتضاتها.¹ انتهى كلامه.

«تاريخ الإسلام» (324/15) و «تذكرة الحفاظ».

¹ رواه مسلم (811) ، ورواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (5015).

² أي العبد.

³ أي الخضوع والاستكانة والمحبة.

⁴ أي الله تعالى.

قلت: وللإيمان بأسماء الله وصفاته فوائد جليلة غير ما ذكر رحمة الله ، (فمن آمن بأن من أسماء الله تعالى (العفو) و(الغفور) و(الرحيم) ، وأن من صفاته (المغفرة للمذنبين) و(الرحمة) و(العفو) ؛ دعاه ذلك إلى عدم اليأس من روح الله ، وإلى عدم القنوط من رحمته ، بل ينشرح صدره لما يرجو من رحمة ربها ومغفرته. ومن عرف أن من صفات الله تعالى أنه (شديد العقاب) و (الغيرة إذا انتهكت محارمه) ، و(الغضب) ، وأنه (ذو انتقام من عصاه) ؛ حمله ذلك على الخوف من الله تعالى والبعد عن معصيته. كما أن المؤمن إذا أيقن أن من أسماء الله تعالى (القوى) و (القادر) و (العزيز) ، وأنه تعالى (يتولى المؤمنين بالحفظ والنصر) ؛ أكسبه ذلك عظمة التوكل على الله ، والوثوق بنصره ، وعدم الهمس من أعدائه ، فيعيش قرير العين ، واثقا بحفظ الله وتأييده ونصره.

ومن استقر في قلبه أن من أسماء الله تعالى (البصير) ، وأنه تعالى يرى دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة السوداء ، وعلم أن من أسماء الله تعالى (الرقيب) و(العليم) ، وأنه تعالى يعلم نيات العباد وخلجات نفوسهم ؛ حمله ذلك على البعد عن معصية الله ، وأن لا يراه الله حيث نهاده ، وعلى مراقبته سبحانه في كل ما يأتي وما يذر.

ومن آمن بصفات الله واستعاد بها أعاذه الله مما يخاف منه.

ومن عَلِمَ أسماء الله وصفاته وتسل إلى الله تعالى بها استجابة الله دعاءه ، فحصل له ما يرجوه من مرغوب ، واندفع عنه ما يخافه من مرهوب.

هذا كله قطرةٌ من بحرٍ من ثمراتِ الإيمان بأسماء وصفات).

خاتمة

وختاماً لهذه المقدمة التوضيحية لفهم عقيدة أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ، فإني أُذكّر نفسي وإنحوني بأن الواجب على المؤمن اتباع النصوص ، وفهمها على ضوء فهم السلف الصالح وهم الصحابة والتابعون ، فإن علِمَ الله من المؤمن حرصه على اتباع الرسول ﷺ وصحابته ومن تبعهم بإحسان ؛ هداه إلى الصراط المستقيم ، مصداقاً لقوله تعالى ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾³ ، أي لأسمعهم السمع الموجب للفهم والإنقیاد ، وأما إن علم الله في قلب الإنسان زيناً أزاغ قلبه ، كما قال

¹ «مفتاح دار السعادة» (510-511/2).

² نقلًا من «تحذيب تسهيل العقيدة الإسلامية» ، ص 67 - 68 ، للشيخ الدكتور عبد الله بن عبد العزيز الجبرين حفظه الله ، بتصرف يسير.

³ سورة الأنفال: 23.

تعالى ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾¹ ، فإنه ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه ، نسأل الله تعالى أن يُقيِّم قلوبنا على العقيدة الصحيحة ، وألا يزيغنا بعدهما هدانا ، (يا مقلِّب القلوب ثبت قلوبنا على دينك) ، إنك خير مسئول وأعظم مأمول .

¹ سورة الصافات: ٥ .

خاتمة الركن الأول

ثمرات الإيمان بالله تعالى

والإيمان بالله تعالى على ما وصفنا يشمر للمؤمنين ثمرات جليلة منها:

الأولى: تحقيق توحيد الله تعالى ، بحيث لا يتعلّق بغيره رجاءً ولا خوفاً ، ولا يعبد غيره.

الثانية: كمال حبّة الله تعالى وتعظيمه بمقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

الثالثة: تحقيق عبادته ، بفعل ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.^١

^١ قاله ابن عثيمين رحمه الله كما في «شرح ثلاثة الأصول» ، ص ٩٠ .

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة

(الملائكة عالم غيبي مخلوقون ، عابدون الله تعالى ، ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء ، خلقهم الله تعالى من نور ، ومن تحفهم الانقياد التام لأمره ، والقوة على تنفيذه ، قال الله تعالى ﴿لَا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾^١ ، وقال ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتَرُونَ﴾^٢.

وهم عدد كثير لا يخصهم إلا الله تعالى ، ففي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه في قصة المراج أن النبي ﷺ رفع له البيت المعمور في السماء ، فسأل جبريل عنه فقال: هذا البيت المعمور ، يصلّي فيه كل يوم سبعون ألف ملّك ، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم.^٣

والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بوجودهم.

الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم ، كجبريل ، وأما من لم نعلم اسمه فهو من بجم إجمالاً.

الثالث: الإيمان بما علمنا من صفاتهم الخلقية ، كصفة جبريل ، فقد أخبر النبي ﷺ أنه رأه على صفتة التي خلق عليها وله ست مئة جناح قد سد الأفق.^٤

وقد يتحول المَلَكُ بأمر الله تعالى إلى هيئةِ رجلٍ ، كما حصل لجبريل حين أرسله الله تعالى إلى مريم فتمثل لها بشرياً سوياً ، وحين جاء إلى النبي ﷺ وهو جالس في أصحابه ، جاءه بصفةِ رجل شديد بياض الثياب ، شديد سود الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه أحد من الصحابة ، فجلس إلى النبي ﷺ ، فأنسد ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ، وسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأمارتها ، فأجابه النبي ﷺ ، فانطلق ، ثم لما سأله الصحابة النبي ﷺ عنه قال: هذا جبريل ، جاء ليعلم الناس دينهم.^٥

١ سورة التحرم: ٦ .

٢ سورة الأنبياء: ١٩ - ٢٠ ، ومعنى ﴿لَا يسْتَحْسِرُونَ﴾ أي لا يتبعون ولا يسامون. انظر «تفسير الطبرى».

٣ أخرجه البخارى (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٤).

فائدة: وقد جاء وصفهم في التنزيل بأنهم يصنفون صفوفاً إذا قاموا لطاعة ربهم من صلاة وغيرها ، قال تعالى ﴿وَالصَّافَاتُ صَفَّا﴾ ، وقال تعالى على لسان الملائكة ﴿وَإِنَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾.

٤ رواه البخارى (٣٢٣٢ ، ٢٢٣٣) ، ومسلم (١٧٤) ، (١٧٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

٥ رواه مسلم (٨).

وكذلك الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى إلى إبراهيم ولوط كانوا في صورة رجال^١.

قلت: ولكن هذا التحول من هيئة إلى هيئة لا يكون إلا بأمر الله عز وجل.

وأعظم الملائكة وصفاً في خلقه وخلقـه هو جبريل عليه السلام ، فقد وصفه الله بأنه **رسول كريم** * ذي قوة عند ذي العرش مكين^٢ ، أي ذو مكانة عند ربه ، ثم قال **مطاع ثم أمين**^٣ ، أي مطاع عند سائر الملائكة ، أمين على الوحي.

كما وصفه الله بالقوة الخلقية في قوله عن نبيه محمد **علمه شديد القوى** * ذو مرّة فاستوى^٤ ، أي أن الذي علمه مهـماً الوحي هو جبريل ، وصفه الله بأنه شديد القوى ، أي: شديد القوة الظاهرة والباطنة ، قوي على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذـه ، قوي على إيصالـه الوحي إلى الرسول ﷺ ، ومنعـه من احتلاـس الشياطين له ، أو إدخـالـهم فيه ما ليس منه ، وهذا من حفـظـ الله لـوـحـيـه ، أن أرسـلـه مع هـذا الرسـولـ القـويـ الأمـينـ.^٥

وقوله **ذو مرّة** ، المرّة هي السـلامـةـ والـصـحةـ منـ الآـفاتـ والـعـاهـاتـ الـظـاهـرـةـ وـالـبـاطـنـةـ ، وـذـلـكـ يـسـتـلـزـمـ كـمـالـ الـخـلـقـةـ وـحـسـنـهاـ وـجـمـالـهاـ ، فـهـيـ الـقـوـةـ وـالـصـحـةـ الـمـتـضـمـنـةـ صـحـةـ وـجـمـالـاـ ، قـالـ ذـلـكـ اـبـنـ الـقـيمـ فـيـ «ـالـإـغـاثـةـ»^٦.

الرابع: الإيمان بما علمنا من أعمالهم العامة والخاصة التي يقومون بها امثلاً لأمر الله تعالى ، فاما العامة فكتسبـحـ اللهـ ، وـالـتـَّعـبـدـ لـهـ لـيـلاـ وـنـهـارـاـ بـدـوـنـ مـلـلـ وـلـاـ فـتـورـ ، قـالـ تـعـالـىـ عـنـهـمـ **فالـتـالـيـاتـ ذـكـراـ**^٧.

وقد يكون بعضـهمـ أعمالـ خاصةـ ، مثل جـبـرـيلـ الأمـيـنـ عـلـىـ وـحـيـ اللهـ تـعـالـىـ ، يـرـسـلـهـ اللهـ بـهـ إـلـىـ الـأـنـبـيـاءـ والـرـسـلـ ، وـقـدـ يـتـنـزـلـ أـفـرـادـ مـنـ الـمـلـائـكـةـ بـشـيـءـ مـنـ الـوـحـيـ ، قـالـ تـعـالـىـ **فـالـمـلـقـيـاتـ ذـكـراـ**^٨ عـذـرـاـ أوـ نـذـرـاـ ، أي: ثـلـقـيـ الذـكـرـ عـلـىـ الـأـنـبـيـاءـ لـأـجـلـ الـإـعـذـارـ – وـهـوـ قـطـعـ الـعـذـرـ بـالـتـبـلـيـغـ – ، أوـ الإنـذـارـ.

ومـثـلـ مـيـكـائـيلـ المـوـكـلـ بـالـقـطـرـ ، أيـ بـإـنـزاـلـ المـطـرـ.^٩

^١ شـرحـ ثـلـاثـةـ الأـصـوـلـ لـابـنـ عـثـيمـينـ ، صـ ٩٠ـ ٩١ـ ، بـتـصـرـفـ يـسـيرـ.

^٢ سـورـةـ التـكـوـيرـ: ١٩ـ ٢٠ـ .

^٣ سـورـةـ التـكـوـيرـ: ٢١ـ .

^٤ سـورـةـ التـكـوـيرـ: ٥ـ ٦ـ .

^٥ انـظـرـ **تـيسـيرـ الـكـرـمـ الرـحـمـنـ** فـيـ تـفـسـيرـ كـلـامـ المـنـانـ

لـلـشـيـخـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ سـعـديـ .

^٦ (١٢٩/٢) ، تـحـقـيقـ الفـقـيـ.

^٧ سـورـةـ الصـافـاتـ: ٣ـ .

^٨ سـورـةـ الـمـرـسـلـاتـ: ٥ـ ٦ـ .

^٩ روـاهـ النـسـائـيـ فـيـ **الـكـبـرىـ** ، كـتـابـ عـشـرـةـ النـسـاءـ ، بـابـ كـيـفـ تـؤـنـثـ الـمـرأـةـ ، (٩٠٢٤) ، وـأـحـمـدـ (٢٧٤/١) ، عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـماـ ، وـحـسـنـهـ الشـيـخـ مـقـبـلـ الـوـادـعـيـ بـمـجـمـوعـ طـرـقـهـ كـمـاـ فـيـ تـحـقـيقـهـ لـتـفـسـيرـ اـبـنـ كـثـيرـ (٢٤٢/١) ، وـكـذـاـ مـحـقـقـوـ **الـمـسـنـدـ**.

ومثل المَلَكِ المُوَكَّلِ بالنفخ في الصُّورِ^١ ، والمشهور أن اسمه إسراطيل^٢ ، والصُّور قَرْنٌ يُنفَخُ فيه كما جاء في الحديث^٣ ، وذلك عند قيام الساعة وبعث الخلق.

وهؤلاء الثلاثة هم أعظم الملائكة.

وقد كان النبي ﷺ عند افتتاح صلاة الليل يتسلى بربوبية الله على هؤلاء الملائكة أن يهديه لما اختلف من الحق بإذنه ، فعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشة أم المؤمنين: بأيّ كان نبي الله ﷺ يفتح صلاته إذا قام من الليل؟

قالت: كان إذا قام من الليل افتح صلاته:

اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تحدى من تشاء إلى صراط مستقيم.^٤

وهؤلاء الملائكة مُوكلون بما فيه حياة ، فجبريل مُوكل بالوحى الذي فيه حياة القلوب ، وميكائيل مُوكل بالقطر الذي في حياة الأرض ، وإسرافيل مُوكل بالنفخ في الصور ، وعنه تكون حياة الأحساد يوم العاد.

^١ روى الترمذى (٣٢٤٣) وأحمد (٣/٧) عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه ، أن النبي ﷺ قال: كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن ، وحني جبهته ، وأصغى سمعه ، ينتظر أن يؤمر فينفخ؟
قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟

قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل ، توكلنا على الله ربنا ، ورعا قال سفيان: على الله توكلنا.
قال الترمذى: هذا حديث حسن.

وصححه الألبانى كما في الصحيحه (١٠٧٩) ، وكذا محققو «المسندة».

^٢ جزم به ابن حجر رحمه الله كما في تفسير آية الزمر «ونفخ في الصور فصعق من السماوات ومن في الأرض» (آلية: ٦٨).
وانظر كلام علماء التفسير عند هذه الآية ، وكذا عند قوله تعالى «وله الملك يوم ينفخ في الصور» (الأنعام: ٧٣).

وقد ورد أن إسراطيل أحد حملة العرش ، كما روى ذلك أبو الشيخ في كتاب «العظمة» (برقم ٢٨٨ ، ٤٧٧) بلفظ: «إن ملكا من حملة العرش يقال له إسراطيل ...» ، ولكنه ضعيف الإسناد كما قال ذلك محقق الكتاب رضا الله المباركفورى ، الناشر: دار العاصمه - الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ..

^٣ روى أبو داود (٤٧٤٢) والترمذى (٣٢٤٤) واللحوظ له عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال أعرابي: يا رسول الله ، ما الصور؟
قال: قَرْنٌ يُنفَخُ فيه.

وصححه الألبانى كما في «ال الصحيحه» (١٠٨٠).

^٤ رواه مسلم (٧٧٠).

ومن الملائكة أيضاً ملوك الموت ، وهو الموكلاً بقبض الأرواح عند الموت ، قال تعالى ﴿قُلْ يَتُوفَّا كُمْ مَلِكُ الْمَوْتَ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^١.

وملك الموت له أعون من الملائكة ، قال الله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذَا الظَّالِمُونَ فِي عُمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالملائكة بِاسْطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوهُ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ بُشِّرُوهُ عَذَابَهُ اهْفُونَ إِمَّا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ عَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكِبِرُونَ﴾^٢ ، وقال تعالى ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حِفْظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوْفِيقَهُ رَسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾^٣.

ومعنى يُفَرِّطُونَ أي يُضيّعونَ ، أي لا يُضيّعونَ ما وُكِّلَ إليهم من مهام.

روى ابن حجر بإسناده عن ابن عباس في هذه الآية قال: إن ملوك الموت أعونا من الملائكة.

ومنهم الملائكة السياحون في الأرض ، يلتسمون حلق الذكر ، فإذا وجدوا حلقة علم وذكر تنادوا وجلسوا وخفّوا أصحاب الحلقة بأجنبتهم إلى السماء الدنيا.^٤

ومنهم الملائكة الموكلون بالأجنحة في الأرحام إذا تم للإنسان أربعة أشهر في بطن أمه ، فعندئذ يُرسل الله إليه ملائكة ، ويأمره بكتاب رزقه وأجله وعمله ، وشققي هو أم سعيد.^٥

ومنهم الملائكة الموكلون بحفظ أعمال بني آدم وكتابتها ، لكل شخص ملكان ، أحد هما عن يمينه والآخر عن شماله ، كما قال تعالى ﴿إِذَا يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانَ عَنِ اليمينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ﴾^٦ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد^٧ ، وقال تعالى ﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ حَافِظِينَ كَرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾^٨.

^١ ومن الأخطاء الشائعة تسمية ملوك الموت بعزيزيل ، وهذه التسمية لم تثبت لا في الكتاب ولا في السنة ، بل الذي ثبت هو تسميته بملك الموت ، كما في سورة قوله تعالى في سورة السجدة ﴿قُلْ يَتُوفَّا كُمْ مَلِكُ الْمَوْتَ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ ، فالواجب أن نقف عند كلام الله ولا نتعاد.

انظر للفائدة تفصيلات أخرى في «شرح العقيدة الواسطية» للشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله (٦٠/١) وما بعده.

^٢ سورة الأنعام: ٩٣ .

^٣ سورة الأنعام: ٦١ .

^٤ انظر صحيح البخاري (٦٤٠٨) ، ومسلم (٢٦٨٩) .

^٥ انظر ما رواه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

^٦ سورة ق: ١٧ - ١٨ .

روى ابن حجر في «تفسيره» عن مجاهد قال: ملك عن يمينه ، آخر عن يساره ، فأما الذي عن يمينه فيكتب الحير ، وأما الذي عن شماله فيكتب الشر.

وقد صحب الشيخ د. حكمت بشير ياسين إسناد هذا الأثر عن مجاهد كما في «التفسير الصحيح ، موسوعة الصحيح المسور من التفسير بالمؤلف» (٤/٣٧٨) ، ط ١ ، الناشر: دار المآثر - المدينة.

^٧ سورة الانفطار: ١٠ - ١٢ .

ومنهم الملائكة المُوكّلون بسؤال الميت إذا وضع في قبره ، ويسأله عن ربه ودينه ونبيه.^١

ومنهم الملائكة المُوكّلون بخدمة أهل الجنة ، وهم حزنها أي المؤمنون عليها ، قال تعالى في أهل الجنة
 ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ إِمَّا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾^٢.

ومنهم الملائكة المُوكّلون بالنار ، ورئيسهم هو مالك ، حازن النار ، أي المؤمن عليها ، قال تعالى على
 لسان أصحاب النار ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكَ لِيَقْضِي عَلَيْنَا رِبَّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُشِّنُ﴾^٣.

ومن الملائكة مَلَكَ الْجَبَلَ ، الذي أتى النبي ﷺ بعدما لاقى من قومه ما لاقى ، فقال له: إن شئت
 أطبق عليهم الأخشبين^٤.

قال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله تعالى من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً.^٥

ومنهم الملائكة الزاجرات للسحاب ، تسوقه إلى حيث يريد الله تعالى ، قال تعالى ﴿فَالزاجرات زجرًا﴾^٦.
 فالحاصل أن الملائكة تقوم بأمر الله الذي وَكَلَّها به بحسبها لتدبير أمور الكون ، قال ابن تيمية في
 «الفتاوى»: وأما قوله تعالى ﴿فَالْمَدْبَرَاتُ أَمْرًا﴾^٧ ؛ فالمدبرات هي الملائكة.^٨

بل قد حكى رحمه الله اتفاق السلف وغيرهم من علماء المسلمين على أن المقصود بقوله تعالى ﴿فَالْمَدْبَرَاتُ
 أَمْرًا﴾ ، ﴿فَالْمُقْسَمَاتُ أَمْرًا﴾^٩ هم الملائكة.^{١٠}

والملائكة خلق كثير ، لا يحصيهم إلا الله تعالى ، قال تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جنود رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^{١١}.

^١ انظر حديث أنس بن مالك الذي رواه البخاري (١٣٧٤).

^٢ فائدة: جاء تسميتهم بـ«المنكر والنكير» في حديث رواه الترمذى (١٠٧١) ، وصححه الألبانى كما في «السلسلة الصحيحة» (١٣٩١)، وليس في هذه التسمية نكارة ، فإنما منكران من جهة أن الميت لا يعرفهما ، وقد قال إبراهيم للملائكة ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُون﴾ ، الذاريات:
 ٢٥ ، قاله الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في شرحه على «العقيدة الواسطية».

^٣ سورة العد: ٢٣ - ٢٤ .

^٤ سورة الزخرف: ٧٧ .

^٥ الأخشبان جبلان عظيمان بمكة.

^٦ رواه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥) عن عائشة رضي الله عنها.

^٧ سورة الصافات: ٢ .

^٨ سورة النازعات: ٥ .

^٩ (١٧٧/٣٥).

^{١٠} سورة الذاريات: ٤ .

^{١١} «الرد على المنطقين» ، ص ٥١٦ ، الناشر: مؤسسة البيان - بيروت.

^{١٢} سورة المدثر: ٣١ .

وقد سُمِّيَ الله تعالى الملائكة رُسُلاً ، لأنها تقوم بما أرسلها الله به من وظائف ، قال تعالى في سورة فاطر ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلٌ الْمَلَائِكَةَ رَسُلًا أُولَئِكُنْ هُنَّ أَجْنَاحٌ﴾^١ ، فالملايكه مرسله بالوحى وبغض الأرواح وتسخير الرياح والسماء - أي سُوقها - وكتب أعمال بني آدم وغير ذلك .
قال الشنقيطي رحمه الله :

الملائكة يُرسلون إلى الرسل ، والرسل تُرسل إلى الناس ، والذي أنكره الكفار هو إرسال الرسل إلى الناس ، وهو الذي حصر الله فيه الرسل في الرجال من الناس ، فلا ينافي إرسال الملائكة للرسل بالوحى ولقبض الأرواح وتسخير الرياح والسماء وكتب أعمال بني آدم وغير ذلك ، كما قال تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾^٢ .

ولعظيم شأن الملائكة وما تقوم به ؛ أقسم الله بهم فقال ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ ، فدل هذا على شرفهم .
قال ابن تيمية رحمه الله : وأما الملائكة فأمرهم أجمل ، وهم رُسُلُ الله في تدبير العالم ، كما قال تعالى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ ، وقال ﴿فَالْمُقْسَمَاتِ أَمْرًا﴾ ، وقد ذكر الله تعالى في كتبه من أخبارهم وأصنافهم ما يطول وصفه ، وآثارهم موجودة في العالم^٣ .

ومن الملائكة من هم قائمون بعبادة الله على الدوام ، كما قال النبي ﷺ : أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحْقَّ لَهَا أَنْ تَعِطَّ ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملئُ واضحٍ جبهته ساجداً لله^٤ .
فتتأمل أيها المؤمن كيف أن السماء على سعتها فإنها تصيق بالعبد من الملائكة ، فسبحان الله العظيم^٥ .

والإيمان بالملائكة يشمر ثمرات جليلة منها^٦ :

أولاً: العلم بعظمته الله تعالى وقوته وسلطانه ، فإن عظمته المخلوق تدل على عظمته الخالق سبحانه.

^١ سورة فاطر : ١ .

^٢ «أضواء البيان» ، تفسير سورة النحل: ٤٣ .

^٣ «الجواب الصحيح ملخص دين المسيح» (٦/٢٥-٢٦) .

^٤ الأطيط هو صوت الأقطاب ، وهو ما يوجد على ظهور الإبل من الخشب ونحوه ليكون كالكرسي للراكب ، والمعنى أن كثرة الملائكة قد أثقل السماء حتى أطئت . انظر «النهاية».

^٥ رواه الترمذى (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠) وأحمد (١٧٣٩٥) ، وحسنه الألبانى في «الصحيحه» (١٧٢٢) وكذا محققو «المسند».

^٦ وانظر للمزيد من الاستفادة المراجع التالية:

١. ما قاله ابن أبي العز الحنفي في كتابه «شرح العقيدة الطحاوية» في الإيمان بالملائكة ، ص ٢٩٩ - ٣٠١ ، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت.

٢. ما قاله ابن القيم رحمه الله في «روضة المحبين» (١/٧٥ - ٧٣) ، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت.

٣. ما قاله الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في أول تفسير سورة النازعات.

٤. هذا الفصل منقول من «شرح الأصول الثلاثة» لابن عثيمين ، ص ٩٢ ، بتصرف يسيراً.

ثانياً: شكر الله تعالى على عنائه ببني آدم ، حيث وكل من هؤلاء الملائكة من يقوم بحفظهم وكتابه أعمالهم وغير ذلك من مصالحهم.

ثالثاً: محبة الملائكة على ما قاموا به من عبادة الله تعالى.

فصل في الرد على بعض من ضل في باب الإيمان بالملائكة

وقد أنكر قومٌ من الزائغين كونَ الملائكة أجساماً ، وقالوا إنهم عبارة عن قوى الخير الكامنة في المخلوقات^١ ، وهذا تكذيب لكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، والتي تدل على أن الملائكة أجساماً مادية ولكن لا نراها ، وليست قوى معنوية كما يزعمون.

والذي دعاهم لإنكارها إعجابهم بعقولهم التي لا تؤمن إلا بالمحسوس ، وعدم إيمانهم بالغيب الذي جاء به الكتاب والسنة ، فهم كما قال الله تعالى ﴿بِلَّ كَذَبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَمَا يَأْتُهُمْ تَوْيِلهِ﴾^٢.

والدليل على أن الملائكة أجسام مادية ما ذكره الله في كتابه أن لها أجنبية يختلف عددها باختلاف نوع الملك ، قال الله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَئِكَةٍ مُّثْنَى وَثُلَاثَ وَرِبَاعٌ﴾ ، وقال ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَصْرِفُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ﴾^٣.

ورأى النبي ﷺ جبريل على صورته التي خلق عليها ، له ست مئة جناح ، قد سد الأفق.

وما يدل على أن الملائكة أجساماً أنها تتكلم وتفعل ، وتحب وتكره ، وتدخل وتنكتب ، وتوئمر وتنهي ، وغير ذلك من الأفعال ، قال تعالى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ﴾^٤ ، وقال ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾^٥ ، وقال في أهل الجنة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ إِمَّا صَبَرْتُمْ فَنَعَمْ عُفْيَ الدَّارِ﴾^٦.

^١ ومن قال بذلك محمد عبده وتلامذته كالشيخ محمد رشيد رضا والمراغي وغيرهم.

^٢ انظر «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» للدكتور فهد الرومي ، (ص: ٦٢٠ - ٦٣٠) ، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ .

^٣ سورة يومن: ٣٩ .

^٤ سورة الأنفال: ٥٠ .

^٥ سورة الأنعام: ٩٣ .

^٦ سورة سباء: ٢٣ .

^٧ سورة الرعد: ٢٣-٢٤ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال: إذا أحب الله العبد نادى جبريل: (إن الله يحب فلاناً فأحبه) ، فيحبه جبريل ، فينادي جبريل في أهل السماء: (إن الله يحب فلاناً فأحبوه) ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض).^١

زاد مسلم: وإذا أبغض الله عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه ، فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه. قال: فيبغضونه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض.

ولهمما عنه قال: قال النبي ﷺ : إذا كان يوم الجمعة ؛ كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول ، فإذا جلس الإمام طروا الصحف وجاؤوا يستمعون الذكر.^٢

وهذه نصوص صريحة في أن الملائكة أجسام مادية ، لا قوى معنوية أو مجرد أرواح كما قال الزائغون ، وعلى مقتضى هذه النصوص أجمع المسلمون.^٣

^١ رواه البخاري (٣٢٠٩) ، ومسلم (٢٦٣٧).

^٢ رواه البخاري (٣٢١١) ، ومسلم (٨٥٠).

^٣ انظر «شرح ثلاثة الأصول» ، ص ٩٣ - ٩٤ .

الركن الثالث: الإيمان بالكتب

الكتب جمع كتاب ، والكتاب بمعنى (مكتوب) ، والمراد بالكتب هنا الكتب التي أنزلها تعالى على رس勒ه رحمة للخلق ، وهداية لهم ، ليصلوا بها إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.^١

وقد أرسل الله مع كل رسول كتابا ، قال تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾^٢.

كما أوجب الله تعالى الإيمان بجميع الكتب المنزلة ، قال تعالى ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^٣.

والمقصود بالإيمان بالكتب في الآية هو الإيمان بها على وجهها الذي أنزلت به على الأنبياء قبل التحريف ، وإلا فمن المعلوم أن جميع الكتب المنزلة قد أصابها التحريف والتبدل إلا القرآن ، قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^٤.

فصل في بيان ما يتضمنه الإيمان بالكتب

الإيمان بالكتب يتضمن خمسة أمور^٥ ، نذكرها على سبيل الإجمال ثم نفصل القول فيها:

الأول: الإيمان بأنها أنزلت من عند الله حقاً.

الثاني: الإيمان بما علمنا اسمه منها.

الثالث: تصديق ما صح من أخبارها.

الرابع: العمل بأحكام ما لم ينسخ منها.

الخامس: الإيمان بأنها تدعوا إلى عقيدة واحدة وهي التوحيد.

^١ انظر «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٤ .

^٢ سورة الحديد: ٢٥ .

^٣ سورة البقرة: ١٣٦ .

^٤ سورة الحجر: ٩ .

^٥ يراجع «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين رحمه الله ، ص ٩٤ ، فقد ذكر الشيخ أربعة أمور ، ومن الله بواحدة.

تفصيل

الأول: الإيمان بأنها أنزلت من عند الله حقاً ، كما قال تعالى في وصف المؤمنين ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ ، وقال تعالى ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتِي موسى وعيسى وما أُوتِي النبيون من ربكم لا نفرق بين أحد منهم ونخن له مسلمون﴾^١.

وإنزال الكتب كان من طريق الوحي ، فقد أوحى الله بالكتب إلى الملك المختص بإنزال الوحي من السماء إلى الأنبياء ، وهو جبريل ، ثم قرأها جبريل على الأنبياء فحفظوها ، ثم كلنبي يقرأ كتابه على القوم المرسل إليهم.

نبذة عن إنزال القرآن

جبريل رسول ملَك ، ومحَمَّد رسول بشر ، والله يصطفى من الملائكة رسلاً لأداء مهام معينة ، ويصطفى من الناس رسلاً لأداء مهمة تبليغ الرسالة ، فاصطفى لنقل كلامه (القرآن) الرسول المَلَائِكِي وهو جبريل ، واصطفى لنقل القرآن الذي يحمل رسالة الإسلام رسوله البشري وهو محمد ﷺ ، فنزل الرسول المَلَائِكِي بالقرآن على الرسول البشري ولقنه إياه أجزاءً على مدى ثلات وعشرين سنة ، بحسب الأحداث.

واختيار الله تعالى لجبريل عليه السلام دون غيره من الملائكة للقيام بهذه المهمة إنما هو لما فيه من صفات القوة والأمانة وغيرهما ، وقد وصفه الله بذلك في القرآن ، فقال ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيًّا مُبِينًا﴾ ، قوله ﴿نَزَلَ بِهِ﴾ أي نزل بالقرآن.

الثاني: الإيمان بما علمنا اسمه منها ، وهي ستة ، صحف إبراهيم وموسى ، والتوراة التي أنزلت على موسى ﷺ ، والإنجيل الذي أنزل على عيسى ﷺ ، والزبور الذي أُوتِي داود ﷺ ، والقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ، وبعض العلماء يقول إن صحف موسى هي التوراة فتكون خمسة.

وأما ما لم يأت ذكر اسمه من تلك الكتب فنؤمن به إجمالاً.

والذي ينبغي على المؤمن بالإيمان به هو الإيمان بالكتب الأصلية التي أنزلها الله على أنبياءه ، وليس بما تحرف منها ، فنؤمن مثلاً بالتوراة التي أنزلها الله على موسى ﷺ ، ونؤمن بالإنجيل الذي أنزله الله على المسيح عيسى ابن مريم ﷺ ، فتلك هي التوراة وذلك هو الإنجيل ، وليس الكتب المنتشرة الآن في أيدي اليهود والنصارى هي التوراة والإنجيل الأصليين وإن سُمِّوها بذلك ، بل الذي بيد النصارى الآن هي أربعة

^١ سورة البقرة: ١٣٦ .

أناجيل وثلاثة وعشرون رسالة ، وهي أسفار تمت كتابتها من قبّل أشخاص لم يثبت أنهم التقووا بال المسيح ورأوه لحظة واحدة ، بل كتبوها بعد رفعه إلى السماء ، وبينها من التناقض والاختلاف الشيء الكثير ... وإذا أضيفت أسفار العهد القديم الستة وأربعون (المكونة من التوراة وغيرها) إلى أسفار العهد الجديد (إنجيل) السبعة وعشرين صار مجموع الأسفار ثلاثة وسبعين ، يؤمن البروتستانت بستة وستين منها ، ولا يؤمنون بالبقية ، بينما يؤمن الأرثوذكس والكاثوليك بها كلها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأما الإنجليل الذي بآيديهم فهم معترضون بأنه لم يكتبه المسيح عليه السلام ، ولا أملأه على من كتبه ، وإنما أملأه بعد رفع المسيح «متى» و «لوقا»، وقد ذكر هؤلاء أنهم ذكروا بعض ما قاله المسيح وبعض أخباره ، وأنهم لم يستوعبوا ذكر أقواله وأفعاله.^١

وقال أيضاً: هذه المقالات الأربع التي يسمونها الإنجليل - وقد يسمون كل واحد منهم إنجيلا - إنما كتبها هؤلاء بعد أن رفع المسيح ، فلم يذكروا فيها أنها كلام الله ، ولا أن المسيح بلغها عن الله ، بل نقلوا فيها أشياء من كلام المسيح ، وأشياء من أفعاله ومعجزاته ، وذكروا أنهم لم ينقلوا كل ما سمعوه منه ورأوه.^٢

فالحاصل أن الله أمر بالإيمان بالكتب الأصلية التي أنزلها الله على الأنبياء ، وتلك هي التي وصفها الله بأنها هدى ونور ، قال الله في القرآن عن التوراة ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ ، وقال في القرآن عن الإنجليل ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وما تعرضت كتب الأنبياء للضياع ولم تحفظ ، أرسل الله نبيه محمد ﷺ بالقرآن ، وحفظه من التحرير والضياع كما قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ، والذكر هو القرآن.

والقرآن كلام الله ، تكلم الله به حقيقة ، ثم بلغه الملائكة جبريل إلى النبي محمد ﷺ ، ثم بلغه النبي محمد لأصحابه ، ثم حفظ في الصدور ، ثم حفظ في الأوراق والقراطيس ، ثم جُمِع القرآن في كتاب واحد في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ثم تُسخّن النسخ على تلك النسخة إلى يومنا هذا ، وصدق الله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

الثالث: تصديق ما صح من أخبارها ، كأخبار القرآن ، وأخبار التي لم تبدل أو ثُحُرف من الكتب السابقة.

^١ باختصار يسير من «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٤٩١/١) ، الناشر: دار الفضيلة – الرياض.

^٢ «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (١٤/٢).

الرابع: العمل بأحكام ما لم ينسخ منها ، عملا بقول الله تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيَبْيَنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنُنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾^١ ، قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هُدِيَ اللَّهُ فِيهِدَاهُمْ أَفْنَدَهُ﴾^٢ .

فإن قيل: فما الجمع بين التوجيه القرآني بالاقتداء بمحدي الأنبياء السابقين وبين قول الله تعالى ﴿لَكُلُّ جَعْلٍ نَا مِنْكُمْ شَرِيعَةٌ وَمِنْهَا جَاهَ﴾^٣ ؟
فالجواب على قولين:

الأول: أن الاقتداء المقصود هو الاقتداء بالأمور التي اتفقت الشرائع عليها لا كل مفردات الشرائع مما سيأتي ذكره قريبا إن شاء الله ، ودليل التخصيص قوله تعالى ﴿لَكُلُّ جَعْلٍ نَا مِنْكُمْ شَرِيعَةٌ وَمِنْهَا جَاهَ﴾^٤ .

الثاني: أن يكون المقصود بالاقتداء بشرع من قبلنا هو العمل بما لم ينسخ منها مما هو من الأمور الفرعية ، ومن ذلك ما رواه البخاري في «صحيحه» عن العوام قال: سألت مجاهدا عن سجدة «ص»^٥ فقال: سألت ابن عباس: من أين سجدت؟ فقال: أو ما تقرأ ﴿وَمِنْ ذَرِيْتِهِ دَاوِدُ وَسَلِيْمَانُ ... أُولَئِكَ الَّذِينَ هُدِيَ اللَّهُ فِيهِدَاهُمْ أَفْنَدَهُ﴾ ، فكان داود من أُمِّ نَبِيِّكُمْ ﷺ أَنْ يَقْتَدِي بِهِ ، فسجدها داود فسجدها رسول الله ﷺ .

قال الشوكاني رحمة الله^٦ : وقد فضَّل بعضهم تفصيلاً حسناً فقال: إنه إذا بلغنا شرع من قبلنا على لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو لسان من أسلم كعبد الله بن سلام و كعب الأحبار ولم يكن منسوحاً ولا مخصوصاً؛ فإنه شرع لنا ، ومن ذكر هذا القرطي.^٧

وبناء على هذا ؛ فلا يجوز العمل بأي حكم من الأحكام الواردة في الكتب السابقة إلا ما صح منها وأفْرَأَهُ القرآن أو السنة الصحيحة.^٨

^١ سورة النساء: ٢٦ .

^٢ سورة الأنعام: ٩٠ .

^٣ سورة المائدة: ٤٨ .

^٤ أي السجود عند قوله تعالى ﴿وَطَنَ دَاوِدُ أَنَّمَا قَتَنَاهُ فَخَرَ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾^٩ .

^٥ رواه البخاري (٤٨٠٧) .

^٦ هو الشيخ الفقيه الأصولي محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، اليماني ، درس على شيخ كثيرون في فنون كثيرة ، وألف كتب كثيرة منها «إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول» ، وطبع له مجموع فتاوى بعنوان «الفتح الرباني في فتاوى الشوكاني» ، وفي التفسير له كتاب «فتح القدير» ، ورد على أرباب القول بالحادي والملحق في كتاب «الصومام الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد» ، وغيرها من الكتب والرسائل التي بلغت ١١٤ مؤلفاً ، توفي رحمة الله سنة ١٢٥٠ . انظر ترجمته لنفسه في «البدر الطالع» ، وانظر «الأعلام» للزرکلي (٢٩٨/٦) .

^٧ «إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول» (٩٨٥/٢) تحقيق: سامي بن العربي الأثري ، الناشر: دار الفضيلة - الرياض.

فائدة

وللعلم ؛ فإن القرآن حاكمٌ ومهيمنٌ على جميع الكتب السابقة ، فهي منسوبة به على وجه الإجمال ، ويستثنى من ذلك العقائد وما أقره القرآن والسنة من الشرائع كما تقدم ، قال تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهِمِّنَا عَلَيْهِ﴾^٢ ، أي حاكماً عليه .
قال ابن تيمية رحمه الله :

فالسلف كلهم متفقون على أن القرآن هو المهيمن المؤمن الشاهد على ما بين يديه من الكتب ، وعلوم أن المهيمن على الشيء أعلى منه مرتبة ، ومن أسماء الله (المهيمن) ، ويسمى الحاكم على الناس ، القائم بأمرهم ؛ (المهيمن) ، قال المبرد والجوهري وغيرهما: المهيمن في اللغة ؛ المؤمن .
وقال الخليل: الرقيب الحافظ .

وقال الخطابي: المهيمن ؛ الشهيد .

قال: وقال بعض أهل اللغة: الميمنة ؛ القيام على الشيء والرعاية له ...

وهكذا القرآن ؛ فإنه قرر ما في الكتب المتقدمة من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر ، وزاد ذلك بياناً وتفصيلاً ، وبين الأدلة والبراهين على ذلك ، وقرر نبوة الأنبياء كلهم ، ورسالة المرسلين ، وقرر الشرائع الكلية التي بعثت بها الرسل كلهم ، وجادل المكذبين بالكتب والرسل بأنواع الحجج والبراهين ، وبين عقوبات الله لهم ونصره لأهل الكتب المتبعة لها ، وبين ما حُرِفَ منها وبُدُّلَ ، وما فعله أهل الكتاب في الكتب المتقدمة ، وبين أيضاً ما كتموه مما أمر الله بيابنه ، وكل ما جاءت به النبوات بحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن ، فصارت له الميمنة على ما بين يديه من الكتب من وجوه متعددة ، فهو شاهد بصدقها وشاهد بكذب ما حُرِفَ منها ، وهو حاكم ياقرر ما أقره الله ، ونسخ ما نسخه الله ، فهو شاهد في الخبريات ، حاكم في الأموريات .

وكذلك معنى الشهادة والحكم ؛ يتضمن إثبات ما أتبته الله من صدقٍ ومحكمٍ ، وإبطال ما أبطله من كذبٍ ومنسوخ ، وليس الإنجيل مع التوراة ولا الزبور بهذه المثابة ، بل هي متتبعة لشريعة التوراة إلا يسيراً نسخه الله بالإنجيل ، بخلاف القرآن .

^١ يراجع للفائدة كلام الشنقيطي رحه الله في هذا الموضوع في تفسيره «أصوات البيان» (٨١/٢)، عند تفسير قول الله تعالى في سورة المائدة «من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض» من قوله: وحاصل تحرير المقام في مسألة «شرع من قبلنا». .

^٢ سورة المائدة: ٤٨ .

ثم إنه مُعجِّز في نفسه ، لا يقدِّرُ الخلاق أن يأتوا بمثله ، ففيه دعوة الرسول ، وهو آية الرسول وبرهانه على صدقه ونبوته ، وفيه ما جاء به الرسول ، وهو نفسه برهان على ما جاء به.

وفي أيضاً من ضرب الأمثال وبيان الآيات على تفضيل ما جاء به الرسول ما لو جُمع إليه علوم جميع العلماء لم يكن ما عندهم إلا بعض ما في القرآن ، ومن تأمل ما تكلَّم به الأولون والآخرون في أصول الدين والعلوم الإلهية وأمور المعاد والنبوات والأخلاق والسياسات والعبادات وسائر ما فيه كمال النفوس وصلاحها وسعادتها ونجاتها ؛ لم يجد عند الأولين والآخرين من أهل النبوات ومن أهل الرأي - كالمتكلفون وغيرهم - إلا بعض ما جاء به القرآن ، ولهذا لم تحتاج الأمة مع رسولها وكتابها إلى نبي آخر وكتاب آخر فضلاً عن أن تحتاج إلى شيء لا يستقل بنفسه غيره^١ ، سواء كان من علم المحدثين والملهمين ، أو من علم أرباب النظر والقياس ، الذين لا يعتصمون مع ذلك بكتاب منزل من السماء. انتهى باختصار.^٢

وقال ابن تيمية أيضاً: وأما القرآن فإنه مُستقلٌّ بنفسه ، لم يُحْجَّ أصحابه إلى كتابٍ آخر ، بل اشتمل على جميع ما في الكتب من الحasan ، وعلى زيادات كثيرة لا توجد في الكتب ، فلهذا كان مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، يقرر ما فيها من الحق ويُبطل ما حُرِّف منها ، وينسخ ما نسخه الله ، فيقرر الدين الحق ، وهو جمهور ما فيها^٣ ، ويُبطل الدين المبدل الذي لم يكن فيها ، والقليل^٤ الذي نسخ فيها ، فإن المنسوخ قليل جداً بالنسبة إلى المحكم المقرر. انتهى.^٥

قلت: ولما كان القرآن لا يصير منسوباً كله ، ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف ؟ صار مهيمناً على الكتب السابقة.

وقال ابن كثير رحمه الله في معنى وصف القرآن بالمهيمن: فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله ، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمتها ، وأشملها وأعظمها وأحكمها ، حيث جمع فيه محسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها ، وتکَلَّل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة ، فقال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.^٦

^١ هكذا في المطبع ، وأظنه خطأ مطبعي ، وصوابه: أو بغيره.

^٢ «مجموع الفتاوى» (٤٣/١٧ - ٤٥).

^٣ أي: هو غالب ما فيها.

^٤ أي وينسخ القليل.

^٥ «مجموع الفتاوى» (١٩/١٨٤ - ١٨٥).

^٦ انظر «تفسير القرآن العظيم» ، سورة المائدة ، الآية ٤٨ .

الخامس مما يتضمنه الإيمان بالكتب: الإيمان بأنها تدعوا إلى عقيدة واحدة وهي التوحيد بأنواعه الثلاثة ، توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

وأما الأحكام الشرعية التفصيلية فقد تتفق فيها الكتب من جهة العموم وتحتختلف من جهة التفصيل ، بحسب ما تقتضيه حكمة الله واحتياره لما يناسب عباده الذين وضعوا لهم تلك الشريعة ، كما قال تعالى ﴿وَرِبُكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَ﴾ ، وقال تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا حَاجَةً﴾.

فالأمر بالصلوة والصوم – مثلا - ثابت في جميع الشرائع ، ولكن كيفية الصلاة والصوم تختلف من شريعة لأخرى.

وكذلك الطيبات من الأطعمة – كمثال آخر - ، فإن الله قد أحلها لأمة محمد ﷺ ، في حين أنه حرم بعض الطيبات على بني إسرائيل بعدما كانت حلالا لهم ، حكمة منه سبحانه وتعالى واحتيارا ، قال تعالى ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيَّبَاتٍ أَحْلَتْ لَهُمْ وَبَصَدَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ . وإلى هذا الاتفاق والاختلاف في الشرائع أشار النبي ﷺ بقوله: **وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ** ، أمها لكم شتى ودينه واحد.^١

فقوله (إخوة لعَلَّات): كلمة (علّات) جمع (علّة) ، وهي الضرة ، وهي المرأة يكون لزوجها امرأة أخرى ، وفي هذا الحديث شبهة النبي ﷺ الأنبياء بالأبناء من أب واحد وأمهات شتى ، فالآلهات هن الشرائع وفيها يحصل الاختلاف ، والأب هو أصل الدين وهو عبادة الله وحده ، والدليل على هذا قول الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نَوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ، وقال ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنَّ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ، وقال الله لنبيه محمدا ﴿وَاسْأَلْ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مَنْ رَسَلْنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلَهَةً يُعْبُدُونِ﴾.

وسألي قريبا إن شاء الله مزيد تفصيل مواطن اتفاق الكتب السماوية واحتلافها.

فصل في بيان أعظم الكتب

وأعظم الكتب هي القرآن والتوراة والإنجيل ، وكثيرا ما يجيء ذكرها في القرآن ، وكثيرا ما يقرن الله في القرآن بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى عليهما السلام ، وبين كتابيهم وشريعتيهم ، لأن كتابيهم أفضل الكتب ، وشريعتيهم أكمل الشرائع ، ونبيتهم أعلى النبوات ، وأتباعهم أكثر المؤمنين.^٢

^١ رواه البخاري (٣٤٤٣) ومسلم (٢٣٦٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

^٢ قاله الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في تفسيره في مقدمة تفسير سورة الإسراء.

وأعظم الكتب الثلاثة هو القرآن بلا شك ، ولهذا جعله الله مهيمنا على كل الكتب السماوية قبله كما تقدم ، وفيه من الإعجاز ما ليس في غيره من الكتب ، وسيأتي ذكر وجوه إعجاز القرآن الكريم في خاتمة مبحث الإيمان بالرسل لكونه من معجزات النبي محمد ﷺ .

فائدة في ميزة التوراة على الإنجيل

قال ابن كثير رحمه الله في خاتمة تفسير سورة الأحقاف ما محصله أن الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم ، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة ، فالعمدة هو التوراة ، فلهذا قالت الجن عن القرآن إنه أُنزل من بعد موسى ولم تقل إنه أُنزل من بعد عيسى ، لأن التوراة التي أُنزلت على موسى هي الأصل.

فالحاصل أن العمدة في شريعةبني إسرائيل هو التوراة ، والإنجيل متمم له.

فصل في بيان مواطن اتفاق الكتب السماوية ومواطن اختلافها

الكتب السماوية قاطبة متفقة على أمور و مختلفة في أمور ، فأما مواطن الاتفاق فستة:

الأول: أن جميع الكتب دعت إلى شيء واحد وهو عبادة الله وحده وترك عبادة من سواه ، سواء كانوا أصناماً أو أشخاصاً أو أنبياءً أو أحجاراً أو غيرها .
فدين الأنبياء واحد بهذا الاعتبار ، وهو عبادة الله وحده .

الثاني: تتفق الكتب السماوية على وجوب الإيمان بأصول العقيدة ، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره .

الثالث: تتفق الكتب السماوية على وجوب التَّعْبُدُ لِلَّهِ تَعَالَى بعبادات معينة ، وقد تشتراك بعض الأمم في عبادات معينة كالصلوة والزكوة والصوم والحج ، ولكن تلك العبادات تختلف عن بعضها في كيفية أدائها بحسب الناس الذين بُعِثُتُ إِلَيْهِمْ ذلك النبي ، فبني إسرائيل مثلاً أمرهم النبي موسى بالصلوة ، ثم لما بعث الله نبيه عيسى أمرهم بالصلوة أيضاً ، ثم لما أرسل الله نبيه محمداً أمر الناس بالصلوة ، لكن كيفية الصلاة وتوقيتها يختلف من شريعة موسى إلى شريعة عيسى إلى شريعة محمد ، ولكنها في النهاية تشتراك في كونها عبادة لله وحده ، ينبغي أن تؤدي على نحو ما ، بينه ذلك النبي لأتباعه .
ونفس الشيء يقال بالنسبة لعبادة الصوم وغيرها من العبادات .

قال تعالى مبينا اشتراك بعض الأمم في الصلاة والزكاة ﴿أَوْحِينَا إِلَيْهِمْ فَعْلُ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِين﴾^١ ، وقال تعالى في الصوم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتُبُ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعْلَكُمْ تَتَّقَوْنَ﴾^٢ ، وقال لإبراهيم كما في سورة الحج ﴿وَأَذْنَ في النَّاسِ بِالْحَجَّ يَأْتُوكُمْ رِجَالٌ﴾^٣.

الرابع: اتفاقها على الأمر بالعدل والقسط ، قال تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رَسُولًاٰ بِالْبَيِّنَاتِ وَنَزَّلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُولَ النَّاسُ بِالْقَسْطِ﴾^٤.

والامر بالعدل مذكور في شريعة موسى وإبراهيم ، ومن أمثلة ذلك ألا يؤخذ أحد بذنب غيره ، قال تعالى ﴿أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صَحْفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَقَىٰ * أَلَا تَنْزِرْ وَازْرَةً وَزَرَ أَخْرَى﴾^٥.

الخامس: اتفاقها على الأمر بحفظ الضروريات الخمس ، وهي الدين والعقل والمال والعرض والنفس.

ال السادس: اتفاقها على الأمر بمحاسن الأخلاق والنهي عن قبيحها ، فتأمر مثلا ببر الوالدين وصلة الأرحام وإكرام الضيف والعطف على الفقراء والمساكين والقول الحسن ونحو ذلك ، كما أنها تنهى عن القبائح ، كالظلم والعدوان وعقوق الوالدين وانتهاك الأعراض والغيبة والكذب والسرقة وغير ذلك.

وأما مواطن الاختلاف بين الشرائع السماوية ففي أمرتين ، وهذا الاختلاف من حكم الله تعالى ليكون لكل أمة من الشرائع ما يناسب طبيعتها ، قال تعالى ﴿لَكُلِّ جَعْلَنَا مِنْكُمْ شَرِيعَةً وَمِنْهَا جَاجَ﴾^٦ ، وموطننا الاختلاف هنا:

الأول: كيفية العبادات المشتركة بين الشرائع ، فالصلاحة كانت مفروضة في شريعة عيسى ، ولكنها تختلف في كييفيتها عن الصلاحة المفروضة في شريعة محمد ﷺ ، وربما تتفق معها في بعض صورها ، كما قال النبي ﷺ : إننا معاشر الأنبياء أُمِّنَا أَنْ نُعَجِّلَ إِفْطَارَنَا ، ونؤخِّرَ سَحْوَرَنَا ، ونضعُ أَيْمَانَنَا عَلَى شِمَائِلَنَا فِي الصَّلَاة.^٧

^١ سورة الأنبياء: ٧٣ .

^٢ سورة البقرة: ١٨٣ .

^٣ سورة الحج: ٢٧ .

^٤ سورة الحديد: ٢٥ .

^٥ سورة النجم: ٣٦ - ٣٨ .

^٦ سورة المائدة: ٤٨ .

^٧ رواه البيهقي (٤/ ٢٣٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأشار إلى ثبوته الألباني في «الصحيحة» (٤/ ٣٧٥).

وكذلك الصوم المفروض في شريعة من قبلنا ؛ تختلف كيفيته عن الصوم في شريعة محمد ﷺ ، فقد كان الإمساك في شريعة من قبلنا يبدأ إذا استيقظ الإنسان من نومه إذا نام في أي وقت من الليل ، أوله أو وسطه أو آخره ، ويعتبر ذلك الإمساك إلى مغرب الليلة القابضة ، ثم جعل الله ابتداء الإمساك في شريعة محمد ﷺ عند طلوع الفجر ، بدون اعتبار للنوم قبله ، وهذا من حكمة الله تعالى وتيسيره على هذه الأمة.

الثاني: الاختلاف في تشريع بعض الأحكام ، فقد يجعل الله طعاما لأمة ، ويحرّمه على آخرين حكمة يعلمها الله عز وجل ، قد نعلمها وقد لا نعلمها ، كما حرم الله على اليهود أنواعا من الأطعمة ، قال تعالى ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حِرْمَنَا كُلَّ ذِي ظَفَرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حِرْمَنَا عَلَيْهِمْ شَحْوَمَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَ ظَهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَافِيَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعُظُمٍ ذَلِكَ جَزِيَّنَاهُمْ بِإِعْيَاهُمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾^١.

ثم في شريعة عيسى عليه السلام أحلّت تلك الأطعمة ، فقد قال عيسى لقومه ﴿وَمَصْدِقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيِّنِي مِنَ التُّورَاةِ وَلَا حَلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حَرَمَ عَلَيْكُمْ﴾^٢.

ثم جاءت شريعة محمد ﷺ ، فأحلّت الطيبات كافة وحرّمت الخبائث كافة.

الحكمة من إِنْزَالِ الْقُرْآنِ^٣

يَبْيَنُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ الْحَكْمَةِ الْكَبِيرِ مِنْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَّا ﴿كَتَابٌ أُنزَلْنَاهُ إِلَيْكُمْ لِتَخْرُجَ النَّاسُ مِنَ الظُّلْمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾^٤ ، وَقَدْ يَبْيَنُ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَاتٍ أُخْرَى الْحَكْمَةَ مِنْ ذَلِكَ الْإِخْرَاجِ وَهِيَ:

الأولى والثانية والثالثة: تَدْبِيرُ آيَاتِهِ وَتَذَكُّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ وَمِنْ ثُمَّ حَصْولِ التَّقْوِيَّةِ ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿كَتَابٌ أُنزَلْنَاهُ إِلَيْكُمْ مَبَارِكٌ لِيَدْبِرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ﴾^٥ ، وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَكَذَلِكَ أُنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لِعَلَيْهِمْ يَتَقَوَّنُ أَوْ يَحْدُثُ لَهُمْ ذَكْرًا﴾^٦.

الرابعة: الْبِشَارةُ بِالثَّوَابِ لِلْمُتَقِينَ وَالْإِنْذَارُ بِالْعَقَابِ لِمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ، قَالَ تَعَالَى ﴿فَإِنَّمَا يُسَرِّنَاهُ بِلِسَانِكُمْ لِتُبَشِّرَنَا بِمَا تَنْذِرُنَا بِهِ قَوْمًا لُدَّادًا﴾^٧.

^١ سورة النساء: ١٤٦ .

^٢ سورة آل عمران: ٥٠ .

^٣ استفادت هذا الفصل من «أصوات البيان» ، تفسير سورة ص ، قوله تعالى ﴿كَتَابٌ أُنزَلْنَاهُ إِلَيْكُمْ مَبَارِكٌ لِيَدْبِرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ﴾.

^٤ سورة إبراهيم: ١ .

^٥ سورة ص: ٢٩ .

^٦ سورة طه: ١٣٣ .

^٧ سورة مرثية: ٩٧ .

الخامسة: تبيين الأحكام الشرعية للناس ، قال تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُرِّخُ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون﴾^١ ، وقال تعالى ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لِهِمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^٢ .

السادسة: تشبيت المؤمنين على الإيمان والهدى ، قال تعالى ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقَدْسِ مِنْ رِبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثْبِتَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدِيَ وَبِشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^٣.

السابعة: الحكم بين الناس به – أي بالقرآن – ، قال تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحُقْقِ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَكَ اللَّهُ﴾^٤ ، أي: بما علّمك في هذا القرآن من العلوم.

تميّز القرآن العظيم عن غيره من الكتب السماوية

تميّز القرآن بخصائص عدّة عن غيره من الكتب السماوية ، نذكر منها ثلث خصائص:

١٠. أن فيه تبياناً لكل شيءٍ ، كما قال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^٦ ، وكما قال تعالى ﴿مَا فَرِطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^٧ ، وقد بين جلال الدين السيوطي^٨ رحمة الله ذلك التبيان في مقدمة كتابه «الإكيليل في استنباط التنزيل»^٩ ، فقال ما ملخصه:

قد اشتمل كتاب الله على كل شيء. أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها.

وفيه علم عجائب المخلوقات، وملكت السماوات والأرض، وما في الأفق الأعلى، وما تحت الشري، وبهذه الخلق، وأسماء مشاهير الرسل والملائكة، وعيون أخبار الأمم السالفة؛ كقصة آدم مع إبليس في إخراجه من الجنة، وإغراق قوم نوح، وقصة عاد وثعود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقوم يونس، وإلياس، وأصحاب الرَّسْ، وقصة موسى في ولادته وفي إلقائه في اليم، وقتلِه القبطي، ومسييه إلى مدين، وتزوجه ابنة شعيب، وكلام الله تعالى له بجانب الطور، وبعثه إلى فرعون، وخروجه من البحر وإغراق عدوه فرعون، وقصة العجل، وقصة

٤ سورة النحل:

٢ سورة النحل: ٤٦ .

٣ سورة النحل : ١٠٢

٤ سورة النساء: ١٠٥ .

٨٩ : سورة النحل

٦ سورة الأنعام: ٣٨ .

^٧ هو عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري السيوطي ، إمام حافظ مؤرخ أديب ، بُرَز في جميع الفنون ، له نحو ٦٠٠ مصنف ، منها في علوم القرآن «الإتقان في علوم القرآن» ، وله في التفسير «الدر المنشور في التفسير بالملأثور» ، وله في علوم الحديث «ألفية السيوطي في الحديث» ، وله في الحديث «الجامع الكبير» و «الجامع الصغير». توفي عام ٩١١ هـ.

^٨ هو من منشورات دار الأندلس الخضراء بجدة ، بتحقيق: د. عامر بن علي العربي.

ال القوم الذين خرج بهم وأخذتهم الصعقة، وقصة القتال وذبح البقرة، وقصته في قتال الجبارين، وقصته مع الخضر، وقصة طالوت وداود مع جالوت وقتله، وقصة سليمان وخبره مع ملكة سبأ وفتنته، وقصة القوم الذين خرجوا فرارا من الطاعون فأماتهم الله ثم أحياهم، وقصة إبراهيم في مجادلته قومه، ومناظرته النمرود، ووضعه إسماعيل مع أمه بمكة، وبنائه البيت، وقصة الذبيح إسماعيل، وقصة يوسف، وقصة مريم وولادتها عيسى وإرساله ورفعه، وقصة زكريا وابنه يحيى، وأيوب وذى الكفل، وقصة ذي القرنين ومسيره إلى مطلع الشمس ومغريها وبنائه السد، وقصة أصحاب الكهف والرقيم، وقصة بختنصر، وقصة الرجلين اللذين لأحدهما الجنة، وقصة أصحاب الجنة الذين أقسموا ليقطعن ثمار حديقتهم مبكرين في الصباح، فلا يطعُم منها غيرهم من المساكين ونحوهم، وقصة مؤمن آل فرعون، وقصة أصحاب الفيل.

وفيه من شأن النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - دعوة إبراهيم به^١، وبشارة عيسى بنوته^٢، وبعثته وهجرته^٣.

ومن غزواته: غزوة بدر في «سورة الأنفال»، وأحد في «سورة آل عمران»، وغزوة الخندق في «سورة الأحزاب»، والنضير في «سورة الحشر»، والحدبية في «سورة الفتح»، وتبوك في «سورة براءة»، وحجـة الوداع في «سورة المائدة»، ونكاحه زينب بنت جحش ، وظهور أزواجـه عليهـ، وقصة الإفك، وقصة الإسراء، وانشقاق القمر، وسحر اليهود إياـهـ.

وفيـهـ بدءـ خـلقـ الإـنـسـانـ إـلـىـ مـوـتـهـ، وـكـيفـيـةـ الـمـوـتـ وـقـبـضـ الـرـوـحـ وـقـبـضـ الـرـوـحـ ماـ يـفـعـلـ بـهـ بـعـدـ صـعـودـهـ إـلـىـ السـمـاءـ، وـفـتـحـ الـبـابـ لـلـرـوـحـ مـؤـمـنـةـ وـإـلـقـاءـ الـرـوـحـ الـكـافـرـةـ، وـعـذـابـ الـقـبـرـ وـالـسـؤـالـ فـيـهـ، وـمـقـرـ الـأـرـوـاحـ، وـأـشـرـاطـ السـاعـةـ الـكـبـرـىـ العـشـرـةـ، وـهـيـ :

نـزـولـ عـيـسىـ، وـخـرـوجـ الدـجـالـ، وـيـأـجـوجـ وـمـأـجـوجـ، وـالـدـابـةـ، وـالـدـخـانـ، وـرـفـعـ الـقـرـآنـ، وـطـلـوعـ الشـمـسـ مـنـ مـغـرـبـهـ، وـإـغـلـاقـ بـابـ التـوـبـةـ، وـالـخـسـفـ.

وـأـحـوالـ الـبـعـثـ مـنـ نـفـخـةـ الصـورـ، وـالـفـرـعـ، وـالـصـبـعـ، وـالـقـيـامـ، وـالـحـشـرـ وـالـنـشـرـ، وـأـهـوـالـ المـوـفـ، وـشـدـةـ حـرـ الشـمـسـ، وـظـلـ الـعـرـشـ، وـالـصـرـاطـ، وـالـمـيزـانـ، وـالـحـوـضـ، وـالـحـسـابـ لـقـوـمـ، وـنـحـاةـ آخـرـينـ مـنـهـ، وـشـهـادـةـ الـأـعـضـاءـ، وـإـيـتـاءـ الـكـتـبـ بـالـأـيـمـانـ وـالـشـمـائـلـ وـخـلـفـ الـظـهـورـ، وـالـشـفـاعـةـ، وـالـجـنـةـ وـأـبـوـاجـهـ، وـمـاـ فـيـهـ مـنـ الـأـشـجـارـ وـالـشـمـارـ وـالـأـنـهـارـ وـالـخـلـيـ وـالـأـلـوـانـ وـالـدـرـجـاتـ وـرـؤـيـتـهـ تـعـالـىـ.

^١ أي دعاء النبي إبراهيم - عليه السلام - أن يبعث في الأمة نبيا، فكان هو محمد صلى الله عليه وسلم.

^٢ يوجد في التوراة والأناجيل المنتشرة بين اليهود والمصارى بشارات كثيرة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

^٣ أي هجرته من مكة إلى المدينة فرارا بدينه لما ضيق عليه قومه وحالوا دون نشر الإسلام في مكة.

والنار وما فيها من الأودية، وأنواع العقاب، وألوان العذاب، والرقوم والحميم، إلى غير ذلك مما لو بُسط جاء في مجلدات.

وفي القرآن جميع أسمائه تعالى الحسنى، وفيه من أسماء النبي - صلى الله عليه وسلم - جملة^١.

وفيه شعب الإيمان البعض والسبعون.

وفيه شرائع الإسلام الثلاثمائة وخمس عشرة.

وفيه ذكر أنواع الذنوب الكبائر وكثير من الذنوب الصغائر.

وفيه تصديق كل حديث ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم.

هذه جملة القول في ذلك.

انتهى باختصار يسير وتصريف من كلام السيوطي رحمه الله في مقدمة كتابه «الإكليل في استنباط التنزيل».

٢. ومن خصائص القرآن أنه كتاب هداية للناس كافة ، بخلاف الكتب الأخرى ، فإنما كانت تصلح لناس دون آخرين ، حكمة منه جل وعلا ، كما جاء في القرآن ذكر المصالح التي يحتاجها البشر وتدور عليها الشرائع ، وفيه حلول المشاكل العالمية ، انظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في هذا الباب في تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^٢ ، فقد تكلم عليه في نحو من خمس وخمسين صفحة.

٣. ومن أعظم خصائص القرآن العظيم أنه محفوظ من التغيير والتبدل والتحريف على مر الدهور والعصور إلى نهاية العالم ، فقد تعهد الله بحفظه كما قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الدُّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^٣ ، أي: إن الله نزل الذكر وهو القرآن ، ثم حفظه ، وطريقة حفظه على مدى العصور الماضية كانت كالتالي:

بعد إِنزال القرآن على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) عن طريق المَلَك جبريل ؛ حفظه النبي في قلبه ، ثم قرأه على أصحابه فحفظوه في صدورهم وكتبوه على الألواح ، وكان عدد أصحاب النبي (صلى الله

^١ أي مجموعة من الأسماء، كأحمد والسراج المنير ونحو ذلك.

^٢ سورة الإسراء: ٩ .

^٣ سورة الحِجْر: ٩ .

عليه وسلم) أَلْوَافاً ، ثُمَّ تَتَابِعُ النَّاسُ فِي الْأَفَاقِ عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ بَعْدِ الصَّحَابَةِ وَلَمْ يَفْرَطُوا فِيهِ ، جِيلٌ بَعْدَ جِيلٍ ، وَقَرْنَى بَعْدَ قَرْنَى ، وَكَانَ حِفْظُهُم مُتَطابِقاً ، وَلَا يَزَالُ مُتَطابِقاً ، لَا يَخْتَلِفُ حِرْفًا وَاحِدًا ، فِيهَا حِفْظُ اللَّهِ لِأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ مِن التَّغْيِيرِ وَالْزِيادةِ وَالنَّفْصِ ، وَحِفْظُ مَعَانِيهِ مِن التَّبْدِيلِ ، فَلَا يَوْجُدُ فِي الْقُرْآنِ مُؤْلِفٌ مُجَهُولٌ ، لَأَنَّ الْكَلَامَ كَلَامُ اللَّهِ ، لَمْ يَتَدَخُلْ فِيهِ أَحَدٌ بِتَالِيفٍ أَوْ تَحْرِيفٍ ، كَمَا لَا يَوْجُدُ فِي الْقُرْآنِ جُزْءٌ مُفْقُودٌ أَوْ تَنَاقُضٌ بَيْنَ الْآيَاتِ أَوْ سَقْطٌ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ ، وَلَمْ يَتَجَرَّأْ أَحَدٌ عَلَى مِنْ تَارِيخٍ عَلَى تَحْرِيفٍ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهِ إِلَّا وَقَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مِنْ يَرْدِ عَلَيْهِ ، وَيُكَشَّفُ كَذَبَهُ وَزُورَهُ وَبَهْتَانَهُ ، وَيُبَيِّنُ الْحَقَّ الْمُبِينَ ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ آيَاتِ اللَّهِ عَلَى أَنَّهُ كِتَابٌ مَنْزَلٌ ، وَمِنْ أَعْظَمِ نِعَمِهِ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى نَخْاَيَةِ الدُّنْيَا.

إِنْ قِيلَ: مَا هِي الدِّلَائِلُ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ مَحْفُوظٌ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِلتَّحْرِيفِ؟

فَالْجَوابُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ وِجْوهٍ:

- أَنَّ الْبَشَرَ كُلَّهُمْ مَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَأْتِوَا بِآيَةٍ مُثَلَّةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْقُرْآنِ فِي بَلَاغَتِهِ وَحْسَنِ كَلَامِهِ، وَلَوْ أَنَّهُ تَعَرَّضَ لِلتَّحْرِيفِ لَاتَّضَحَّ هَذَا فِي سِيَاقِ الْقُرْآنِ، لَأَنَّ أَسْلُوبَ كَلَامِ الْبَشَرِ مُخْتَلِفٌ عَنْ أَسْلُوبِ كَلَامِ الرَّبِّ.
- ثُمَّ إِنَّ الْقُرْآنَ مُتَمَيِّزٌ فِي نُظُمِهِ وَأَسْلُوبِهِ عَنْ كَلَامِ الْبَشَرِ، وَقَدْ حَاوَلَ أَنَّاسٌ عَلَى مِنْ تَارِيخٍ إِدْخَالِ تَحْرِيفَاتٍ فِي الْقُرْآنِ فَانْكَشَفُوا وَذَهَبُوا جَهَوْدُهُمْ.
- ثُمَّ إِنَّ الْقُرْآنَ مَحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ عَلَوْهُ عَلَى كُونِهِ مَحْفُوظًا فِي الْقِرَاطِيسِ، فَإِنَّ مَلَائِكَةَ الْبَشَرِ يَحْفَظُونَهُ فِي آنِ وَاحِدٍ عَلَى مِنْ الأَزْمَانِ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَا كَانَ فِي الصُّدُورِ فَلَا يَمْكُنُ تَحْرِيفَهُ.
- كَذَلِكَ إِنَّ التَّارِيخَ يَشَهِّدُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَتَعَرَّضْ قَطْ لِلتَّحْرِيفِ، وَلَوْ أَنَّهُ تَعَرَّضَ لِلتَّحْرِيفِ لِذَكْرِهِ الْمُؤْرِخُونَ وَأَتَوْا بِإِثْبَاتَاتٍ، لَا سِيمَا مَعَ وُجُودِ أَعْدَاءِ لِلْقُرْآنِ عَلَى مِنْ تَارِيخٍ. فَلَمْ يُذَكَّرْ قَطْ فِي التَّارِيخِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ اخْتَلَفُوا فِي سُورَةٍ أَوْ آيَةٍ أَوْ كَلْمَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ حَتَّى حِرْفٍ وَاحِدٍ مِنَ الْقُرْآنِ، هَلْ هُوَ مِنَ الْقُرْآنِ أَمْ مُدْخَلٌ عَلَيْهِ. بَلَ التَّارِيخَ يَشَهِّدُ عَلَى ثَوْتُ النَّصِّ الْقَرَآنِيِّ كَمَا هُوَ عَلَى مِنْ الْعَصُورِ وَالْقَرْوَنِ، وَفِي مُخْتَلِفِ بَقاعِ الدُّنْيَا، شَرْقاً وَغَربَاً، وَشَمَالاً وَجَنُوبَاً.

- وما يدل على حفظ القرآن أن القارئ الكريم لو أتى بنسخة من القرآن وقارنها بنسخة أخرى في أمريكا، وبنسخة ثلاثة في الصين، ونسخة رابعة في الهند، لوجد بأم عينيه أن هذه النسخ متطابقة، ليس فيها اختلاف بحرف واحد، فهذا دليل مادي حسي على حفظ القرآن.
- ثم إن النسخة الأصلية من القرآن محفوظة منذ أربعة عشر قرنا، وهي موجودة في متحف في اسطنبول بتركيا، وجميع النسخ المطبوعة في العالم هي مقابلة بتلك النسخة.
- فالحاصل أن القرآن هو هو كما أنزل قبل أربعة عشر عاما، لا يتعرض لتعديل *revision* ، كما هو الحال في الكتب الأخرى التي يُحدثها البشر، ثم يقولون إنها من عند رب، وإنها كلامه!
- وبهذا تتضح قدرة الله سبحانه وتعالى في حفظ القرآن ، مقارنة بقدرة البشر على حفظ غيره من الكتب كالتوراة والإنجيل ، فالنص القرآني محفوظ كما هو منذ أنزل ، والتاريخ شاهد بذلك ، لأن الله تكفل بحفظه ، بينما النصوص الأصلية لجميع الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل غير محفوظة ، والتاريخ شاهد بذلك ، مع أنها أقرب كتابين للقرآن من الناحية الزمنية ، والسبب في ذلك أن الأحداث والرهباني لم يحفظوها ، فالإنجيل الأصلي «الكتاب المقدس» الذي كان ييد المسيح عيسى ابن مريم والهواريين تعرض للضياع، فليس له وجود الآن ، وحال مكانه أربعة أناجيل كتبها أربعة أشخاص (متى، مرقس، لوقا، يوحنا) ، وملحق بها ثلاثة وعشرون رسالة ، كلها قد أُلقيت بعد رفع المسيح، فيكون المجموع سبعة وعشرين سفرا، وقد بدأ تدوين تلك الأنجليل الأربع من سنة ٣٧ م إلى سنة ١١٠ م، وهؤلاء الأربع لم يثبت أن التقاوا بال المسيح ولو للحظة واحدة ، بل كتبوها بعد رفعه إلى السماء ، وبينها من التناقض والاختلاف شيء الكثير.
- ليس هذا فحسب، بل الأنجليل الأربعة المذكورة هي المعتمدة في المسيحية المعاصرة، وأما الثلاثة والعشرون رسالة غير معتمدة!
- وإذا أضيفت أسفار العهد القديم الستة وأربعين (المكونة من التوراة وغيرها) إلى أسفار العهد الجديد (الإنجيل) السبعة وعشرين صار مجموع الأسفار ثلاثة وسبعين ، يؤمن البروتستانت بستة وستين منها ، ولا يؤمنون بالبقية ، بينما يؤمن الأرثوذكس والكاثوليك بما كلها.
- وما يدل بوضوح على تحريف رجال الدين المسيحيين للإنجيل أن هذه الأنجليل الأربعة يتم تحريرها بشكل مستمر من قبل متخصصين في الأنجليل ، حيث يكتشف هؤلاء المتخصصون من وقت

آخر أن هناك عبارات مقحمة في النص الأصلي منها ، فُيخرجون نسخة جديدة من الأنجليل *revision* ، ويقولون إنها منقحة من تلك العبارات المقحمة في النص ، أليس هذا دليلا واضحا على تلاعبهم بما؟

- وبهذا يتبيّن لنا بوضوح أن الرجوع إلى هذه الكتب التي تسمى الأنجليل والاعتماد عليها لمعرفة رسالة المسيح عيسى ابن مریم الأصلي خطأ فادح ، لأنه رجوع إلى كلام البشر الذي يعتريه الصواب والخطأ ، فهي مثل كتب التاريخ ونحوها ، وكتب القصص والحكايات ، التي تؤلّف بعد مرور فترة من الزمن على الأحداث التي تكلّموا عنها ، فيكون فيها الصح والخطأ ، والاختلاف والاضطراب ، وليس رجوعا إلى كتاب الله المقدّس ((إنجيل الأصلي)) الذي أنزله الله على المسيح عيسى ابن مریم ، ولو أن هذه الأنجليل التي يتداوّلها النصارى ((المسيحيون)) هي فعلاً الإنجليل الأصلي لما تعددت ولمّا تناقضت فيما بينها ، لأنّه من المعلوم قطعاً أن الإنجليل الذي كان بيد المسيح إنما هو كتاب واحد ، وكذلك الأمر يقال بالنسبة للتوراة، وهذا مصداق قول الله تعالى ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾^١.

- فبناء على هذا فلا يستطيع باحث أو عالم منصف أن يقول إن الأنجليل الأربع محفوظة كما هي كما كتبها مؤلفوها ، فضلاً عن أن يقولوا إنما – أو واحد منها – تمثّل النص الأصلي للإنجليل الذي أنزله الله على المسيح ، وكان بيد المسيح والخواربين.

- ولكن الله رحيم بعباده ، لم يترك الناس هكذا بلا كتاب هداية وإرشاد ، فقد أنعم على الناس كلهم بكتاب خالد وهو القرآن ، فيه هدى ونور ، وحَفِظَهُ على هيئته كما هو غضا طرياً، وسيبقى محفوظاً إلى نهاية الدنيا ، كما قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ، وجعله صالحـة لكل زمان ومكان ، وجمـع أصناف البشر^٢ ، فبهـذا تم وعد الله بحفظ القرآن ليكون كتاب هداية للناس كلـهم ، بـني إسرـائيل وغـير بـني إسرـائيل ، الأـبيض والأـسود ، العـرب والعـجم ، الإنس والـجن ، إلى نـهاية هـذا العالم ، وتـضمن هـذا القرآن شـريعة الإسلام التي هي خـاتمة الشـرائع.

^١ سورة النساء: ٨٢ .

^٢ بإمكان القارئ الكريم تصفح القرآن من خلال هذا الموقع www.quran.ksu.edu.sa

• وفيما يلي قصة لطيفة من التاريخ ثبت حفظ القرآن على مر العصور والدهور، وقد حصلت لأحد خلفاء المسلمين كان يسمى المؤمن ، دخل عليه في مجلسه رجل يهودي حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة ، فتكلم فأحسن الكلام والعبارة ، فلما انتهى المجلس دعاه المؤمن فقال له:

إسرائيلى؟

قال: نعم.

قال له: أسلم حتى أفعل بك وأصنع ، أي يعطيه مالا ونحو ذلك.

قال: ديني ودين آبائي ! وانصرف.

يعني لن أترك ديني ودين آبائي .

فلما كان بعد سنة جاء اليهودي مسلما إلى مجلس المؤمن ، فتكلم في أمور الدين الإسلامي فأحسن الكلام ، فلما انتهى المجلس دعاه المؤمن فقال له: ألسنت صاحبنا بالأمس؟
قال: بلى.

قال: فما كان سبب إسلامك؟

قال: انصرفت من حضرتك فأحبيت أن أمحضن هذه الأديان ، فعمرت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فرددت فيها ونقشت ، وأدخلتها الكيسة فاشترىت مني .

وعلمت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدث فيها ونقشت ، وأدخلتها البيعة فاشترىت مني .
وعمرت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقشت ، وأدخلتها على الوراقين (هم الذين يكتبون الكتب وبيعونها ، قبل وجود المطبع) فتصفحوها ، فلما وجدوا فيها الزبادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها ، فعلميت أن هذا كتاب محفوظ ، فكان هذا سبب إسلامي . انتهت القصة.

فصل في بيان الأدلة القرآنية على تحريف الأحبار والرهبان للتوراة والإنجيل

قال الشنقيطي رحمه الله في تفسير قوله تعالى في سورة المائدة عند ذكر حال الأحبار والرهبان مع الكتب المنزلة إليهم وتفريطهم في حفظها **﴿ما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾**^١ ، قال رحمه الله:
أخبر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الأحبار والرهبان استحفظوا كتاب الله يعني استودعوا ، وطلب منهم حفظه ، ولم يبين هنا هل امثلوا الأمر في ذلك وحفظوه ، أو لم يمثلوا الأمر في ذلك وضيغوه ، ولكنه بيّن في مواضع آخر أنهم لم يمثلوا الأمر ، ولم يحفظوا ما استحفظوه ، بل حرّفوه وبذلوه عمداً ، كقوله **﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾** الآية ، وقوله **﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾** الآية ، وقوله **﴿تجعلونه**

^١ سورة المائدة: ٤٤ .

قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً》 ، قوله ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ الآية ، قوله جل وعلا ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ فَرِيقًا يَلْوُونَ أَسْتِهْمَ بِالْكِتَابِ لِتَحْسِبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الآية ، إلى غير ذلك من الآيات ...

ثم قال رحمه الله: والقرآن العظيم لم يكلِ الله حفظه إلى أحد حتى يُمْكِنَه تضليله ، بل تولى حفظه جل وعلا بنفسه الكريمة المقدسة ، كما أوضحه بقوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وقوله ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ الآية ، إلى غير ذلك من الآيات. انتهى كلامه رحمه الله.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه «إغاثة اللهفان»:

ثم بعث الله سبحانه وتعالى عبدَهُ ورسولَهُ وكلمَتهُ المُسِيحَ أَبْنَ مُرِيمَ ، فجَدَّ لَهُمُ الدِّينَ ، وَبَيَّنَ لَهُمُ مَعْالِمَهُ ، وَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ ، وَالْتَّبَرِي^١ مِنْ تِلْكَ الْأَحَدَاتِ وَالآرَاءِ الْبَاطِلَةِ ، فَعَادُوهُ وَكَذَبُوهُ ، وَرَمَوهُ وَأَمَّهُ بِالْعَظَائِمِ ، وَرَامُوا^٢ قَتْلَهُ ، فَطَهَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ ، وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ فَلَمْ يَصِلُوا إِلَيْهِ بِسُوءٍ ، وَأَقَامَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُسِيحِ أَنْصَارًا دَعَوْا إِلَى دِينِهِ وَشَرِيعَتِهِ ، حَتَّى ظَهَرَ دِينُهُ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ ، وَدَخَلَ فِيَهُ الْمُلُوكُ ، وَانْتَشَرَتْ دُعُوتُهُ ، وَاسْتَقَامَ الْأَمْرُ عَلَى السَّدَادِ بَعْدَهُ نَحْوَ ثَلَمَّةِ سَنَةٍ.

ثم أخذ دين المسيح في التبديل والتغيير حتى تناقض واضمحل ولم يبق بأيدي النصارى منه شيء ، بل رَكَبُوا ديننا بين دين المسيح ودين الفلاسفة عُبَادَ الأصنام ، ورَامُوا بذلك أن يتطفئوا للأمم حتى يدخلوهم في النصرانية ، فنقلوهم من عبادة الأصنام المجسدة إلى عبادة الصور التي لا ظل لها ، ونقلوهم من السجود للشمس إلى السجود إلى جهة المشرق ، ونقلوهم من القول بالحاد العاقل والمعقول والعقل إلى القول بالحاد الأب والابن وروح القدس.

هذا ومعهم بقايا من دين المسيح ، كالختان والاغتسال من الجنابة وتعظيم السبت وتحريم الخنزير وتحريم ما حرمته التوراة إلا ما أُحِلَّ لَهُمْ بِنَصْحِهَا ، ثم تناسخت الشريعة إلى أن استحلوا الخنزير وأحلوا السبت وعوّضوا منه يوم الأحد وتركوا الختان والاغتسال من الجنابة ، وكان المسيح يُصلِّي إلى بيت المقدس فصلُّوا هم إلى المشرق ، ولم يُعْظِّمْ المسيح عليه السلام صليباً قط ، فعَظَّمُوا هُمُ الصليب وعبدُوهُ ، ولم يُصُّمْ المسيح عليه السلام صوماً لهم هذا أبداً ولا شرعاً ولا أمر به البتة ، بل هم وضعوه على هذا العدد ونقلوه إلى زمن الربيع ، فجعلوا ما زادوا فيه من العدد عوضاً عن نقله من الشهور الهلالية إلى الشهور الرومية ، وتبعدوا بالنجاسات وكان المسيح عليه السلام في غاية الطهارة والطيب والنظافة وأبعد الخلق عن النجاسة

^١ أي التبرؤ.

^٢ أي: قصدوا.

، فقصدوا بذلك تغيير دين اليهود ومراغمتهم ، فغيروا دين المسيح وتقرروا إلى الفلسفه عباد الأصنام بأن وافقوهم في بعض الأمر ليرضوهم به وليسنتصروا بذلك على اليهود. انتهى كلامه رحمه الله.^١

نبیہ مهم

● ومع ذلك التحریف والتبدیل الذي تعرضت له التوراة والإنجيل ؛ فإنه لا زال في التوراة والأنجيل المتوفّرة بأيدي اليهود والنصارى الآن شيئاً من الحق الذي جاء به موسى والمسيح ، وشهاد له القرآن أيضاً ، كتبة محمد^{صلی اللہ علیہ وسلم} ، وبشريّة عيسى^{صلی اللہ علیہ وسلم} ، ووجوب إفراد الله بالعبادة ، نذكر هذا من باب الإنصاف ، لأن الله أمر المسلمين بالإنصاف كما في قوله تعالى ﴿اعدلو هو أقرب للتقوى﴾.

وجوه إعجاز القرآن

القرآن الكريم مُعِجزٌ في ذاته من تسعه وجوهٍ^٢:

الأول: بيانه وفصاحتته ، فالقرآن الكريم نزل على العرب بلغتهم ، وفي زمان بلغوا فيه الذرّوة في الفصاحة والبلاغة والبيان وحسن نظم الشعر ، فظنوا في أول الأمر أنهم يستطيعون الإيتان بمثله فقالوا هل لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أسطoir الأولين^٣ ، فنزل القرآن بتحديهم على ثلاثة مراحل ؛ الأولى أن يأتوا بمثله^٤ ، والثانية أن يأتوا بعشر سور مثله^٥ ، والثالثة أن يأتوا بسورة مثله^٦ ، فعجزوا مع شدة حرصهم على

^١إغاثة اللھغان» (٢٧٠/٢) ، تحقيق الفقی.

قلت: وقد ألهَّ بعض علماء الإسلام كتاباً في تحريف الكتب السابقة ، كما ألهَّفت بعض الرسائل العلمية في ذلك ، منها:

١. الجواب الصحيح من بلد دين المسيح ، لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.
٢. مصادر النصرانية - دراسة ونقداً ، عبد الرزاق بن عبد المجيد الأورو ، الناشر: دار التوحيد للنشر - الرياض
٣. تحريف رسالة المسيح عليه السلام عبر التاريخ - أصحابه ونتائجها ، تأليف: بسمة جستنيه
٤. تحجيم من حرف التوراة والإنجيل ، تأليف: القاضي أبي البقاء صالح بن الحسين ، الناشر: مكتبة العبيكان - الرياض
٥. النصرانية - الأصل والواقع ، تأليف: د. محمد السحيم ، الناشر: دار العاصمة - الرياض
٦. الأسفار المقدسة قبل الإسلام - دراسة لجوانب الاعتقاد في اليهودية والمسيحية ، تأليف: د. صابر طعيمة ، الناشر: عالم الكتب - لبنان

^٧ انظر كتاب «البشارات العجائب في صحف أهل الكتاب» (٩٩ دليلاً على وجود النبي المبشر به في التوراة والإنجيل) ، تأليف د. صلاح الراشد ، الناشر: دار ابن حزم - بيروت.

^٨ قولي إنما تسعه ليس على سبيل التحدید ، ولكن بحسب ما يسر الله الوقوف عليه ، وربما كانت هناك وجوه أخرى ، فالله تعالى أعلم ، وانظر للاطلاع وجوه إعجاز القرآن الكريم العشرة كما ذكرها القرطبي رحمه الله في مقدمة كتابه «الجامع لأحكام القرآن» ، باب: ذكر نکت في إعجاز القرآن ، وشروط المعجزة وحققتها.

^٩ سورة الأنفال: ٣١ .

^{١٠} سورة الطور: ٣٣ - ٣٤ .

مغالبة القرآن وقوه فصاحتهم ، فقطع الله طمعهم إلى قيام الساعة في قوله تعالى ﴿قُل لَّئِنْ اجْتَمَعَ الْإِنْسَانُ وَالْجَنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانُ بَعْضُهُمْ لَبَعْضًا ظَهِيرًا﴾^٤ .
قال ابن تيمية رحمه الله:

والقرآن آيته باقية على طول الزمان من حين جاء به الرسول ، تُسلّى آيات التحدي به ويُتلى قوله ﴿فَلَيَأْتُوا بِجَدِيدٍ مِّثْلَهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ و ﴿فَأَتُوا بِعِشْرِ سُورٍ مِّثْلَهِ﴾ و ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلَهِ﴾ وادعوا من استطعتم من دون الله ، ويُتلى قوله ﴿قُل لَّئِنْ اجْتَمَعَ الْإِنْسَانُ وَالْجَنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانُ بَعْضُهُمْ لَبَعْضًا ظَهِيرًا﴾ ، فنفس إخبار الرسول بهذا في أول الأمر^٥ وقطعه بذلك مع علمه بكثرة الخلق دليل على أنه كان خارقاً يعجز الشَّقَّلين^٦ عن معارضته ، وهذا لا يكون لغير الأنبياء.

ثم مع طول الزمان قد سمعه المواقف والمخالف ، والعرب والعجم ، وليس في الأمم من أظهر كتاباً يقرأه الناس وقال إنه مثله ، وهذا يعرفه كل أحد ، وما من كلام تكلم به الناس - وإن كان في أعلى طبقات الكلام لفظاً ومعنى - إلا وقد قال الناس نظيره وما يشبهه ويقاريه ، سواء كان شعراً أو خطابة أو كلاماً في العلوم والحكم والاستدلال والوعظ والرسائل وغير ذلك ، وما وُجد من ذلك شيء إلا ووُجد ما يُشبهه ويقاريه .

والقرآن مِمَّا يعلم الناس عربهم وعجمهم أنه لم يوجد له نظير مع حرص العرب وغير العرب على معارضته ، فلفظه آية ، ونظمها آية ، وإخباره بالغيب آية ، وأمره ونفيه آية ، ووعده ووعيده آية ، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية ، وإذا تُرجم بغير العربي كانت معانيه آية ، كل ذلك لا يوجد له نظير في العالم.^٧

قال مقيده عفا الله عنه:

تحدى الله في خمس آيات من القرآن جميع الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو سورة منه أو آية منه فيما استطاعوا ، وهي :

^١ سورة هود: ١٣ .

^٢ سورة البقرة: ٢٣ .

^٣ سورة الإسراء: ٨٨ .

^٤ وانظر أيضاً ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَفْتَرِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدِيهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَبِّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة يونس: ٣٧).

^٥ أي في أول أمر نبوته.

^٦ الشَّقَّلين هما الإنس والجن.

^٧ كتاب «النبوات» ، ص ٥١٥ - ٥١٧ .

١. ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مُّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وتفسير الآية الكريمة كالتالي:

وإن كنتم في شك من القرآن الذي نزلناه على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وتزعمون أنه ليس من عند الله، فهاتوا سورة تمايل سورة من القرآن، واستعينوا من تقدرون عليه من أعونكم، إن كنتم صادقين في دعواكم.

٢. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذِبُوكُمْ بِمَا لَمْ يَحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَا يَأْتُوكُمْ تَأْوِيلَهُ كَذَلِكَ كَذَبُ الظَّالِمِينَ﴾.

وتفسير الآية الكريمة كالتالي:

أم يقول الكفار الذين لا يؤمنون بأن القرآن من عند الله: إن هذا القرآن افتراء محمد من عند نفسه؟ فقل لهم أيها الرسول: فأتوا أنتم بسورة واحدة من جنس هذا القرآن في نظمه وهدايته، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من دون الله من إنس وجن، إن كنتم صادقين في دعواكم.
بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن أول ما سمعوه قبل أن يتذربوا آياته، وكفروا بما لم يحيطوا بعلمه من ذكر البعد والجزاء والجنة والنار وغير ذلك من الأمور التي لم يأتمهم بعد حقيقة ما وعدوا به في الكتاب.
وكما كذب المشركون بوعيد الله كذبت الأمم التي خلت قبلهم، فانظر أيها الرسول كيف كانت عاقبة الظالمين، فقد أهلك الله بعضهم بالخسف، وبعضهم بالغرق، وبعضهم بغير ذلك.

٣. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وتفسير الآية الكريمة كالتالي:

بل يقول هؤلاء المشركون من أهل "مكة": إن محمدا قد افترى هذا القرآن، فقل لهم: إن كان الأمر كما تزعمون فأتوا عشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من جميع خلق الله ليساعدوكم على الإتيان بهذه السور العشر، إن كنتم صادقين في دعواكم.

٤. ﴿قُلْ لَعَنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُونُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هُذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيَعْضُضُ ضَهِيرًا﴾.

وتفسير الآية الكريمة كالتالي:

قل يا محمد للذين لا يؤمنون بأن القرآن كلام الله: لو اتفقت الإنس والجن على محاولة الإتيان بمثل هذا القرآن المعجز لا يستطيعون الإتيان به، ولو تعاونوا وتظاهروا على ذلك.

٥. ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلَيَأْتُوْا بِحَدِيثٍ مُّثِلِّهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾.
وتفسير الآية الكريمة كالتالي:

أم يقول هؤلاء المشركون إن محمدا اخترق القرآن من تلقاء نفسه؟
بل هم لا يؤمنون، فلو آمنوا لم يقولوا ما قالوه. فليأتوا بكلام مثل القرآن إن كانوا صادقين في زعمهم أن
محمدًا اخترقه من عنده.

٦. ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الدِّيَنِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وتفسير الآية الكريمة كالتالي:
وما كان يتھيأ لأحد أن يأتي بهذا القرآن من عند غير الله، لأنه لا يقدر على ذلك أحد من الخلق، وفي
هذا القرآن بيان وتفصيل لما شرعه الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولا شك في أن هذا القرآن موحى
من رب العالمين.

فائدة – التوراة والإنجيل لا يحزم بأنها معجزة في لفظها

لا يحزم بأن التوراة والإنجيل معجزة من حيث اللفظ والنظام كالقرآن ، فهذا يرجع إلى اللغة التي أنزل بها وهي العبرانية ، وإنما هي معجزة لما تضمنته من المعاني ، كالإخبار عن الغيب ، وما فيها من المدى
والنور ، وما فيها من الإخبار بنبوة محمد ﷺ .^١

الوجه الثاني من وجوه إعجاز القرآن: أنه ليس فيه عوج لا من جهة الألفاظ ولا من جهة المعاني ، قال الشنقيطي رحمه الله في تعليق له على قوله تعالى ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا﴾ :

أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً كائناً ما كان ، لا من جهة الألفاظ ولا من جهة المعاني ، فألفاظه في غاية الإعجاز والسلامة من العيوب والوصمات ، ومعانيه كلها في غاية الكمال ، أخباره صدق ، وأحكامه عدل ﴿وَقَاتَ لِكَمْ رِبَكَ صَدِقاً وَعَدْلًا﴾ أي: صدقًا في الأخبار ، وعدلًا في الأحكام.^٢

^١ انظر كتاب «البيوّات» (٥١٩).

^٢ «الرحلة إلى أفريقيا» ، ص ١٨ .

ثالثاً: حفظه من التحريف على مر العصور والدهور ، ووجه الإعجاز أنه لم يحفظ كتابٌ من الكتب السماوية كما حفظَ هذا الكتاب ، وصدق الله ﷺ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ^١.

رابعاً: حُسْنٌ ما تضمنه القرآن من تشريعات وأحكام ، تصلح لجميع البشر ولجميع الأزمنة والأمكنة ، وتشمل جميع ما يصلح العباد في دنياهم وآخرتهم ، في العقيدة والشريعة والآداب والاقتصاد والسياسة وغيرها ، وجعله مستغنٍ عن غيره من القوانين والدساتير.

خامساً: صدق الأخبار التي تضمنها ، سواء التي مضت ، أو التي تحصل تَبَعًا مع مرور الزمن أثناء تَنَزُّل القرآن ، أو الآيات التي فيها ذكر بعض الأمور المستقبلية ، فأما الأخبار التي مضت فهي كالأخبار عن خلق السموات والأرض ، وقصة آدم وإبليس ، ثم قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم ، وقصة صاحب الجنتين ، وقصة أصحاب الكهف وذي القرنين ، وغيرها ، جاءت كل هذه الأخبار على لسان نبي أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة.

وتضمن القرآن كذلك ذكر بعض الأحكام الواردة في التوراة ، وبيان كتمان أخبار اليهود لها ، حتى تخداتهم القرآن بقوله ﴿قُلْ فَأَتُوا بِالْتُّورَاةِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^٢.

وأما الآيات التي نزلت تَبَعًا مع التنزيل فكالآيات التي نزلت لكشف أحوال المنافقين ، والآيات التي فيها إجابة على أسئلة ، كالآيات التي تَصَدَّرَها قوله ﴿وَيُسَأَلُونَكَ﴾ وَنَحْوَهَا^٣ ، وكذا المواقف التي كشفت عن صدق الله وعده لنبيه بالنصر في الحروب ، وغير ذلك.

وأما الآيات التي فيها أخبار ما سيأتي في المستقبل فووقيعت مطابقة لما أخبر فكدخول المسجد الحرام ، وهي في آخر سورة الفتح.

وأيضاً قوله تعالى ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعَ وَيُولُونَ الدَّبَرَ﴾^٤ ، فقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم أن عمر لما نزلت هذه الآية قال: أَيُّ جَمْعٍ يُهْزَمُ؟

فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يَثْبُتُ فِي الدُّرْعِ وَيَقُولُ: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعَ وَيُولُونَ الدَّبَرَ﴾.

وفي رواية ابن أبي حاتم: فعرفت تأويلها يومئذ.

وكذلك الآيات التي فيها تقرير عجز الناس عن أن يأتوا بأية مثل آيات القرآن ، فعجز الناس فعلاً ، وكالآيات التي تقرر حفظ الله لكتابه ، كقوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ، فوقع الأمر كما أخبر ، فكم من ملحدٍ حاول ثم نكس على عقبيه ، وكالآيات التي تقرر حصول العزة والكرامة

^١ سورة الحجر: ٩.

^٢ سورة آل عمران: ٩٣.

^٣ سورة القمر: ٤٥.

والسيادة والظهور للأمة الإسلامية إن استقامت على أمر الله ، فوق الأمر كما أخبر الله في القرون الثلاثة المفضلة الأولى ، قال تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيُسْتَخْلِفُنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِينَ ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾^١ ، ثم لما فشا فيهم الشرك والبدع ، وبعد عن منهج السلف الصالح في العقيدة والشريعة والسلوك ؛ صاروا في ذيل الأمم ، وتسلطت عليهم الأمم الأخرى ، واحتلوا بلادهم قرونا من الزمن^٢.

ومن دلائل صدق القرآن ما جاء فيه من ذكر بعض الأمور العلمية ، ثم لما ظهرت الاكتشافات العلمية الحديثة وقعت مطابقة لما أخبر ، فمراحل تكوين الإنسان في بطن أمه – مثلاً – قد تحدث عنه القرآن قبل أربعة عشر قرنا ، بينما لم يهتم علماء الطب إلى مراحل ذلك التكوين إلا في العقود المتأخرة من هذا الزمان.

ويبيان ذلك أن القرآن الكريم بين أن حياة الإنسان تمر بأربعة مراحل ، فقال تعالى في مطلع سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِنْسَانًا مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَا نَطْفَةً فِي قَرْأَةٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلْقَةَ مَضْعَةً فَخَلَقْنَا الْمَضْعَةَ عَظَاماً فَكَسَوْنَا الْعَظَامَ لَهُمَا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُمْ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمْ يَتَّيَّنُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْعَثُونَ﴾.

فالمرحلة الأولى هي أصل الخلقة ، لما خلق الله أبانا آدم عليه السلام من طين ، وفي هذا يقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِنْسَانًا مِنْ سَلَالَةِ مِنْ طِينٍ﴾.

المرحلة الثانية هي مرحلة تكون الإنسان في بطن أمه ، وقد أشار القرآن الكريم إلى المراحل التدرجية لتكون الإنسان في بطن أمه ، وهي خمسة مراحل ؛ نطفة ثم علقة ثم مضاعفة ثم عظام ثم لحم فوق العظام. فقوله: (خلقنا النطفة علقة) أي دماً أحمر.

وبعد أربعين يوماً تتحول العلقة إلى مضاعفة ، أي قطعة لحم قدر المضاعفة التي يمضغها الإنسان في فمه. ثم تتحول المضاعفة اللينة وتتحول خلقتها إلى عظام.

^١ سورة النور: ٥٥ .

^٢ تعمدت هنا ذكر جملة (واحتلوا بلادهم قرونا) بدل (واستعمروا بلادهم قرونا) ، والفضل في هذا الاختيار يعود للعلامة السلفي محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله ، فقد انتقد كلمة (الاستعمار) ، فقال ما معناه إن مادة هذه الكلمة هي (العمارة) ، ومن مشتقاتها التعمير والعمران ، كما قال الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرْتُمْ فِيهَا﴾ ، والذي وقع من الإفرنج في تلك الحقيقة الرعنوية هو الخراب لا العمran ، فإنكم خربتوا الأوطان والأديان والعقول والأفكار والقوميات ، وتركوا آثارا وبصمات سيئة بعد انسحابهم من البلاد التي احتلوا وهيمنا عليها ، ومع الأسف فالمصطلح المستعمل بين المسلمين بعد انسحابهم وإلى الآن هو الاستعمار ، وهذا خطأ لفظي واضح. انظر «آثار الإبراهيمي» (٣٦٠ - ٧٥٠).

ثم تُكسي العظام لحّماً ، ثم يُنشئه الله خلقاً آخر بنفخ الروح فيه.
فتبارك الله الذي أحسن كل شيء خلقه.

والشاهد من هذا السرّد لمراحل حلق الإنسان أن علم الطب الجديد اكتشف هذه المراحل كلها ، ثم تفاجأ بأنه هذه المراحل مذكورة في القرآن منذ أربعة عشر قرناً ، فاستدلوا من هذا على أن القرآن كلام الله ، لا يمكن أن يكون الذي أتى به بشر ، فسبحان من بحر حكمته العقول.

وكذا الأمر بالنسبة لتكوين البحار والجبال وغيرها ، فقد جاء ذكر تكوينها الطبيعي في القرآن ، وبعد ظهور المكتشفات الحديثة وقعت مطابقة لما أخبر به.

وقد ألمَّت في مطابقة الاكتشافات العلمية لما جاء به القرآن مؤلفات كثيرة ، وأسلم بسبب هذا التطابق عدد ليس بالقليل من علماء الطبيعة ، ومن أراد التوسع في ذلك فليرجع إلى مطبوعات هيئة الإعجاز العلمي التابعة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

سادساً: ومن دلائل إعجاز القرآن تنوع العلوم التي احتواها ، فعلاوة على أن القرآن الكريم قد قرر العقيدة الصحيحة فيما يتعلق بصفات الله تعالى وأحقيته بالعبادة ، وهدم أساطير الخرافة والتعلق بالمخلوقات ؛ فإنه لم يقتصر على هذا ، فقد اغترف منه علماء النحو والبلاغة واللغة الشيء الكثير ، بل هو المعيار الأساس لضبط علومهم.

فتنوع العلوم هذه كلها تدل على أن النبي ﷺ صادق فيما يُبَلِّغُه عن ربه ، فإنه من المستقر المعلوم عند قومه أنه أَمِّيٌّ ، لا يقرأ ولا يكتب ، فمن أين سيأتي بكل هذه الأخبار القرآنية لو لا أنه يُوحى إليه من ربِّه؟ قال تعالى ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُطْهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطَلُونَ﴾ * بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بها إلا المبطلون ﴿﴾ .^١

سابعاً: ومن وجوه إعجاز القرآن تأثيره البليغ في النفوس ، سواء كانت نفوساً مؤمنة أو كافرة ، وصدق الله ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مَتَصْدِعًا مِنْ خُشْبَةِ اللَّهِ﴾^٢ ، قوله ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًًا تَقْشِعُ مِنْهُ جَلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَحْمَمْ ثُمَّ تَلَيَّنْ جَلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾^٣. وقد تأثر بالقرآن بعض صناديد الكفر من قريش ، ومن ذلك قصة الوليد بن المغيرة لما سمع القرآن ، فقد روى ابن حجر في «تفسيره»^٤ والحاكم في «مستدركه»^١ واللفظ له عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد

^١ سورة العنكبوت: ٤٨ - ٤٩ .

^٢ سورة الحشر: ٢١ .

^٣ سورة الزمر: ٢٣ .

^٤ تفسير سورة المدثر ، الآيات ١٨ - ٢٥ .

بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رقّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عُمْ ، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا.

قال: لِمَ؟

قال: ليعطوكه ، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله.^١

قال: قد علمت قريشاً أني من أكثرها مالا.

قال: فقل فيه قوله يبلغ قومك أنك منكر له ، أو أنك كاره له.

قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن قوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة^٢ ، وأنه لمشرّأ علاه ، مُعْدِقٌ^٣ أسفه ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وإنه ليخطط^٤ ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعني حتى أفك.

فلما فَكَرَ قال: هذا سحر يؤثر ، يأثر عن غيره^٥ ، فنزلت **﴿ذري ومن خلقت وحيدا﴾**.

وأخرج ابن إسحاق في السيرة^٦ والبيهقي في «الدلائل»^٧ واللفظ له عن الزهري قال: حدثت أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شرقي خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى بالليل في بيته ، وأخذ كل رجل منهم مجلساً ليستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق فتلاؤموا وقال بعضهم لبعض: (لا تعودوا ، فلو رأكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً) ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كان الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا ، فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقالوا: (لا نربح حتى نتعاهد لا نعود) ، فتعاهدوا على

^١ (٢٠٧/٢).

^٢ أي ل تعرض نفسك لما عنده من مال ، يريدون أنه طبع بما عنده ، فلهذا ذهب إليه.

^٣ أي رونقا وحسنا ، وقد تفتح الطاء. انظر «النهاية».

^٤ الغدق هو الماء الكثير ، وفي التنزيل **﴿لأسقيناهم ماء غدق﴾** ، والمقصود بالسُّعدق في الكلام هنا هو كثرة خيره. انظر «لسان العرب».

^٥ أي يرويه عن غيره.

^٦ سورة المدثر: ١١.

^٧ كتاب «السيرة» ، ص (١٦٩) ، تحقيق محمد حميد الله.

^٨ باب جماع أبواب المبعث (٢٠٦/٢).

ذلك ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد .
قال: يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعتأشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها .
قال الأخنس: وأنا ، والذي حلفت به .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فقال: يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟
قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف في الشرف ، أطعمنا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كثيرون رهان ؟ قالوا: (منا نبي يأتيه الوحي من السماء!) ، فمتي ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ، فقام عنه الأخنس بن شريق . انتهى .

ولما سمع جحبير بن مطعم رضي الله عنه رسول الله ﷺ يقرأ سورة الطور بلغ هذه الآيات ﴿أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْحَالِفُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْفِقُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ حَزَانٌ رَّبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾^١ ، وكان جحبير يومئذ مشركا ؛ قال : كاد قلبي أن يطير ، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي .^٢

ولما كان القرآن يتصرف بهذا التأثير البليغ في النفوس ؛ تعاهد الكفار ألا يستمعوا للقرآن ، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنَ وَالْغُوا فِيهِ لَعْلَكُمْ تُغْلِبُونَ﴾^٣ ، وما ذاك إلا لتأثيره في نفوسهم ، وإحساسهم به في أعماقهم ، ولكنهم قوم يستنكرون عن سماع الحق .

وقد أثر القرآن في بعض النصارى فآمنوا به ، قال تعالى عنهم ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مَا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾^٤ .

أما المؤمنون فتأثير القرآن فيهم واضح ، قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾^٥ ، والكلام في هذا يطول ، وهو موجود في مظانه ، ويكتفي في هذا ما ذكره حلال الدين السيوطي رحمه الله في كتابه «الإتقان في علوم القرآن»^٦ أن جماعةً ماتوا عند سماع آيات من كتاب الله ، وقد أفرد أسمائهم في مصنف .

^١ سورة الطور: ٣٥ - ٣٧ .

^٢ رواه البخاري مفرقا ، (٤٨٥٣ ، ٤٠٢٣) .

^٣ سورة فصلت: ٢٦ .

^٤ سورة المائدة: ٨٣ .

^٥ سورة الأنفال: ٢ .

^٦ باب: النوع الرابع والستون في إعجاز القرآن.

ثامناً: ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم كونه شفاء من الأمراض الحسية والمعنوية (أي النفسية) ، فأما الأمراض الحسية فقد حذر القرآن من جملة من المطعومات والمشروبات والسلوكيات على سبيل الوقاية من الأمراض ، ومن ذلك تحريم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، وارتكاب الزنا واللواط ، وكذا إتيان النساء في فترة الحيض.

وأما إذا أُصيب الإنسان بمرض فقد أرشد النبي ﷺ إلى التداوي بقراءة سورة الفاتحة ، كما أرشد القرآن إلى التداوي بالعسل ، «فيه شفاء للناس»^١.

وأما الأمراض النفسية فالقرآن هو أفضل الأدوية لها ، بل إن سبب هذه الأمراض هو البعد عن القرآن ، «ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا»^٢ ، ومن تلك الأمراض القلق والاكتئاب والسحر والأخلاق الرديئة من طمع وكبر والاجراف وراء الشهوات وغير ذلك ، وذلك أن هذه الأمراض تحصل نتيجة الخواء الروحي ، وليس للخواء الروحي دواء إلا الرجوع إلى الله تعالى ، وصدق الله «ألا بذكر الله تطمئن القلوب»^٣ ، «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين»^٤ ، «قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين»^٥ ، «قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء»^٦.

وقد شفى الله بقراءة القرآن الألوف المؤلفة من أصيبيوا بالأمراض العضوية والنفسية على مر العصور ، ولا يزال هذا يُشاهَدُ ويُمارَسُ ، بل قد صار الاستشفاء بالقرآن مُقرّاً في بعض العيادات النفسية.

تاسعاً: ومن وجوه إعجاز القرآن يُسْرُ حفظه عن ظهر قلب لمن أراد ذلك ، خلافاً لغيره من الكتب ، فقد حفظ القرآن كاملاً في صدور الملايين من الناس منذ عصر النبوة إلى يومنا هذا ، وقد حفظه من هو من المكفوفين ، كما حفظه من هو من الأعاجم الذين يتكلمون اللغة العربية إلا قليلاً ، فسبحان من بشر بكتابه العقول ، وسيستمر حفظه في صدور الناس إلى نهاية الدنيا.

وهذا الوجه من وجوه الإعجاز لم – ولن – يحصل لغيره من الكتب إطلاقاً.

فصل في بيان ما يضاد الإيمان بالكتب

الإيمان بالكتب يضاده أحد عشر أمراً:

^١ سورة النحل: ٦٩ .

^٢ سورة طه: ١٢٤ .

^٣ سورة الرعد: ٢٨ .

^٤ سورة الإسراء: ٨٢ .

^٥ سورة يونس: ٥٧ .

^٦ سورة فصلت: ٤٤ .

الأول: تكذيبها ، أي ادعاء أنها لم تنزل من عند الله ، ومن ذلك تكذيب الكفار بأن القرآن كلام الله وقالوا إنه مفتري من عند البشر ، حاشا لله ، وقد أكذب الله تعالى هذه المقوله في آيات كثيرة منها قوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قَلْ فَأَتَوْ بِسُورَةٍ مُّثْلِهِ﴾^١.

الثاني: تحريفها كما هو واقع التوراة والإنجيل ، وقد تقدم الكلام في هذا الموضوع.

الثالث: معارضه القرآن بالعقل ، وادعاء أن هناك ما هو أحسن منه وأفضل.

الرابع: ادعاء أن القرآن الموجود بأيدي المسلمين اليوم ناقص ، ومن هذا قول الرافضة إن القرآن أُنقص ثُلثاً ، وإن هذين الثلثين متعلقان بفضائل أهل البيت ، ويدعون أن القرآن الكامل سيخرج في آخر الزمان!!

الخامس: وما يضاد الإيمان بالقرآن العظيم تفضيل بعض الأوراد عليه ، كما تقوله فرقة التيجانية وبعض فرق المتصوفة ، قالوا: إن قراءة صلاة الفاتح مرة واحدة خير من قراءة القرآن ستة آلاف مرة!^٢

السادس: وما يقدح في الإيمان بالقرآن العظيم قدحاً عظيماً ، الإعراض عن التحاكم إليه ، واستبداله بشرائع البشر وقوانينهم ودستورهم الوضعية ، وفاعل ذلك حكمه من جهة تكفيه أو عدمه بحسب حاله ، فإن كان الإعراض عن التحاكم إليه منطلق من تنقص القرآن فهذا كفر لا ريب فيه ، كمن يحكم بغير ما أنزل الله في القرآن معتقداً أنه لا يصلح للتحاكم إليه في زماننا ، أو إن شريعة البشر متساوية لما في القرآن في العدل والحكمة أو أحسن منه ، وهذا كفر صريح ، لأنه تكذيب للقرآن ، وطعن في حكم الله وشرعه ، ومن ثم فإنه تنقص له ، وتنقص الله كفر ، بل يلزم منه تفضيل المخلوقين على الخالق تعالى في بعض صفاتهم ، كصفة العلم والحكمة وغيرها ، وهذا كفر صريح لا شك فيه ، والواجب هو الإيمان بأن الله هو الحكيم الخبير العليم بمصالح خلقه ، قال تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مِنْ خَلْقِهِ وَهُوَ الْلَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^٣.

وأما إن كان الإعراض عن التحاكم إليه لهوى في النفس من ظلم أو رشوة أو نحوه ، مع اعتقاده بأن حكم الله يجب العمل به وأنه الأصلح للبشر ؛ فهذا الحكم لا يكفر ، سواء كان والياً أو قاضياً ، بل يكون قد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب ، وهو المعروف بالكفر الأصغر.

والكلام في الحكم بغير ما أنزل الله يطول ، وقد تكلم أهل العلم فيه في كتب التفسير والعقائد وغيرها.

^١ سورة يونس: ٣٨ .

^٢ انظر للتوضيح في معرفة ما عليه هذه الفرقـة كتاب «التيجانية» لعلي بن محمد الدخـيل الله ، (ص ١١٦ وما بعدهـا) ، النـاشر: دار طـيبة - الـرياض.

^٣ سورة الملك: ١٤ .

والإعراض عن التحاكم إلى ما أنزل الله يعتبر من ألوان الانحراف التي وقع فيها من قبلنا من الأمم كاليهود والنصارى ، عيادة بالله ، فمن وقع في ذلك فقد تشبه بهم ، وبهس من شبهة بهم.

السابع: وما ينافي الإيمان بالقرآن تفسيره بالأهواء والأقوال الباطلة التي لم تثبت عن السلف الصالح ، كتفسيرات الجهمية والمعتزلة والرافضة والتفسير الإشاري ونحو ذلك.

الثامن: وما ينافي الإيمان بالقرآن إهانته كما يفعل السحرة من وضعه في المزاييل أو في أماكن قذرة وتلويشه وتنزيقه ، وهذا كفر بالله العظيم ، وللعلم فإنه الشياطين لا تتم لهم للساحر سحره إلا بإهانة القرآن العظيم.

التاسع: وما يقدح في الإيمان بالقرآن الإعراض عن العمل بأحكامه ، سواء المتعلقة بجانب الاعتقاد أو العبادات أو الآداب والسلوك.

تنبيه

وما ينبغي أن يعلم أن أعداء الدين من يهود ونصارى وملحدين ومقلدين لهم دور هام في صد المسلمين عن العمل بالقرآن منذ القدم ، ومن ذلك قول «غلاستون» رئيس وزراء بريطانيا سابقا في مجلس العموم البريطاني: «ما دام هذا القرآن موجودا في أيدي المسلمين فلن تستطيع «أوربة» السيطرة على الشرق».

وقال المحاكم الفرنسي في الجزائر في ذكرى مرور مئة سنة على استعمار الجزائر: «إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن ويتكلمون العربية ، فيجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم».^١

العاشر: وما ينافي الإيمان بالقرآن القول بخلق القرآن ، وأنه ليس كلام الله تعالى على الحقيقة ، وإنما هو معانٍ نفسية خلقها الله في غيره ، وهذه عقيدة فرقـة الجهمية. والصواب الذي عليه أهل الإسلام أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

الحادي عشر: وما ينافي الإيمان بالقرآن عدم الإيمان بالسنة الشريفة ، وهذا كفر بالقرآن أصلا ، لأنها – أي السنة الشريفة – وحي من عند الله ، تبين القرآن وتفسره ، وتُخصّص عموماته ، وتُقيّد مطلقه. ثم إن الله تعالى أمر الله بطاعة رسوله ﷺ ، ولا يكون ذلك إلا بالإيمان بالسنة الشريفة ، قال تعالى ﴿وَمَا آتاكـم الرسـول فـخذـوه وـمـا نـهـاكم عـنـه فـانـتهـوا﴾ ، وقال تعالى ﴿مـن يـطـع الرـسـول فـقد أطـاعـ الله وـمـن تـوـلـى فـما أرسـلـناكـ عـلـيـهـم حـفـيـظـا﴾.^١

^١ يُنظر للتوضـع كتاب «قادـة الغـرب يـقولـون: دـمـروا إـسـلـامـ، أـبـيدـوا أـهـلـهـ» ، جـلالـ العـالمـ (صـ: ٤٠).

هذه أهم مظاهر الإعراض عن القرآن العظيم ، نسأل الله أن يُجنبنا إياها ، وأن يوفقنا للإيمان بكتابه حق الإيمان ، وقراءته وتدبره والعمل به .

فصل في ثمرات الإيمان بالكتب^١

الإيمان بالكتب يثمر ثمرات جليلة منها:

الأولى: العلم بعناية الله تعالى بعباده ، حيث أنزل لكل قوم كتاباً يهديهم به .

الثانية: العلم بحكمة الله تعالى في شرعه حيث شرع لكل قوم ما يناسب أحوالهم ، كما قال الله تعالى ﴿لِكُلِّ جَمْعٍ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ﴾^٢ .

الثالثة: شكر نعمة الله في ذلك .

الرابعة: المداية إلى الصراط المستقيم والدين القويم الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى لعباده .

الخامسة: السلامة من الضلال والانحراف والتخبط الذي يقع فيه البشر بسبب بعدهم عن شريعة الله المذكورة في كتبه المنزلة .

^١ سورة النساء: ٨٠ .

^٢ استفادت جملة هذا الفصل من كتاب «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٥ ، و «شرح أصول الإيمان» ، ص ٣١ ، الناشر: دار ابن خزيمة – الرياض .

^٣ سورة المائدة: ٤٨ .

الرُّكْنُ الرَّابِعُ: الإِيمَانُ بِالرَّسُولِ

الرُّسُلُ جمع (رسول) بمعنى (مُرْسَلٌ) وهو المبعوث بإبلاغ شيء ، والمراد هنا: مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ مِنَ الْبَشَرِ^١ بشرع ، وَأَمْرٍ بِتَبْلِيغِهِ^١.

سَتَةُ عَشَرَ فَائِدَةً فِي النَّبُوَاتِ

١. الغاية من إِرْسَالِ الرَّسُولِ

الرسُّلُ وسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ شرعه إليهم وإرشادهم إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم ، لأن الناس مهما أتوا من العلم والذكاء فلا يمكن أن تستقل عقولهم بتشريع عام مُوحَّد تنتظم به مصالح الأمة على أحسن ما يكون ، وذلك لأن عقول البشر قاصرة ، أما الله فهو الحكيم الخبير العليم بمصالح خلقه ، قال تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مِنْ خَلْقِهِ لَهُ الْأَطْفَالُ حَسِيبٌ﴾^٢ .

فمن رحمة الله تعالى أن أرسل الرسل ليبلغوا الناس ما ينفعهم ، وبهذا كانوا حجة الله على الناس ، كما قال تعالى ﴿رَسُّالًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَئِلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَةٌ بَعْدَ الرَّسُولِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^٣ .

^١ انظر «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٥ .

^٢ سورة الملك: ١٤ .

^٣ سورة النساء: ١٦٥ .

٢. بيان الفرق بين النبي والرسول

اختلف العلماء رحمهم الله في تعريف النبي على عدة أقوال ، والذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هو أن النبي هو الذي أوحى الله إليه بمحوي ، لينقله إلى المؤمنين الذين عنده ، كأنبياءبني إسرائيل ، يأمرهم بأقوامهم بما جاء في التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام .

وكذا اختلف العلماء في تعريف الرسول على عدة أقوال ، والذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هو أن الرسول هو الذي ينبعه الله ، ثم يأمره أن يبلغه رسالته إلى قوم كافرين كما حصل مع نوح وإبراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

ويشهد لصحة هذا المعنى أن نوحاً وصف بالرسالة مع أنه قد تقدمه أنبياء على مدى عشرة قرون ، منهم شيث وإدريس عليهما السلام ، وما ذاك إلا لأنه بعث لقوم كافرين أول ما وقع الشرك في الأرض ، بخلاف من تقدمه من الأنبياء ، فإنهم بعثوا إلى قوم مؤمنين.

وعلى هذا فكل رسول نبي ، وليس كلنبي رسولا.^١

٣. أول الرسل نوح ، قال الله تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ﴾^٢.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم ليشفع لهم فيعتذر إليهم ويقول: ائتوا نوحاً ، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.^٣

فإن قيل: أليس آدم عليه السلام أول رسول لبني آدم؟

فالجواب ما قاله الإمام الشنقيطي رحمه الله:

الظاهر أنه لا طريق للجمع إلا من وجهين:

^١ انظر كتابه «النبوت» ، الباب (٧١٤/٢) ، تحقيق د. عبد العزيز بن صالح الطويان ، الناشر: دار العاصمة – الرياض.

وانظر للإشارة في هذا الباب ما قاله الشنقيطي رحمه الله في كتابه «أصوات البيان» في تفسير قوله تعالى في سورة الحج **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾**.

وانظر كذلك تفسير ابن كثير لقول الله تعالى **«مَا كَانَ مُحَمَّدًا أَبَا أَحَدًا مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّنَ»** ، فقد قال رحمه الله: مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ، ولا ينعكس. انتهى.

^٢ سورة النساء: ١٦٣.

^٣ أخرجه البخاري (٤٤٧٦) ، ومسلم (١٩٣) ، ولغرض مسلم: فـيأتون نوحاً عليه السلام ، فيقولون: يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ... الحديث.

الأول: أن آدم أُرسِل لزوجه وذرته في الجنة ، ونوح أول رسول أُرسِل في الأرض ، ويدل لهذا الجمع ما ثبت في الصحيحين وغيرهما: (ويقول: ولكن ائتوا نوحا ، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ...) الحديث.

فقوله: (إلى أهل الأرض) لو لم يُرد به الاحتراز عن رسول بُعث لغير أهل الأرض لكان ذلك الكلام حشوا ، بل يُفهم من مفهوم مخالفته ما ذكرنا.

الوجه الثاني: أن آدم أُرسِل إلى ذريته وهم على الفطرة ، لم يصدر منهم كفر فأطاعوه ، ونوح هو أول رسول أُرسِل لقوم كافرين ينهاهم عن الإشراك بالله تعالى ويأمرهم بإخلاص العبادة له وحده ، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ الآية ، أي: على الدين الحنيف حتى كفر قوم نوح ، وقوله ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثْتُ اللَّهُ النَّبِيِّنَ﴾ الآية. والله تعالى أعلم.^١

٤. **وآخر الرسل والأنبياء محمد ﷺ** ، قال تعالى ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّنَ﴾^٢.

٥. ولم تخل أمة من رسول يبعثه الله تعالى بشرعية مستقلة إلى قومه ، أو نبي يوحى إليه بشرعية من قبله ليجددها ، قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾^٣ ، وقال تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَّ فِيهَا نَذِيرٌ﴾^٤ ، وقال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾^٥.

٦. **ودعوة الرسل واحدة** ، وهي الدعوة إلى توحيد الألوهية ، كما دل على ذلك قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نَوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^٦.

^١ باختصار يسير من كتابه «أضواء البيان» ، تفسير سورة البقرة: ٢٥٣.

^٢ سورة الأحزاب: ٤٠.

^٣ تبيه: لم يقل (وخاتم المرسلين) ، لأن النبوة إذا ختمت فقد ختمت الرسالة من باب أولى. فإن قيل: كيف الجمع بين كون محمد ﷺ خاتم النبيين ونزل عيسى ﷺ في آخر الزمان؟ فالجواب أن عيسى ﷺ لا ينزل بشرعية مستقلة ، بل ينزل ويخلف بشرعية محمد ﷺ ، فهو تابع لمحمد ﷺ . انظر «فتاوي الحرم المكي» (٣٧/١) لابن عثيمين ، وكذا «شرح الواسطية» (٦٦/١).

^٤ سورة النحل: ٣٦.

^٥ سورة فاطر: ٢٤.

^٦ سورة المائدة: ٤.

^٧ سورة الأنبياء: ٢٥.

٧. والرسل بشر اصطفاهم الله لحمل الرسالة ، وحباهم قدرة على القيام بأعبائها والصبر على مشاقها ، لاسيما أولو العزم منهم^١ ، قال تعالى ﴿الله يصطفى من الملائكة رحمة ومن الناس﴾^٢ .

٨. والرسل بشر مخلوقون ، ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء ، قال تعالى عن نبيه محمد ﷺ - وهو سيد المسلمين وأعظمهم جاهًا عند الله - ﴿فُلْ لَا أَمِلُكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَا سْتَكْثِرُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِّيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^٣ ، وقال تعالى ﴿فُلْ إِنِّي لَا أَمِلُكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * فُلْ إِنِّي لَنْ يُحِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا﴾^٤ .

٩. والرسل تلحقهم خصائص البشرية من المرض والموت وال الحاجة إلى الطعام والشراب وغير ذلك ، قال الله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام في وصفه لربه تعالى ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيُسْقِنِي * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِنِي﴾^٥ .

وقال النبي ﷺ : إنما أنا بشر مثلكم ، أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني.^٦

١٠. وقد وصف الله تعالى رسليه بالعبودية له في سياق الثناء عليهم ، فقال تعالى في نوح ﷺ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾^٧ ، وقال في محمد ﷺ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^٨ ، وقال في إبراهيم وإسحاق ويعقوب صلى الله عليهم وسلم ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَئِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾^٩ ، وقال في عيسى ابن مريم ﷺ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِ إِسْرَائِيلِ﴾^{١٠} .

^١ سيفاني التعريف بجم قريبا إن شاء الله.

^٢ سورة الحج: ٧٥ .

^٣ سورة الأعراف: ١٨٨ .

^٤ سورة الجن: ٢٢-٢١ .

^٥ سورة الشعراء: ٨١-٧٩ .

^٦ رواه البخاري (٤٠١) ، ومسلم (٥٧٢) ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

^٧ سورة الإسراء: ٣ .

^٨ سورة الفرقان: ١ .

^٩ سورة ص: ٤٥ .

^{١٠} سورة الزخرف: ٥٩ .

فالرسل عبيد الله ، وعليه فلا يجوز أن يصرف لهم شيء من العبادات ، لا دعاء ولا ذبح ولا نذر ولا سجود ولا غيرها من العبادات ، بل المستحق لذلك هو الله وحده ، وهذا أمر مُجمع عليه في جميع الشرائع السماوية كما قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نَوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^١.

١١. وقد فضل الله بعض النبئين على بعض ، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ فَضَلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾^٢.

١٢. وأفضل الرسل هم أولو العزم وهم خمسة ، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، صلى الله عليهم وسلم ، وقد ذكرهم الله تعالى في موضعين من القرآن ؛ في سورة الأحزاب وفي سورة الشورى ، في قوله ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّنَ مِثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾^٣ ، وفي قوله ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^٤.

ودلائل تفضيل هؤلاء الخمسة على غيرهم من الأنبياء وكوئلهم من أولى العزم واضحة ، فمحمد ﷺ قد تقدم الكلام عنه.

وأما نوح ﷺ فإنه أول رسول بُعث إلى أهل الأرض بعدما طرأ الشرك عليهم ، وقد لبث نحو عشرة قرون يدعو إلى التوحيد.

وأما إبراهيم ﷺ فإنه أبو الأنبياء كلهم من أتى بعده ، ولهذا أخبر تعالى عنه أنه جعل في ذريته النبوة والكتاب ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذَرِيْهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾^٥.

كما أن إبراهيم عليه السلام كان صديقاً ، وهي صيغة مبالغة من الصدق ، لشدة صدقه في معاملاته مع ربه ، وقد شهد له الله بذلك في قوله تعالى ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ ، قوله ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبِّهِ﴾ ، وقد شهد له الله بذلك في قوله تعالى ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَوَالْعَزْمِ مِنَ الرَّسُولِ﴾ . سورة الأحقاف الآية ٣٥ .

^١ سورة الأنبياء: ٢٥ .

^٢ سورة الإسراء: ٥٥ .

^٣ سورة الأحزاب: ٧ .

^٤ سورة الشورى: ١٣ ، وانظر تقرير ابن كثير لهذه المسألة عند تفسيره لقوله تعالى ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَوَالْعَزْمِ مِنَ الرَّسُولِ﴾ . سورة الأحقاف الآية ٣٥ .

^٥ سورة الحديد: ٢٦ ، وانظر ما قاله العلامة الشبيقطي رحمه الله في هذا الباب في كتابه «دفع إيهام الإضطراب عن آيات الكتاب» ، سورة العنكبوت.

بكلمات فائتهن، وللائل صدقه في معاملته مع ربه عديدة ، منها رضاه بذبح ولده استجابةً لأمر ربها ، وصبره على الإلقاء في النار ، وصبره على مفارقة الأهل والوطن فراراً بدينه.^١

وَمَا مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَوْجَهٌ تَفْضِيلَهُمَا عَلَىٰ غَيْرِهِمَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَوْسَلَهُمَا إِلَىٰ أَعْظَمِ أُمَّةٍ بَعْدَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَهِيَ أُمَّةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمَا أَفْضَلَ الْكِتَبِ بَعْدَ الْقُرْآنِ وَهِمَا التُّورَةُ وَالْإِنْجِيلُ ، وَقَدْ لَقِيَا فِي سَبِيلِ تَحْمِلِ أَعْبَاءِ الدُّعَوَةِ مِنَ الْمَشَاقِ الشَّيءُ الْعَظِيمُ مَا هُوَ مَذَكُورٌ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ:٢

موسى أفضل من عيسى عليهما الصلاة والسلام ، وذلك ظاهر في كون الآيات التي آتاهها الله تعالى
لموسى أعظم من الآيات التي آتاهها الله لعيسى ، قال ابن تيمية رحمه الله:

وأهل الكتاب عندهم في كتبهم أن غير المسيح أحيا الله على يديه الموتى ، وموسى بن عمران من جملة آياته العصا التي انقلب فصارت ثعباناً مبيناً حتى بلعت الحبال والعصبي التي للسحرة ، وكان غير مرأة يلقيها فتصير ثعباناً ثم يمسكها فتعود عصا.

ومعلوم أن هذه آية لم تكن لغيره ، وهي أعظم من إحياء الموتى ، فإن الإنسان كانت فيه الحياة ، فإذا عاش فقد عاد إلى مثل حاله الأول ، والله تعالى يحيي الموتى بإقامتهم من قبورهم ، وقد أحيا غير واحد من الموتى في الدنيا ، وأما انقلاب خشبة تصير حيوانا ثم تعود خشبة مرة بعد مرة وتبتلع الحبال والعصي فهذا أتعجب من حياة الميت .

وأيضا فالله قد أخبر أنه أحيا من الموتى على يد موسى وغيره من أنبياءبني إسرائيل أعظم من أحياهم على يد المسيح ، قال تعالى ﴿إِذْ قَلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهَنَّمَ فَأَخْذُنَّكُمُ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظَرُونَ﴾ ثم بعشاكم من بعد موتكم لعلكم تشكون﴾ ، وقال تعالى ﴿فَقَالُوا اضْرِبُوهُ بِعِصْمَهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ ، وقال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلْوَفُ حَذَرَ الْمَوْتَ فَقَالَ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيِاهُمْ﴾ .

^١ انظر ما قاله العلامة الشنقيطي رحمة الله في هذا الباب في كتابه «أضواء البيان» ، تفسير سورة مريم ، تفسير قوله تعالى ﴿وَذَكَرَ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾.

^٤ انظر للفائدة ما قاله العلامة الشنقيطي رحمه الله في علة كون آدم عليه السلام ليس من أولي العزم في كتابه «أضواء البيان» ، تفسير سورة طه ، تفسير قوله تعالى ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قوا فتنسـ ولم نجد له عزما﴾.

٣ سورة البقرة: ٥٥ - ٥٦ .

٤ سورة البقرة: ٧٣

٢٤٣ : سورة البقرة

وأيضاً فموسى عليه الصلاة والسلام كان يُخرج يده بيضاء من غير سوء ، وهذا أعظم من إبراء أثر البرص الذي فعله المسيح عليه السلام ، فإن البرص مرض معتاد ، وإنما العجب الإبراء منه ، وأما بياض اليد من غير برص ثم عودها إلى حالها الأول ، ففيه أمران عجيبان لا يعرف لهما نظير .

وأيضاً فموسى فلق الله له البحر حتى عبر فيه بنو إسرائيل وغرق فيه فرعون وجنوده ، وهذا أمر باهر فيه من عظمة هذه الآية ومن إهلاك الله لعدو موسى ما لم يكن مثله للمسيح .

وأيضاً فموسى كان الله يطعمهم على يده المَنَّ والسلوى^١ مع كثرة بنى إسرائيل ، ويفجر لهم بضربه للحجر كل يوم اثنى عشر عيناً يكفيهم ، وهذا أعظم من إنزال المسيح عليه السلام للمائدة ، ومن قلب الماء خمراً ونحو ذلك مما يحكى عنه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وكان موسى في عدوه من القُمَّل والضفادع^٢ والدم وسائر الآيات ما لم يكن مثله للمسيح .^٣

^١ المَنَّ هو نبات الكلمأ ، وهو نوع من الخضروات يخرج من الأرض أيام الأمطار بدون سقي ولا بذر ، وهي مما مَنَّ الله بها على عباده ، وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: الكلمأ من المَن ، وماؤها شفاء للعين. رواه البخاري (٤٨٧٤) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه. وانظر «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير.

والسلوى طائر كالسُّمان. قاله الأصبهاني في «المفردات في غريب القرآن».

^٢ انظر الكلام على هاتين الآيتين في الحاشية التالية.

^٣ أشار الله تعالى إلى آيات موسى التسع الدالة على نبوته في موضعين من القرآن: الأول: في سورة الإسراء ، الآية رقم ١٠١ : «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ يَبَّلَّغُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءُهُمْ فَقَالَ لَهُ فَرْعَوْنُ إِلَيْيَ لَأَطْلُنَّ يَا مُوسَى مَسْخُورًا».

والآية الثانية في سورة النمل ، الآية رقم ١٢ : «وَأَدْجَلَ يَدَكَٰ فِي جَيْلِكَ تَخْبِيئَ بَيْضَاءَ مِنْ عَيْنٍ سُوءٍ فِي تِسْعَ آيَاتٍ إِلَيْ فَرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ».

ومعنى الآيتين: ولقد آتينا موسى تسع معجزات واضحات شاهدات على صدق نبوته وهي: العصا واليد والسنوات العجاف التي ابتلى بها الله آل فرعون ، ثم كشفها الله عنهم بسبب دعاء موسى لهم ، ونقص الثمرات عليهم والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم الذي ابتلاهم الله به .

فأما آية العصا فمعروفة.

وأما آية اليد فهي إدخال موسى يده في حيه فتخرج بيضاء كالثلج من غير برص ولا مرض.

واما الآيات السبع الباقية فهي التي ذكرها الله في القرآن في سورة الأعراف في قوله تعالى «ولقد أخذنا آل فرعون بالسَّيِّنَ ونقص من الشمرات لعلهم يَذَكَّرُونَ * فإذا جاءكم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطْبِرُوا موسى ومن معه ألا إنما طائفهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون * وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بما فما نحن لك بمؤمنين * فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكروا وكانوا قوماً مجرمين * ولما وقع عليهم الرِّحْزُ قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عاهد عندك إنْ شئت عنا الرِّحْزَ لئِنْ من لك ولنُرسِّلنَ معك بني إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرِّحْزَ إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكرون * فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنكم كذبوا بآياتنا وكانت عندها غافلين * وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومعاركها التي باركتها فيها وقت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمروا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعيشون».

انتهى كلامه رحمه الله.^١

١٣ . وأفضل الرسل قاطبة هما الخليلين ، إبراهيم و محمد عليهما الصلاة والسلام ، لأن الله لم يتخذ خليلين إلا هما عليهما الصلاة والسلام.

٤ . وأفضل الخليلين هو محمد ﷺ ، فقد فضله الله على جميع الخلق أعلم وأخرهم ، الأنبياء وغيرهم ، فهو إمامهم وسيدهم ، كما قال ﷺ : (أنا سيد ولد آدم يوم القيمة).^٢

وتفسير الآيات المتقدمة كالتالي: وقد ابتلينا فرعون وقومه بآيتين وهما القحط ونقص الشمار ، ليذكروا ، وينزحوا عن ضلالهم ، ويفزعوا إلى رحيم بالتوبه.

إذا جاء فرعون وقومه سنة فيها حصب وسعة رزق قالوا: هذا لنا بما نستحقه ، وإن يُصيّبُهم جدب وقحط يتظيروا أي يتشاءموا ، ويقولوا: هذا بسبب موسى ومن معه. فرد الله عليهم أن ما يصيّبُهم من الجدب والقحط إنما هو بقضاء الله وقدره ، وبسبب ذنوبهم وكفرهم ، ولكن أكثر قوم فرعون لا يعلمون ذلك ، لأنهم في الجهل والضلالة.

وقال قوم فرعون لموسى: أي آية ودلالة وحجج تأتينا بما لتصرفنا عما نحن عليه من ديننا ، فما نحن لك بمصداقين بها. فأوقع الله عليهم الرجز ، وهو خمس من البلايا ، أولها الطوفان ، وهو سيل حارف أغرق الزروع والشمار ، وكذلك الجراد ، فأكل زروعهم وثمارهم وأبواهم وسقفهم وثيابهم ، وأرسل عليهم القمل الذي يفسد الشمار ويقضي على الحيوان والنبات ، وأرسل عليهم الضفادع فملأت آنيهم وأطعمنتهم ومضاجعهم ، وأرسل عليهم الدم فصارت أحبارهم وأبارهم دمًا ، ولم يجدوا ماء صالحًا للشرب. هذه البلايا التي ابتلى الله بهابني إسرائيل هي آيات الله لا يقدر عليها غيره ، ودلائل على أن موسى نبي من عند الله ، عصاه فرعون وقومه فابتلاهم الله بها.

ولما نزل العذاب على فرعون وقومه فزعوا إلى موسى وقالوا: يا موسى ادع لنا ربكم بما أوحى به إليك من رفع العذاب بالتوبه ، لكن رفعت علينا العذاب الذي نحن فيه لصائق بما جئت به ، وتبعد ما دعوت إليه ، ولنطلق معك بنى إسرائيل ، فلا نمنعهم من أن يذهبوا حيث شاؤوا. فلما رفع الله عنهم العذاب الذي أنزله بهم إلى أجل إذا هم ينتقضون عهودهم التي عاهدوا عليها رحيم وموسى ، ويقيمون على كفرهم وضلالهم ، فانتقمنا منهم حين جاء الأجل المحدد لإهلاكهم ، وذلك بإحلال نقمتنا عليهم ، وهي إغراقهم في البحر ، بسبب تكذيبهم بالمعجزات التي ظهرت على يد موسى ، والدلالة على نبوته.

ثم أورثنا بنى إسرائيل - الذين كانوا يُستأصلون لخدمة قوم فرعون - مشارق الأرض وغارتها ، وهي بلاد الشام التي باركتنا فيها ، بإخراج الزروع والشمار والأغار ، وتمت كلمة رب الحسين على بنى إسرائيل بالتمكين لهم في الأرض بسبب صبرهم على أذى فرعون وقومه ، ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه من العمارات والمزارع ، وما كانوا يبنون من الأبنية والقصور ويتحدونها عروشاً ملوكهم.

تبنيه: قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية المتقدمة «ولقد آتينا موسى تسعة آيات بيّناتٍ فسائلٍ نبي إسرائيل إذ جاءهم فُتَّالَ لَهُ فِرَعَوْنُ إِلَيْهِ لَأَنْتُكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا»، قال:

وقد أورثي موسى عليه السلام آيات آخر كثيرة ، منها ضربه الحجر بالعصا ، وخروج الماء منه ، ومنها تظليلهم بالغمام ، وإنزال الماء والسلوى ، وغير ذلك مما أورثه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر ، ولكن ذكر هـ هنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر ، وكانت حجة عليهم فحالقوها وعاندوها كفراً وجحوداً. انتهى.

^١ انظر ما قاله شيخ الإسلام رحمه الله في «الجواب الصحيح» (٤/١٧ - ١٩).

^٢ رواه مسلم (٢٢٧٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

كما اختصه الله بآيات تفوق تلك التي آتها الله غيره من الأنبياء ، وآمن عليها أكثر ما آمن عليه البشر ، وأعظمها القرآن الكريم ، ومن المعلوم أن آيات الأنبياء انتهت بموتهم ، أما القرآن فآية خالدة.

ومن دلائل تفضيله ﷺ على سائر الأنبياء أن الله تعالى جمع فيه ما تفرق في غيره من الأنبياء من الخصائص ، وهو **الخلة والكلام والنبوة والرسالة** ، فأما الخلة - وهي أعلى درجات الحبة - فهو خليل الله ، والله خليله ، وهو يشترك في هذه الخصولة مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، قال ﷺ : وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلا.^١

وكذلك الكلام ؛ فقد كلمه الله يوم عرجم به إلى السماء وفرضت عليه الصلوات الخمس ، وهو يشترك في هذه الخصولة مع موسى عليه الصلاة والسلام.

وأما وصفه بالنبوة والرسالة فمعلوم من آيات كثيرة ، كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ بَلَغْ مَا أُنْذِلَ إِلَيْكَ مِنْ رِبِّكَ﴾ ، وقوله ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾.

وهذه الصفات الأربع ، الخلة والكلام والنبوة والرسالة ، لم تجتمع في نبي قط إلا في نبينا محمد ﷺ ، وهذا من دلائل تفضيله على سائر الأنبياء.

فإإن قيل: وما الجمع بين ما نصّ عليه القرآن الكريم من تفضيل بعض الأنبياء على بعض وبين ما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ)^٢؟

فالجواب من كلام ابن كثير رحمة الله في تفسير الآية المتقدمة: المراد من ذلك^٣ هو التفضيل بمحرد التشهي والعصبية لا بمقتضى الدليل ، فإذا دل الدليل على شيء وجوب اتباعه ، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء ، وأن أولي العزم منهم أفضلهم. انتهى كلامه.

فائدة

كثيراً ما يقرن الله سبحانه وتعالى في القرآن بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى ﷺ ، وبين كتابيهما وشريعتيهما ، لأن كتابهما أفضل الكتب ، وشريعتهما أكمل الشرائع ، ونبيتهما أعلى النبوات ، وأتباعهما أكثر المؤمنين.^٤

^١ رواه مسلم (٢٣٨٣) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

^٢ رواه البخاري (٣٤١٤) ومسلم (٢٣٧٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

^٣ أي: من ذلك النهي.

^٤ قاله الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمة الله في تفسيره في مقدمة تفسير سورة الإسراء.

١٥. فائدة في انقسام الأنبياء إلى عبدٍ رسولٍ ونبيٍ ملكٍ ، وأفضلية من كان عبداً رسولاً على من كان ملكاً نبياً

الأنبياء والرسل ينقسمون إلى عبد رسول ونبي ملك ، والدليل على هذا التقسيم حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء ، فإذا ملَكٌ ينزل ، فقال له جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خُلِقَ قبل الساعة ، فلما نزل قال: يا محمد ، أرسلني إليك ربك ، أَفْمِلِكَا نبياً يَجْعَلُكَ أَوْ عَبْدًا رَسُولًا؟

قال جبريل: تواضع لربك يا محمد.

قال رسول الله ﷺ: بل عبداً رسولاً.^١

قلت: والعبد الرسول أفضل من الملك النبي من وجهين:

الأول: أن الرسول يكون مبعوثاً إلى قوم كافرين ، وأما النبي فيكون مبعوثاً إلى قوم مؤمنين ، فمهمة الرسول أصعب فلهذا كان أفضل ، وقد تقدم معنا بيان الفرق بين النبي والرسول.

الوجه الثاني: أنَّ من كان عبداً فإنه لا يتصرف فيما تحت مُلْكِه إلا بإذن الله ، قال ﷺ: إنما أنا قاسم ، والله يعطي.^٢

وأما من كان ملكاً فإنه يتصرف كما يشاء من غير إثم عليه.

فحال الأول أكمل من حال الثاني فيما يتعلق بالعبودية لله تعالى.

قال ابن تيمية رحمه الله في مسألة انقسام الأنبياء عليهم السلام إلى عبدٍ رسولٍ ونبيٍ ملكٍ:
العبد الرسول أكمل من النبي الملك ، ويُوسف وداود وسليمان عليهم السلام أنبياء ملوك.

وأما محمد ﷺ فهو عبدٌ رسول ، كإبراهيم وموسى واليسوع عليهم السلام ، وهذا الصنف أفضل ، وأتباعهم أفضَل.^٣

وقال أيضاً: وقد خَيَرَ الله سبحانه وَبَشَّارَهُ مُحَمَّداً ﷺ بينَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً.

فالنبي الملك مثل داود وسليمان ونحوهما عليهم الصلاة والسلام ، قال الله تعالى في قصة سليمان الذي ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَابُ * فَسَخَّنَ لَهُ الرَّيْحَ تَجْرِي

^١ رواه أحمد (٧٧/١٢) ، وقال محقق «المسندي»: إسناده صحيح على شرط الشيفيين.

^٢ رواه البخاري (٧١).

^٣ «النبوات» (١٦٣/١).

بِأَمْرِهِ رُخَاءٌ حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَاءٍ وَغَوَّاصَ * وَآخَرِينَ مُقْرَنِينَ فِي الْأَسْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَأَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابِ ﴿١﴾

أي: أعطِ من شئت ، واحرم من شئت ، لا حساب عليك.

فالنبي الملك يفعل ما فرض الله عليه ، ويترك ما حرم الله عليه ، ويتصرف في الولاية والمال بما يحبه ويختار من غير إثم عليه.

وأما العبد الرسول فلا يعطي أحدا إلا بأمر ربه ، ولا يعطي من يشاء ويحرم من يشاء... ثم قال: والمقصود هنا أن العبد الرسول هو أفضل من النبي الملك ، كما أن إبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا عليهم الصلاة والسلام أفضل من يوسف وداود وسليمان عليهم السلام ، كما أن المقربين السابقين أفضل من الأبرار أصحاب اليمين ، الذين ليسوا مقربين سابقين ، فمن أدى ما أوجب الله عليه فعل من المباحثات ما يحبه فهو من هؤلاء^١ ، ومن كان إنما يفعل ما يحبه الله ويرضاه ويقصد أن يستعين بما أتيح له على ما أمره الله فهو من أولئك^٢.

وقال أيضاً: والذي أوتيه ﷺ أعظم مما أوتيه سليمان ، فإنه استعمل الجن والإنس في عبادة الله وحده ، وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، لا لغرض يرجع إليه إلا ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته.^٣

وقال أيضاً: طاعة الجن لسليمان عليه السلام طاعة ملوكية ، أما طاعة الجن لنبينا ﷺ فإنها طاعة نبوية.^٤
قلت: ومصداق ذلك في كتاب الله قوله تعالى عن الجن ﴿يَا قومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كَتَبَنَا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ * يَا قَوْمَنَا أَجْبَيْنَا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمَنُوا بِهِ يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَجْرِيْكُمْ مِنْ عَذَابِ الْأَلِيمِ﴾.^٥

وقال تعالى عنهم في سورة الجن ﴿قُلْ أَوْحَيْ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفْرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرَّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ ... الآيات.

وقال أيضاً ما محصله أن النبي ﷺ لم يستخلف من بعده أحداً من أهل بيته ولم يُخلف لهم مالاً ، وإن كان ذلك مباحاً في حقه ﷺ ، فدل ذلك على حرصه على مقام العبودية والرسالة على مقام الملك والتبعة.^٦

^١ أي من الأبرار أصحاب اليمين.

^٢ أي من المقربين السابقين.

^٣ انظر «مجموع الفتاوى» (١١/١٨٠-١٨٢).

^٤ انظر «مجموع الفتاوى» (١٣/٨٩).

^٥ انظر كتاب «النبوات» ، ص ٨٤١ .

^٦ سورة الأحقاف: ٣٠ - ٣١ .

^٧ انظر «منهاج السنة النبوية» (٧/٤٦٧).

١٦ . والرسل غالبون دائمًا ، كما قال تعالى ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِأَغْلَبِنَا أَنَا وَرَسُولِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^١ قال الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية الكريمة:

قد دلت هذه الآية الكريمة على أن رُسُلِ الله غالبون لكل من غالبيهم ، والغلبة نوعان: غلبة بالحجفة والبيان ، وهي ثابتة لجميع الرسل ، وغلبة بالسيف والسان ، وهي ثابتة لمن أمر بالقتال منهم دون من لم يؤمر به ، وقد دلت هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات كقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلْمَاتُنَا لِعَبْدَنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّمَا لَهُمُ الْمُغْلَبُونَ * وَإِنْ جَنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾^٢ أنه لن يقتل النبي في جهاد فقط ، لأن المقتول ليس بغالب ، لأن القتل قسمٌ مقابلٌ للغلبة كما بينه تعالى في قوله ﴿وَمَنْ يَقْاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُ أَوْ يُغْلَبُ﴾^٣ الآية ، وقال تعالى ﴿إِنَّا لَنَنْصَرُ رَسُولَنَا﴾^٤ الآية ، وقد نفى عن المنصور كونه مغلوبًا نفيًا باتاً في قوله تعالى ﴿إِنْ يَنْصُرَكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبُ لَكُمْ﴾^٥ .

وقال ابن تيمية ما محضله أن ظهور الأنبياء على من خالفهم بالحجفة والعلم من جنس المجاهد الذي هزم عدوه ، وظهور الأنبياء على من خالفهم بالسيف وغلبتهم عليهم من جنس المجاهد الذي قتل عدوه.^٦

فائدة

سرد الحافظ ابن حجر رحمه الله جملة فوائد من غزوة أحد منها "أن عادة الرسل أن ثبتلى وتكون لها العاقبة ، والحكمة في ذلك: أنهم لو انتصروا دائمًا دخل في المؤمنين من ليس منهم"^٧ ، ولم يتميز الصادق من غيره ، ولو انكسرعوا دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة ، فاقضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب".^٨

فصل في بيان ما يتضمنه الإيمان بالرسل

الإيمان بالرسل يتضمن سبعة أمور:

^١ سورة الجادلة: ٢١ .

^٢ سورة الصافات: ١٧١ - ١٧٣ .

^٣ سورة النساء: ٧٤ .

^٤ سورة غافر: ٥١ .

^٥ سورة آل عمران: ١٦٠ .

^٦ انظر «أضواء البيان».

^٧ انظر «النبوات» ، ص ٢٠٩ .

^٨ يعني من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويقطّعون الكفر.

^٩ باختصار يسير من «فتح الباري» ، كتاب المغازي ، تحت قوله: (باب غزوة أحد).

الأول: الإيمان بأن الأنبياء كلهم بينهم قاسم مشترك ، وهو الإسلام بمعناه العام ، وهو الاستسلام لله بالتوحيد (وهو إفراد الله بالعبادة وترك عبادة من سواه كائناً من كان) ، قال الله تعالى ﴿وَمَا أُرْسِلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونَ﴾^١.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا الاتفاق في أصل الدين بين الأنبياء في قوله: **وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ** ، أمها تهم شئ ودينهم واحد.^٢

ففي هذا الحديث شبه النبي ﷺ الأنبياء بالإخوة من العلات ، وهن الأمهات الذين لهم زوج واحد ، فالآمehات هن الشرائع ، والأب واحد وهو الإسلام بمعناه العام الذي تقدم آنفا ، وهو الاستسلام لله بالتوحيد (وهو إفراد الله بالعبادة).

فبناء على هذه القاعدة فالأنبياء جميعهم من آدم إلى محمد مروراً بإبراهيم وموسى وعيسى كلهم مشتركون مع الدين الإسلامي الذي جاء به محمد في التمسك بالإسلام بمعناه العام ، ليس بينهم فرق إذا نظرنا إليهم من هذا الجانب ، في حين أن لكل أمة من الأمم التي أُرسِلَ إِلَيْهَا الأنبياء شريعة ومنهاجاً غير التي مع الأمة الأخرى ، كما قال تعالى ﴿لَكُلِّ جَعْلَنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجًا﴾. أي: فقد جعلنا لكل أمة شريعة وطريقة يعملون بها ، وهذا من حكمة الله تعالى في شرعيه ، حيث شرع لكل قوم ما يناسب أحوالهم.

الثاني: الإيمان بهم جميعاً من غير تفريق بينهم ، ضد هذا الإيمان ببعضهم والكفر ببعضهم الآخر ولو كان نبياً واحداً ، قال تعالى في وجوب الإيمان بجميع الأنبياء ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رِبْهُمْ لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

قال ابن حجر رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾: لا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض ونتبرأ من بعض وننولي بعضًا ، كما تبرأ اليهود من عيسى ومحمد عليهما السلام وأقررت بغيرهما من الأنبياء ، وكما تبرأت النصارى من محمد ﷺ وأقررت بغيره من الأنبياء ، بل نشهد لجميعهم أنهem كانوا رسَلَ الله وَأَنْبِيَاءً ، بُعثُوا بِالْحَقِّ وَالْهُدَى. انتهى.

قلت: ووجه كون عدم الإيمان برسول واحد كفراً أن هذا الفعل يقتضي الامتناع من قبول رسالة من رسالات الله ، وهي الرسالة التي بُعثَت بها ذلك الرسول ، والاعتراض على عبودية الله التي أمر بها ذلك الرسول قومه.

^١ سورة الأنبياء: ٢٥.

^٢ تقدم تخرجه.

قال ابن تيمية رحمه الله:

من صدق مخدعا فقد صدق كلنبي ، ومن أطاعه فقد أطاع كلنبي ، ومن كذبه فقد كذب كلنبي ، ومن عصاه^١ فقد عصى كلنبي ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُكَفِّرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَرِيدُونَ أَنْ يُفْرِقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نَؤْمِنُ بِعَضٍ وَنَكْفُرُ بِعَضٍ وَيَرِيدُونَ أَنْ يَتَخَذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًا﴾^٢ ، وقال تعالى ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِعَضِ الْكِتَابِ وَتَكْفِرُونَ بِعَضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خَزِيٌّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَرِيدُونَ إِلَى أَشَدِ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^٣ .

ومن كذب هؤلاء تكذيباً بجنس الرسالة فقد صرّح بأنه يكذب الجميع ، ولهذا يقول تعالى ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نَوْحَ الْمَرْسُلِينَ﴾ ، ولم يرسل إليهم قبل نوح أحداً ، وقال تعالى ﴿وَقَوْمٌ نَوْحٌ لَمَّا كَذَبُوا الرَّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾^٤ .
قلت: ونظيره قول الله تعالى ﴿كَذَبَتْ عَادٌ الْمَرْسُلِينَ﴾ ، قوله ﴿كَذَبَتْ ثُوْدٌ الْمَرْسُلِينَ﴾ ونحو ذلك من الآيات.

وقال العلامة الشنقيطي رحمه الله:

من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع المسلمين ، ومن كذب نذيراً واحداً فقد كذب جميع النذر ، لأن أصل دعوة جميع الرسل واحدة ، وهي مضمون «لا إله إلا الله» كما أوضحه تعالى بقوله ﴿وَلَقَدْ بَعْثَنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^٥ ، قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نَوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^٦ وقوله تعالى ﴿وَاسْأَلْ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلَهَةً يُعْبُدُونِ﴾^٧ .

وأوضح تعالى أن من كذب بعضهم فقد كذب جميعهم في قوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ نَؤْمِنُ بِعَضٍ وَنَكْفُرُ بِعَضٍ وَيَرِيدُونَ أَنْ يَتَخَذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًا﴾^٨ الآية^٩ ، وأشار إلى ذلك في قوله ﴿لَا

^١ أي عصياناً كلياً.

^٢ سورة النساء: ١٥٠ - ١٥١ .

^٣ سورة البقرة: ٨٥ .

^٤ سورة الفرقان: ٣٧ .

^٥ قاله ابن تيمية رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (١٨٥/١٩).

^٦ سورة النحل: ٣٦ .

^٧ سورة الأنبياء: ٢٥ .

^٨ سورة الزخرف: ٤٥ .

^٩ سورة النساء: ١٥٠ - ١٥١ .

نفرق بين أحد من رسلي^١ ، قوله ﴿لَا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾^٢ ، قوله تعالى ﴿والذين﴾^٣ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيمهم أجورهم^٤ الآية. انتهى كلامه رحمة الله.^٤

تنبيه: النصارى كذبوا محمداً ﷺ ولم يتبعوه ، فهم بهذا مكذبون لل المسيح بن مریم غير متبين له أيضاً ، لأنه قد بشرهم بمحمد ﷺ وأمرهم بالإيمان به فلم يتبعوه ، نسأل الله العافية والسلامة.

وكذلك الأمر بالنسبة لليهود ، فهم لم يصدقوا بنبوة محمد ﷺ ولا بنبوة المسيح عيسى بن مریم ﷺ ، فهم بهذا كفار ليسوا مؤمنين ، ولو كانوا يؤمنون بموسى والأنبياء قبله.

ووجه كون عدم الإيمان برسول واحد كفراً أن هذا الفعل يقتضي الامتناع من قبول رسالة من رسالات الله ، وهي الرسالة التي بها ذلك الرسول ، والاعتراض على عبودية الله التي أمر بها ذلك الرسول قومه.

الثالث مما يتضمنه الإيمان بالرسل: الإيمان بن علمنا اسمه منهم في القرآن أو صحيح السنة ، فأما القرآن فجاء فيه ذكر ستة وعشرين نبياً ، وهم آدم ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل وداود وسليمان وأيوب وإلياس ويونس واليسع ولوط وإدريس وهود شعيب صالح ذو الكفل يوسف وموسى وهارون والحضر وذكرها ويحيى وعيسى ومحمد ، صلى الله عليهم وسلم تسلি�ماً كثيراً.

وقد نظم أحد الشعراء أسماء خمسة وعشرين نبياً ورد ذكرهم في القرآن في نظمٍ لطيف فقال:

في ﴿تلك حجتنا﴾^٥ منهُمْ ثمانيةٌ
من بعد عشرٍ يقى سبعةٌ وهُمْ

إدريسُ هودُ شعيبُ صالحُ وكذا
ذو الكفلِ آدمُ وبالختارِ قد خُتموا

وقد جاء في السنة ذكر نبىٰ من الأنبياء لم يأت ذكره في القرآن ، وهو يوشع بن نون بن أفراديم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام^٦ ، من الأنبياء بني إسرائيل ، وكان قائداً بني إسرائيل بعد وفاة موسى عليه الصلاة والسلام ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ^٧ : إن الشمس لم تُحبس على بشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس.

^١ سورة البقرة: ٢٨٥ .

^٢ سورة البقرة: ١٣٦ .

^٣ سورة النساء: ١٥٢ .

^٤ «أضواء البيان» ، تفسير سورة القمر: ٤١ .

^٥ يشير إلى الآيات (٨٣ - ٨٦) من سورة الأعراف حيث ورد فيها أسماء ثمانية عشر رسولاً.

^٦ رواه أحمد في «المسد» (٣٢٥/٢) ، وقال محققو «المسد»: إسناده صحيح على شرط البخاري.

^٧ انظر «البداية والنهاية» ، ذكر نبأ يوشع.

وحبس الشمس إنما هو ليستمر النهار فلا تغرب عليهم فيحل الظلام فلا يستطيعوا فتح البلد التي قصدوها وهي بيت المقدس ، وكانوا في يوم الجمعة ، ولو دخل عليهم المغيب لدخل يوم السبت ، فلا يمكنون معه من القتال ، لأن اليهود حرم عليهم فيه العمل ، فنظر النبي يوشع إلى الشمس ودعى ربها بأن لا تغيب حتى يتم المجمع والنصر ، وبقدرة الله كان له ذلك ، فحبس الله الشمس في مكانها حتى قضوا حاجتهم وفتحوا البلد ، والحمد لله.^١

وأما من لم نعلم اسمه من الأنبياء فنؤمن به إجمالاً ، وقد أومأ القرآن إليهم في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصَنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَفْصُصْنَ عَلَيْكَ﴾^٢.

ويدخل في هؤلاء الذين لم نعلم أسمائهم الأسباط ، وهم الأنبياء من ذرية يعقوب عليهم الصلاة والسلام ، وهو إسرائيل ، إذ السبط في بني إسرائيل يكفيه القبيلة في بني إسماعيل ، والشعوب في العجم ، وسموا الأسباط بذلك من السبط وهو التابع ، وهم اثنا عشر رجلاً ، ولكل رجل منهم أمة من الناس ، فسموا أسباطاً^٣ ، وليس أحد من ذرية يعقوب نبياً إلا يوسف عليه السلام ، كما سيأتي بيانه.^٤
وكان هؤلاء الأسباط متتابعون في ظهورهم حتى جاء المسيح عليه السلام.

فالحاصل أن عدد الأنبياء والرسل المذكورين في الكتاب والسنة سبعة وعشرين ، والحمد لله.

ورسل الله ثلاثة وخمسة عشر ، منهم الرسل الذين صرخ القرآن والسنة بأسمائهم وقد تقدموا ، والبقية لا نعلمهم ، والدليل على عددهم حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله ، أنبيٌّ كان آدم؟

قال: نعم ، معلمٌ مكلّم.

قال: كم بينه وبين نوح؟

قال: عشرة قرون.

قال: كم كان بين نوح وإبراهيم؟

قال: عشرة قرون.

قالوا: يا رسول الله ، كم كانت الرسل؟

^١ وانظر القصة مفصلاً في « صحيح البخاري » (٣١٢٤) ، و« مسلم » (١٧٤٧) ، وكذلك « البداية والنهاية » ، ذكر نبوة يوشع.

^٢ سورة غافر: ٧٨ .

^٣ انظر « تفسير الطبرى » ، سورة البقرة: ١٣٦ .

^٤ انظر « تفسير ابن كثير » ، سورة يوسف: ٨ .

قال: ثلاثة وخمس عشرة ، جمًّا غفيرا.^١

فائدة في بيان أن الخضر كان نبيا عليه والسلام

تقدُّم ذكرُ أنَّ الْخِضْرَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْخِضْرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وقد جاء ذكره في سورة الكهف في قصة موسى مع الغلام ، كما جاء ذكره في السنة في سرد قصة موسى معه^٢ ، وقد عقدت فصلا في آخر مبحث الإيمان بالرسل في إثبات أنَّ الْخِضْرَ كَانَ نَبِيًّا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ولتمام الفائدة ، فقد أَحْقَتَهُ بِفَصْلٍ في إثبات أنَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءٍ كَمَا هُوَ مشهور بين الناس.

الرابع مما يتضمنه الإيمان بالرسل: التصديق بما صَحَّ عنهم من أخبارهم ، كالأخبار الواردة في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، والأخبار الصحيحة التي ذكرها أصحاب السير وكتب التاريخ ، والتي تتضمن قصصهم وخصائصهم ، وأما الأخبار المروية عن الرسل في كتب أهل الكتاب والتي ليس لها ما يعدها من الأخبار الصحيحة المذكورة في كتب المسلمين فهذه لا يلزم المسلم تصديقها ولا تكذيبها ، إلا إن كانت منافية لما في كتب المسلمين الصحيحة فعندئذ يجب تكذيبها ، والدليل على ذلك قول النبي ﷺ : «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبواهم ، وقولوا: آمنا بالله وما أنزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ»^٣ الآية.^٤

والمقصود بما أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ هُمَا التُّورَاةُ وَالْإِنْجِيلُ الْأَصْلِيْنَ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى مُوسَى وَعِيسَى ، وَلَيْسَ التُّورَاةُ وَالْإِنْجِيلُ الْخُرْفَةُ الَّتِي بِأَيْدِيِّ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىِ الْآنِ.

الخامس من مقتضيات الإيمان بالرسل: العمل بشرعية من أَرْسَلَ إِلَيْنَا مِنْهُمْ ، وهو خاتمهم محمد ﷺ المرسل إلى جميع الناس ، قال الله تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^٥.

السادس مما يتضمنه الإيمان بالرسل: الإيمان بِأَنَّهُمْ بَلَغُوا جَمِيعَ مَا أَرْسَلُوا بِهِ عَلَى وَفْقِ مَا أَمْرَهُمُ اللَّهُ بِهِ ، وَأَنَّهُمْ بِيَنْوَهُ بِيَانًا شَافِيًّا لَا يَسْعُ أَحَدًا مِنْ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ جَهَلَهُ ، قال تعالى ﴿فَهُلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ

^١ رواه الحاكم في «مستدركه» (٢٦٢/٢) ، واللفظ له ، وقال الذهبي: على شرط مسلم ، وكذا رواه الطبراني في «الكبير» (١١٨/٨) ، وفيه: (ثلاثة وثلاثة عشر) ، وصححه الألباني كما في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٦٨).

^٢ القصة رواها البخاري (٧٤) ومسلم (٢٣٨٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

^٣ لعل هناك خطأً من النساخ ، فلفظ الآية ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية (١٣٦) من سورة البقرة. وانظر تعليق محقق صحيح البخاري على الحديث ، طبعة مؤسسة الرسالة العالمية.

^٤ رواه البخاري (٧٣٦٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

^٥ سورة النساء: ٦٥ .

المبين^١ ، ﴿فَإِنْ تُولِّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^٢ ، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^٣ ، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تُولِّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^٤ .

السابع مما يتضمنه الإيمان بالرسل: الإيمان بما أيدهم الله به من آيات ، وتسمى أيضاً براهين ودلائل^٥ ، وهي الأمور الخارقة للعادة التي يجريها الله على أيديهم دلالة على نبوتهم ، وثلاً يقى أمرهم مشكلاً على الناس ، فإن الناس إذا رأوا رسالهم قد أيدوا بأمور فوق قدرة البشر وطاقتهم ؛ علِمُوا أنهم مرسلون من عند الله تعالى ، فاستيقنوا أمرهم وآمنوا بهم وثبتت قلوبهم على الدين.

ومن تلك الآيات عصا موسى النبي ألقاها بين أيدي سحرة فرعون فإذا هي حية تسعى ، تلتف وتلتلهم ما ألقوه من الحال والعصي ، فآمنوا ، لأنهم علِمُوا أن ما أتى به موسى من عند الله وليس سحرا ، وبعد أيامهم بقيت العصا معه ، فلما سار بقومه تجاه البحر فراراً من فرعون ضرب بهذه العصا البحر فانفلق فسار في طريق يابس مع قومه فنجاه الله ، وفي صحراء سيناء ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً على قدر أسباط بني إسرائيل ، فعصا موسى ليست إلا آية من عند الله ليعلم الناس أنه رسول من عند الله ، فيكون حجة على من لم يؤمن ، وتشبتاً لمن آمن به ﷺ .

ومن الآيات أيضاً ما أيد الله به عيسى ﷺ ، فقد كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفع فيه فيكون طيراً بإذن الله ، ويمسح بيده على الأكمه – وهو الذي ولد أعمى – والأبرص فيبرآن بإذن الله ، وكان يُحيي الموتى بإذن الله ، أفاليس هذا دليل على أنه رسول من عند الله؟ بل والله.

^١ سورة النحل: ٣٥ .

^٢ سورة النحل: ٨٢ .

^٣ سورة العنكبوت: ١٨ .

^٤ سورة التغابن: ١٢ .

^٥ انظر «شرح الطحاوية» لابن أبي العز المخنفي ، ص ٣١١ ، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت.

^٦ يحسن هنا التنبية إلى أن «الآيات» هي التسمية الدقيقة للأمور الخارقة للعادة ، وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله أن لفظ الآية والبيبة والبرهان هو هو الوارد في الكتاب والسنة ، وذكر جملة من الأمثلة على هذا ، وأما لفظ «المعجزة» فلم يرد في القرآن ، ولا يدل على كون المقصود آية أو دليلاً إلا إذا فسر به ، وإن كان كونها معجزة وخرقاً للعادة من لوازم وشروط وصفات كونها بينة وآية.

انظر «الجواب الصحيح من بدأ دين المسيح» ٤١٩-٤١٢/٥ ، و «النبوات» (ص ٨٢٨).

كما يجدر التنبية إلى أنه ليست كل الآيات التي أيدَ الله بها أنبياءه من قبيل الإعجاز ، وإنما اختصَ بذلك الآيات التي وردت في سياق التحدي والإعجاز للخصم ، فالقرآن – مثلاً – آية على نبوة محمد ﷺ وفيه تحداً ، فيكون معجزة ، أما حينين الجذع إليه ، وتسليم الحجر عليه فإنه آية على نبوته ﷺ وليس فيه تحداً ، فلا يوصف بأنه معجزة.

وقد ذكر القرطبي رحمه الله في مقدمة كتابه «الجامع لأحكام القرآن» ، باب: (نكت في إعجاز القرآن ، وشروط المعجزة وحقيقةها) خمسة شروط للمعجزة ، فليراجعها من أراد التوسع.

كما أيد الله نبيه محمدًا ﷺ بآيات كثيرة ، كلها تدل على صدق نبوته وأنه رسول من عند الله حقا ، أشهرها القرآن الكريم ، فهو الآية الكبيرة الدالة على نبوة محمد ﷺ .

فائدتان في باب الإيمان بالآيات التي أرسل بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

الفائدة الأولى:

إن من حكمة الله تعالى أن جعل كبريات الآيات على أيدي رسليه من جنس ما بُرِزَ فيه أهل العصر الذي بُعثَ فيه ذلك الرسول ، ليكون ذلك أبلغ في الحجة والإقناع بأن ذلك الرسول مرسلي من عند الله حقا ، ففي عصر موسى عليه الصلاة والسلام اشتهر قومه بالسحر ، فكانت آية موسى من جنس ما اشتهروا فيه وزادت عليه ، بأن كانت حقيقة لا خيالاً .

وفي عصر عيسى عليه الصلاة والسلام كان علم الطب متقدماً إلى حد كبير ، فجاءت آيته من جنس ما بُرِزَوا فيه وزيادة ، بأن جعل الله على يده الشفاء من أمراض لا يستطيع قومه علاجها وهي العمى والبرص ، بل وإحياء الموتى ، كلها بإذن الله تعالى.

وكذلك الأمر بالنسبة لنبينا محمد ﷺ ، فقد ترقى الناس في عصره في جانب الفصاحة ، فكُنُبت المعلقات الفصيحة ونُظمت القوافي البليغة ، فجاء القرآن معجزاً لهم أن يأتوا بمثله ، ثم أعجزهم أن يأتوا بسورة مثله ، فلم يستطعوا ذلك ولا بأية واحدة.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة ، وبعثه الله بمعجزة بهرت الأ بصار وحيّرت كل سخار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام ، وصاروا من عباد الله الأبرار.

وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة ، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة ، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكمه والأبرص ، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التباد؟^١

وكذلك محمد ﷺ بعثه الله في زمان الفصحاء والبلغاء ونحّارير^٢ الشعراء ، فأتاهم بكتاب من الله عز وجل ، فلو اجتمع الإنْس والجَنْ على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله ؛ لم

^١ يوم التباد هو يوم القيمة ، سمى بذلك لأن الملائكة تندى أهل الجنة بأعمالهم وأهل النار وأعمالهم ، وقيل لأن الناس ينادي بعضهم ببعض في ذلك اليوم إذا اشتد المحو والفناء.

^٢ نحّارير جمع نحّير ، وهو الحاذق الماهر العاقل المقرب. انظر «لسان العرب» ، مادة (نحّ).

يستطيعوا أبداً ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا^١ ، وما ذاك إلا لأن كلام رب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبداً.

انتهى كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله.^٢

الفائدة الثانية:

إن من حكمة الله تعالى أن جعل معجزة القرآن خالدة ، أما معجزات النبي ﷺ الأخرى وكذلك معجزات الأنبياء قبله فقد انقرضت ، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيمة.^٣

قال النووي رحمه الله:

أما معانى الحديث فاختلَفَ فيه على أقوالٍ؛ أحدها أنَّ كُلَّ نَبِيًّاً أُعْطِيَ مِنْ الْمُعْجِزَاتِ مَا كَانَ مِثْلَهُ لِمَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ النَّبِيِّينَ، فَأَمَّا بِهِ الْبَشَرُ، وَأَمَّا مُعْجِزَتِي الْعَظِيمَةِ الظَّاهِرَةِ فَهِيَ الْقُرْآنُ الَّذِي لَمْ يُعْطِ أَحَدًا مِثْلَهُ، فَلِهَذَا قَالَ: أَنَا أَكْثُرُهُمْ تَابِعاً.

والثاني معناه أنَّ الذِّي أوتيته لا يتطرق إليه تخيل بسحرٍ وشبهاً ، بخلاف معجزة غيري ؛ فإنَّه قد يخيل الساحر بشيء مما يقارب صورتها ، كما خيَّل السحرية في صورة عصا موسى ﷺ ، وأخيال قد يروج على بعض العوام ، والفرق بين المعجزة والسحر والتخييل يحتاج إلى فكر ونظر ، وقد يخطئ الناظر فيعتقد هما سوءاً.

والثالث معناه أنَّ معجزات الأنبياء انقرضت بانقضاض أعصارهم ولم يشاهدها إلا من حضرها بحضورتهم ، ومعجزة نبينا ﷺ القرآن المستمر إلى يوم القيمة ، مع خرق العادة في أسلوبه وبلاعنته وإخباره بالمعنيات ، وعجز الجinn والإنس عن أن يأتوا بسورة من مثله مجتمعين أو متفرقين في جميع الأعصار ، ومع اعتقادهم بمعارضته فلم يقدروا وهم أفصل الفروع ، مع غير ذلك من وجوه إعجازه المعروفة . والله أعلم.

وقوله ﷺ : (فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثُرُهُمْ تَابِعاً) علم من أعلام النبوة ، فإنَّه أخبر عليه السلام بذلك في زمان قلة المسلمين ، ثمَّ من الله تعالى وفتح على المسلمين البلاد وبارك فيهم ، حتى انتهى الأمر واتسع الإسلام

^١ الظاهر هو المعين. انظر «لسان العرب» ، مادة (ظهر).

^٢ «تفسير القرآن العظيم» ، سورة آل عمران ، الآية ٤٩ ، وللقرطبي كلام مثله في مقدمة كتابه «الجامع لأحكام القرآن» ، خاتمة باب: (نكت في إعجاز القرآن ، وشرائط المعجزة وحققتها) ، وكذا ابن حجر في «فتح الباري» (٦٢٢/٨) ، شرح حديث: (إنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي).

^٣ رواه البخاري (٤٩٨١) ومسلم (١٥٢).

فِي الْمُسْلِمِينَ إِلَى هَذِهِ الْعَآيَةِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ وَسَائِرِ نِعَمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَى ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى باختصار.

وقال شمس الدين الذهبي رحمه الله في شرح قوله (وإنما كان الذي أُوتيت وحياً أوحى الله إلي) :

هذه هي المعجزة العظمى ، وهي القرآن ، فإن النبي من الأنبياء عليهم السلام كان يأتي بالآية وتنقضى بموته ، فقل لذلك من يتبعه ، وكثُر أتباع نبينا ﷺ لكون معجزته الكبرى باقية بعده ، فيؤمن بالله ورسوله كثيرٌ مِّن يسمع القرآن على مر الأزمان ، ولهذا قال : فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيمة . انتهى^١.

وقال ابن حجر في «الفتح» في شرح الجملة المتقدمة : أي أن معجزتي التي تحدثت بها ؛ الوحي الذي أنزل علي ، وهو القرآن ، لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح ، وليس المراد حصر معجزاته فيه ، بل المراد أنه المعجزة العظمى التي احْتُضَ بها دون غيره . انتهى مختصراً .

وقد تقدم في الركن الثالث بيان وجود إعجاز القرآن وخصائصه .

^١ «سير أعلام النبلاء» ، قسم السيرة النبوية ، (٢٧/٣٥١) ، باب جامع في دلائل النبوة ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت.

فصل في بيان نواقض الإيمان بالرسل

اعلم رحمك الله أنه كما أن الإيمان بالرسل لا يتحقق إلا بأمور؛ فإن الإيمان بهم يتتحقق بأمور:

الأول: تكذيبهم ، أي تكذيب أنهم رسول من عند الله وإن كان التكذيب متعلق برسول واحد ، لأن الإيمان بواحد منهم يقتضي الإيمان بالجميع ، والتكذيب بواحد منهم يقتضي التكذيب بالجميع ، وهذا الناقض حاصل في جميع الأمم من عهد نوح إلى قيام الساعة.

الثاني: تكذيب ما جاءوا به ولو كان جزءاً من الشريعة ، فلو أن رجلاً زعم أنه آمن بما جاء به النبي ﷺ ، ولكنه لم يؤمن بأنه خاتم الأنبياء ؛ فهذا في الحقيقة لا يعتبر مؤمناً بالنبي ﷺ ، لأن الإيمان بالنبي ﷺ يقتضي الإيمان بما جاء به وعدم تكذيبه في شيء منه ولو كان شيئاً واحداً.^١

الثالث: عدم الانقياد لشريعتهم ، فلو أن رجلاً زعم أنه آمن بأن محمد ﷺ مرسلاً من ربِّه ، ولكنه أبى العمل بشريعته ، فإن هذا الرجل لا يُعد مؤمناً حتى ينقاد لشريعته ، فإن دليل الإيمان العمل ، وهذا فإن أبا طالب عم النبي ﷺ لا يعتبر مسلماً مع كونه آمن بأن ابن أخيه رسول من عند الله حقاً ، وما ذاك إلا لأنه أبي الانقياد لشريعته تقليداً لقومه ولئلا يغيره الناس بترك دين الآباء والأجداد.

الرابع: إيداؤهم ، بسبهم أو الاستهزاء بهم أو تقصدهم أو التعدي عليهم في حياتهم ، وهذا الفعل كفر ، قال تعالى ﴿قُلْ أَبَاللَّهُ وَآيَاتُهُ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾^٢.

ويدخل في تنقص الأنبياء تفضيل من ليسوا بأنبياء عليهم ، كتفضيل غلة الصوفية للأولياء على الأنبياء ، وهذا كفر ، لأنه يقتضي تكذيب القرآن ، لأن الله فضل الأنبياء على العالمين ، فقد قال الله تعالى بعد أن ذكر عدداً من الأنبياء ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسْعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًا فَضَلَّنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^٣.

قال أبو العباس القرطبي رحمه الله: لا إشكال أن النبي أفضل من الولي ، وهذا أمر مقطوع به عقلاً ونقلأً ، والصائر إلى خلافه كافر ، فإنه أمر معلوم من الشرائع بالضرورة.^٤

ومن قال بتفضيل الأولياء على الأنبياء الحكيم الترمذمي في كتابه «ختم الأنبياء» ، وكذلك الصوفي الضال ابن عربي.

^١ يراجع للفائدة كتاب «المتبعون في الإسلام وخطورهم على الفكر والمجتمع» ، د. غالب بن علي عواجي ، الناشر: دار النصيحة - المدينة.

^٢ سورة التوبة: ٦٥ - ٦٦ .

^٣ سورة الأنعام: ٨٦ .

^٤ «المفہم علی صحيح مسلم» (٢١٧/٦) ، الناشر: دار ابن کثیر - دار الكلم الطیب ، الطبعة الأولى.

الخامس: الغلو فيهم ، أي تعظيمهم فوق الحد الشرعي ، بصرف شيء من العبادات لهم ، كدعائهم والسجود لهم والطواف بقبورهم والذبح لهم ، أو وصفهم بشيء من صفات الرب عز وجل ، كادعاء أنهم يعلمون الغيب ، أو يتصرفون في الكون ، ونحو ذلك ، فهذه كلها شرك في العبادة وفي أسماء الله وصفاته.

تبنيه

الغلو في الصالحين من أعظم أسباب الانحراف ، سواء كان في حق من كانوا أنبياء أو من ليسوا الأنبياء ، وهو الذي أدى بكثير من الأمم إلى الوقوع في الشرك ، بدءاً من أمة نوح إلى أمة محمد ﷺ ، فقد كان منشئ الشرك في عهد نوح عليه الصلاة والسلام من تعظيم الصالحين ، كما في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قول الله تعالى ﴿وَقَالُوا لَا تَذْرُنَّ أَهْلَكُمْ وَلَا تَذْرُنَّ وَدًا وَلَا سَواعِدًا وَلَا يَغُوثُ وَيَعْوِقُ وَنَسْرًا﴾^١ قال: أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً^٢ ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم يعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم^٣ عُبدت.

وروى ابن حجر بإسناده إلى الثوري عن موسى بن محمد بن قيس أنه قال عن يغوث ويعوق ونسرا: كانوا قوماً صالحين من بني آدم ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهـم ، فلما ماتوا وجاء آخرون رب إليهم إيليس ، فقال: إنما كانوا يعبدونـهم ، وبـهم يُسقون المطر ، فـعبدـوهـم.^٤

وقال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: كان هؤلاء^٥ قوماً صالحين في قوم نوح عليه السلام ، فلما ماتوا عكفوا على قبورـهم ، ثم صوروا تماثيلـهم ، ثم طالـ عليهم الأمـد فـعبدـوهـم.^٦

وبعد نشوء الشرك وعبادة الأصنام في قوم نوح تتبع الناس على ذلك وانتشر بينهم كما قال ابن عباس رضي الله عنه: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد^٧ ، أما ود فكانت لكلب بدومة

^١ سورة نوح: ٢٣ .

^٢ أي ماتوا.

^٣ أي اصنعوا أنصاباً ، وهي تماثيل تصنع على هيئةـهم ثم تنصب في المجالـس ليرواـها الناس فـيقتـدونـبـهم في أفعالـهم! وهـكذا دخلـ عليهمـ الشـيطـان.

^٤ أي تحولـ من حالـ إلى حالـ. انظر «النـهاـية». قالـ مـقيـدهـ: وـسبـبـ التـحـولـ وـالـتـحـرـيفـ هوـ عدمـ الـحـفـظـ.

^٥ رواهـ البـخارـيـ (٤٩٢٠).

^٦ «تفسير ابن حجر» ، تفسير سورة نوح: ٢٤ .

^٧ أي ودأ وسـواعـا وـيـغـوـثـ وـيـعـوـقـ وـنـسـرـا.

^٨ «إغاثةـ للـهـفـانـ» ، (١٨٤/١) ، تـحـقـيقـ مـحمدـ حـامـدـ الفـقـيـ.

^٩ أي بعدـ ذلكـ الزـمانـ ، كـماـ سـيـأـتـيـ فيـ كـلامـهـ.

الجندل^١ ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سباء ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع.^٢

وقال قتادة: كانت هذه الآلة يعبدوها قوم نوح ، ثم اتخذها العرب بعد ذلك.^٣

وبناء على ما تقدم من الحقائق التاريخية ، فقد قرر ابن القيم في «زاد المعاد» أن غالباً شرك الأمم كان من جهة الصور والقبور.^٤

وقد نهى الله أهل الكتاب من قبلنا عن الغلو عموماً ، في الأنبياء وفيسائر أمور الدين ، فلم يستجيبوا فأضلوا وأضلوا ، قال تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابَ لَا تَغْلُبُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلَّوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلَّوْا عَنْ سُوءِ السَّبِيلِ﴾.^٥

قال ابن كثير رحمة الله في تفسير هذه الآية: أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ، ولا ظطروا من أمرتم بتعظيمه ، فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية ، كما صنعتم في المسيح ، وهونبي من الأنبياء ، فجعلتموه إليها من دون الله ، وما ذلك إلا لاقتدائكم بشيوخكم ، شيخ الضلال ، الذين هم سلفكم من ضل قدماً. انتهى كلامه.

وقال رحمة الله في تفسير آية النساء ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابَ لَا تَغْلُبُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾: ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء ، وهذا كثير في النصارى ، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاها الله إياها ، فنقوله من حيز النبوة إلى أن اتخاذوه إلهاً من دون الله ، يعبدونه كما يعبدونه ، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه ، فادعوا فيهم العصمة ، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلأً ، أو ضلالاً أو رشاداً ، أو صحيحاً أو كذباً ، ولهذا قال الله تعالى ﴿إِنَّهُمْ أَخْنَادُهُمْ وَرَهْبَانُهُمْ أَرْبَابٌ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾.^٦

ثم ساق حديث عمر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقلوا: عبد الله ورسوله.^٧ انتهى.

^١ موضع في شمال جزيرة العرب.

^٢ رواه البخاري (٤٩٢٠).

^٣ «تفسير ابن حير» ، تفسير سورة نوح: ٢٤ .

^٤ «زاد المعاد» (٤٥٨/٣) ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت.

^٥ سورة المائدة: ٧٧ .

^٦ الإطراء هو مجاوزة الحد في المدح.

^٧ سورة التوبة: ٣١ .

^٨ رواه البخاري (٣٤٤٥) واللفظ له ، وأحمد (٥٥/١) ، والدارمي (٢٧٨٧).

فصل في بيان ثمرات الإيمان بالرسل^١

الإيمان بالرسل له ثمرات حليلة ، منها:

الأولى: العلم برحمة الله تعالى وعنايته بعباده ، حيث أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى صراط الله تعالى ، ويُبيّنوا لهم كيف يعبدون الله ، لأن العقل البشري لا يستطيع معرفة ذلك بنفسه.

الثانية: شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى.

الثالثة: محبة الرسل عليهم الصلاة والسلام وتعظيمهم والثناء عليهم بما يليق بهم ، لأنهم رسل الله تعالى ، ولأنهم قاموا بعبادته ، وتبلغ رسالته ، والنصح لعباده ، وجاهدوا في سبيل ذلك.

الرابعة: المداية إلى الدين الصحيح الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى ، وذلك بالعمل بما أمرت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من الشرائع المنزلة.

الخامسة: الاقتداء بالأئباء عليهم الصلاة والسلام فيما جاؤوا به من عبادات ، وسؤالهم عما أشكل من أمور الدين في حياتهم ، والرجوع إلى ورثتهم – وهم العلماء – بعد مماتهم ، كما قال تعالى ﴿أولئك الذين هدی الله فبهدائهم اقتدهم﴾^٢ ، وقال ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾^٣.

^١ هذا الفصل مستفاد أكثره من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٩ .

^٢ سورة الأنعام: ٩٠ .

^٣ سورة النساء: ٨٠ .

فصل في الرد على شبهة المكذبين بالرسل^١

وقد كذب المعاندون رُسُلَّهُمْ ، زاعمين أن رسل الله تعالى لا يكونون من البشر ، وقد ذكر الله تعالى هذا الزَّعْم وأبطله بقوله ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْمُهَدَّىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا * قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُحُونَ مُطْمَئِنِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾^٢ ، فأبطل الله تعالى هذا الزَّعْم بأنه لا بد أن يكون الرسول بشراً من جنسهم ، لأنَّه مُرسلاً إلى أهل الأرض ، وهم بشر ، ولو كان أهل الأرض ملائكة لنزل الله عليهم من السماء ملَكًا رَسُولًا ، ليكون مثلهم.

^١ هذا الفصل منقول من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ٩٩ .

^٢ سورة الإسراء: ٩٤ - ٩٥ .

ملحق

تقرير أن الخضر كان نبيا ، عليه السلام^١

ومن الأنبياء الخضر عليه السلام ، وقد جاء ذكره في القرآن العزيز في سورة الكهف ، وكذا في السنة الشريفة في الصحيحين وغيرهما في قصته مع موسى عليه السلام ، وقد دلت تلك القصة على نبوة الخضر من ستة وجوه:

١. ما دلت عليه الآيات من أن الخضر أُوحى إليه ، والوحي لا يكون إلا للأنبياء ، وفي قصته المذكورة في سورة الكهف خمسة شواهد على أنه كان يوحى إليه:

الأول: قول الخضر في نهاية خبره مع موسى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ مَعَ أَصْحَابِ السَّفِينَةِ الَّذِينَ حَرَقْتُ سَفِينَهُمْ وَالْغَلامُ الَّذِي قَاتَلَنِي أَصْحَابُ الْقَرْيَةِ الَّذِينَ أَصْلَحْتُ جَدَارَهُمْ لَيْسَ عَنْ أَمْرِي وَرَأَيْتُ ، بَلْ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَوْامِرَ اللَّهِ تَعَالَى تَصُلُّ لِأَنْبِيَائِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْ طَرِيقٍ وَلَا طَرِيقٌ لِمَعْرِفَةِ أَوْامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ إِلَّا بِذَلِكَ.

قال الإمام الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية المذكورة: أي: وإنما فعلته عن أمر الله جل وعلا ، وأمر الله إنما يتحقق عن طريق الوحي ، إذ لا طريق تُعرف بها أوصاف الله ونواهيه إلا الوحي من الله جل وعلا ، ولا سيما قتل الأنفس البريئة في ظاهر الأمر ، وتعييب سفن الناس بحرقها ، لأن العداون على أنفس الناس وأموالهم لا يصح إلا عن طريق الوحي من الله تعالى ، وقد حصر تعالى طرق الإنذار في الوحي في قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنذِرْتُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ ، و ﴿إِنَّمَا﴾ صيغة حصر. انتهى.^٢

الثاني: وما يدل على أن الخضر كان نبيا يوحى إليه ما قاله نبينا عليه الصلاة السلام في قصة موسى مع الخضر: (وَمَا الْغَلامُ فَطُبِعَ يَوْمَ طُبَعَ كَافِرًا ، وَكَانَ أَبُوهُ قَدْ عَطَفَهُ عَلَيْهِ ، فَلَوْ أَنَّهُ أَدْرَكَ^٣ أَرْهَقَهُمَا طَغْيَانًا

^١ استندت كثيراً في هذا البحث من فتوى للشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله ، وتقع ضمن جموع فتاوى لعدد من العلماء ضمن الكتاب الموسوم «جزرة فيلكا وخرافة أثر الخضر فيها» ، تأليف الشيخ أحمد بن عبد العزيز الحصري حفظه الله ، وهو من مطبوعات الدار السلفية بالكويت ، ولم يذكر على الكتاب تاريخ الطبع ، والذي يظهر أنه طبع في عام ١٣٩٤ هـ أو ١٣٩٥ هـ على أكثر تقدير ، كما هو ظاهر من تاريخ فتوى الشيخ الألباني المورقة عام ١٣٩٤ هـ ، والله أعلم.

^٢ انظر كتابه «أضواء البيان» عدد تفسير الآية المذكورة من سورة الكهف.

^٣ أي أدرك سن البلوغ.

وَكُفَّارًا ، فَأَرْدَنَا أَنْ يَبْدِلُهُمَا رَحْمًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ، وَفِي رَوَايَةٍ: (وَوَقَعَ أَبُوهُ عَلَى أُمِّهِ فَعَلَّقَتْ^١
فُولَدَتْ مِنْهُ خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا).^٢

والشاهد من الحديث أن إخبار الخضر عليه السلام بـهذين الأمرين الغيبين التي لا مجال للإطلاع عليهم إلا من طريق الوحي لمن أقوى الأدلة على أنه كان يوحى إليه ، وهذا كونه طبع كافرا ، أي قدر عليه الكفر حتى يموت ، وأن أباه وقع على أمها فحملت فولدت خيرا منه ، فإن الخضر ما رأى الغلام إلا للتلوّن فمن أين أتى بكل هذه الأخبار إلا إن كان نبيا يوحى إليه؟

الثالث: ومن دلائل أن الخضر كان يوحى إليه قول النبي ﷺ في نفس القصة كما في رواية الحاكم: لما لقي موسى الخضر عليهم السلام جاء طير ، فألقى منقاره في الماء ، فقال الخضر لموسى: تدبر ما يقول هذا الطير.

قال: وما يقول؟

قال: يقول: ما عِلمْكَ وَعِلمُ مُوسَى فِي عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَمَا أَحْذَنَنَا مُنْقَارِي مِنَ الْمَاءِ.^٣
فهذا النص صريح في أن الخضر قد عُلِّمَ منطق الطير ، وهو من الغيب الذي لا يعلمه البشر ، فهو في هذا على نحو النبي سليمان عليه الصلاة والسلام الذي حكى الله عنه في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مِنْ طَيْرٍ﴾.

انتهى الكلام هنا على دلالة القرآن والسنة على إثبات أن الخضر كان نبيا بدلالة أنه كان يوحى إليه.
٢. وما يدل أيضا على نبوة الخضر ما ذكره الشنقيطي رحمه الله في تفسير هذه الآيات في كتابه «أضواء البيان» من أن الرحمة والعلم المذكوران في قوله تعالى ﴿أَتَيْنَا رَحْمَةً مِنْ عَنْدِنَا وَعَلَمَنَا مِنْ لَدْنَا عِلْمًا﴾؛
أئمما رحمة النبوة وعلم النبوة ، واستدل على ذلك بشواهد من القرآن العظيم.

وقال العالمة الآلوسي رحمه الله في تفسير الرحمة والعلم ثلاثة أقوال ، أشار إلى تضعيفها كلها ، ثم قال:-
«وَالْجَمِيعُ عَلَى أَنَّهَا الْوَحْيُ وَالنَّبُوَّةَ ، وَقَدْ أُطْلَقَتْ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوَاضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَأَخْرَجَ ذَلِكَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ ... وَالْمَنْصُورٌ مَا عَلَيْهِ الْجَمِيعُ ، وَشَوَاهِدُهُ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَخْبَارِ كَثِيرَةٌ ، وَبِمَحْمُومَعَهَا يَكُادُ يَحْصُلُ الْيَقِينَ».^٤

^١ أَرْهَقَهُ أَيْ عَشِيشَةَ بَقْهَرٍ ، وَالْمَعْنَى: يُكَرِّهُ وَالْدِيَهُ عَلَى الْكُفَّرِ وَالْطَّغَيَانِ بِسَبَبِ مَا يَحْمَلُنَّهُ مِنْ حُبِّهِ لَهُ. انظر «لسان العرب» ، مادة رهق.

^٢ عَلَقَتِ الْمَرْأَةُ أَيْ حِيلَتْ. انظر «لسان العرب» مادة علق.

^٣ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٣٨٠) ، وَالزِّيَادَةُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ (٥/١١٨-١١٩).

^٤ رَوَاهُ الْحَاكَمُ (٢/٣٦٩) وَصَحَّحَهُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ ، وَهُوَ مُخْرَجٌ فِي «الصَّحِيفَةِ» (٢٤٦٧).

^٥ أَيْ الْقَوْلُ الرَّاجِحُ.

^٦ «روح المعاني» (٥/٩٢-٩٣).

٣. ومن دلائل نبوة الخضر ما أخبر به النبي ﷺ في أول قصة موسى مع الخضر أن الله أوحى إلى موسى أن الخضر أعلم منه ، وهذه المنزلة لا تكون إلا للأنبياء ، ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلَأٍ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَتَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟ قَالَ مُوسَى: لَا.

فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى: بَلِّي، عَبْدَنَا حَضْرٌ.^١

وفي القصة نص آخر على أن عند الخضر من العلم ما ليس عند موسى ، وهذه المنزلة لا تكون إلا للأنبياء ، فإنه لما لقي الخضر موسى سأله عن نفسه ولم يكن يعرفه: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم ، أتيتك لتعلمك مما علمت رشدا.

قال: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِعَ مَعِي صِرَاطًا﴾ ، يا موسى ، إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِّنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلِّمْنِي لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِّنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلِّمْكَ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ.^٢

٤. وما يدل على نبوة الخضر أن موسى عليه السلام كان تابعاً له في رحلته كلها ، وهذه المنزلة لا يتبعوها إلا نبي.

٥. "وما يُستأنس به للقول بنبوته تواضع موسى عليه الصلاة والسلام له في قوله ﴿هَلْ أَتَبْعَكُ عَلَى أَنْ تَعْلَمَ مَا عَلَمْتَ رشدا﴾ ، وقوله ﴿سَتَجْدِنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ ، مع قول الخضر له ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحْكِطْ بِهِ خِبْرًا﴾.^٣

٦. وما يُستأنس به للقول بنبوة الخضر قوله موسى في نهاية القصة ﴿هَذَا فَرَاقٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُم﴾ ، فالخضر هو الذي قرر المفارقة ، ومن المعلوم أن مثل هذا المطلب لا يكون إلا من مقام نبي ، وأما من دونه من الناس فلا يقوى على مواجهة نبي بطلب المفارقة.

انتهى الكلام على مسألة الخضر عليه الصلاة والسلام.

^١ رواه البخاري (٧٤) ومسلم (٢٣٨٠) ، ولفظ مسلم: بلي ، عبدنا الخضر.

^٢ رواه البخاري (٤٧٢٥).

^٣ قاله الشنقيطي رحمه الله في «أشواء البيان» في معرض كلامه على قصة موسى مع الخضر عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام عند تفسير قوله تعالى ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عَبْدَنَا آتَيْنَا رَحْمَةً مِّنْ عَنْدَنَا وَعَلَمْنَا مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾.

تقرير أن إخوة يوسف عليه السلام لم يكونوا أنبياء

قال ابن تيمية رحمه الله:

الذي يدل عليه القرآن واللغة والاعتبار أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء ، وليس في القرآن ولا عن النبي ﷺ بل ولا عن أصحابه خبر بأن الله تعالى نبأهم ، وإنما احتج من قال إنهم نبأوا بقوله في آية البقرة والنساء ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾^١ ، وفسر الأسباط بأنهم أولاد يعقوب ، والصواب أنه ليس المراد بهم أولاده لصلبه بل ذريته ، كما يقال فيهم^٢ أيضا «بنو إسرائيل» ، وكان في ذريته الأنبياء ، فالأسباط من بنى إسرائيل كالقبائل من بنى إسماعيل.

قال أبو سعيد الضرير^٣: (أصل السبط شجرة ملتفة كثيرة الأغصان)^٤ ، فسموا «الأسباط» لكثراهم ، فكما أن الأغصان من شجرة واحدة ، كذلك الأسباط كانوا من يعقوب.

ومثل السبط الحاقد^٥ ، وكان الحسن والحسين سبطي رسول الله ﷺ ، والأسباط حفدة يعقوب ذراري أبناءه الثاني عشر.

وقال تعالى ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهُدُونَ بِالْحُقْقِ وَيَهُدِّلُونَ * وَقَطَعْنَاهُمْ أُنْتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَّمًا﴾^٦ ، فهذا صريح في أن الأسباط هم الأمم من بنى إسرائيل ، كل سبط أمة ، لا أنهم بنوه^٧ الائنا عشر ، بل لا معنى لتسميتهم قبل أن تنتشر عنهم الأولاد «أسباطاً» ، فالصواب أن السبط هم الجماعة من الناس ، ومن قال: (الأسباط أولاد يعقوب) لم يرد أنهم أولاده لصلبه ، بل أراد ذريته ، كما يقال: بنو إسرائيل وبنو

^١ يشير إلى قوله تعالى في سورة البقرة ، آية ٢٨٥ ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ ، وقوله تعالى في سورة النساء ، آية ١٦٣ ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْ نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾.

^٢ يعني بذلك الأسباط.

^٣ هو أحمد بن خالد البغدادي ، أبو سعيد الضرير ، لغوی ، انظر ترجمته في «معجم الأدباء» لياقوت الحموي (١/٢٥٣) الناشر: دار الغرب الإسلامي ، و «لسان الميزان» (١/٢٦٤) (٢٠٢٢) الناشر: الفاروق الحديثة - مصر.

^٤ انظر «لسان العرب» ، مادة: سبط.

^٥ الحاقد هو ولد الولد ، ويسمى حفيده أيضا ، وجمعه حفدة وأحفاد ، انظر «ختار الصحاح» ، مادة: حفدة ، وكتاب «العامي الفصيح» وهو من إصدارات مجمع اللغة في مصر.

وأما السبط فهو ولد البيت.

^٦ سورة الأعراف: ١٥٩ - ١٦٠ .

^٧ يعني بذلك يعقوب عليه السلام.

آدم ، فتخصيص الآية ببنيه لصلبه غلط ، لا يدل عليه اللفظ ولا المعنى ، ومن ادعاه فقط أخطأ خطأً بيئاً.

والصواب أيضاً أن كونهم^١ أسباطاً إنما سُمُّوا به من عهد موسى للآية المتقدمة ، ومن حينئذ كانت فيهم النبوة ، فإنه لا يعرف أنه كان فيهمنبي قبل موسى إلا يوسف ، وما يؤيد هذا أن الله تعالى لما ذكر الأنبياء من ذرية إبراهيم قال ﴿وَمِنْ ذرِيَّتِهِ دَاؤُدَ وَسُلَيْمَانٌ﴾^٢ الآيات ، فذكر يوسف ومن معه ، ولم يذكر الأسباط ، فلو كان إخوه يوسف تبعوا كما نبأ يوسف لذكروا معه.

وأيضاً فإن الله يذكر عن الأنبياء من المحامد والشأن ما يناسب النبوة وإن كان قبل النبوة ، كما قال عن موسى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشْدَادَهُ﴾^٣ الآية ، وقال في يوسف كذلك ، وفي الحديث: "أكرم الناس يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ،نبي مننبي مننبي"^٤ ، فلو كانت إخوه الأنبياء كانوا قد شاركوه في هذا الكرم ، وهو تعالى لما قصَّ قصَّةَ يوسف وما فعلوا معه ذَكَرَ اعترافهم بالخطيئة وطلبهم الاستغفار من أنبيائهم ، ولم يذكر من فضلهم ما يناسب النبوة ، ولا شيئاً من خصائص الأنبياء ، بل ولا ذكر عنهم توبة باهرةً كما ذكر عن ذنبه دون ذنبهم ، بل إنما حكى عنهم الاعتراف وطلب الاستغفار.

ولا ذكر سبحانه عن أحدٍ من الأنبياء - لا قبل النبوة ولا بعدها - أنه فعل مثل هذه الأمور العظيمة ، من عقوق الوالد وقطيعة الرحم وإرقاء المسلمين وبيعه إلى بلاد الكفر والكذب البين وغير ذلك مما حكاه عنهم^٥ ، ولم يحكي شيئاً يناسب الاصطفاء والاختصاص الموجب لنبوتهم ، بل الذي حكاه يخالف ذلك ، بخلاف ما حكاه عن يوسف.

ثم إن القرآن يدل على أنه لم يأت أهل مصرنبي قبل موسى سوى يوسف لآية غافر^٦ ، ولو كان من إخوة إخوه يوسفنبي لكان قد دعا أهل مصر وظهرت أخبار نبوته ، فلما لم يكن ذلك علماً أنه لم يكن منهمنبي.

فهذه وحدة متعددة يُقوّي بعضها بعضاً.

^١ يعني بذلك بي إسرائيل.

^٢ سورة الأنعام: ٨٤.

^٣ سورة القصص: ١٤.

^٤ أخرجه البخاري (٣٣٨٢) ولفظه: الكلم ابن الكلم ابن الكلم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

^٥ من المعلوم أن الأنبياء معصومون من الواقع في الكبائر ، وهذا مما يؤيد أن إخوه يوسف ليسوا بأنبياء ، لأنهم وقعوا في الكبائر المذكورة كما هو معلوم.

^٦ وهي قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفَ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ﴾.

وقد ذكر أهل السير أن إخوة يوسف كلهم ماتوا بمصر ، وهو أيضًا ، وأوصى بنقله إلى الشام ، فنقله موسى .

والحاصل أن الغلط في دعوى نبوتهم حصل من ظن أنهم هم الأسباط ، وليس كذلك ، إنما الأسباط ذريتهم الذين قطعوا أسباطاً من عهد موسى ، كل سبطٍ أمة عظيمة ، ولو كان المراد بالأسباط أبناء يعقوب لقال: "ويعقوب وبنيه"^١ ، فإنه أوجز وأبين .

واختير لفظ "الأسباط" على لفظ "بني إسرائيل" للإشارة إلى أن النبوة إنما حصلت فيهم من حين تقطيعهم أسباطاً من عهد موسى . والله أعلم .^٢

^١ أي: لقاما بدل قوله ﴿وَيَعْقُوبُ وَالْأَسْبَاطُ﴾.

^٢ «جامع المسائل» (٢٩٧/٣) ، تحقيق: محمد عزيز شمس ، الناشر: دار عالم الفوائد - مكة.

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر

اليوم الآخر هو يوم القيمة ، وهو اليوم الذي يبعث الناس فيه للحساب والجزاء ، والبعث هو الإخراج ، أي إخراج الناس من قبورهم ، وسمى اليوم الآخر بذلك لأنه لا يوم بعده ، حيث يستقر أهل الجنة في منازلهم وأهل النار في منازلهم.

وأما يوم القيمة فسمى بذلك لأن الناس تقوم فيه الله جل وعلا ، كما قال تعالى ﴿أَلَا يظنُ أُولئكَ أَنَّمِ
مَبْعَثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمٌ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^١.

فصل في بيان ما يتضمنه الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر يتضمن الإيمان بستة أمور ، نذكرها على سبيل السرد ثم نفصل الكلام في كل واحدة منها:

الأول: النَّفَخُ فِي الصُّورِ

الثاني: بَعْثُ الْخَلَائِقِ

الثالث: حدوث علامات الساعة الكبرى الأخرى

الرابع: حشر الناس في أرض المشر

الخامس: الحساب والجزاء

السادس: دخول الجنة والنار

^١ سورة المطففين: ٤ - ٦ .

تفصيل

الأول: النَّفخُ فِي الصُّورِ ، وهو أول علامات الساعة الكبرى ، وبه يكون الإيدان بيوم القيمة ، والصُّورُ قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ ملْكُ الصُّورِ نَفْخَتِينِ ، فِي الْأُولِي يُصْعَقُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ وَبِعَوْتُونَ ، دَلِيلُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَمَا يَنْظَرُ هُؤُلَاءِ إِلَّا صِحَّةٌ وَاحِدَةٌ مَا لَهَا مِنْ فَوْاقٍ﴾^١ ، أَيْ: مَا لَهَا مِنْ إِفَاقَةٍ وَرَجْوَ لِلْدُنْيَا.

ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ النَّفْخَةَ الثَّانِيَةَ فَيَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿إِنَّمَا هِيَ زَرْجَةٌ وَاحِدَةٌ إِذَا هُمْ يَنْظَرُونَ﴾^٢.

فِي النَّفْخَةِ الْأُولَى يَمُوتُ الْأَحْيَاءُ ، وَفِي النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ يَحْيَى الْأَمْوَاتُ ، وَإِلَى النَّفْخَتِيْنِ أَشَارَ الْحَقُّ تَبَارِكُ وَتَعَالَى بِقَوْلِهِ ﴿يَوْمَ تَرْجَفُ الرَّاحِفَةُ تَبَعَّهَا الرَّادِفَةُ﴾^٣ ، فَالرَّاحِفَةُ هِيَ النَّفْخَةُ الْأُولَى ، وَالرَّادِفَةُ هِيَ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ ، سَمِيتُ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَرْدُفُ النَّفْخَةَ الْأُولَى وَتَتَلَوَّهَا ، وَبَيْنَهُمَا أَرْبَعُونَ سَنَةً^٤.

وَقَدْ جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ تَسْمِيَةُ الصُّورِ بِالنَّاقُورِ ، كَمَا فِي سُورَةِ الْمَدْرَثِ ﴿إِذَا نَفَرَ فِي النَّاقُورِ﴾^٥ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثٍ أَنَّهُ يُنْفَخُ فِي ثَلَاثَ مَرَاتٍ وَلَكِنَّهُ حَدِيثٌ ضَعِيفٌ.^٦

الثاني: الْبَعْثُ ، وَهُوَ إِحْيَاءُ الْمَوْتَى حِينَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ النَّفْخَةَ الثَّانِيَةَ ، وَالْبَعْثُ حَقٌّ ثَابِتٌ ، دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسَّنَةُ وَإِجْمَاعُ الْمُسْلِمِينَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿إِنَّمَا إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبَعَّثُونَ﴾^٧.

^١ سورة ص: ١٥ .

^٢ سورة الصافات: ١٩ .

^٣ سورة النازعات: ٩ - ١٠ .

^٤ انظر « صحيح البخاري » (٤٨١٤) ومسلم (٢٩٥٥).

^٥ سورة المدثر: ٨ .

^٦ رواه الطبراني في « الأحاديث الطوال » عن أبي هريرة رضي الله عنه برقم (٣٦) ، وهو مطبوع باخر « معجمه » (٢٦٦/٢٥) ، وقد تكلم عليه حقيقة الشيخ حمدي بن عبد العزيز السلفي رحمه الله بكلام طويل. كما رواه ابن حجر الطبراني رحمه الله في تفسيره عند تفسيره للآية الأولى من سورة الحج وأشار إلى ضعفه قبل أن يسوقه فقال: وقد روي عن النبي ﷺ حبر في إسناده نظر ... ثم ساق الحديث. انتهى الغرض منه.

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: هذا حديث مشهور، وهو غريب جداً، ولبعضه شواهد في الأحاديث المترفة، وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاضي أهل المدينة، وقد اختلف فيه، فمنهم من وثقه ومنهم من ضعفه، ونص على نكارة حديثة غير واحد من الأئمة، كأحمد بن حنبل وأبي حاتم الراري وعمرو بن علي الفلاسي، ومنهم من قال فيه: (هو متروك)، وقال ابن عدي: أحاديثه كلها فيها نظر إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء. انتهى كلامه رحمه الله من تفسيره، آية الأنعام (٧٣) ﴿وَلِهِ الْمَلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾. وقد ضعفه الألباني رحمه الله كما في « ضعيف الترغيب والتهيب » رقم (٢٢٤٤) فقال: منكر.

وانظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في « الأضواء » في تفسير الآية الأولى من سورة الحج.

^٧ سورة المؤمنون: ١٥-١٦ .

والدليل من السنة على ثبوت البعث قول النبي ﷺ : ... فَيُنْزَلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَا يَنْبُتُ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ ، لِيُسَمِّنَ الْإِنْسَانَ شَيْئًا إِلَّا يَلِمُ إِلَّا عَظِيمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ ، وَمِنْهُ يُرَكِّبُ الْخَلْقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.^١

فعندهـذ يقوم الناس لرب العالمين ، حفـأـهـ غير متعلـين ، عـرـأـهـ غير مستـترـين ، عـرـلـاـهـ غير مختـتنـين ، بـعـمـاـهـ ، أي ليس بهـمـ شيءـ من العـاهـاتـ التي تكونـ في الدـنـيـاـ كالـعـرـجـ والـعـمـىـ وـنـحـوـهاـ ، قالـ اللـهـ تـعـالـىـ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾^٢ .

وبـمـوجـبـ الأـدـلـةـ الـوارـدـةـ فيـ الـكـتـابـ وـالـسـنـةـ أـجـمـعـ المـسـلـمـونـ عـلـىـ ثـبـوتـ الـبـعـثـ.

والـحـكـمـةـ تـقـتـضـيـ أنـ يـجـعـلـ اللـهـ تـعـالـىـ لـهـذـهـ الـخـلـيقـةـ مـعـادـاـ يـجـازـيـهـمـ فـيـ عـلـىـ ماـكـلـفـهـمـ بـهـ عـلـىـ أـلـسـنـةـ رـسـلـهـ ، قالـ اللـهـ تـعـالـىـ ﴿أَفَخَسِبْتُمْ أَنَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَّادًا وَأَنْكُنُ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^٣ .

وقدـأـنـكـرـ صـنـفـ منـ الـكـفـارـ الـبـعـثـ بـعـدـ الـمـوـتـ ، وـسـيـأـتـيـ الرـدـ عـلـيـهـمـ فيـ آـخـرـ الـكـلـامـ عـلـىـ هـذـاـ الـمـبـحـثـ – مـبـحـثـ الإـيمـانـ بـالـيـوـمـ الـآـخـرـ – إنـ شـاءـ اللـهـ.

الثالث: وما يدخلـ فيـ الإـيمـانـ بـالـيـوـمـ الـآـخـرـ حدـوثـ عـلامـاتـ الـسـاعـةـ الـكـبـرىـ غـيرـ النـفـخـ فيـ الصـورـ وـبـعـثـ الـخـلـائقـ ، وـمـنـ ذـلـكـ زـلـةـ الـأـرـضـ ، فـإـنـهـ مـاـ يـكـوـنـ مـنـ الـأـهـوـالـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ حدـوثـ زـلـالـ حـسـيـ لـلـأـرـضـ كـمـاـ فيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ ﴿إِذَا زَلَّتِ الْأَرْضُ زَلَّلَهَا﴾ ، وـقـوـلـهـ ﴿إِذَا رَجَتِ الْأَرْضُ رَجَّا﴾.

أـمـاـ وـرـدـ مـنـ حـدـوثـ زـلـالـ قـبـلـ النـفـخـ فيـ الصـورـ فـقـدـ جـاءـ فيـ حـدـيـثـ رـوـاهـ اـبـنـ جـرـيرـ الطـبـريـ فيـ «ـتـفـسـيـرـهـ»ـ فيـ مـطـلـعـ تـفـسـيـرـ سـوـرـةـ الـحـجـ عنـ رـجـلـ مـنـ الـأـنـصـارـ عـنـ أـبـيـ هـرـيـرـةـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ ، وـلـكـهـ ضـعـيفـ الـإـسـنـادـ كـمـاـ قـالـ اـبـنـ جـرـيرـ نـفـسـهـ.^٤

وـمـنـ عـلامـاتـ الـسـاعـةـ الـكـبـرىـ تـشـفـقـ السـمـاءـ كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ ﴿فَإِذَا انشقتَ السـمـاءـ فـكـانتَ وـرـدةـ كـالـدـهـانـ﴾^٥ ، أيـ تكونـ كـالـجـلدـ الـأـحـمـرـ ، لـأـنـ الـوـرـدـةـ حـمـراءـ ، وـالـدـهـانـ هوـ الـجـلدـ.

وـفـيـ آـيـةـ أـخـرىـ شـبـهـ اللـهـ السـمـاءـ فيـ ذـلـكـ الـيـوـمـ بـالـمـهـلـ فيـ قـوـلـهـ ﴿يـوـمـ تـكـوـنـ السـمـاءـ كـالـمـهـلـ﴾^٦ ، أيـ الشـيـءـ الـذـائـبـ.

^١ جـزـءـ مـنـ حـدـيـثـ رـوـاهـ الـبـخـارـيـ (٤٩٣٥).

^٢ سـوـرـةـ الـأـنـبـيـاءـ: ٤ ١٠٤.

^٣ سـوـرـةـ الـمـؤـمـنـونـ: ١١٥.

^٤ سـوـرـةـ الـوـاقـعـةـ: ٤.

^٥ انـظـرـ «ـتـفـسـيـرـ أـضـوـاءـ الـبـيـانـ»ـ ، فـيـ تـفـسـيـرـ الـآـيـةـ الـأـوـلـىـ مـنـ سـوـرـةـ الـحـجـ مـنـ قـوـلـهـ رـحـمـهـ اللـهـ: مـسـأـلـةـ: اـخـتـلـفـ الـعـلـمـاءـ فـيـ وقتـ هـذـهـ الـزـلـلـةـ الـمـذـكـورـةـ هـنـاـ ...

^٦ سـوـرـةـ الرـحـمـنـ: ٣٧.

وفي ذلك اليوم **نُطْحَنُ الْجَبَالَ طَحْنًا فَتَفَتَّتَ حَتَّى تَكُونَ كَالرَّمْلِ الْمُنْهَايِلِ أَو الصُّوفِ الْمُنْفُوشِ ، كَلَا الْوَصْفَيْنِ**^١ متنقارب ، فأما طحن الجبال فمذكور في قوله تعالى **﴿وَبُسْتَ الْجَبَالَ بِسَا﴾**^٢ ، وأما تفتقها فمذكور في قوله تعالى **﴿وَتَكُونُ الْجَبَالَ كَالْعَهْنِ الْمُنْفُوشِ﴾** وقوله **﴿وَكَانَتِ الْجَبَالُ كَثِيرًا مَهْيَلًا﴾**^٣ .

وفي ذلك اليوم **تُسَيِّرُ الْجَبَالَ عَنْ أَمَاكِنِهَا حَتَّى تُرِيَ كَالسَّرَّابِ** ، قال تعالى **﴿وَسُيِّرْتَ الْجَبَالَ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾**^٤ ، وقال تعالى **﴿وَتَرِيَ الْجَبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمَرُّ مِنَ السَّحَابِ صَنْعُ اللَّهِ الَّذِي أَتَقْنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾**^٥ .

ومن علامات الساعة الكبرى توكيير الشمس ، قال تعالى **﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِرتَ﴾** ، وتكوير الشمس هو لفُّها فتكون كالعمامة ، ثم ثرمى فيذهب ضوءها.^٦

ومن علامات الساعة الكبرى انكدار النجوم ، أي تساقطها بعدما كانت عالية في السماء ، قال تعالى **﴿وَإِذَا النَّجْوَمُ انْكَدَرَتْ﴾**.

ومن علاماتها تسجير البحار نارا ، قال تعالى **﴿وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِرَتْ﴾** ، فسبحان من بيده القدرة على قلب قوانين الطبيعة إلى خلافها بأمره الكوني القديري **﴿إِنَّمَا أَمْرُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كَنْ فَيَكُونُ﴾**.

^١ سورة المعارج: ٨ .

^٢ سورة الواقعة: ٥ .

^٣ سورة المزمل: ١٤ .

^٤ سورة النبأ: ٢٠ .

^٥ سورة النمل: ٨٨ .

^٦ انظر تفسير ابن حجر رحمه الله للآلية.

الرابع: وما يدخل في الإيمان باليوم الآخر حشر الناس إلى أرض المبشر ، والبشر هو سوق الخلائق بعد بعثهم من قبورهم وجمعهم في أرض المبشر ، ودليل البشر قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَكُمْ فِي الْأَرْضِ إِلَيْهِ تَحْشِرُونَ﴾^١ ، قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجًا﴾^٢ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام علينا النبي ﷺ يخطب فقال: يا أيها الناس ، إنكم تُحشرون إلى الله حفاة عراة عرلاً.^٣

فيُحشر الناس يوم القيمة على أرض بيضاء ، عفراء^٤ ، ليس فيها معلمٌ لأحدٍ ، يُسمِّعُهم الداعي^٥ ويفُدُّهم البصر^٦ ، كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.^٧

وفي ذلك اليوم يُحشر الإنس والجنس والملائكة والبهائم ، فأما حشر الإنس والجنس فدليله عموم الآية المتقدمة ، وأما حشر البهائم فدليله قوله تعالى ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ لَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحِيهِ إِلَّا أُمُّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾^٨ ، قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْوَحْشُوْسُ حُشِّرَتْ﴾^٩ .

وأما دليل حشر الملائكة فدليله قوله تعالى ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفَا صَفَا﴾^{١٠} ، فالملايك يُحشرون يوم القيمة بين يدي رب صفواف ، ولكنهم لا يحاسبون ، لكونهم مفطوريين على القيام بما أمرهم الله تعالى به وعدم عصيانه ، كما وصفهم الله تعالى بقوله ﴿لَا يَعْصُوْنَ اللَّهَ مَا أَمْرَهُمْ وَلَا يَفْعَلُونَ مَا يَنْهَا مُؤْمِنُوْنَ﴾^{١١} .

وبعد الحشر العام الذي يجتمع فيه الناس في أرض المبشر يكون الحشر الخاص ، والذي يُحشر فيه المكذبون للرسل لأجل توبیخهم ، دل على ذلك قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نَحْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فُوجًا مَنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ

^١ سورة المؤمنون: ٧٩ .

^٢ سورة النبأ: ١٨ .

^٣ رواه البخاري (٦٥٢٦) ، ومسلم (٢٨٦٠) .

^٤ عفراء أي بيضاء بياضا ليس بالناصع. انظر «النهاية».

^٥ معلم أي عالمة ، كعلامات الطريق ونحوه ، وقيل: المعلم الأثر. انظر «النهاية» لابن الأثير رحمه الله.

^٦ انظر البخاري (٦٥٢١) ومسلم (٢٧٩٠) ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

^٧ أي أنه إذا دعاهم داعٍ فإنهم يسمعونه كلام لأن الأرض ليس فيها ما يمنع نفوذ الصوت من جدار ونحوه.

^٨ أي أن البصر يبلغ أدهم وأخرهم لاستواء الأرض وعدم تكروها. انظر «فتح الباري» شرح حديث (٤٧١٢).

^٩ برقم (٣٣٦١) .

^{١٠} سورة الأنعام: ٣٨ .

^{١١} سورة التكوير: ٥ .

^{١٢} سورة الفجر: ٢٢ .

^{١٣} سورة التحرير: ٦ .

يوزعون * حتى إذا جاؤوا قال أكذبتم بيأيتي ولم تحيطوا بما علمًا أماًذا كنتم تعملون﴿١﴾ ، فالخشـر الأول عام عـام للناس كلـهم لفصل القـضاء ، والثـاني خـاص للمـكذـبين للرسـل لتـويـخـهم أمام الناس كلـهم ، وـمعـنى يوزـعون أي يـحبـس أوـهـمـ على آخرـهم ليـجـتمعـون ثم يـسـاقـون إلى النـار .^٢

وـما يـحـصـلـ في أـرضـ الخـشـرـ أـربـعـةـ أـمـورـ:

١. فـزعـ النـاسـ ، وـدـلـيلـهـ قـولـهـ تـعـالـيـ في مـطـلـعـ سـورـةـ الحـجـ ﴿إـنـ زـلـلـةـ السـاعـةـ شـيـءـ عـظـيمـ﴾ يـومـ تـرـوـنـهاـ تـذـهـلـ كلـ مـرـضـعـةـ عـماـ أـرـضـعـتـ وـتـضـعـ كـلـ ذـاتـ حـلـمـهاـ وـتـرـىـ النـاسـ سـكـارـيـ وـمـاـ هـمـ بـسـكـارـيـ وـلـكـ عـذـابـ اللهـ شـدـيدـ﴾ .^٣

وـلـيـسـ المـقـصـودـ بـالـزـلـلـةـ فـيـ هـذـهـ الـآـيـةـ الـزـلـلـةـ الـحـسـيـ لـلـأـرـضـ ، وـإـنـماـ المـقـصـودـ هـنـاـ شـدـةـ هـوـلـ يـومـ الـقـيـامـةـ كـمـاـ قـالـ تـعـالـيـ وـاـصـفـاـ يـوـمـ الـأـحـزـابـ ﴿هـنـالـكـ اـبـتـلـيـ الـمـؤـمـنـوـنـ وـزـلـلـواـ زـلـلاـ شـدـيدـاـ﴾ .^٤ وـأـمـاـ الـزـلـلـ الـحـسـيـ لـلـأـرـضـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ فـثـابـتـ فـيـ قـولـهـ تـعـالـيـ ﴿إـذـاـ زـلـلـتـ الـأـرـضـ زـلـلاـهـاـ﴾ ، وـقـولـهـ ﴿إـذـاـ رـجـتـ الـأـرـضـ رـجـاـهـ﴾ .^٥

وـمـنـ شـدـةـ ذـلـكـ الـيـوـمـ وـعـظـيمـ كـرـبـهـ ؛ فـإـنـ فـهـومـ النـاسـ تـضـطـرـبـ وـتـطـيـشـ فـيـ تـحـدـيدـ مـدـةـ لـبـشـمـ فـيـ الدـنـيـاـ ، فـمـنـهـمـ مـنـ يـقـولـ ﴿إـنـ لـبـشـمـ إـلـاـ عـشـرـ﴾^٦ ، وـمـنـهـمـ مـنـ يـقـولـ ﴿لـبـشـناـ يـوـمـاـ أوـ بـعـضـ يـوـمـ فـاسـأـلـ الـعـادـيـنـ﴾^٧ ، وـفـيـ آـيـةـ أـخـرىـ يـقـولـ الـحـقـ عـنـهـمـ ﴿وـيـوـمـ تـقـومـ السـاعـةـ يـقـسـمـ الـمـجـرـمـوـنـ مـاـ لـبـشـواـ غـيرـ سـاعـةـ﴾^٨ .

وـمـنـ شـدـةـ ذـلـكـ الـيـوـمـ وـعـظـيمـ هـوـلـهـ ؛ يـذـهـلـ النـاسـ بـعـضـهـمـ عـنـ بـعـضـ ، قـالـ تـعـالـيـ ﴿يـوـمـ يـفـرـ الـمـرـءـ مـنـ أـخـيهـ﴾^٩ * وـأـمـهـ وـأـيـهـ * وـصـاحـبـتـهـ وـبـنـيـهـ * لـكـلـ اـمـرـيـءـ مـنـهـمـ يـوـمـئـذـ شـأـنـ يـغـنـيـهـ﴾^{١٠} .

^١ سورة النمل: ٨٣ - ٨٤ .

^٢ انظر «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» ، سورة النمل ، عند الكلام على قوله تعالى ﴿وـيـوـمـ نـخـشـرـ مـنـ كـلـ أـمـةـ فـوـجاـ مـنـ يـكـذـبـ بـأـيـاتـنـاـ فـهـمـ يـوـزـعـونـ﴾ .^{١١}

^٣ قاله ابن جرير في تفسير الآية.

^٤ سورة الأحزاب: ١١ .

^٥ انظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في خاتمة تفسير قوله تعالى من سورة الحج ﴿يـوـمـ تـرـوـنـهاـ تـذـهـلـ كـلـ مـرـضـعـةـ عـماـ أـرـضـعـتـ﴾ ... الآية.

^٦ سورة الواقعة: ٤ .

^٧ سورة طه: ١٠٣ .

^٨ سورة المؤمنون: ١١٣ .

^٩ سورة الروم: ٥٥ .

^{١٠} سورة عبس: ٢٤ - ٢٧ .

تبنيه

والذين يُصيبهم الفزع يوم القيمة هم أهل المعاصي من الكافرين والمتدعين وعصاة المؤمنين ، أما المؤمنين الكُمَل فلا ، قال تعالى ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾^١ ، قال الشنقيطي رحمه الله ما محصله أن هذا يدل بمفهومه على أنه يسير على المؤمنين.^٢

قلت: أي المؤمنين الكُمَل ، الذين قاموا بطاعة الله واجتنبوا ما حرم الله ، فإن من خاف الله في الدنيا أمّنه في الآخرة ، ومن أمّنه في الدنيا أفرعه في الآخرة ، قال تعالى عن المؤمنين الصادقين ﴿لَا يَخْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾^٣ ، قوله تعالى ﴿وَهُم مِنْ فَزِعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾^٤ ، قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْنٌ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^٥.

وروى ابن حجر بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقْرًا وَأَحْسَنُ مُقِيلًا﴾^٦ : كان الحساب من ذلك في أوله^٧ ، وقال القوم حين قالوا في منازلهم في الجنة^٨ ، وقرأ ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقْرًا وَأَحْسَنُ مُقِيلًا﴾.

٢. وما يكون في أرض المحشر دُنُو الشمس من الخالق حتى تكون بمقدار ميل ، قيل ميل المِكْحَلَة ، وقيل ميل المسافة ، وسواء هذا أو ذاك فالشمس ستكون قرية جداً من الرؤوس.^٩
فإن قيل: إن الجسم البشري لا يُطيق ذلك!

فالجواب أن الأجسام يوم القيمة تبعث على غير الصفة التي هي عليها في الدنيا ، بل تُبعث بعثاً يتناسب مع مواقف القيمة ، فالكافر - مثلاً - يكون ضِرسُه كجبل أحد ليتناسب مع العذاب ، والدليل على

^١ سورة الفرقان: ٢٦ .

^٢ انظر «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» ، سورة الفرقان ، عند الكلام على قوله تعالى ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقْرًا وَأَحْسَنُ مُقِيلًا﴾.

^٣ سورة الأنبياء: ١٠٣ .

^٤ سورة النمل: ٨٩ .

^٥ سورة فصلت: ٤٠ .

^٦ سورة الفرقان: ٢٤ .

^٧ أي في أول يوم القيمة.

^٨ أي صاروا وقت القليلة في منازلهم بالجنة.

^٩ انظر صحيح مسلم (٢٨٦٤).

ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ضِرْسُ الْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِثْلُ أَحَدٍ ، وَعَرْضُ جَلْدِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا ، وَفَجْنَدُهُ مِثْلُ وَرِقَانٍ^١ ، وَمَقْعُدُهُ مِثْلُ مَا بَيْنِ النَّارِ مِثْلُ مَا بَيْنِ الرِّبْذَةِ^٢ . فالخلاصة أن الله تعالى بقدرته يبعث الناس يوم القيمة على خلقةٍ تتناسب مع الشدائِد التي تحصل في ذلك اليوم ، نسأل الله التسْحِحة والعاافية.

فإن قيل: هل يسلِّمُ أحدٌ من الشَّمْسِ؟

فاجلواب نعم ، هناك أصناف من الناس يَقِيئُهُمُ اللَّهُ شَمْسُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، مِنْهُمُ السَّبْعَةُ الَّذِينَ يَظْلَمُهُمُ اللَّهُ فِي ظَلَّهُ ، يَوْمَ لَا ظَلَّ إِلَّا ظَلَّهُ ، وَهُوَ ظَلٌّ يَخْلُقُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، فَيَتَّقَى بِهِ أَصْنافٌ مِنَ النَّاسِ شَمْسُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ ، وَهُمْ إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، وَرَجُلٌ تَحَابَ فِي اللَّهِ ، اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقُوا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مَعْلُوقٌ بِالْمَسْجِدِ ، إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيَا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصَبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: (إِنِّي أَحَافِظُ اللَّهَ) ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شَمَالَهُ مَا أَنْفَقَتْ يَمِينَهُ.^٣

وقد نظم السبعة الذين يظلمهم الله في ظله العلامة أبو شامة ، عبد الرحمن بن إسماعيل فقال:

وَقَالَ النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى إِنَّ سَبْعَةً ... يُظْلَمُهُمُ اللَّهُ الْكَرِيمُ بِظَلَّهِ
مُحْبَّٰ عَفِيفٌ نَاشِئٌ مَتَصَدِّقٌ ... وَبَاكٌ مَصْلُّ وَإِمَامٌ بَعْدَهُ^٤

وللفائدة فقد جاء في روايةٍ تخصيص الظل بظل العرش ، ولفظها: سبعة يظلمهم الله تعالى تحت ظل عرشه... الحديث.^٥

^١ وَرِقَانٌ جَبْلٌ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ. انظر «النهاية».

^٢ الرِّبْذَةُ قَرْيَةٌ قَرَبُ الْمَدِينَةِ. انظر «النهاية».

^٣ رواه أَحْمَدُ (٣٢٨/٢) ، وَحَسْنٌ إِسْنَادُهُ مُحْقَقٌ «الْمَسْنَدُ» ، (٣٦٦/٤) ، وَهُوَ عِنْدَ الْبَخَارِيِّ (٦٥٥١) وَمُسْلِمَ (٢٨٥٢) عَنْ أَبِي هَرِيرَةَ أَيْضًا بِلَفْظِ أَخْصَرٍ مِنْ هَذَا ، وَفِيهِ أَنْ عَرَضَ جَلْدَهُ مَسِيرَةً ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ.

^٤ روى هذا الحديث البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَالظَّلُّ لَيْسَ مُحْصُورًا فِي السَّبْعَةِ ، فَهُنَّاكَ أَصْنافٌ أُخْرَى مِنَ النَّاسِ يَقِيئُهُمُ اللَّهُ حَرًّا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَيُظْلَمُهُمْ تَحْتَ ظَلَّهُ بِسَبِّ أَعْمَالِ صَالِحةٍ قَامُوا بِهَا ، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ فِي أَحَادِيثِ جَعْمَهَا بْنِ حَمْرَهِ اللَّهِ فِي «فَحْحَالِ الْبَارِيِّ» فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ ، مِنْهَا إِنْظَارُ الْمَعْسَرِ ، وَدَلِيلُهُ حَدِيثُ أَبِي الْيَسِيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: مَنْ أَنْظَرَ مَعْسَرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ ؛ أَظْلَلَ اللَّهُ فِي ظَلَّهُ . رواه مسلم (٧٥١٢).

وَفِي الْبَابِ عَنْ أَبِي هَرِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، انْظُرْ الْحَدِيثَ أَعْلَاهُ.

وَانْظُرْ لِلْإِسْتَرَادَةِ كِتَابَ «سَطْوَعَ الْمَحَالِ فِي الْخَصَالِ الْمَوْجَبَةِ لِلظَّلَالِ» ، لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْحَازِمِيِّ ، النَّاشرُ: دَارُ الشَّرِيفِ - الْرِّيَاضِ.

^٥ نَقْلَهُ أَبِي حَمْرَهِ اللَّهِ فِي «فَحْحَالِ الْبَارِيِّ» فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ.

^٦ رواهَا الْبَيْهِقِيُّ فِي «الأَسْمَاءِ وَالصَّفَاتِ» (٧٩٣) ، وَالْطَّحاوِيُّ فِي «مَشْكُلِ الْآثَارِ» (٥٨٤٥) ، وَصَحَّحَهَا الشَّيْخُ رَبِيعُ بْنُ هَادِي الْمَدْخُلِيُّ فِي كِتَابِهِ «الْقَوْلُ الْوَاضِعُ الْمُبِينُ فِي الْمَرَادِ بِظَلَّ اللَّهِ الَّذِي وَعَدَ بِهِ الْمُؤْمِنِيْنَ الْعَالَمِيْنَ» ، وَهُوَ مِنْ مَنْشُورَاتِ مَجَالِسِ الْمَهْدِيِّ - الْجَزَائِرِ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من أنظر معسراً أو وضع له ؟ أظلله الله يوم القيمة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله.^١

قال الذهبي في «العلو»: وقد بلغ في ظل العرش أحاديث تبلغ التواتر.^٢

فإن قيل: أليست الشمس تُكَوِّر في ذلك اليوم ، أي ثُلُف ثم ثُرمى ويدهب ضوءها؟
فالجواب: بلـ ، ولكن هذا يكون بعد موقف الحشر والذي تدنو فيه الشمس ، جمعاً بين الآية والحديث.
٣ . وما يكون في أرض الحشر ورود الناس على حوض النبي ﷺ الذي في أرض الحشر ، فيشرب منه المؤمنون المستقيمون على الشريعة ، ويُذاد عنه صنفان من الناس:

الأول من ارتدوا عن الإسلام ، كالذين ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ ، ومن ارتد أيضاً من جاء بعدهم إلى يوم القيمة.

والصنف الثاني هم أهل البدع ، فإنهم يُذادون - أي يُطردون - عن الحوض كما تُزداد الغريبة من الإبل.^٤
وهذا الحوض يصْبُّ فيه ميزابان^٥ من نهر^٦ الكوثر الذي بالجنة ، ومعنى الكوثر الخير الكثير ، وطول الحوض مسيرة شهر ، فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، ورائحته أطيب من المسك ، ومذاقه أحلى من العسل ، من يشرب منه شربة فإنه لا يظمأ بعدها أبداً ، يصب فيه ميزابان من الجنة ، أحدهما من ذهب ، والآخر من فضة ، عرضه مثل طوله ، كما بين صنعاء والمدينة.^٧

قلت: وما أشد حاجة الناس للشرب منه في ذلك اليوم الشديد الحر ، الطويل الوقوف ، فمن أراد أن يشرب من حوض النبي ﷺ يوم القيمة فليُثِكِّر الشرب من شريعته في الدنيا.

وحوض النبي ﷺ موجود الآن ، كما قال النبي ﷺ: وإنما والله لأنظر إلى حوضي الآن.^٨
ولكل نبي حوض^٩ ، وهذا من حكمته تعالى ورحمته بعباده ، ليشرب المؤمنون المتبعون للأنبياء السابقين.

^١ رواه الترمذى (١٣٠٦) ، وصححه الألبانى.

^٢ «العلو» (١٩١).

^٣ انظر « صحيح مسلم » (٢٣٠٢).

^٤ الميزاب ويسمى أيضاً بالمرزاب ، وهو المجرى الذي يُعد ليسيل منه الماء من موضع عال ، كسطح البيت وميزاب الكعبة. انظر « تاج العروس ».

^٥ قال النووي رحمه الله في شرح حديث مسلم (١٨٣): أما النهر ففيه لغتان معروفتان ، ففتح الماء وإسكانها ، والفتح أجود ، وبه جاء القرآن العزيز.

^٦ انظر الأخبار الواردة في الحوض في « صحيح البخاري » ، كتاب الرقاق ، باب في الحوض ، وكذلك « صحيح مسلم » ، كتاب الفضائل ، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته.

^٧ رواه البخاري (٦٥٩٠) ومسلم (٢٢٩٦) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

^٨ رواه الترمذى (٢٤٤٣) عن سمرة رضي الله عنه ، وصححه الألبانى كما في « الصحيححة » (١٥٨٩).

٤. وما يكون في أرض المبشر الشفاعة العظمى ، حيث إن الناس يوم القيمة يطول بهم الموقف ، مؤمنهم وكافرهم ، فيذهبون إلى الأنبياء ليشفعوا لهم عند رحمة الله لبدء الحساب ، ليرى كل سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، فيعتذر عنها الأنبياء الخمسة ، آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، ثم يحييهم عيسى عليه السلام إلى محمد عليه السلام ، فيذهبون إليه فيقول: (أنا لها) ، فيسجد تحت العرش ما شاء الله أن يسجد ، ثم يفتح الله عليه من مسامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله ، ثم يُقال له: (ارفع محمد ، وقل يسمع ، واسمع شَفَعَ ، وسل ثُعْطَ) ، فيشفع لأهل الموقف عند الله لبدء الحساب فيقبل الله شفاعته ، فيبدأ الحساب وفصل القضاء بين العباد كلهم ، مؤمنهم وكافرهم ، من لدن آدم إلى قيام الساعة.^١

وهذه الشفاعة خاصة بالنبي عليه السلام ، فعن جابر رضي الله عنهما أن النبي عليه السلام قال: أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي ؛ نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ ، وأحلَّت لي الغائم ولم تحلُّ لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عاملاً.^٢

وهذه الشفاعة هي المقام المحمود الوارد ذكره في قوله تعالى ﴿عَسَى أَن يَعْثُكْ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾^٣ ، وهو المقام الذي يحمده فيه الأولون والآخرون يوم القيمة ، ويغبطونه عليه ، إذ تكون له الملة على جميع الخلق في بدء الحساب ، مؤمنهم وكافرهم ، إنسهم وجنهم.

وقد حث النبي عليه السلام على الدعاء له بنوال هذا المقام المحمود ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، أن رسول الله عليه السلام قال: من قال حين يسمع النداء: (اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاحة القائمة ، آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته) ؛ حلَّت له شفاعتي يوم القيمة.^٤ ولِيَظْمَ شَأْنَ هَذِهِ الشفاعة ؛ سماها أهل العلم بالشفاعة العظمى ، وهي أول الشفاعات التي تكون يوم القيمة.

^١ أحاديث الشفاعة متواترة ، وردت عن جمٍع من الصحابة في الصحيحين وغيرهما ، انظر « صحيح البخاري » (٤٤٧٦ ، ٤٧١٢ ، ٦٥٦٥ ، ٧٤١٠ ، ٧٤٣٩ ، ٧٤٤٠ ، ٧٥١٠) ، و « صحيح مسلم » (١٩٥ - ١٩٣) عن أنس وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وحذيفة ، رضي الله عنهم.

^٢ رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) ، والله للفظ للبخاري.

^٣ سورة الإسراء: ٧٩ .

^٤ رواه البخاري (٦١٤).

وللنبي ﷺ شفاعات أخرى خاصة به وبعضها مشتركة مع غيره ، وسيأتي الكلام عليها بعد الكلام على دخول أهل الكبار من المؤمنين للنار مراعاة للترتيب الزمني ، لأن تلك الشفاعات تكون بعد دخول الناس الجنة والنار.

وهنا انتهى الكلام عما يكون في موقف الحشر.

الخامس مما يدخل في الإيمان باليوم الآخر ؛ الحساب والجزاء ، والدليل على ثبوتما قول الله تعالى

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ﴾^١ ، قوله تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحُسْنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالًا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيْئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^٢ ، قوله تعالى ﴿وَنَصَّعَ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِتْقَالٌ حَبَّةٌ مِّنْ حَرْدَلٍ أَتَيْنَا هُنَّا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾^٣.

والحساب والجزاء هو مقتضى الحكمة ، فإن الله تعالىأنزل الكتب وأرسل الرسل ، وفرض على العباد قبول ما جاؤوا به ، والعمل بما يجب العمل به ، وأوجب قتال المعارضين له ، وأحل دماءهم وذرياتهم ونساءهم وأموالهم ، فلو لم يكن حساب ولا جزاء لكان هذا التشريع من العبث الذي ينكره رب الحكيم عنه.

والحساب حسابان ؛ حساب عرض وحساب مناقشة وعدايب ، يدل لهذا قول النبي ﷺ : ليس أحد يحاسب يوم القيمة إلا هلك.

فقالت عائشة: يا رسول الله ، أليس قد قال الله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسُوفَ يَحْسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾^٤؟

فقال رسول الله ﷺ : إنما ذلك العرض ، وليس أحد يُناقشه يوم القيمة إلا عذب.^٥
وقد جاء ذكر حال الصّفين في حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال: إن الله يُدْنِي المؤمن فيضع عليه كَنَفَهٖ وَيَسْتُرُه ، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟
فيقول: (نعم أي رب) ، حتى إذا قرر بذنبه ، ورأى في نفسه أنه هلك قال: (سترها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم) ، فيعطي كتاب حسناته.

^١ سورة الغاشية: ٢٥ - ٢٦ .

^٢ سورة الأنعام: ١٦٠ .

^٣ سورة الأنبياء: ٤٧ .

^٤ سورة الانشقاق: ٧ .

^٥ رواه البخاري (٦٥٣٧) ومسلم (٢٨٧٦) عن عائشة رضي الله عنها.

^٦ كَنَفَهٖ أي سترة ، وقيل رحمته ولطفه. انظر «النهاية».

وفي ذلك اليوم توزن أعمال الناس بموازين لإظهار عدل الله في الناس ، قال تعالى ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيمة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾^١.

فإن قيل: كيف توزن الحسنات والسيئات مع كونها أمور معنوية؟

فالجواب أن الأعمال تقلب أجساماً حسية بقدرة الله ، وهكذا غير الأعمال ، فالموت مثلاً أمر معنوي لا حسي ، وفي يوم القيمة يؤتى به على هيئة كبش فيذبح بين الجنة والنار ، ثم ينادي: (يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار ، خلود فلا موت) ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح^٢ ، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة ، فيشربُون^٣ وينظرون ، فيقول: هل تعرفون هذا؟

فيقولون: (نعم ، هذا الموت) ، وكلهم قد رأه ، ثم ينادي: (يا أهل النار) ، فيشربُون وينظرون ، فيقول: هل تعرفون هذا؟

فيقولون: (نعم ، هذا الموت) ، وكلُّهم قد رأه ، فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة ، خلود فلا موت ، ويا أهل النار ، خلود فلا موت.

ثمقرأ ﴿ وأندرهم يوم الحسرة إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غُفَلَةٍ ٤٧ ، وَهُؤُلَاءِ فِي غُفَلَةٍ ٤٨ ، أَهْلُ الدُّنْيَا ، ٤٩ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٥٠﴾.

فإن قيل: هل توزن أعمال المؤمنين والكافرين جميعاً ، أم المؤمنين فقط؟
 فالجواب: الذي يوزن في الآخرة هو أعمال المؤمنين ، فإن لم تكن على المؤمن معااصي دخل الجنة ابتداءً ، وأما إن كان عليه معااصي عذب بها يدخله الله الجنة ، أو يغفر الله له ابتداءً فيدخل الجنة بلا عذاب ، إما بشفاعة الشفعاء أو بِمَنْ الله عليه.

أما الكافر فلا توزن أعماله ، لأن الله تعالى يجازيه بما في الدنيا بالصحة وسعة الرزق ونحو ذلك^٦ ، فإذا لقي الله في الآخرة فإنه ليس له إلا النار ولو عمل من الخير ما عمل ، قال تعالى ﴿أولئك الذين ليس لهم

^١ سورة الأنبياء: ٤٧ .

^٢ الكبش الأملح هو الذي يباشه أكثر من سواده. انظر «النهاية».

^٣ أي يرفعون رؤوسهم لينظروا إليه. انظر «النهاية».

^٤ سورة مرمر: ٣٩ .

^٥ رواه البخاري (٤٧٣٠) ومسلم (٢٨٤٩).

^٦ انظر مزيد كلام على مجازة الكافر بحسباته للشنيطي رحمه الله في «دفع إبهام الاضطراب عن آيات الكتاب» عند الكلام على قوله تعالى في سورة هود ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِيَّنَهَا نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يَخْسِنُون﴾ وكذا عند كلامه على قوله تعالى في سورة الزينة ﴿مَنْ يَعْمَلْ مَثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يُرَهِْ * وَمَنْ يَعْمَلْ مَثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًا يُرَهِْ﴾.

في الآخرة إلا النار وحيط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون^١ ، وقال تعالى ﴿وَقَدْمَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَا هَبَاءً مُنْثَرًا﴾^٢ ، قوله تعالى ﴿مِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ كَرْمَادٌ اشْتَدَتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مَا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾^٣ وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسْرَابٌ بِقِيَعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمَآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾^٤ .

فالحاصل أن الكفار والمنافقون لا يحاسبون حساب موازنة بين الحسنات والسيئات ، بل يحاسبون حساب تقرير وتقرير كما تقدم في حديث ابن عمر ، فـ﴿يُقَرَّرُونَ بِهَا وَيُظْلَعُونَ عَلَيْهَا ، فَإِذَا أَنْكَرُوا شَهِيدَتْ عَلَيْهِمْ أَعْضَاؤُهُمْ ، ثُمَّ يَنَادِي بِهِمْ عَلَى رُؤُسِ الْخَلَاقِ﴾^٥ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين^٦ ، ثم يُرْجَعُونَ في النار عياذا بالله . وفي هذا تنبيه على ستر الله للمؤمن وفضحه للكافر .

والناس إذا دُعوا إلى حسابهم جثوا على ركبهم مما أصابهم من الهم ، قال تعالى في سورة الجاثية ﴿وَتَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَاهِيَّةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تَجْزَوُنَ مَا كَنْتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يُنْطَقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كَنَا نَسْتَنْسَخُ مَا كَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^٧ .

فإن قيل: وما الجمع بين ما ورد من سؤال الله الناس يوم القيمة عن ذنوبهم وبين قوله تعالى ﴿فِيهِمْ مَذَلَّةٌ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾؟

فالجواب أن السؤال المنفي في هذه الآية هو سؤال الاستعلام والاستخبار لأن الله أعلم بذنوب الناس منهم .

وأما السؤال المثبت في النصوص الأخرى فهو إما للتوبية والتقرير كما في قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرُهُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ، وإما لإظهار ستره وفضله على المؤمن كما في حديث ابن عمر المتقدم^٨ .

^١ سورة هود: ١٦ .

^٢ سورة الفرقان: ٢٣ .

^٣ سورة إبراهيم: ١٨ .

^٤ سورة النور: ٣٩ .

^٥ رواه البخاري (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

^٦ سورة الجاثية: ٢٨ - ٢٩ .

^٧ انظر «أضواء البيان» للشنقيطي رحمه الله عند تفسير قوله تعالى من سورة الرحمن ﴿فِيهِمْ مَذَلَّةٌ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾ ، وتفسير قوله تعالى من سورة الأعراف ﴿فَلَنْسَأْلَنَّ الَّذِينَ أُرْسَلَ إِلَيْهِمْ وَلَنْسَأْلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ ، وانظر أيضاً ما قاله في «دفع إبهام الاضطراب عن آيات الكتاب» عند الكلام على الآية نفسها من سورة الأعراف .

فصل

وأول ما يحاسب عليه العبد من أعماله صلاة ، فإن صلحت صلح سائر عمله ، وإن فسدت فسد سائر عمله.^١

وأول ما يحاسب عليه العبد فيما يتعلق بحقوق الآدميين الدماء ، لقول النبي ﷺ : أول ما يقضى بين الناس يوم القيمة في الدماء.^٢

وفي ذلك اليوم تشهد أعضاء الإنسان عليه إذا أنكر ما عمله من السيئات ، فيشهد عليه سمعه وبصره وجملده ، قال تعالى ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهَدُوا عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَقَالُوا جُلُودُهُمْ لَمْ شَهَدُوكُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلْقُكُمْ أُولَى مَرَةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^٣.

وقال الحسن البصري في قول الله تعالى ﴿كَفِي بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حُسْنِكَ﴾^٤ : يا ابن آدم ، أَنْصَافَكَ مِنْ خَلْقِكَ ، جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ.^٥

قال ابن كثير في تفسيره: هذا من حُسن كلام الحسن رحمه الله. وروى ابن حجر الطبراني في «تفسيره» عن قتادة في قول الله تعالى ﴿كَفِي بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حُسْنِكَ﴾: سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئاً في الدنيا.

وفي ذلك اليوم يُستثنى من الحساب سبعون ألفاً ، لا حساب عليهم ولا عذاب - جعلنا الله منهم - وهم المؤمنون الْكُمَلُ ، الذين قاموا بما أوجب الله عليهم من الطاعات ، وسارعوا في الخيرات ، وتركوا المحرمات والمحظيات ، وقد جاء ذكرهم وصفتهم في حديث ابن عباس رضي الله عنهما المخرج في الصحيحين.^٦

^١ رواه الطبراني في الأوسط (١٨٨٠) ، (الناشر: دار الحديث - القاهرة) ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وصححه الألباني كما في «الصحيحة» (١٣٥٨).

^٢ رواه البخاري (٦٥٣٣) ومسلم (١٦٧٨) عن ابن عمر رضي الله عنه.

^٣ سورة فصلت: ١٩ - ٢١.

^٤ انظر صحيح مسلم (٢٩٦٨).

^٥ سورة الإسراء: ١٤.

^٦ رواه ابن المبارك في «الزهد» (١٥٦٣).

^٧ انظر صحيح البخاري (٦٥٤١) ، ومسلم (٢٢٠) والترمذني (٢٤٤٦) وأحمد (٢٧١/١).

وقد جاء في حديث آخر ما يدل على أن المشمولين بهذا الفضل أكثر من هذا العدد ، فعن أبي أمامة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: وعديني ربِّي أن يُدخلَ الجنة من أمتي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب ، مع كل ألف سبعون ألفا ، وثلاث حثيات من حثياته.^١

اللهم اجعلنا منهم ، آمين.

والحساب يشمل الجن والإنس ، فإن الجن داخلون في عموم الرسالة كما هو معلوم ، وهم مكفلون ، قال تعالى ﴿قَالَ ادْخُلُوهُ فِي أُمَّمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾^٢ ، وقال في حور الجنة ﴿لَمْ يَطْمَثُهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾^٣ ، فدللت الآية على أن في الجنة جنًا ، دخلوها كما دخلها الإنس لما استجابوا لرسلهم.

وفي ذلك اليوم يقتصر الله من البهائم بعضها البعض ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: لتوَّدَنَّ الْحَقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاهَةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاهِ الْقَرْنَاءِ.^٤

أي يقتصر للشاهة التي لا قرون لها من ذات القرون التي نطحتها ، فسبحان من أبهى بعله وحكمته العقول.

وهنا انتهى الكلام على موقف الحساب والجزاء.

السادس مما يدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالجنة والنار ، وأنهما المآل الأبدى للخلق ، فالجنة دار النعيم التي أعدها الله تعالى للمؤمنين المتقيين ، الذين آمنوا بما أوجب الله عليهم الإيمان به ، وقاموا بطاعة الله ورسوله ، مخلصين الله متبعين لرسوله ، فيها من أنواع النعيم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطَّر على قلب بشر ، قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُحْسُنُونَ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَاحُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾^٥ ، وقال تعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أَخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرْبَةٍ أَعْيُنٍ جَزَاءٌ إِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^٦.

^١ آخرجه الترمذى وللفظ له (٢٤٣٧) ، وابن ماجه (٤٢٨٦) وأحمد (٢٥٠/٥) وابن أبي عاصم في السنة (٥٨٩) والطبراني في «الكبير» (٢٥٢٠) ، ٧٦٦٥ ، ٧٦٧٢) عن أبي أمامة رضي الله عنه ، وصحح إسناده الألبانى رحمه الله كما في «الصحيحة» (١٩٠٩).

^٢ سورة الأعراف: ٣٨ .

^٣ سورة الرحمن: ٧٤ .

^٤ يُقاد للشاهة أي يقتصر لها. انظر «النهاية».

^٥ رواه مسلم (٢٥٨٢).

^٦ سورة البينة: ٧ - ٨ .

^٧ سورة السجدة: ١٧ .

والجنة مئة درجة ، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: الجنـة مـئة درـجة ، ما بـين كـل درـجـتين مـسـيـرة مـئـة عـام ، وقـال عـفـان^١: كـما بـين السـمـاء إـلـى الـأـرـض - ، وـالـفـرـدـوـسـ أـعـلاـهـ دـرـجـةـ ، وـمـنـهـ تـخـرـجـ الـأـنـهـارـ الـأـرـبـعـةـ^٢ ، وـالـعـرـشـ مـنـ فـوـقـهـاـ ، وـإـذـ سـأـلـتـمـ اللـهـ فـاسـأـلـهـ الـفـرـدـوـسـ.^٣

وـأـمـاـ النـارـ فـهـيـ دـارـ الـعـذـابـ الـتـيـ أـعـدـهـ اللـهـ تـعـالـىـ لـصـنـفـيـنـ مـنـ النـاسـ ؟ـ عـصـاهـ الـمـؤـمـنـيـنـ ،ـ وـالـكـافـرـيـنـ ،ـ فـيـهـاـ مـنـ أـنـوـاعـ الـعـذـابـ وـالـنـكـالـ ماـ لـاـ يـخـطـرـ عـلـىـ الـبـالـ ،ـ قـالـ اللـهـ تـعـالـىـ ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغْشِيُوا بِمَاءً كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ يُسْسِي الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَعَاهُ﴾^٤ ،ـ وـقـالـ تـعـالـىـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعْنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَوْمَ ثُقُلُّ بُوْجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولًا﴾^٥.

فـالـكـافـرـوـنـ يـقـوـنـ فـيـ النـارـ إـلـىـ أـبـدـ ،ـ وـأـمـاـ عـصـاهـ الـمـؤـمـنـيـنـ فـيـعـذـبـوـنـ فـيـهـاـ إـلـىـ أـمـدـ ،ـ يـعـذـبـوـنـ فـيـهـاـ بـقـدـرـ ذـنـبـهـ الـتـيـ وـقـعـواـ فـيـهـاـ ،ـ كـخـطـاـيـاـ الـلـسـانـ ،ـ أـوـ فـرـجـ ،ـ أـوـ قـطـيـعـةـ الـرـحـمـ ،ـ أـوـ السـمـاعـ الـمـحـرـمـ ،ـ أـوـ النـظـرـ الـحـرـمـ ،ـ أـوـ أـكـلـ مـالـ مـحـرـمـ وـنـحـوـ ذـلـكـ ،ـ غـيـرـ أـنـ النـارـ لـاـ تـمـسـ أـعـضـاءـ السـجـودـ ،ـ وـفـيـ هـذـاـ تـشـرـيفـ لـعـبـادـةـ الـصـلـاـةـ ،ـ فـمـنـهـمـ يـعـذـبـ فـيـ النـارـ إـلـىـ قـدـمـهـ ،ـ وـمـنـهـمـ يـغـيـبـ إـلـىـ أـنـصـافـ سـاقـيـهـ ،ـ فـإـذـاـ تـمـ اـسـتـحـقـاقـهـمـ فـيـ النـارـ فـإـنـهـمـ يـخـرـجـوـنـ مـنـهـاـ وـقـدـ اـمـتـحـشـوـاـ ،ـ فـيـلـقـوـنـ فـيـ نـهـرـ بـأـفـوـاهـ الـجـنـةـ^٦ يـقـالـ لـهـ مـاءـ الـحـيـاةـ ،ـ فـيـنـبـتـوـنـ كـمـاـ تـبـتـُ الـحـيـةـ^٧ فـيـ حـمـيلـ السـيـلـ ،ـ أـيـ جـانـبـهـ.^٨
فـإـذـاـ طـهـرـ عـصـاهـ الـمـؤـمـنـيـنـ مـنـ ذـنـبـهـمـ أـخـرـجـوـنـ إـلـىـ الـجـنـةـ.

^١ عـفـانـ هوـ أـحـدـ روـاهـ الحـدـيـثـ.

^٢ أـنـهـارـ الـجـنـةـ أـرـبـعـةـ أـنـجـانـسـ:ـ الـمـاءـ وـالـلـبـنـ وـالـخـمـرـ وـالـعـسـلـ ،ـ وـقـدـ جـاءـ ذـكـرـهـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ فـيـ سـوـرـةـ مـحـمـدـ (ـمـثـلـ الـجـنـةـ الـتـيـ وـعـدـ الـمـتـقـونـ فـيـهـاـ أـنـهـارـ مـنـ مـاءـ غـيـرـ آـسـنـ وـأـنـهـارـ مـنـ لـبـنـ لـمـ يـتـغـيـرـ طـعـمـهـ وـأـنـهـارـ مـنـ خـمـرـ لـذـذـهـ لـلـشـارـبـينـ وـأـنـهـارـ مـنـ عـسـلـ مـصـفـيـ).

^٣ روـاهـ أـحـمـدـ (٣١٦/٥) ،ـ وـصـحـحـ إـسـنـادـهـ مـحـقـقـوـ (ـالـمـسـنـدـ).

^٤ سـوـرـةـ الـكـهـفـ:ـ ٢٩ـ ،ـ وـلـلـفـائـدـةـ فـمـعـنـيـ سـرـادـقـهـاـ أـيـ جـارـهـاـ ،ـ وـقـيـلـ غـيـرـ ذـلـكـ.ـ اـنـظـرـ مـعـنـيـ الـآـيـةـ فـيـ (ـتـفـسـيرـ الطـبـرـيـ).

^٥ سـوـرـةـ الـأـحـزـابـ:ـ ٦٤ـ - ٦٦ـ .

^٦ أـيـ اـحـترـقـواـ ،ـ وـالـمـحـشـ اـحـترـاقـ الـجـلدـ وـظـهـورـ الـعـظـمـ.ـ اـنـظـرـ (ـالـنـهـاـيـةـ).

^٧ أـفـوـاهـ جـمـعـ فـوـهـةـ ،ـ أـفـوـاهـ الـجـنـةـ أـيـ أـوـاـلـهـاـ.ـ قـالـهـ النـوـوـيـ رـحـمـهـ اللـهـ فـيـ شـرـحـ حـدـيـثـ مـسـلـمـ (١٨٣).

^٨ الـحـيـةـ - بـكـسـرـ الـحـاءـ - بـنـزـورـ الـبـقـولـ وـحـبـ الـرـيـاحـينـ ،ـ بـخـلـافـ الـحـيـةـ - بـفـتـحـ الـحـاءـ - فـهـيـ الـحـنـطةـ وـالـشـعـيرـ وـنـحـوـهـاـ.ـ اـنـظـرـ (ـالـنـهـاـيـةـ).

^٩ اـنـظـرـ (ـصـحـيـحـ الـبـخـارـيـ)ـ (١٨٢)ـ وـمـسـلـمـ (٧٤٣٩ـ ،ـ ٧٤٣٧ـ)ـ عـنـ أـبـيـ هـرـيـةـ رـضـيـهـ اللـهـ عـنـهـ.

فصل في صفة النار

وَجَهَنَّمْ عَظِيمَةُ الْبَنْيَانِ ، فَظِيَّعَةُ الْمَذَرِ ، شَدِيدَةُ الْحَرِ ، فَأَمَا عِظَمُ بَنِيَّاهَا فَمُسْتَفَادٌ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْعُودَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : يُؤْتَى بِجَهَنَّمْ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِيَامٍ^١ ، مَعَ كُلِّ زِيَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَحْرُوْنَهَا.^٢

وَأَمَّا فَضَاعَةُ مَنْظَرِهَا فَمُعْلَمٌ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿إِنَّمَا لَتَرَمِي بِشَرِّ الْقَصْرِ﴾ ، فَشَرَارُ النَّارِ فِي حَجْمِهِ كَالْقَصْرِ ، جَمْعُ قَصَرَةٍ ، وَهِيَ أَصْلُ الشَّجَرَةِ^٣ ، فَشَرَارةُ النَّارِ الْمُتَطَايِّرَةُ مِنْهَا كَحَجْمِ الْوَاحِدَةِ مِنْ أَصْوَلِ الشَّجَرِ ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهَا.

وَأَمَّا شَدَّةُ حَرَّهَا فَأَخْبَرَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: نَارُكُمْ جَزءٌ مِنْ سَبْعِينَ جَزِئًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمِ .
قَيْلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّكَ أَنْتَ لِكَافِيَةٍ.

قَالَ: فُضِّلْتَ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةِ وَسْتِينَ جَزِئًا كَلِمَهُنَّ مِثْلُ حَرَّهَا.^٤

وَلِجَهَنَّمْ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ، يَدْخُلُ مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنْ كُلِّ الْأَبْوَابِ نَصِيبٌ مَقْسُومٌ مَعْلُومٌ مِنَ النَّاسِ ، قَالَ تَعَالَى ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لِمَوْعِدِهِمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جَزءٌ مَقْسُومٌ﴾^٥.

فصل

وَطَعَامُ أَهْلِ النَّارِ يُخْتَلِفُ بِحَسْبِهِمْ ، إِذَا هُلِّ النَّارِ يَتَفَاقَّوْنَ عَذَابَهُمْ فِيهَا بِحَسْبِ سَيِّئَاتِهِمْ كَمًا وَكَيْفًا ، فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ مِنْ طَعَامِهِ الْغَسَلِينَ ، قَالَ تَعَالَى ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ﴾^٦ ، وَالْغَسَلِينَ هُوَ مَا يَسِيلُ مِنْ صَدِيدِ أَهْلِ النَّارِ مِنْ عُسَالَةِ الْقَرْوَحِ .

وَمِنْهُمْ مِنْ طَعَامِهِ الْضَّرِيعَ ، وَهُوَ نَبَاتُ الشَّبَرِقِ الْيَابِسِ ، قَالَ تَعَالَى ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾^٧.

وَمِنْهُمْ مِنْ طَعَامِهِ الرَّقْوَمِ ، قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ شَحْرَةَ الرَّقْوَمِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَلَّمَهُلٌ يَغْلِي فِي الْبَطُونِ * كَعْلَيِ الْحَمِيمِ﴾^٨.

^١ الزِّيَامُ هُوَ الْحِبْلُ الَّذِي تُرْبِطُ فِيهِ النَّاقَةُ وَنَخْوَهَا مَا يُقَادُ . انْظُرْ «لِسَانَ الْعَرَبِ» .

^٢ انْظُرْ «صَحِيحَ مُسْلِمَ» (٢٨٤٢) .

^٣ انْظُرْ تَفْسِيرَ الْآيَةِ عِنْدَ ابْنِ جَرِيرِ الطِّبَّارِيِّ فِي «تَفْسِيرِهِ» .

^٤ رَوَاهُ الْبَخَارِيُّ (٣٢٦٥) وَمُسْلِمَ (٢٨٤٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَاللَّفْظُ لِلْبَخَارِيِّ .

^٥ سُورَةُ الْحَجْرِ: ٤٣ - ٤٤ .

^٦ سُورَةُ الْحَاجَةِ: ٣٦ .

^٧ سُورَةُ الْغَاشِيَةِ: ٦ .

^٨ سُورَةُ الدَّخْنَ: ٤٣ - ٤٦ .

والزقوم شجرة تخرج في أصل الجحيم ، كريهة المأكل ، قال تعالى ﴿أَذْلَكَ خَيْرُ نَزْلَةٍ أَمْ شَجَرَةُ
الزقْرُمُ * إِنَا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رَؤُوسُ الشَّيَاطِينَ *
فَإِنَّهُمْ لَا يَكْلُونَ مِنْهَا فَمَا تَلَوُنَ مِنْهَا بِطَطُونٍ﴾^٢.

وأما شراب أهل النار فإنهم يُسقون من الحميم - وهو الماء الحار - ويُصبُّ عليهم منه من فوق رؤوسهم ،
فيُعذبون به من خارج أجسامهم وفي داخل أجوفهم ، فتنصره حلودهم وتقطع أمعاؤهم ، قال تعالى
﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَطَعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَارٍ يُصْبَّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بَطْوَنِهِمْ
وَالْحَلُودُ﴾^٣ ، وقال تعالى ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾^٤.

وهناك أنواع أخرى من الأشربة يُسقى بها أهل النار ، قد أشار الله تعالى إليها في قوله ﴿هَذَا فِلِينْدُوقُوهُ حَمِيمٌ
وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾^٥ ، والغساق هو ما يقطُرُ من جلود أهل النار ، ذكره الراغب
الأصفهاني في كتابه «مفردات ألفاظ القرآن».

وأشد الناس عذابا يوم القيمة ثلاثة أصناف ؛ آل فرعون ، وهم فرعون وأتباعه ، ومن كفر من أصحاب
المائدة ، والمنافقون ، والدليل على ما تقدم قول الحق تبارك وتعالى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فَرْعَوْنَ
أَشَدَ العَذَابِ﴾^٦ ، وقوله تعالى عن أصحاب المائدة ﴿فَمَنْ يَكْفُرُ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعْذِبُهُ عَذَابًا لَا أَعْذِبُهُ
أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾^٧ ، وقوله تعالى عن المنافقين ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ أَعْسَلُ مِنَ النَّارِ﴾^٨.

فصل

والناس كلهم يردون النار أي يُمْرُّون عليها ، مؤمنهم وكافرهم ، كما قال تعالى ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارْدَهَا
كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتَّمًا مَقْضِيًّا﴾^٩ ، ولكن من أراد الله نجاته من المؤمنين فإن النار لا تمُسه ، بل يمر من
فوتها على الصراط ولا تمُسه بسوء ، أما من أراد الله عذابه من المؤمنين والكافرین فإن الكلاليب المعلقة
بالصراط تخطِّفه وتُلْقِيه في النار ، فأما المؤمنين فيُعذبون فيها بقدر معاصيهم ثم يخرجون إلى الجنة ، وأما

^١ انظر «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» ، سورة الحاقة ، قوله تعالى ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلٍ﴾.

^٢ سورة الصافات: ٦٢ - ٦٦.

^٣ سورة الحج: ١٩.

^٤ سورة محمد: ١٥.

^٥ سورة ص: ٥٧ - ٥٨.

^٦ سورة غافر: ٤٦.

^٧ سورة المائدة: ١١٥.

^٨ سورة النساء: ١٤٥.

^٩ سورة مرثيم: ٧١.

الكافرين فيبكون فيها أبد الآباد ، وهذا هو معنى قوله تعالى في الآية بعدها ﴿ثُمَّ ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جحشا﴾^١.

ومعنى الجحش في الآية هو البروك على الركب ، وهو شر الجلوس ، لا يجلس الرجل جاثيا إلا إذا نزل به كرب.^٢

وأهل النار يُساقون إليها عطاشا كما قال تعالى ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا﴾^٣ ، أي عطاشا ، فإن أصل الورد هو الاتيان إلى الماء ، ولما كان الاتيان إلى الماء لا يكون إلا من عطشٍ أطلق اسم الورد على الجماعة العطاش ، قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية.

وفي ذلك اليوم يكون لأهل النار علاماتٌ تعرفهم بها ملائكة النار ، فإذا عرفتهم أمسكُتهم بنواصيهم – والناصية هي مقدام شعر الرأس – وأقدمهم ، ثم تقدفهم في النار بقوة وعنف عيادة بالله ، قال تعالى ﴿يُعرفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِيِّ وَالْأَقْدَامِ﴾^٤ ، وقال تعالى ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَّا﴾^٥ ، ومعنى يُدعون أي يدفعون فيها بقوة وعنف.

فإن قيل: وما تلك العلامات التي يُعرف بها أهل النار؟

فالجواب أن الله تعالى قد بين في كتابه علاماتِهم المميزة لهم وهي سواد الوجوه وزرقة العيون كما في قوله ﴿يَوْمَ تُبَيِّضُ وُجُوهٌ وَتُسُودُ وُجُوهٌ﴾^٦ ، وقال تعالى ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تُرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مَسُودَةٌ﴾^٧ ، وقال تعالى ﴿كَأَنَّمَا أَغْشَيْتُ وُجُوهَهُمْ قطعاً مِنَ اللَّيلِ مَظْلَمًا﴾^٨ ، وقال تعالى ﴿وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ يُوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبْرَةٌ تَرْهَقُهَا قَرْتَةٌ * أَوْلَئِكَ هُمُ الْكُفَّارُ الْفَاجِرُونَ﴾^٩ ، والقرفة هي السواد. وأما زرقة العيون فمذكورة في قوله تعالى ﴿وَنَخْسِرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾^{١٠}.

^١ سورة مرثيم: ٧٢ .

^٢ انظر للفائدة ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية المتقدمة من سورة مرثيم.

^٣ انظر تفسير ابن حجر للآية الكريمة.

^٤ سورة مرثيم: ٨٦ .

^٥ سورة الرحمن: ٤١ .

^٦ سورة الصور: ١٣ .

^٧ سورة آل عمران: ١٠٦ .

^٨ سورة الزمر: ٦٠ .

^٩ سورة يونس: ٢٧ .

^{١٠} سورة عبس: ٤٠ - ٤٢ .

^{١١} سورة طه: ١٠٢ .

أقول: وهذا بخلاف وجوه أهل الإيمان ، فإن وجوههم بيضاء وضيئه ، كما قال تعالى ﴿يَوْمَ تُبَيِّضُ وجوهٗ وَتُسُودُ وجوهٗ﴾ ، ثم قال بعدها ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضُوا وجوهَهُمْ فَقِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .
وقال تعالى ﴿وَجِهُهُ يَوْمَئِذٍ نَاضِرٌ﴾^١ ، أي حسنة مشرقة.^٢

وأهل النار يُسحبون فيها على وجوههم كما في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وجوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾^٣ .

وأهل النار يُلبسون ثيابا من نار كما في الآية المتقدمة ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعُتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾^٤ ، ويُلبسون أيضاً أقصصاً من نحاس ملتهب بالنار كما في قوله ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ﴾^٥ ، والسرابيل هي القُمُص ، جمع قميص ، والقطران هو النحاس المذاب بالنار.

وأهل النار يُضربون فيها بمطارق من حديد كما قال تعالى ﴿وَلَمْ يَمْقُطْ مَقْطَعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾^٦ ، والمقاطع في اللغة جمع مقمعة ، وهي حديدة كالمحجن يُضرب بها على رأس الفيل ، ومعناها في الآية مزية عظيمة من حديد – وتعرف في زماننا بالمطرقة – تُضرب بها حزنة النار أهلها عيادة بالله ، ذكره الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية.

والحكمة من عذاب الله لأهل النار من المؤمنين تطهيرهم من الذنوب ، ثم يؤويهم الله بعد ذلك لجنته ، إذ الجنة طيبة فلا يدخلها إلا نفس طيبة ، والذنوب بحسب ، فوجب التطهير منها أولاً ، وأما الكافر فإن الحكمة من عذاب الله له إهانته وخزيه ، ولا يترب على ذلك تمحيش ولا تطهير ، لأن التثبت متصل فيه لا يزول بالنار ، فيبقى فيها أبد الآباد عيادة بالله.^٧

^١ سورة القيامة: ٢٢ .

^٢ انظر «المعجم الوسيط».

^٣ سورة القمر: ٤٨ .

^٤ سورة الحج: ١٩ .

^٥ سورة إبراهيم: ٥٠ .

^٦ سورة الحج: ٢١ .

^٧ انظر «أضواء البيان» في الكلام على تفسير قوله تعالى في سورة الجاثية ﴿وَلَمْ يَعْذَبْ مَهِينٍ﴾ ، الآية: ٩ .
وانظر كذلك «دفع إيهام الاضطراب» في حاماتة كلامه على قول الله تعالى ﴿قَالَ النَّارُ مَثَواكُمْ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ ، الأنعام: ١٢٨ .

فصل

والنار أعادنا الله منها ثُبُر وَشَهْقَ وَتَزْفَر ، فأما الإِبصَار فورد في قوله تعالى ﴿إِذَا رأَتُمُوهُم مِّنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغْيِيزًا وَزَفِيرًا﴾^١ ، أي إذا رأى الناس النار الكفار وهم في الخضر سمعوا تغزيتها وهو صوت الغليان ، وسمعوا زفيرها وشهيقها ، وهما صوتان معلومان ، والله أعلم بكتابه ما .

والنار تضطرم وتخبو كما قال تعالى ﴿كَلَمَا خَبَتْ زَدَنَاهُمْ سَعِيرًا﴾^٢ .

والنار موعودة ملؤها كما قال تعالى ﴿وَلَكُنْ حَقُّ الْقَوْلِ مِنِ الْأَمْلَأِنَ جَهَنَّمُ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسُ أَجْمَعُونَ﴾^٣ .

فصل في صفة الجنة

الجنة جنان متعددة ، ليست نعيمًا متساويا ، بل النعيم فيها مُنْفَاقَةٌ ، وأهلها يتفرقون فيها بحسب أعمالهم الصالحة ، فجنتان جميع ما فيهما من ذهب ، وجنتان جميع ما فيهما من فضة ، كما قال تعالى في الجنتين الأوَّلَيْن ﴿وَلَمْنَ خَافِ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾^٤ ، ثم قال في الجنتين اللتين هما دونهما في النعيم ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾^٥ .

روى ابن حجر الطبرى بسنده عن ابن زيد في تفسير هاتين الآيتين ما محصله أن الجنتين الأوَّلَيْن للسابقين المقربين ، والجنتين الْآخِرَيْن للأبرار أصحاب اليمين .

وعن عبد الله بن قيس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: جنتان من فضة آنيتها وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتها وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى رحمة إلا رداء الكرباء على وجهه في جنة عدن.^٦

ويحسن هنا التبيه إلى الفرق بين السابقين والأبرار ، فالسابقون هم القائمون بالفرائض والنوابل المتهون عن المعاصي والمكرهات ، وأما الأبرار فهم القائمون بالفرائض المتهون عن المعاصي ، أما النوابل فلم يحرصوا عليها على الوجه الأكمل ، وربما وقعوا في بعض المكرهات ، وأما المعاصي فكلا الفريقين منكفٌ عنها سواء كانت من الصغار أو الكبار ، ولكن انكفاف السابقين عنها أعظم .

^١ سورة الفرقان: ١٢ .

^٢ سورة الإسراء: ٩٧ .

^٣ سورة السجدة: ١٣ .

^٤ سورة الرحمن: ٤٦ .

^٥ سورة الرحمن: ٦٢ .

^٦ رواه البخاري (٧٤٤٤) ومسلم (١٨٠).

وتفضيل السابقين على الأبرار في الثواب ظاهر سببه ، فإن السابقين قد بذلوا وسعهم في طاعة الله والحنر من معصية الله ، كما نفع الله بهم غيرهم من الناس ، من دعوة وأمر معروف ونهي عن منكر وجهاد وصدقه وإصلاح ذات البين وقيام ليل وبناء مساجد ونحو ذلك.

أما الأبرار فلم يبذلوا أنفسهم بذلا عظيما في هذين السبيلين ، إصلاح النفس وإصلاح الغير ، فكانوا أقل من السابقين في الثواب.

ومن دلائل تفضيل السابقين على الأبرار قوله تعالى عن السابقين ﴿يَحْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾^١ ،
وقال عن الأبرار ﴿وَحُلُونَ أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾^٢ .

وكذلك الأمر في الشراب ، فالسابقون – والموصوفون أيضا بالمقررين – يشرون من عين في الجنة تسمى «تسنيم» كما قال تعالى ﴿وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾^٣ عيناً يشرب بها المقربون^٤ ، فالمقربون يشرون من عين «تسنيم» ، وأما الأبرار الذين هم دون المقربين فينزلة فيمزج لهم في شرابهم من عين «تسنيم» ولا يشرون منها صرفا ، كما قال في الآيات قبلها ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾^٥ على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نمرة النعيم * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَّخْتُومٍ * ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون^٦ ، ثم قال بعدها وهو الشاهد ﴿وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾^٧ .

والأبرار يُخالط لهم شرابهم بالكافور أو الزنجبيل ، ودليل الكافور قوله تعالى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرِبُونَ مِنْ كَأسًا كَانَ مِزاجُهَا كَافُورًا﴾^٨ ، أي تمنج بالكافور فتطيب رائحتها ، ومنبع الكافور مذكور في الآية بعدها ﴿عِيْنَا يَشْرِبُونَ مِنْ كَأسًا كَانَ مِزاجُهَا كَافُورًا﴾^٩ ويسقطون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً * عيناً فيها تسمى سلسيلياً^{١٠} .

ودليل الزنجبيل قوله تعالى ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأسًا كَانَ مِزاجُهَا زَنْجِبِيلًا﴾^{١١} عيناً فيها تسمى سلسيلياً^{١٢} .

وتتأمل قوله ﴿مِزاجُهَا﴾^{١٣} ، ويقال فيه كما قيل في الكافور.

والأبرار – كما تقدم – ليسوا كالسابقين في الابتعاد عن المعاصي والمحظيات ، والإقبال على الفرائض والتوفيق ، ومن تأمل سيرة أئمة الإسلام في القديم والحديث علم أوصافهم استحقاقهم لتلك المنزلة بإذن الله.

^١ سورة الكهف: ٣١ .

^٢ سورة الإنسان: ٢١ .

^٣ سورة المطففين: ٢٧ .

^٤ انظر ما نقله ابن حجر في تفسيره عن أئمة التفسير في هذه الآية.

^٥ سورة الإنسان: ٥ .

^٦ سورة الإنسان: ١٧ .

وقد أشار الله تعالى إلى الفرق في النعيم بين السابقين المقربين وبين الأبرار أصحاب اليمين في مطلع سورة الواقعة وأخرها فليرجع إليها.

وأهل الجنة من أهل الوصف الواحد يتفاوتون فيما بينهم ، فالسابقون المقربون يتفاوتون بعضهم عن بعض في النعيم بحسب أعمالهم ، وكذلك الأبرار أصحاب اليمين ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الْدُّرِّي الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم.

قالوا: يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم.

قال بلى والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين.^١

ونعيم أهل الجنة يزداد ولا ييلى ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة ، فتهب ريح الشمال فتحتو في وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسناً وجمالاً ، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً ، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعذنا حسناً وجمالاً ، فيقولون: وأنتم والله ، لقد ازددتم بعذنا حسناً وجمالاً.

انتهى الكلام هنا على صفة الجنة والنار.

وللفائدة ، فمن أراد التوسع في معرفة الجنة وأوصافها وأوصاف أهلها فعليه بكتاب «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» لابن قيم الجوزية رحمه الله.

فصل في أن الجنة والنار مخلوقتان

والجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ، والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿وَسَارُوا إِلَى مَغْفِرَةِ مِنْ رِبِّكُمْ وَجْنَةٌ عَرَضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعْدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ، والشاهد قوله ﴿أَعْدَتْ﴾.

والدليل من السنة قول النبي ﷺ لبلال: حدثني بأرجح عمل عملته عندك في الإسلام منفعه ، فإني سمعت الليلة خَشْفَ^٢ نعليك بين يديك^٣ في الجنة.

^١ رواه البخاري (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١).

^٢ الخشف هو الحركة والصوت. انظر «المعجم الوسيط».

^٣ رواه مسلم (٢٤٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن الأدلة كذلك على أن الجنة مخلوقة الآن قوله ﷺ : أَدْخِلُتِ الْجَنَّةَ ، إِذَا فِيهَا جَنَابِدُ الْلَّؤْلُؤِ ، وَإِذَا ترَأَبَا الْمِسْكَ .^٢

أما الدليل على أن النار مخلوقة الآن فقوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعَدَّتْ لِلْكَافِرِ﴾^٣ ، والشاهد قوله ﴿أَعَدْتُ﴾ .^٤

ومن السنة أنه ﷺ رأى عمرو بن لحبي يجمر قصبه - أي أمعاءه - في النار ، وهو أول من غير دين إبراهيم ، وأتى بالأصنام إلى جزيرة العرب.^٥

ورأى امرأة تعذب في النار في هرة حبستها ، لا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض .^٦

فصل في أن الجنة والنار باقيتان

والجنة والنار باقيتان لا تَبِدان ولا تَفْنَيان ، والدليل على هذا ظاهر القرآن والسنة ، وقد ورد تأييد خلود المؤمنين في الجنة وخلود الكفار في النار في عدة مواضع من القرآن ، ومن قال بأنهما تفنيان فقوله ضعيف لا يُعَوِّل عليه ، لأنه خلاف ظاهر النصوص ، وقد خاطب الله الناس بما يفهمون ، فالواجب إ مرار النصوص كما جاءت بلا تحريف ولا تكليف .^٧

^١ الجنابذ هي القباب ، واحدتها جنبذة.

^٢ قطعة من حديث الإسراء الطويل الذي رواه مسلم (١٦٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

^٣ سورة آل عمران: ١٣١ .

^٤ انظر حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري (٣٥٢١) ومسلم (٢٨٥٦).

^٥ خشاش الأرض أي هوامها وحشراتها ، واحدتها خشاشة. انظر «النهاية» ، مادة خشاش.

^٦ انظر حديث ابن عمر الذي رواه البخاري (٢٣٦٥) ومسلم (٢٢٤٢).

^٧ انظر للاستزاده ما قاله الشنقيطي رحمه الله في «دفع الإيهام» (ص: ١٣٣) عند تفسير قوله تعالى ﴿قَالَ النَّارُ مَثَواكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ (الأنعام: ١٢٨).

وانظر كذلك ما قاله في الكتاب نفسه (ص: ٣٣٧) عند تفسير قوله تعالى من سورة النبأ ﴿لَا يُشَدِّنُ فِيهَا أَحْقَابًا﴾.

ذكر بعض مشاهد القيامة

هذا فصل مفيد في ذكر بعض مشاهد القيامة ، وتحرير الكلام في بعضها ، وهي كالتالي:

١. تطاير الصحفُ
٢. ضرب الصراط على متن جهنم ، وأصناف الناس أثناء مرورهم عليه
٣. وقوف أناس على قنطرة بين الجنة والنار
٤. كلام المشركين في مواطن من القيامة وختم الله على أفواههم في مواطن
٥. اعتذار الكفار إلى الله تعالى
٦. شفاعات النبي ﷺ للمؤمنين يوم القيمة
٧. شفاعات الشفعاء

تفصيل

١. تطاير الصحف

في ذلك اليوم تتطاير الصحفُ ، أي صحائف الأعمال ، فیأخذها الناس ، فمنهم من يأخذها باليمين وهم أهل الاستقامة ، ومنهم من يأخذها بالشمال وهم الكفار.

* وإنما من يأخذ كتابه وهو فرخ مستبشر ، قال تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاوْمَ اقْرَءُوا كِتَابَهِ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مَلَّاقٌ حِسَابَهِ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ في جنة عالية * قطوفها دانية * كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية^١.

وأما الكافر فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره ، فكما أنه جعل كتاب الله وراء ظهره ؛ فإنه يعطي كتابه من وراء ظهره ، جزاء وفاقا ، فيأخذه وهو حزين مستحسن ، قال تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشَمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِيَ كِتَابَهِ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابَهِ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةُ مَا أَغْنَى عَنِي مَالِيهِ﴾ هلك

^١ سورة الحاقة: ١٩ - ٢٤ .

عني سلطانيه^١ ، وقال تعالى ﴿وَمَا مِنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلِي سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَنَّ لَنْ يَحْجُرَ بَلِّي إِنْ رَبِّهِ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾^٢ .

فإن قيل: ماذا عن المسلم الفاسق مرتكب الكبائر ، الذي استحق دخول النار ، هل يأخذ كتابه بيديه أم بشماله؟

فالجواب أنه لم يرد فيه هذا دليل صريح ، والذي يظهر أنه إن كان مستحقاً لدخول النار فإنه يأخذ كتابه بشماله ، والله أعلم.^٣

^١ سورة الحاقة: ٢٥ - ٢٩.

^٢ سورة الإنشقاق: ١٥ - ١٠ . ومعنى يحجز أي ظن أن لن يرجع إلى الله ويعث ، لكونه لا يؤمن باليوم الآخر ، وانظر معنى الآية في «تفسير الطبرى».

^٣ أفادى بهذه الفائدة الشيخ محمد بن علي آدم الأثيوبي حفظه الله.

٢٤. ضرب الصراط على متن جهنم ، وأصناف الناس أثناء مرورهم عليه

وفي ذلك اليوم يُضربُ الصِّراطُ على متنِ جهنم أي ظهيرٍها ، ثم يَمْرُّ عليه الناس ، وهو مَدْحَضَةٌ مَزَّلَةٌ ،
أي تزلق عليه الأقدام ولا تشتت^١ ، عليه خطاief^٢ وكالالib^٣ ، وحسَّكةٌ مُفلاطحةٌ - أي شوكة صلبة فيها
عرضٌ واتساعٌ - ، على رأسها شوكةٌ عَقِيقَةٌ - أي ملتوية كالصبارَة٠ - تكون بنجدي ، يُقال لها
الستَّعَدَان ، فإذا مرَّ الناس عليها صاروا ثلاثة أصناف: إما ناجٍ مُسْلِمٌ ، أو ناجٍ مخدوشٌ ، أو مكدوشٌ -
أي مدفوعٍ - في نار جهنم ، فالخطايف والكلاليب والأشواك ينجو منها أناس ويسلمون من خدشها
وممساكها ، وهي المؤمنون الْكَمَّا ، الذين قاما بطاعة الله واجتبوا معاصي الله .

والصنف الثاني من الناس تخليّهم ولكن يسلّمون من إمساكها بهم ويعبرون الصراط ، وهم الذين عندهم معاصي لم تستوجب دخول النار ، بل الخدش هو عقوبتهم في الآخرة فحسب ثم ينجون.

والصنف الثالث هم الذين تخطفُهم وتحويُّهم إلى النار بدفعِ وقوفَةٍ ، وهؤلاء هم المؤمنون الذين استحقوا دخول النار بسبب ما عندهم من المعاصي والكبائر ، فالكلاليب تخطفُهم وتحويُّهم في نار جهنم عيادةً بالله ، وكذلك الأمر بالنسبة للكافرين ، فإنهم تخطفُهم الكلاليب ثم تلقىُّهم في النار من باب أولى .

وسرعه الناس على الصراط ليست باختيارهم ، بل بحسب أعمالهم ، كما جاء في الحديث (تحري بهم أعمالهم) ، فمن كان عمله صالحا حسناً مسرعا ، وسرعه الواحد بحسب عمله ، فمنهم من يمُر على الصراط كطرف العين ، ومنهم من يمُر كالبرق ، ومنهم من يمُر كالريح ، ومنهم من يمُر كالطير ، ومنهم من يمُر كأجوايد^٧ الخيل والركاب ، ومنهم من يمُر كعدو الرجال ، حتى يمُر آخرهم يُسحب سحباً.

ومن ساء عمله مَرْ بطيئاً ، وربما خَطَفَته الكلاليب إن كان من استحق النار.

والدليل على ما تقدم حديث أبي هريرة رضي الله عنه المخرج في الصحيحين^٨ ، وكذا حديث أبي سعيد الخدري المخرج في الصحيحين^٩ ، وقد تركنا ذكرهما طلباً للاختصار.

^١ انظر «النهاية».

^٢ خطاطيف جمع خطاف ، وهو الحديدة الموجة كالكلوب ، يُختطف بها الشيء. انظر «النهاية».

^٣ الكلاليب جمع كلوب ، بتشديد اللام ، وهو حديقة معوجة الرئيس. انظر «النهاية».

^٤ انظر «النهاية» و «لسان العرب».

^٥ انظر «النهاية».

^٧ انظر «صحيح مسلم» (١٩٥) عن حذيفة رضي الله عنه.

^٧ أجاويد جمع جواد ، وهو الفرس السابق الجيد. انظر «النهاية».

^٨ انظر صحيح البخاري (٧٤٣٧) و صحيح مسلم (١٨٢).

^٩ انظر صحيح البخاري (٧٤٣٩) وصحيح مسلم (١٨٣).

٣. وقوف أناس على قنطرة بين الجنة والنار

وفي ذلك اليوم يقف المؤمنون الذين عذّبوا في النار بعد خروجهم منها على قنطرة – أي جسرٍ – بين الجنة والنار ليتخلصوا مما علق بقلوبهم من الغل والحسد والبغضاء ، فلا يدخلون الجنة إلا وقد ظهرت قلوبهم ، فقد أخرج البخاري رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ﴾^١ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : يَحْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ ، فَيُحَسِّنُونَ عَلَى قنطرة بين الجنة والنار ، فَيُقْتَصُ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هُذِبُوا وُنْقُوا أُذْنُ لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده ؛ لأحدهم أهدي منزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا.^٢

قال ابن تيمية رحمه الله: فالنفس الخبيثة لا تصلح أن تكون في الجنة الطيبة التي ليس فيها من الخبث شيء ، والتهذيب هو التخلص كما يُهذب الذهب فتحلص من الغش ، فتبين أن الجنة إنما يدخلها المؤمنون بعد التهذيب و التنقية من بقايا الذنب.^٣

٤. كلام المشركين في مواطن وختم الله على أفواههم في مواطن

وفي ذلك اليوم يتكلم المشركون في مواطن ، ومن ذلك ما أشار إليه الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز في قوله على لسانهم ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كَنَا مُشْرِكِينَ﴾^٤ .
ثم يختتم الله على أفواههم فتتكلم الأيدي والأرجل ، كما في قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ نَخْتَمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتَكَلَّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشَهِّدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^٥ .

وفي ذلك اليوم يُكلّم الله الكفار تجريعاً وتويجاً كما في قوله تعالى ﴿قَالَ اخْسُوا فِيهَا وَلَا تَكَلَّمُونَ﴾^٦ .
فإن قيل: وما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى عن الكفار ﴿وَلَا يَكُلُّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾^٧ ؟

^١ سورة الحجر: ٤٧ .

^٢ أي يسلّمون منها فيخرجون بعدما نشّبوا فيها. انظر «لسان العرب».

^٣ رواه البخاري (٦٥٣٥) .

^٤ انظر «فتاوي ابن تيمية» (١٤ / ٣٤٤ - ٣٤٥) ، باختصار.

^٥ سورة الأنعام: ٢٣ .

^٦ سورة يس: ٦٥ .

^٧ وانظر للفائدة ما قاله الشنقيطي رحمه الله في «دفع إيهام الاضطراب» (ص ٩٠) في الكلام على قوله تعالى ﴿وَلَا يَكُتُمُونَ اللَّهُ حَدِيثَه﴾^٨ (النساء: ٤٢) .

^٨ سورة المؤمنون: ١٠٧ .

^٩ سورة البقرة: ١٧٤ .

فاجلوب ما اختاره الشنقيطي رحمه الله أن الكلام الذي نفاه الله هو الكلام الذي فيه خير ، وأما التوبيخ والتقرير والإهانة فإن الله يكلمهم به ، وهو من جنس عذابه لهم.^١

٥. اعتذار الكفار إلى الله تعالى

وفي ذلك اليوم يعتذر الكفار إلى الله تعالى كما في قوله ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾^٢ وقوله ﴿والله ربنا ما كنا كنا مشركين﴾^٣.

فإن قيل: وما وجه الجمع بين ما أثبته الله في هذه الآية من اعتذار المشركين إليه وبين قوله تعالى ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾^٤؟

فاجلوب من وجهين ذكرهما الشنقيطي رحمه الله:
الأول: أنهم يعتذرون حتى إذا قيل لهم تعالى ﴿اخسروا فيها ولا تكلمون﴾ انقطع نطقهم ولم يبق إلا الزفير والشهيق كما قال تعالى ﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون﴾^٥.

الثاني: أن يكون الاعتذار المنفي هنا هو الاعتذار الذي فيه فائدة ، ولما كان اعتذارهم ليس فيه فائدة كان كالعدم ، فلذا نفى الله وجوده في قوله تعالى ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾^٦.

^١ انظر «دفع إيهام الاضطراب» (ص ٣٩) في الكلام على قوله تعالى ﴿أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيمة﴾.

القيمة﴾.

^٢ سورة النحل: ٢٨ .

^٣ سورة الأنعام: ٢٣ .

^٤ سورة المرسلات: ٣٦ .

^٥ سورة النمل: ٨٥ .

^٦ انظر «أضواء البيان» في الكلام على تفسير قوله تعالى في سورة النحل ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستمعون﴾.

٦. فصل في شفاعات النبي ﷺ للمؤمنين يوم القيمة

وما يكون يوم القيمة شفاعات النبي ﷺ ، وهي أربع شفاعات غير الشفاعة العظمى التي تقدم ذكرها:
فأولها شفاعته ﷺ للمؤمنين في دخول الجنة ، فإن المؤمنين إذا أتوا الجنة وحدوا أبوابها مغلقة ، فعندئذ يطرق النبي ﷺ باب الجنة ، فيقول حازن الجنة^١: من أنت؟
فيقول: محمد.

فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك.^٢

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : أنا أول الناس يشفع في الجنة ، وأنا أكثر الأنبياء تبعاً.^٣

فالنبي ﷺ هو أول من يدخل الجنة ، ولا يدخلها أحد قبله ، وفي هذا إظهار لشرف النبي ﷺ وفضله ، إذ أنه صاحب الشفاعة العظمى ليريح الناس من كربات المخشر ، وصاحب الشفاعة الثانية لنيل الفرج والسرور بدخول الجنة.

وثاني شفاعات النبي ﷺ شفاعته من لا حساب عليهم يوم القيمة في دخول الجنة ، ودليلها حديث أبي هريرة رضي الله عنه الطويل في الشفاعة ، وفيه: يا محمد ، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة.^٤

وثالثها شفاعة النبي ﷺ لعصاة المؤمنين من دخلوا النار بسبب معاصيهم في الخروج منها ، وهي التي عناها النبي ﷺ في قوله: (لكل نبي دعوة مستحاجة يدعو بها ، وأريد أن أختبئ دعوي شفاعة لأمتني في الآخرة)^٥ ، وكذا في قوله ﷺ : شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي.^٦

^١ الحازن هو الحافظ للشيء ، وقد اشتهر تسمية حازن الجنة بـ «رضوان» ، وهذا لا دليل صحيح عليه ، والصواب تسميته بخازن الجنة كما جاء في الحديث ، أفادني بها الشيخ محمد بن علي آدم الأثيوبي حفظه الله.

^٢ رواه مسلم (١٩٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

^٣ أي أتباعاً من الناس.

^٤ رواه مسلم (١٩٦) واللفظ له ، وأحمد (١٤٠/٣) ، والدارمي في المقدمة ، باب ما أعطي النبي من الفضل.

^٥ قلت: في هذا تنبية لفضلهم ، فإن للجنة سبعة أبواب كما جاء في التنزيل ﴿لها سبعة أبواب﴾ ، وكوئهن يدخلون من الباب الأيمن منها فيه تنبية لفضلهم ، فإن فضل التيامن معلوم في الإسلام.

^٦ رواه البخاري (٤٧١٢).

^٧ رواه البخاري (٤٦٣٠٤) ومسلم (١٩٨) والترمذى (٣٦٠٢) وابن ماجه (٤٣٠٧) وأحمد (٤٣٠٧/٢٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

^٨ رواه الترمذى (٢٤٣٥) ، وأبو داود (٤٧٣٩) ، وأحمد (٢١٣/٣) وصححه الألبانى في المشكاة (٥٥٩٨ - ٥٥٩٩) عن أنس رضي الله عنه.

الشفاعة الرابعة: شفاعته ﷺ لعمه أبي طالب لتخفيض العذاب عنه ، لأنَّه كان يدافع عنه ويرد عنه أذى المشركين ، فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ : ما أغنيت عن عمك؟ فوالله كان يحوطك ويغضُّب لك.

قال: هو في ضَحْضَاحٍ^١ من نار ، ولو لا أنا لكان في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ من النار.^٢

هذه هي الشفاعات الخامسة^٣ التي سيقوم بها النبي ﷺ يوم القيمة ، العظمى ثم الشفاعات الأربع ، وجميعها وجميعها خاصة به ﷺ إلا شفاعته لعصاة المؤمنين من دخلوا النار ، فإنَّها مشتركة مع غيره من الشفعاء من سيأتي ذكرهم قريباً بإذن الله ، ثم إنَّ النبي ﷺ قد خصَّ بتكرار هذه الشفاعة أربع مرات ليخلص أفواجاً من أهل الكبائر من أمته من النار ، مرتَّة بعد مرتَّة.

٧. شفاعات الشفعاء

وما يكون يوم القيمة شفاعة الشفعاء من استحقها ، والشفعاء أنواع ستة:

الأول: الرسل

الثاني: المؤمنون

الثالث: الشهداء

الرابع: الأفراط

الخامس: الملائكة

ال السادس: القرآن

تفصيل

النوع الأول: شفاعة الرسل لأقوامهم

وما يكون يوم القيمة بعد دخول الجنة والنار ؛ شفاعة الرسل للمؤمنين من أتباعهم من دخلوا النار بسبب ذنوبهم أن يخرجوا منها ، ودليله حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : إذا مُيَرَّ أهل الجنة وأهل النار ، فدخل أهل الجنة ، وأهل النار النار ، قامت الرسل فشفعوا ، فيقول: انطلقوا - أو اذهبو - فمن عرفتم فأخرجوه ، فيخرجونهم قد امتحنُوك ، فَيُلْقُوْنَهُمْ فِي نَّهَرٍ - أو على نَّهَرٍ - يقال له

^١ قال ابن الأثير في «النهاية»: الصَّحْضَاحُ في الأصل: ما رَقَّ من الماء على وجه الأرض ، ما يبلغ الكعبين ، واستعير هنا للنار.

^٢ رواه البخاري (٣٨٨٣) ومسلم (٢٠٩) وأحمد (٢٠٦/١).

^٣ وانظر «تحذيب السنن» لابن القيم ، كتاب السنة ، باب في الشفاعة ، (٢٢٦٩/٥) ، الناشر: مكتبة المعرفة - الرياض.

^٤ المَحْمُشُ هو احتراق الحلد وظهور العظم. انظر «لسان العرب».

«الحياة» ، فتسقط محاشئهم^١ على حافة النَّهَرِ ويخرُجون بيضاً مثل الشَّعَارِيْر^٢ ، ثم يَشْفَعُونَ فيقول: (اذهباو - أو انطلقاو - فمن وجدتم في قلبه مثقال قيراط^٣ من إيمان فأخرجوه) ، قال: فَيُخْرِجُونَ بَشْرًا ثُمَّ يَشْفَعُونَ ، فيقول: (اذهباو - أو انطلقاو - فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردلة^٤ من إيمان فأخرجوه) ... الحديث.

ومن الأدلة أيضاً على شفاعة الرسل للمؤمنين الذين في النار حديث حذيفة عن النبي ﷺ قال: يقول إبراهيم يوم القيمة: يا ربَّاه ، فيقول حل وعلا: يا لَبَيْكَاه . فيقول إبراهيم: (يا رب ، حَرَّقْتَنِي) ، فيقول: أخرجوا من النار من كان في قلبه ذرة أو شعيرة من إيمان.^٥

النوع الثاني: شفاعة المؤمنين

وما يكون يوم القيمة بعد دخول الجنة والنار ؟ شفاعة المؤمنين الذين في الجنة لإخوانهم المؤمنين الذين في النار من دخلوها بسبب ذنوبهم في الخروج منها ، ودليلها ما جاء في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ... حتى إذا خَلَصَ المؤمنون من النار ، فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين يوم القيمة لإخوانهم الذين في النار ، يقولون: ربنا ، كانوا يصومون معنا ويصلون (معنا)^٦ ويحجون (معنا)^٧ (ويعملون معنا) . فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم.

فُتُحَرَّمُ صُورُهُمْ عَلَى النَّارِ^٨ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، قَدْ أَخْذَتِ النَّارُ إِلَى نَصْفِ سَاقِيهِ وَإِلَى رَكْبَتِيهِ . ثم يقولون: ربنا ، ما بقي فيها أحدٌ من أمرنا به.

فيقول: ارجعوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خيرٍ فأخرجوه . فيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، ثم يقولون: ربنا ، لم نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِنْ أَمْرِنَا . ثم يقول: ارجعوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينارٍ من خيرٍ فأخرجوه .

^١ أي ما احترق منهم.

^٢ الشعاعير: نبات القيثاء الصغار ، شبّهوا بما لأن القثاء ينمو سريعاً ، وقيل غيره. انظر «النهاية».

^٣ الفُرْط: نوع معروف من حُلُبي الأذن. انظر «النهاية».

^٤ الخردل نبات عشبي ، منه بزور يُبلَّجَا الطعام ، واحدكم حردة ، يضرب بما المثل في الصغر. انظر «المعجم الوسيط».

^٥ رواه البخاري (٦٥٥٨) ، وأحمد (٣٢٥/٣) والمفسد له.

^٦ رواه ابن حبان (٧٣٧٨) ، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه عليه: إسناده صحيح على شرط الشيفيين.

^٧ أي تحرّم أحسام المؤمنين الذين هم من أهل الجنة على النار فلا يؤذيهم حرها إذا دخلوها لإخراج إخوانهم المؤمنين منها.

^٨ ما بين الأقواس من لفظ البخاري دون مسلم.

فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبُّنَا ، لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِنْ أَمْرِنَا أَحَدًا .
ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوهَا ، فَمَنْ وَجَدَتْمِ فِي قَلْبِهِ مُثْقَالَ ذَرَّةٍ مِّنْ خَيْرٍ فَأُخْرِجُوهُ .
فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبُّنَا ، لَمْ نَذَرْ فِيهَا حَيْرًا .
وَكَانَ أَبُو سَعِيدُ الْخَدْرِيُّ يَقُولُ: إِنَّمَا تَصَدَّقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ فَاقْرُئُوا إِنْ شَاءُتُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُثْقَالَ ذَرَّةٍ^١ وَإِنْ تَكُ حَسْنَةٌ يَضَعُفُهَا وَيُؤْتَ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^٢ .
هَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِشَفَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِإِخْرَاجِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ .

النوع الثالث: فصل في شفاعة الشهداء

وَمَا يَكُونُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ؛ شَفَاعَةُ الشُّهَدَاءِ لِإِخْرَاجِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَدَلِيلُهُ حَدِيثُ الْمَقْدَامِ
بْنِ مَعْدِ يَكْرَبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سَتُّ خَصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ
دَفْعَةٍ^٣ ، وَيُرَى مَقْعِدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَيُجَاهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَيُأْمَنُ مِنَ الْفَزْعِ الْأَكْبَرِ ، وَيُوَضَّعُ عَلَى رَأْسِهِ
تَاجُ الْوَقَارِ ، الْيَاقِوتُهُ مِنْهَا خَيْرٌ مِّنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَيُزَوَّجُ اثْتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجًا مِّنَ الْحُورِ الْعَيْنِ ، وَيُشَفَّعُ
فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقْرَبِهِ .^٤

النوع الرابع من الشفاعات: شفاعة الأفراط

وَمَا يَكُونُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ؛ شَفَاعَةُ الْأَفْرَاطِ لِوَالِدِيهِمْ ، وَالْفَرَطُ هُوَ الطَّفَلُ الَّذِي مَاتَ
دُونَ الْبَلوْغِ ، وَدَلِيلُهُ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ مَيَتَ
بَيْنَهُمَا ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ لَمْ يَلْغُوا الْحِنْثَ^٥ إِلَّا أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِبْرَاهِيمَ الْجَنَّةَ .
قَالَ: يَقُولُ لَهُمْ أَدْخُلُوهُمُ الْجَنَّةَ .
فَيَقُولُونَ: حَتَّى يَدْخُلَ آباؤُنَا .
فَيَقُولُ: ادْخُلُوهُمُ الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ .^٦

النوع الخامس: شفاعة الملائكة لعصاة المؤمنين في الخروج من النار ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخْرِجُ أَقْوَامًا
تَكَرُّمًا مِنْهُ بِلَا شَفَاعَةٍ مِّنْ أَحَدٍ

^١ سورة النساء: ٤٠ .

^٢ رواه مسلم (٨٣) واللقط له ، ورواه البخاري (٧٤٣٩) بدون قول أبو سعيد ، وما بين القوسين من لفظ البخاري .

^٣ أي دفقة من دمه .

^٤ رواه الترمذى (١٦٦٣) وأبي ماجه (٢٧٩٩) وأحمد (١٣١/٤) ، وصححه الألبانى فى «الجناز» ، ص ٥٠ ، سنة ١٤١٢ هـ .

^٥ أي البلوغ .

^٦ رواه النسائي (١٨٧٥) ، وأحمد (٥١٠/٢) ، وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٥٧٨٠) .

وما يكون يوم القيمة بعد دخول الجنة والنار ؛ شفاعة الملائكة لعصاة المؤمنين الذين في النار أن يخرجوا منها ، وبعد الشفاعات المذكورة يقول الله عز وجل: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ ، ولم يق إلا أرحم الراحمين (وفي لفظ: وبقيت شفاعتي) ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعلموا خيراً قط ، قد عادوا حُمَّاما^١ ، فَيُلْقِيْهُمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يَقَالُ لَهُ نَهَرُ الْحَيَاةِ ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِجَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ.^٢

وفي حديث حابر رضي الله عنهما قال: يقول الله عز وجل: ... أنا الآن أخرج بعلمي ورحمتي . قال: فَيُخْرُجُ أَصْعَافًا مَا أَخْرَجُوا وَأَصْعَافَهُ ، فَيُكْتَبُ فِي رَقَابِهِمْ «عَتْقَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» ، ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، فَيَسْمُونَ فِيهَا «الْجَهَنَّمَيْنَ».^٣ فهؤلاء يخرجون من النار بدون شفاعة من أحد ، بل برحة أرحم الراحمين.

النوع السادس: شفاعة القرآن

يشفع القرآن للمؤمنين يوم القيمة ، ودليله حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيمة شفيعاً لأصحابه ، اقرؤوا الرَّهَراوين ؛ البقرة وسورة آل عمران ، فإنهمما يأتيان يوم القيمة كأنهما غمامتان أو كأنهما غَيَّا ياتان^٤ أو كأنهما فرقان من طير صوافٌ^٥ ، تُحاجَّانْ تُحاجَّانْ عن أصحابهما.^٦

فصل في بيان شرطي قبول الشفاعة

وهذه الشفاعات المذكورة لا ينالها كل أحد ، بل من تحقق فيه شرطاً الشفاعة قبل الله الشفاعة فيه ، ومن لا فلا ، وهذه الشفاعة هي التي تسمى بالشفاعة المثبتة ، أي ثابت تتحققها ، وشرط الشفاعة هما:

١ - إذن الله للشافع أن يشفع ، ودليل هذا الشرط قوله تعالى ﴿مَنْ ذَاذِي يَشْفَعُ عَنْهُ إِلَّا يَإِذْنَهُ﴾^٧ ، وقوله تعالى ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشفاعةُ عَنْهُ إِلَّا مَنْ أَذْنَ لَهُ﴾^٨.

^١ التحْمُم هي الفحْم ، واحدَهَا حُمْمَة. انظر «لسان العرب».

^٢ رواه البخاري (٧٤٣٩) ، ومسلم (١٨٣) واللفظ له ، عن أبي سعيد ، وما بين القوسين من لفظ البخاري.

^٣ رواه أحمد (٣٢٥/٣) ، وصححه محققو «المسنّد» ، وقالوا: إسناده صحيح على شرط مسلم.

^٤ الغمامَة معروفة ، والغيَايَة هي كُلُّ ما أَظْلَلَ الإِنْسَانَ فَوْقَ رَأْسِهِ. انظر «النهاية».

^٥ فرقان أي قطعتان ، وصواف جمع صافية ، أي باسطات أجنحتها في الطيران. انظر «المعجم الوسيط».

^٦ رواه مسلم (٨٠٤) وأحمد (٢٤٩/٥).

^٧ سورة البقرة: ٢٥٥.

^٨ سورة سباء: ٢٣.

وقد نصَّ القرآنُ في واحِدٍ وعشرينَ موضعاً على نفي حصول الشفاعة يوم القيمة إلا بإذن الله سبحانه وتعالى.^١

٢ - رضي الله عن المشفوع له ، ودليل هذا الشرط قوله تعالى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أُرْضِيَ﴾^٢ ، وقوله تعالى ﴿يَوْمَئذٍ لَا تَنْفَعُ الشفاعة إِلَّا مَنْ أَذْنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾^٣.

وقد جمع الله هذين الشرطين - الأول والثاني - في قوله تعالى ﴿وَكُمْ مِنْ مُلْكِ السَّمَاوَاتِ لَا تَغْنِي شفاعتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَرِضِيَ﴾^٤.

ومن يدل على أن الشفاعة لا تكون إلا بعد الرضى عن المشفوع له ؛ لأن إبراهيم عليه السلام سيشفع لأبيه آزر ولكن لن يقبل الله شفاعته لكونه من المشركين ، مع أن الشافع هو إبراهيم عليه السلام ، خليل الرحمن.^٥

ومما ينبغي أن يعلم أن رضي الله عن العبد لا يكون إلا بتحقيق التوحيد الذي هو إخلاص العبادات له سبحانه ، من صلاة ودعاء وذبح ونذر وغير ذلك ، كما قال النبي ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه لما سأله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيمة؟

فقال: أسعد الناس بشفاعتي يوم القيمة من قال «لا إله إلا الله» حالصاً من قلبه ، أو نفسه.^٦

^١ انظر «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» ، مادة شفع.

^٢ سورة الأنبياء: ٢٨ .

^٣ سورة طه: ١٠٩ .

^٤ سورة النجم: ٢٦ .

^٥ روى البخاري في صحيحه (٣٣٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيمة ، وعلى وجه آزر قترة وغرة ، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصي؟ فيقول أبوه: اليوم لا أعصيك.

فيقول إبراهيم (أبي لره): إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون ، فأي خزي أخزي من أبي الأبعد؟^٧

فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين.

ثم يقال: يا إبراهيم ، ما تحت رجليك؟

فينظر فإذا هو بذبح متلطف ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار.

الذِّيْخُ: ذكر الضَّبَاعِ الْكَثِيرِ الشِّعْرُ ، وَقَوْلُهُ (مَنْتَلْظَخُ): أَيُّ فِي نَتْنَهُ ، وَقَدْ نَقَلَ ابْنُ حَمْرَ عن بَعْضِ الشَّارِحَاتِ أَنَّ الْحَكْمَةَ فِي مَسْخَهِ ضَبَاعًا لِتَنْفَعُ نَفْسَ إِبْرَاهِيمَ مِنْهُ ، وَلَعْلَهُ يَقُولُ فِي النَّارِ عَلَى صُورَتِهِ ، فَيَكُونُ فِيهِ غَضَاضَةٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، خَلِيلِ الرَّحْمَنِ ، وَذَكَرُوا أَنَّ الْحَكْمَةَ فِي مَسْخَهِ ضَبَاعًا أَنَّ الضَّبَاعَ مِنْ أَحَقِّ الْحَيَّاتِ ، وَآزَرَ كَانَ مِنْ أَحَقِّ الْبَشَرِ ، فَقَدْ أَصَرَّ عَلَى الْكُفُرِ بَعْدَمَا ظَهَرَ لَهُ مِنَ الْآيَاتِ عَلَى يَدِ وَلْدِهِ عَلَى أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ رَبِّهِ ، فَأَصَرَّ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

قوله (قتوة) في أول الحديث هي الغرة يعلوها سواد كالد汗ان كما في «لسان العرب» ، وقال ابن حجر في شرح الحديث: القترة هي سواد الوجه من شدة الكرب.

^٧ رواه البخاري (٩٩) وأحمد (٣٧٣/٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال أيضاً كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: ... وإن احتبات دعوني شفاعة لأمتي يوم القيمة ، فهي نائلة ، إن شاء الله ، من مات من أمتي لم يشرك بالله شيئاً.^١

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ... وأعطيت الشفاعة ، وهي نائلة من أمتي من لا يشرك بالله شيئاً.^٢

فهذه الأحاديث ونحوها تفيد اشتراط إخلاص العبادات كلها لله من دعاء وغيره لمن أراد أن يكون من سعدَ بشفاعة النبي ﷺ يوم القيمة ، أما من وقع في الشرك كدعاء المخلوقين أو الذبح لهم والذر ونحو ذلك فإنه لن يشفع له أحد ولو فعل ، وحتى لو شفع له أحد فإن شفاعته ليست مقبولة ولو كان الشافع له هو الرسول ﷺ لأن الشرك من موانع الشفاعة.

ولهذا فإن نبينا ﷺ قد أخبر قومه أنه لن يعني عنهم من الله شيئاً ، لا شفاعة ولا غيرها ، إذا لم يحققاوا التوحيد ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^٣ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا ، فعمَّ وحَصَّ^٤ فقال: يا بنى كعب بن لؤي ، انقذوا أنفسكم من النار.

يا بنى مرة بن كعب ، انقذوا أنفسكم من النار.

يا بنى عبد شمس ، انقذوا أنفسكم من النار.

يا بنى عبد مناف ، انقذوا أنفسكم من النار.

يا بنى هاشم ، انقذوا أنفسكم من النار.

يا بنى عبد المطلب ، انقذوا أنفسكم من النار.

يا فاطمة ، انقذني نفسي من النار ، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً.^٥

وفي لفظ: يا عباس بن عبد المطلب ، لا أعني عنك من الله شيئاً.

يا صفية عمّة رسول الله ﷺ ، لا أعني عنك من الله شيئاً.

يا فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، سليني من مالي ما شئت ، لا أعني عنك من الله شيئاً.^٦

^١ رواه الترمذى (٣٦٠٢) ، وقال حديث حسن صحيح.

^٢ رواه أحمد (١٦٢٥) ، والطیالیسى (٤٧٢) ، وصححه محققو «المستند».

^٣ سورة الشراء: ٢١٤ .

^٤ أي جاء بالعام أولاً من بطون قريش ، فنادى بنى كعب ، ثم خص بعض البطون فنادى بنى مرة بن كعب ، إلى أن خص فنادى عمّه وعمته وابنته.

^٥ رواه مسلم (٢٠٤) .

^٦ رواه البخارى (٢٧٥٣) ، ومسلم (٢٠٤) واللفظ له ، والترمذى (٣١٨٥) والنمسائى (٣٦٤٦) ، وأحمد (٣٥٩/٢).

وقول النبي ﷺ هنا لعمه العباس: (لا أملك لك من الله شيئاً) ؛ هو كقول إبراهيم عليه السلام لأبيه ﷺ لاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء^١ ، وليس ذلك بغريب فالدين واحد والتوحيد واحد.

ولهذا لما استغفر النبي ﷺ لأمه نهاد الله عن ذلك ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي.^٢ فاستغفار النبي ﷺ لأمه - وإن كان من أعظم أسباب المغفرة لأنه استغفار النبي - إلا أنه لم يقبل منه ، لأن المانع كان أقوى وهو الشرك ، فالواجب الحذر.

فالحاصل أن الشفاعة غير مقبولة مطلقاً إلا فيما انطبق عليه شرطاً الشفاعة المتقدمة ، وها هي إذن والرضي ، فالله تعالى لا يرضى عن عمل المشرك ، وعليه فلا يأذن في الشفاعة لusher.

فإن قيل: كيف الجمع بين حصول شفاعة الرسول ﷺ لعمه أبي طالب - وقد مات مشركاً - ، وما ذكرتم من أن كون المشركين لا يقبل الله الشفاعة فيهم؟

فالجواب: أن شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب ليست لإخراجه من النار مطلقاً كما هو الحال في عصاة المؤمنين ، وإنما لتخفييف العذاب عنه فحسب ، جزاء له ، لأنه كان يحوط النبي ﷺ ويدافع عنه.

فصل في بيان ما يتحقق بالإيمان باليوم الآخر

يلتحق بالإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما يكون بعد الموت ، لأن الإنسان إذا مات فقد بدأت آخرته ، ويلتحق بالإيمان باليوم الآخر أماناً؛ الأول: الإيمان بفتنة القبر ، والثاني: الإيمان بعداب القبر ونعيمه ، وهذا أوان التفصيل في كل منهما:

أ- الإيمان بفتنة القبر.

الفتنة هي السؤال والإختبار ، والمقصود بفتنة القبر سؤال الميت بعد دفنه عن ربه وعن دينه وعن نبيه ، فإن كانت الجنازة صالحة ثبتها الله عند السؤال فوُفِّقت للإجابة الصحيحة ، وإن كانت طالحة لم تُوْفَّق للإجابة فُعَذِّبت عيادة بالله ، وقد ورد في سؤال الميت في قبره أحاديث ثلاثة:

الأول: ما رواه البخاري عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، فإنه ليسمع قرع نعالهم ؛ أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل ، لحمد الله؟

فأما المؤمن فيقول:أشهد أنه عبد الله ورسوله.

^١ سورة المتحننة: ٤ .

^٢ رواه مسلم (٩٧٦) ، والنسيائي (٢٠٣٣) ، وأبو داود (٣٢٣٤) ، وابن ماجه (١٥٧٢) ، وأحمد (٤٤١/٢).

فيقال له: انظر إلى مقعدهك من النار ، قد أبدل لك الله به مقعدا من الجنة.
فيراها جميعا.

قال قتادة: وذُكر لنا أنه يُفسح له في قبره.

ثم رجع إلى حديث أنس قال:

وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟
فيقول: لا أدرى ، كنت أقول ما يقول الناس.

فيقال: (لا ذرت ولا تلئت) ، ويضرب بمطارق من حديده ضربةً ، فيصيغ صيحةً يسمعها من يليه^١ غيره
الشَّقَّلين^٢.

الدليل الثاني: حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن الملائكة يأتين الميت المؤمن بعد دفنه فيجلسانه
فيقولان له: من ربك؟

فيقول: رب الله.

فيقولان له: ما دينك؟

فيقول: ديني الإسلام.

فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟

فيقول: هو رسول الله ﷺ.

فيقولان له: وما علمك؟

فيقول: قرأت كتاب الله ، فآمنت به وصدقته.

فينادي مناد في السماء أن صدق عبدي ، فأفرِسُوه من الجنة^٤ ، وألْبِسُوه من الجنة ، وافتتحوا له بابا إلى
الجنة.

قال: ف يأتيه من روحها^٥ وطيفها ، ويُفسح له في قبره مدّ بصراه.

قال: ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الربيع ، فيقول: أبشر بالذي يُئْرُك ، هذا يومك
الذي كنت توعد ، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يحيى بالخير.

^١ الذي يظهر من كلام ابن حجر رحمه الله في «الفتح» أن المقصود بقوله (من يليه) أي الحيوانات ، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البزار (يسمعه كل دابة إلا الشَّقَّلين).

^٢ الشَّقَّلان هما الإنسان والجن ، قال ابن حجر في شرح الحديث: لأنهم كالشَّقل على وجه الأرض.

^٣ رواه البخاري (١٣٧٤).

^٤ أي أجعلوا له فراشا من الجنة.

^٥ قال الملا علي القاري في «مرقة المفاتيح»: (من روحها) ؛ أي بعض روحها ، والروح بفتح الراء ؛ الراحة ونسيم الربيع.

فيقول: أنا عملك الصالح.

فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

ثم قال في الكافر: ويأتيه ملكان فـيجلسانه فيقولان له: من ربك؟

فيقول: هاه ، هاه ، لا أدرى.

فيقولان له: ما دينك؟

فيقول: هاه ، هاه ، لا أدرى.

فيقولان له: ما هذا الرجل الذي يُبعث فيكم؟

فيقول: هاه ، هاه ، لا أدرى.

فينادي منادٍ من السماء أن كذبَ ، فأفرشوا له من النار ، وافتتحوا له باب إلى النار ، فيأتيه من حرّها وسمومها ، ويُضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الشياطِن ، مُتّسِعُ الريح ، فيقول: أبشر بالذي يسأوك ، هذا يومك الذي كنت توعد.

فيقول: من أنت ، فوجئك الوجه يحيىء بالشر؟

فيقول: أنا عملك الخبيث.

فيقول: رب لا تُقم الساعة.^١

الدليل الثالث: ما رواه البخاري في «صححه» عن هشام بن عروة عن امرأته فاطمة بنت المنذر عن أسماء بنت أبي بكر عن أختها عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: ... ولقد أوحى إليَّ أنكم تُفتنون في القبور مثل — أو قريباً — من فتنة الدجال — لا أدرى أيتهما قالت أسماء — يؤتى أحدكم فيقال له: ما عِلمك بهذا الرجل؟

فأما المؤمن أو الموقن — لا أدرى أي ذلك قالت أسماء — فيقول: محمد رسول الله ﷺ ، جاءنا بالبينات والمدى ، فأجبنا وأمنا واتبعنا.

فيقال له: نم صالحا ، فقد علمنا إن كنت لموتنا.

وأما المنافق أو المرتاب — لا أدرى أيتهما قالت أسماء — فيقول: لا أدرى ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته.^٢

^١ أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٨٧) في حديث طويل ، وأبو داود (٤٧٥٣) ، وصحح إسناده محققو «المسند» وقالوا: رجاله رجال الصحيح ، وكذا صححه الألباني كما في « صحيح الجامع » (١٦٧٦) و « مشكاة المصايب » (١٦٣٠).

^٢ أخرجه البخاري (١٠٥٣) ، والشك في اللقطتين من عند هشام بن عروة.

فيبيت هذه الأحاديث أن الميت يُسأل في قبره ، فالمؤمن يثبته الله عند السؤال ويوفقه للإجابة الصحيحة ، كما قال تعالى ﴿يَشْبَّهُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^١ ، وأما الكافر فلا يُحيي ، فيعامله الله بما يستحق.

ب - الأمر الثاني مما يلتحق بالإيمان باليوم الآخر هو عذاب القبر ونعيمه ، ودليل ذلك حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : فلولا أن لا تدافنوا للدعوى أن يُسمِعُكم من عذاب القبر الذي أسمَعُ منه.

ثم أقبل بوجهه فقال: تعوذوا بالله من عذاب النار .

فقالوا: نعوذ بالله من عذاب النار.

فقال: تعوذوا بالله من عذاب القبر.

فقالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر.

قال: تعوذوا بالله من الفتنة ، ما ظهر منها وما بطن.

قالوا: نعوذ بالله من الفتنة ما ظهر منها وما بطن.

قال: تعوذوا بالله من فتنة الدجال.

قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال.^٢

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : إذا تشهد أحدكم فليستعد بالله من أربع ، يقول:
اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة الحيا والممات ، ومن شرّ فتنة المسيح
الدجال.^٣

^١ سورة إبراهيم: ٢٧ .

^٢ رواه مسلم (٢٨٦٧).

^٣ رواه البخاري (١٣٧٧) ومسلم (٥٨٨) ، واللفظ مسلم.

فصل في بيان من يستحق عذاب القبر

وعذاب القبر يكون لطائفتين من الناس ؛ عصاة المؤمنين ، والكافرين ، ودليل الأول حديث ابن عباس رضي الله عنهم قال: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَبْرِيْنَ ، فَقَالَ: أَمَا إِنَّهُمَا لِيُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ، أَمَا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ ، وَأَمَا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَرِّ^١ مِنْ بُولِهِ.^٢

فالنميمة من كبائر الذنوب ، وكذلك عدم التنزه من البول ، فوقع مرتكبها في معصية الله مع كونهما مسلمين.

والدليل على عذاب القبر للكافرين قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي عَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةَ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرُجُوهُ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ بُخْرُونَ عَذَابَ الْمُهُونِ إِمَّا كُنْتُمْ تَفْعُلُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْكُنُكُرُونَ﴾^٣ ، فقوله ﴿الْيَوْمَ تَبْخَزُونَ﴾ دليل على أنهم سي Ashton العذاب فورا.

وأيضا فالسياق يفيد بأن الظالمين يشحون بأنفسهم ، ولا يريدونها أن تخرج ، لأنهم يُشّرون بالعذاب حينها ، عياذا بالله.

وقال تعالى في آل فرعون ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَذْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾^٤ ، فقوله ﴿غَدُوا وَعَشِيًّا﴾ أي قبل قيام الساعة ، لأنه قال بعدها ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَذْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ، ففرق بين العذاب الذي يكون قبل قيام الساعة والذي يكون في حينها.

وأما نعيم القبر فللمؤمنين الصادقين ، قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَبِّنَا اللَّهَ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَخُرُّوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوَعَّدُونَ﴾^٥ ، ووجه الدلالة من الآية قول الله على لسان الملائكة ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ ، وهذا يكون حال التوفيق وخروج الروح ، فالبشرارة بالجنة حال التوفيق وخروج الروح يعد من النعيم ، وهو الشاهد.

ومن أدلة القرآن على نعيم القبر قوله تعالى ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُفَرَّقِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾^٦.

^١ أي لا يجعل بينه وبين بوله ستة ، فيصيب الثوب بجازة بوله.

^٢ رواه البخاري (٢١٦) ومسلم (٢٩٢) ، واللفظ مسلم.

^٣ سورة الأنعام: ٩٣ .

^٤ سورة غافر: ٤٦ .

^٥ سورة فصلت: ٣٠ .

^٦ سورة الواقعة: ٨٣-٨٩ .

ووجه الدلالة من الآية أن هذه البشارة بنعيم الروح^١ والريحان وجنة النعيم يكون إذا بلغت الروح الخلقوم كما دلت عليه الآية ، وهذا فيه دلالة على النعيم الذي يلقاه الإنسان يكون مبدئه عند موته ، وهو أول نعيم القبر .

ومن أدلة القرآن على نعيم القبر قوله تعالى ﴿كذلك يجزي الله المتقين * الذين توفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾^٢ ، ووجه الدلالة من الآية قوله تعالى على لسان الملائكة حال توفيهم للمؤمنين: ﴿ادخلوا الجنة﴾ .

ومن الأدلة كذلك على بشارة المؤمن بالنعيم قبيل خروج روحه قوله تعالى ﴿يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعني إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي﴾^٣ .

وقد دلت السنة على أن المؤمن يُشر بالنعم قبل خروج روحه ، كما في حديث البراء بن عازب المتقدم ، وفيه قول الملكين للمؤمن بعد ما يجيب الملكين على أسئلة القبر: (أيتها النفس الطيبة ، أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان) ، فتفتح الروح وتخرج خروجا سهلا ، فأي أدلة على نعيم القبر وعداته أدل من هذه الأدلة؟!

ثم قال:

ثم ينادي مناد من السماء أن صَدَّقَ عبدي ، فافرشوه من الجنة ، وأليسوا من الجنة ، وافتتحوا له باباً إلى الجنة .

قال: ف يأتيه من روحها وطبيها ، ويفسح له في قبره مَدَّ بصره .

قال: ويأتيه رجل حَسَنُ الوجه ، حَسَنُ الثياب ، طَيِّبُ الريح ، فيقول: أبشر بالذي يَسْرُك ، هذا يومك الذي كنت تُوعَد .

فيقول له: من أنت ، فوجهك الوجه يحيىء بالخير؟

فيقول: أنا عملك الصالح .

فيقول: رب أَقِمِ الساعة ، حتى أرجع إلى أهلي ومالي .^٤

ويمقتضى هذه الأدلة من الكتاب والسنة أجمع المسلمين على ثبوت عذاب القبر ونعيمه .

^١ الزَّوْحُ هو الراحة ، وقد تقدم بيان معنى (الروح) ، وانظر تفسير ابن كثير للآيات المتقدمة .

^٢ سورة النحل: ٣١ - ٣٢ .

^٣ سورة الفجر: ٢٧ - ٣٠ .

^٤ أخرجه الإمام أحمد في «مسند» (٤/٢٨٧) في حديث طويل ، وأبو داود (٤٧٥٣) ، وصحح إسناده محققون «المسند» وقالوا: رجاله رجال رجال الصحيح ، وكذا صححه الألباني كما في « صحيح الجامع » (١٦٧٦) و « مشكاة المصايح » (١٦٣٠) .

فوائد متفرقة تتعلق بعذاب القبر ونعيمه

وأمْرُ الْبِشَارَةِ بِنَعِيمِ الْقَبْرِ أَوْ عَذَابِهِ أَمْرٌ مُشَاهِدٌ بِالْحِسْنِ ، فَفِي بَعْضِ حَالَاتِ الْوَفَاءِ يُرِي الْمُحْتَضِرُ وَهُوَ يَسْتَسِمُ وَكَأَنَّهُ قَدْ نَزَلَتْ بِهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ ، وَقَدْ يُرِي غَيْرُهُ وَوْجَهَهُ كَالْحُنْجُونِ وَجْلًا ، وَكَأَنَّهُ قَدْ نَزَلَتْ بِهِ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ.

وعذاب القبر جزء من عقوبة من أراد الله عقوبته إن كان الميت مؤمنا ، وقد تدوم هذه العقوبة حتى تتصل بعذاب النار يوم القيمة ، وقد تنقضي عقوبته في قبره فلا تتصل ، كل هذا بحسب ذنبه ، وبحسب مشيئة الله عز وجل ، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه.

وفتنة القبر – أي سؤال الملائكة – وعذاب القبر ونعيمه يحصل للإنسان سواء دُفِنَ في الأرض أو غرق في البحر أو أكلته السبع أو احترق فصار رمادا ، فسبحان الله القدير.

فإن قيل: هل عذاب القبر ونعيمه يقعان على الروح أم على البدن؟

فالجواب عن هذه المسألة ما قاله العالمة الإمام ابن أبي العز الحنفي رحمه الله في شرح «العقيدة الطحاوية»^١ حيث قال:

وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً ، وسؤال الملائكة ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به ولا تتكلّم عن كيفيته ، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته لكونه لا عهد له في هذه الدار ، والشرع لا يأتي بما يُحيله المعقول ، ولكنه قد يأتي بما تَحَاجَرَ فيه العقول ، فإن عودَ الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا ، بل تُعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا ، فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغيرة الأحكام: أحدها: تعلقها به في بطن الأم جنيناً.

الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث: تعلقها به في حال النوم ، فلها به تعلق من وجهه ، ومفارقة من وجهه.

الرابع: تعلقها به في البرزخ ، فإنها وإن فارقته وبحرت عنه فإنها لم تفارقه فراغاً كلياً بحيث لا يبقى لها إليه التفاتُ البَتَة ، فإنه ورد رُدُّها إليه وقت سلام المسلم ، وورد أنه يسمع خفق نعاهم حين يُولُونَ عنه ، وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيمة.

^١ انظر كلامه عند شرحه لقول الطحاوي: (والقبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النيران).

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجياد ، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه ، إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً ، فالنوم أخو الموت ، فتأمل هذا يزيح عنك إشكالات كثيرة.

واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه ، قُبِّر أو لم يُقبَّر ، أكلته السباع أو احترق حتى صار رماداً ونُسُف في الهواء ، أو صُلْب أو غَرَق في البحر؛ وصل إلى روحه وبذنه من العذاب ما يصل إلى المُقْبُور ، وما ورد من إجلاله واحتلاله أضلاعه ونحو ذلك فيجب أن يُفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير ، فلا يُحَمِّل كلامه ما لا يحتمله ، ولا يَقْصُّر به عن مراده وما قصد من المدى والبيان ، فكم حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلم إلا الله ، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلال نشأت في الإسلام ، وهو أصل كل خطأ في الفروع والأصول ، ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد ، والله المستعان.

فالحاصل أن الدور ثلاثة: دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، وقد جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ دَارٍ أَحْكَامًا تَخَصُّهَا ، ورَكَبَ هَذَا الْإِنْسَانُ مِنْ بَدْنٍ وَنَفْسٍ ، وَجَعَلَ أَحْكَامَ الدُّنْيَا عَلَى الْأَبْدَانِ ، وَالْأَرْوَاحَ تَبْغُ لَهَا ، وَجَعَلَ أَحْكَامَ الْبَرْزَخِ عَلَى الْأَرْوَاحِ ، وَالْأَبْدَانَ تَبْغُ لَهَا ، فَإِذَا جَاءَ يَوْمَ حَشْرِ الْأَجْسَادِ وَقِيَامِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ صَارَ الْحُكْمُ وَالنَّعِيمُ وَالْعَذَابُ عَلَى الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ جَمِيعًا ، فَإِذَا تَأْمَلَتْ هَذَا الْمَعْنَى حَقُّ التَّأْمِلِ ظَهَرَ لَكَ أَنَّ كَوْنَ الْقَبْرِ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حَفْرَةً مِنْ حَفْرِ النَّارِ مُطَابِقًا لِلْعُقْلِ ، وَأَنَّهُ حَقٌّ لَا مَرْيَةٌ فِيهِ ، وَبِذَلِكِ يَتَمَيَّزُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَيَجِدُ أَنَّ يُعْلَمُ أَنَّ النَّارَ الَّتِي فِي الْقَبْرِ وَالنَّعِيمَ لَيْسَ مِنْ جَنْسِ نَارِ الدُّنْيَا وَلَا نَعِيمِهَا ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى يُحِمِّي عَلَيْهِ التَّرَابَ وَالْحَجَارَةَ الَّتِي فَوْقَهُ وَتَحْتَهُ حَتَّى يَكُونَ أَعْظَمَ حَرًّا مِنْ جَمِيرَ الدُّنْيَا ، وَلَوْ مَسَّهَا أَهْلُ الدُّنْيَا لَمْ يُحْسِنُوا بِهَا ، بَلْ أَعْجَبَ مِنْ هَذَا أَنَّ الرَّجُلَيْنِ يُدْفَنَانِ ، أَحَدُهُمَا إِلَى جَنْبِ صَاحِبِهِ ، وَهَذَا فِي حَفْرَةِ مِنْ حَفْرِ النَّارِ وَهَذَا فِي رَوْضَةِ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ ، لَا يَصْلُ مِنْ هَذَا إِلَى جَارِهِ شَيْءٌ مِنْ حَرْ نَارِهِ ، وَلَا مِنْ هَذَا إِلَى جَارِهِ شَيْءٌ مِنْ نَعِيمِهِ ، وَقَدْرَةُ اللَّهِ أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْجَبُ ، وَلَكِنَّ النُّفُوسَ مَوْلَعَةٌ بِالْتَّكْذِيبِ بِمَا لَمْ تَحْطِ بِهِ عُلْمًا ، وَقَدْ أَرَانَا اللَّهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ مِنْ عَجَائِبِ قَدْرَتِهِ مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ ، وَإِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُطْلِعَ عَلَى ذَلِكَ بَعْضَ عَبَادِهِ أَطْلَعَهُ وَغَيْرَهُ عَنْ غَيْرِهِ ، وَلَوْ اطْلَعَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ الْعِبَادِ كَلِمَهُ لِزَالَتْ حِكْمَةُ التَّكْلِيفِ وَالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ ، وَلَا تَدَافَنَ النَّاسُ ، كَمَا فِي الصَّحِيفَعَنْهُ : لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافُوا لِدَعْوَتِ اللَّهِ أَنْ يَسْمَعُكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَا أَسْمَعَ .
وَلَمَا كَانَتْ هَذِهِ الْحِكْمَةُ مُنْتَفِيَةً فِي حَقِّ الْبَهَائِمِ سَمِعَتْ ذَلِكَ وَأَدْرَكَتْهُ .
انتهى كلامه رحمه الله .

فصل في الرد على من أنكر عذاب القبر^١

وقد ضلَّ قومٌ من أهل الزَّيْنِ فأنكروا عذاب القبر ونعيمه ، زاعمين أن ذلك غير ممكِن لمخالفته الواقع بزعمهم ، قالوا: لو كُشِفَ عن الميت في قبره لُوِجدَ كما كان عليه ، وأن القبر لم يتغير بسعة ولا ضيق !

وهذا الرُّعم باطل بدلالة الشَّرع والحسن والعقل ، فأما الشَّرع فقد تقدم ذكر النصوص الدالة على ثبوت عذاب القبر ونعيمه فيما يلتتحق بالإيمان باليوم الآخر.

وأما دلالة الحِسْن ؛ فالعاقل يعتبر بالنوم الذي هو أخو الموت ، فإن النائم يرى في منامه أنه في مكان فسيح يحيط بهنَّع في فيه ، أو أنه في مكان ضيق موحش يتَّأَم منه ، وربما يستيقظ مما رأى ، وهذا مع كونه على فراشه في حجرته على ما هو عليه.

فإذا كان النعيم أو العذاب يُعقل بالنوم ؛ دل ذلك على امكان عذاب القبر والإنسان ميت ، فقد سمي الله النوم وفاه في قوله تعالى ﴿الله يتَّوَقَّ الأنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾^٢.

وأما دلالة العقل ؛ فإن النائم يرى في منامه الرؤيا الحق المطابقة للواقع ، وربما رأى النبي ﷺ على صفتة ، ومن رأه على صفتة فقد رأه حقاً ، وهو مع ذلك نائم في حجرته على فراشه ، بعيداً عما رأى ، فإن كان هذا ممكناً في أحوال الدنيا ؛ أفلأ يكون ممكناً في أحوال الآخرة؟!

وأما اعتمادهم فيما زعموا على أنه لو كُشف عن الميت في قبره لُوِجدَ كما كان عليه ، تكون القبر لم يتغير بسعة ولا ضيق ، والأضلاع لم تختلف ؛ فجوابه من وجوه منها:

الأولى: أنه لا تجوز معارضة ما جاء به الشَّرع من الغيبات بالعقل ، بل الواجب هو تسليم العقل لما جاءت به الشَّريعة ، لأن عقول البشر قاصرة عن إدراك الغيبات ، وأحوال البرزخ من أمور الغيب التي لا يدركها الحس ، لأنَّه يقع على الروح في الأصل ، وما يقع على الروح ليس أمراً محسوساً وللمحسوس غير الميت ، ولو كانت أحوال البرزخ تُدرك بالحس لفوات فائدة الإيمان بالغيب ، ولتساوى المؤمنون بالغيب والجادون في التصديق بها.

الثاني: أن عذاب القبر ونعيمه وسِعَة القبر وضيقه إنما يدركه الميت دون غيره ، وهذا كما يرى النائم في منامه أنه في مكان ضيق موحش ، أو في مكان واسع يحيط بهنَّع في فيه ، وهو بالنسبة لغيره لم يتغير منامه ، هو في حجرته ، وبين فراشه وغطاءه ، وقد كان النبي ﷺ يوحى إليه وهو بين أصحابه فيسمع الوحي ، ولا يسمعه الصحابة ، وربما يتمثل له الملك رجلاً ، فيكلمه والصحابة لا يرون الملك ولا يسمعونه.

^١ هذا الفصل مستفاد أكثره من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين رحمه الله ، ص ١٠٨ - ١١٠ .

^٢ سورة الزمر: ٤٢ .

الثالث: أن إدراك الخلق محدود بما مَكَّنْهم الله تعالى من إدراكه ، ولا يمكن أن يُدركوا كل موجود ، فالسماءات السبع والأرض ومن فيهن وكل شيء يسبح بحمد الله تسيبِحَا حقيقةً ، وتسبِحُهم لا يُدركه الناس ولا يفهونه ، قال الله تعالى ﴿تَسْبِحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَقْفَهُنَّ تَسْبِحُهُمْ﴾^١ .

وهكذا الشياطين والجحن يسعون في الأرض ذهاباً وإياباً ، وقد حضرت الجن إلى رسول الله ﷺ واستمعوا لقراءته وأنصتوا وولوا إلى قومهم منذرين ، ومع هذا فهم محظوظون عنا ، وفي ذلك يقول الله تعالى عن الشيطان ﴿إِنَّهُ يَرَأُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أُولَئِءِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^٢ ، وإذا تبيَّن أن الخلق لا يُدركون كل موجود ؛ فلا يجوز أن ينكروا ما ثبت من أمور الغيب ولم يُدركوه.

الرابع: أن أضلاع هذا الميت قد تختلف إن كان من أهل الشقاوة ، فإذا كُشف عنها أعادها الله امتحانا للعباد ، لأنها لو بقيت مختلفة لصار الأمر شهادة وليس غيبة ، ففات الإيمان بعذاب القبر الذي هو من الغيب .

فصل في الرد على منكري اليوم الآخر^٣

وقد أنكر صنف من الكفار باليوم الآخر في القديم والحديث ، من الدهريه والمشركيه وغيرهم ، زاعمين أن بعث الأجساد بعد الموت غير ممكن ، وهذا الرعم باطل بدلالة الشرع والحس والعقل .
أما الشرع فقد قال الله تعالى ﴿رَأَمْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ لَنْ يُبَعْثُرُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّئُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^٤ ، وقد اتفقت جميع الكتب السماوية عليه .

وأما الحِسْنُ فقد أرى الله عباده إحياء الموتى في هذه الدنيا ، وفي سورة البقرة خمسة أمثلة على ذلك وهي:

^١ سورة الإسراء: ٤٤ .

^٢ سورة الأعراف: ٢٧ .

^٣ هذا الفصل مستفاد أكثره من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين رحمه الله ، ص ١٠٥ - ١٠٨ ، وانظر للفائدة ما قاله شيخه الشنقطي رحمه الله في هذه المسألة في كتابه «أضواء البيان» في المواطن التالية:

الأولى: تفسير قوله تعالى من سورة البقرة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ﴾ .

الثانية: مطلع تفسير سورة الحجية من عند قوله رحمه الله: أعلم أن هذه البراهين العظيمة المذكورة في أول سورة الحجية هذه ثلاثة منها من براهينبعث... الخ.

الثالثة: كتابه: «الرحلة إلى أفريقيا» ، ص ٣١ .

^٤ سورة التغابن: ٧ .

المثال الأول: قوم موسى حين قالوا له ﴿لَن تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرًً﴾ ، فأما هم الله تعالى ثم أحياهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى مخاطباًبني إسرائيل ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرًً فَأَنْخَدْتُكُمُ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعْثَاتُكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.^١

المثال الثاني في قصة القتيل الذي اختصم فيه بنو إسرائيل ، فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة فيضرموا بعضها ليخبرهم بن قتلهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْأْرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ خُرِجَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اصْرِيبُوهُ بِعَضِيهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.^٢

المثال الثالث في قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الموت وهم ألواف ، فأما هم الله تعالى ثم أحياهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلْوَافٌ حَذَرَ الْمَوْتَ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوْتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.^٣

المثال الرابع في قصة الذي مر على قرية ميتة فاستبعد أن يحييها الله تعالى ، فأماته الله تعالى مئة سنة ثم أحياء ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَارِبَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ الْلَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَّا تَهْلِكَةُ اللَّهِ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعْثَةُ كَمْ لِبْسٍ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبْسٌ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسْنَهُ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلَا تَجْعَلْكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ تُنَشِّرُهَا ثُمَّ نَكْسُوْهَا حَمَّا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.^٤

المثال الخامس في قصة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حين سأله الله تعالى أن يُريه كيف يُحيي الموتى ، فأمره الله تعالى أن يذبح أربعة من الطير ويفرقهن أجزاءً على الجبال التي حوله ، ثم يناديهن فتلتهم الأجزاء بعضها إلى بعض ، ويأتين إلى إبراهيم سعياً ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرْبَى كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنَ قَالَ بَلَى وَلَكِنَ لَيَطْمَئِنُّ قَلْبِي قَالَ فَحْذِ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرُّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْرَةً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَكَ سَعِيًّا وَاعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.^٥

فهذه أمثلة حسية واقعية تدل على إمكانية إحياء الموتى ، وقد سبقت الإشارة إلى بعض آيات عيسى ابن مريم في مبحث الإيمان بالرسل ، من إحياء الموتى وإنحرافهم من قبورهم بإذن الله تعالى.

وأما دلالة العقل على بعث الأجساد بعد الموت فمن خمسة وجوه:

^١ سورة البقرة: ٥٥ - ٥٦ .

^٢ سورة البقرة: ٧٣-٧٢ .

^٣ سورة البقرة: ٢٤٣ .

^٤ سورة البقرة: ٢٥٩ .

^٥ سورة البقرة: ٢٦٠ .

أحدها: أن الله خلق السماوات والأرض ، وخلقُهُما من أعظم الخلق ، فمن خلق الأعلى فهو قادر على خلق الأدنى ، قال تعالى ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَمْ يَعْلَمْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِلِي إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^١ ، قوله ﴿يَعْلَمْ﴾ أي: يعجز.

الثاني: أن الله تعالى القادر على خلق كل شيء ابتداءً ، قادر على إعادته ، قال الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾^٢ ، وقال تعالى ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعُدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾^٣ ، وقال آمراً نبيه ﷺ بالرد على من أنكر إحياء العظام وهي رميم ﴿فَلَمْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾^٤ .

الثالث: أن الأرض تكون ميّتةً هامدة ليس فيها شجرة حضراء ، فينزل عليها المطر فتهتز حضراء حية ، يخرج منها من كل زوج بهيج ، قال الله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاسِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَأَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمْ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^٥ ، وقال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مِبَارَكًا فَأَبْيَنْتُمْ بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدُ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَنَا بِهِ بَلْدَةً مِيتًا كَذَلِكَ الْحُرُوجُ﴾^٦ .

فالشاهد أن القادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى من قبورهم ، فكلّاهم إحياء بعد إماتة.

الرابع: أن الله تعالى خلق الإنسان في أصل خلقته من عدم لما خلق آدم عليه السلام ، ثم خلق ذريته من أصلٍ وهو الماء المهين ، فهل يعجزه أن يعيد خلقته في اليوم الآخر من أصلٍ آخر وهو عَجَبُ الذَّنْبِ؟!^٧

الخامس: أنه لو لم يكن هذا البعث لمحاسبة الناس لكان إيجاد الناس عَبَّانا ، فما الحكمة من قوم يُخلقون ويرزقون ، ثم يؤمرون وينهون ، فيُطيع مطیعهم ، ويعصي عاصيهم ، ثم يموتون ، ثم لا يجازى المُحسن على إحسانه ، ولا المسيء على إساءاته؟!

^١ سورة الجاثية: ٣٢ .

^٢ سورة الروم: ٢٧ .

^٣ سورة الأنبياء: ٤٠ .

^٤ العظم الرميم هو العظم البالى. انظر «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهانى.

^٥ سورة يس: ٧٩ .

^٦ سورة فصلت: ٣٩ .

^٧ سورة ق: ٩ - ١١ .

^٨ عَجَبُ الذَّنْبِ هو الفقرة الأخيرة من العمود الفقري للإنسان ، وهو الجزء الذي لا يبلى من جسم الإنسان بعد موته.

ومن المعلوم أن إيجاد الناس عبثاً أمرٌ يُنَزِّه عنه الله عز وجل ، قال تعالى ﴿أَفَحسِبْتُمْ أَنَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾ * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم^١.

فائدة في تعدد أسماء اليوم الآخر

اليوم الآخر يشمل فترتين ، الأولى وهي مؤقتة ، والثانية وهي دائمة ، فأما الأولى فتبداً من حين يُنفخ في الصور النفحة الأولى إلى حين استقرار الناس في منازلهم ، في الجنة أو في النار . والثانية تبدأ من حين استقرار الناس في منازلهم إلى ما لا نهاية ، فهي خالدة دائمة.

وقد جاء تسمية الفترة الأولى في القرآن بأسماء كثيرة تبلغ العشرين^٢ ، هذا بيانها:

١. (الساعة) ، ويراد بها الوقت الذي يؤذن به في بدء اليوم الآخر ، ويكون عند النفح في الصور النفحة الأولى ، قال تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا﴾.

٢. ومن أسماء الفترة الأولى (الصاحة) ، سميت بذلك لأنها تصفع الأسماع فتصعق الناس ، ويكون ذلك إذا نُفخ في الصور النفحة الأولى ، قال تعالى ﴿إِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ﴾.

٣. ومن أسماء الفترة الأولى (يوم القيمة) ، سميت بذلك لأن الناس يقومون فيه لله تعالى ، وقد ورد اسم (يوم القيمة) في سبعين موضعًا من كتاب الله.

٤. ومن أسماء الفترة الأولى (يوم البعث) ، سمى بذلك لأن الناس يُعيثون فيه من قبورهم ، وقال الذين أتوا العلم والإيمان لقد لبستم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث^٣.

٥. وكذلك يوم الخروج ، ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصِّيحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخَرْجَةِ﴾ ، سمى بذلك لأن الناس يخرجون فيه من قبورهم.

٦. ومن أسماء الفترة الأولى (القارعة) ، سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها ، ﴿الْقَارِعَةُ﴾ * ما القارعة * وما أدرك ما القارعة^٤.

٧. ومن أسماء الفترة الأولى (يوم الفصل) ، سمى بذلك لأن الله يفصل فيه بين الناس ، ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾.

^١ سورة المؤمنون: ١١٥ - ١١٦ .

^٢ استفادت هذا المبحث من كتاب «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» ، للقرطبي رحمه الله ، ص ٢٦٦ ، تحقيق: فواز أحمد زمرلي ، الناشر: دار الكتاب العربي – لبنان.

٨. ومن أسماء الفترة الأولى (يوم الدين) ، والدين هو الجزاء والحساب ، سمي بذلك لأن الله يجازي الناس فيه ويحاسبهم ، ﴿مالك يوم الدين﴾.
٩. ومن أسماء الفترة الأولى (الطامة الكبرى) ، سميت بذلك لأن مصيبيها تُطْمَعُ على كلّ مصيبة وتغليها ، ﴿إذا جاءت الطامة الكبرى﴾.
١٠. ومن أسماء الفترة الأولى (يوم الحسرة) ، سمي بذلك لشدة تحسُّر الناس - مؤمنهم وكافرهم - على ما فرطوا في حنب الله ، فالمؤمن يتمنى لو أنه استزاد من الطاعات ، والفاقد يتمنى لو أنه ترك السيئات ، والكافر يتمنى لو أنه آمن بالله تعالى ودخل دين الإسلام ، ﴿ وأندرهم يوم الحسرة إذ فُضي الأمْرُ وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾.
١١. ومن أسماء الفترة الأولى (الغاشية) ، سميت بذلك لأنها تغشى الناس بالهم والفرج ، وقيل لأن النار تغشى الكفار وتحيط بهم ، كما قال تعالى ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ ، وقال ﴿ يوم يغشىهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾.
١٢. ومن أسماء الفترة الأولى (يوم الحساب) ، سمي بذلك لأن الناس يحاسبون فيه على أعمالهم ، ﴿ إنَّ الَّذِينَ يَضْلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسَوُوا يَوْمُ الْحِسَابِ﴾.
١٣. ومن أسماء الفترة الأولى (يوم الجمع) ، سمي بذلك لأن الله تعالى يجمع الناس فيه ليجازيهم ، قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتَنذِيرِ يَوْمِ الْجَمْعِ لَا رِبْ فِيهِ﴾.
١٤. ومن أسماء الفترة الأولى (يوم التلاق) ، سمي بذلك لأن الناس يتلقون فيه على صعيد واحد ، ﴿ لِيَنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾.
١٥. ومن أسماء الفترة الأولى (الواقعة) ، سميت بذلك لتحقق وقوعها ، كما قال تعالى ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لَوْقَتَهَا كاذِبَةً﴾.
١٦. ومن أسماء الفترة الأولى (الحاصة) ، سمي بذلك لأنه تتحقق فيه الأمور من وعدٍ ووعيد ، قال تعالى ﴿ الْحَاصَةُ * مَا الْحَاصَةُ﴾.
١٧. ومن أسماء الفترة الأولى (يوم الوعيد) ، سمي بذلك لأن الله توعد فيه من عصاه بالعقوبة ، وللفائدة فالوعيد يُطلق على العقوبة ، بخلاف الوعد فإنه يطلق على الجزاء الحسن ، ﴿ وَنَفَخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾.

١٨ . ومن أسماء الفترة الأولى (يوم الآزفة) ، سمي بذلك لأن يوم القيمة قد أَرْفَأَ أي قُرْبَ ، ﴿أَرْفَتِ الْآفَةَ
* ليس لها من دون الله كاشفة﴾.

١٩ . ومن أسماء الفترة الأولى (يوم التناد) ، كما قال مؤمن آل فرعون لقومه ﴿وَيَا قَوْمَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
يَوْمَ التَّنَادِ﴾ ، سمي بذلك لكثره ما يحصل من نداء في ذلك اليوم ، فكل إنسان يُدعى باسمه
للحساب والجزاء ، وأصحاب الجنة يُنادون أصحاب النار ، وأصحاب النار يُنادون أصحاب الجنة ،
وأهل الأعراف يُنادون هؤلاء وهؤلاء.

٢٠ . ومن أسماء الفترة الأولى (يوم التغابن) ، والغبن هو فوات الحظ ، والمراد بالمعبون من عِينٍ في أهله
ومنزله في الجنة ، فيظهر يومئذ غَيْبٌ كل كافر بترك الإيمان ، وغَيْبٌ كل مؤمن بتقصيره في الإحسان.
قاله البغوي بمعناه.

فصل

وأما الفترة الثانية التي تبدأ من حين استقرار الناس في منازلهم فتسمى بـ (يوم الخلود) ، قال تعالى
﴿إِذَا دَخَلُوكُمْ بَسْلَامٌ ذَلِكَ يَوْمُ الْخَلُودِ﴾ ، سمي بذلك لأن الناس يخلدون فيه في منازلهم ، كُلُّ بحسبه ،
المؤمنون في الجنة والكافر في النار ، والخلود طول الإقامة ، قال تعالى ﴿وَمَا الَّذِينَ ايَضَطَّ وَجْهُهُمْ فَيَرَى
رَحْمَةُ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون﴾ ، وقال في الكفار ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون﴾.

أما الفترتين فيشملهما (اليوم الآخر) كما تقدم ، وكذلك لفظ (الآخر).

فائدة:

قال القرطي رحمه الله: وكل ما عَظُمَ شأنه تعدد صفاته ، وكثُرت أسماؤه ، وهذا في جميع كلام العرب ،
ألا ترى أن السيف لما عَظُمَ عندهم موضعه ، وتأكد نفعه لديهم وموقعه ؟ جعوا له خمسين اسم ، وله
نظائر.

فالقيمة لما عَظُمَ أمرها ، وكثُرت أهواها ؛ سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة ، ووصفها بأوصاف
كثيرة.^١

قلت: ولغير ما تقدم أسماء كثيرة لعِظَمِها ، فالله تعالى له أسماء كثيرة ، والنبي ﷺ له أسماء كثيرة ، ولو استقرأ
الإنسان لوقف على مسميات كثيرة في هذا الباب.

^١ كتاب «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» ، ص ٢٦٦ .

فصل في ثمرات الإيمان باليوم الآخر^١

الأولى: الرغبة في فعل الطاعة والحرص عليها رجاء ثواب ذلك اليوم.

الثانية: الرهبة عند فعل المعصية والرّضى بما خوّفًا من عقاب ذلك اليوم.

الثالثة: تسلية المؤمن عما يفوته من الدنيا بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها.

الرابعة: العلم بعدل الله تعالى ، حيث أنه سيجازي العباد على أعمالهم إن خيراً فخير ، وإن شرًا فشر.

الخامسة: العلم بحكمة الله تعالى ، حيث أنه لم يخلق العباد عبثا ، بل خلقهم لحكمة بالغة وهي عبادته ،

بفعل الطاعات واحتساب المنهيات ، ثم يحاسبهم على ذلك في الآخرة.

^١ هذا الفصل مستفاد أكثره من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ١٠٥ .

الرَّكْنُ السَّادِسُ: الإِيمَانُ بِالْقَدْرِ خَيْرٍ وَشَرًّا

الْقَدْرُ هو تقدير الله تعالى لل慨ائـات حسبـ ما سبق في علمـه واقتضـته حكمـته.

والإيمـان بالقدر يتضـمن أربعـة أمـور: الإيمـان بالعلمـ والكتـابة والمشـيعة والخـلق ، وهذا تفصـيل الكلامـ فيها.

الأولـ: العلمـ ، أيـ الإيمـان بأنـ الله تعالى عـلمـ كـلـ شيءـ جـملـة وتفصـيلاـ ، أـزـلاـ^١ وأـبـداـ ، سواءـ كانـ ذلكـ مماـ يتعلـقـ بأـفعالـه ، كالـإـحياءـ والإـماتـة وإنـزالـ المـطر ، أوـ بأـفعالـ عـبـادـه ، كـأـقوـالـهمـ وأـفـاعـلـهمـ ، أوـ بأـفعالـ الحـيوـانـاتـ ، فـكـلـها مـعـلـومـةـ لـلـهـ عـزـ وـجـلـ ، والـدـلـيلـ عـلـىـ هـذـاـ مـنـ الـكـتـابـ وـالـسـنـةـ وـالـعـقـلـ ، فـأـمـاـ الـكـتـابـ فـقـوـلـهـ تـعـالـىـ **﴿وَكـانـ اللـهـ بـكـلـ شـيـءـ عـلـيـمـ﴾**^٢ ، وـقـالـ **﴿وَأـنـ اللـهـ قـدـ أـحـاطـ بـكـلـ شـيـءـ عـلـمـ﴾**^٣ ، وـقـالـ تـعـالـىـ **﴿رـبـنـاـ وـسـعـتـ كـلـ شـيـءـ رـحـمـةـ وـعـلـمـ﴾**^٤ ، وـقـالـ تـعـالـىـ **﴿أـمـ يـحـسـبـونـ أـنـاـ لـاـ نـسـمـعـ سـرـهـمـ وـنـجـواـهـمـ بـلـيـ وـرـسـلـنـاـ لـدـيـهـمـ يـكـتـبـونـ﴾**^٥ ، فـهـوـ يـعـلـمـ السـرـ الذـيـ يـخـفـيـهـ إـلـيـهـ إـنـسـانـ فـيـ قـلـبـهـ ، وـالـحـدـيـثـ الذـيـ يـحـدـثـ بـهـ نـفـسـهـ ، وـيـعـلـمـ النـجـوـيـ ، وـهـوـ كـلـامـ إـلـيـهـ مـعـ صـاحـبـهـ.

وـقـالـ تـعـالـىـ **﴿وـعـنـدـهـ مـفـاتـحـ الـغـيـبـ لـاـ يـعـلـمـهـ إـلـاـ هـوـ وـيـعـلـمـ مـاـ فـيـ الـبـرـ وـالـبـحـرـ وـمـاـ تـسـقـطـ مـنـ وـرـقـةـ إـلـاـ يـعـلـمـهـهـ وـلـاـ حـبـةـ فـيـ ظـلـمـاتـ الـأـرـضـ وـلـاـ رـطـبـ وـلـاـ يـابـسـ إـلـاـ فـيـ كـتـابـ مـبـيـنـ﴾**^٦.

وـظـلـمـاتـ الـأـرـضـ المـقصـودـةـ فـيـ الـآـيـةـ الـكـرـيمـةـ هـيـ ظـلـمـةـ الـلـيـلـ وـظـلـمـةـ الـبـحـرـ وـظـلـمـةـ الطـيـنـ وـظـلـمـةـ السـحـابـ وـظـلـمـةـ الـمـطـرـ وـظـلـمـةـ الـغـبـارـ ، فـهـذـهـ الـظـلـمـاتـ السـتـ لـاـ تـحـوـلـ دـوـنـ عـلـمـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ بـتـلـكـ الـحـبـةـ وـرـؤـيـتـهـ لـهـ ، وـالـلـهـ أـعـلـمـ ، فـرـبـاـ كـانـ هـنـاكـ ظـلـمـاتـ غـيـرـ هـذـهـ الـظـلـمـاتـ السـتـ لـاـ نـعـلـمـهـاـ.

وـالمـقصـودـ بـالـكـتـابـ الـمـبـيـنـ فـيـ الـآـيـةـ هـوـ الـلـوـحـ الـمـحـفـوظـ الذـيـ كـتـبـ اللـهـ فـيـهـ مـقـادـيرـ كـلـ شـيـءـ.

قالـ ابنـ عـثـيمـينـ رـحـمـهـ اللـهـ فـيـ **«ـشـرـحـ الـعـقـيـدـةـ الـوـاسـطـيـةـ»**^٧ ماـ مـحـصـلـهـ أـنـهـ لـوـحـ كـتـبـ اللـهـ فـيـهـ مـقـادـيرـ كـلـ شـيـءـ ، وـوـصـفـ بـكـوـنـهـ مـحـفـوظـاـ لـأـنـهـ مـحـفـوظـ منـ أـيـديـ الـخـلـقـ ، فـلـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـلـحـقـ أـحـدـ بـهـ شـيـئـاـ ، أـوـ يـغـيـرـ بـهـ شـيـئـاـ أـبـداـ ، كـمـاـ أـنـهـ مـحـفـوظـ مـنـ التـغـيـيرـ ، فـالـلـهـ عـزـ وـجـلـ لـاـ يـغـيـرـ فـيـهـ شـيـئـاـ لـأـنـهـ كـتـبـهـ عـنـ عـلـمـ مـنـهـ. اـنـتـهـىـ .

^١ الأـزـلـ هـوـ الـقـدـمـ. انـظـرـ **«ـلـسـانـ الـعـربـ»**.

^٢ سـوـرـةـ الـأـحـزـابـ: ٤٠.

^٣ سـوـرـةـ الـطـلاقـ: ١٢.

^٤ سـوـرـةـ غـافـرـ: ٧.

^٥ سـوـرـةـ الرـحـفـ: ٨٠.

^٦ سـوـرـةـ الـأـنـعـامـ: ٥٩.

^٧ (١٩٧/٢).

وعلم الله بكل شيء قد دل عليه العقل ، وذلك أن الله تعالى هو الخالق وما سواه مخلوق ، ولا بد أن يكون الخالق عالما بما خلق ، قال تعالى ﴿أَلَا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾^١.
وعلم الله عز وجل لم يسبقه جهلٌ ولا يلحقه نسيان ، ولهذا لما قال فرعون لموسى ﴿فَمَا بِالْقُرُونِ
الْأُولَى﴾ ؟ أجاب موسى فقال ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضُلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾^٢ ، ومعنى لا يضل أي لا يجهل.

أما علم البشر فإنه محفوف بمحاذين الآفين: الجهل السابق والنسيان اللاحق.
وإنكار علم الله لما سيكون في المستقبل كفرٌ ، ولهذا لما ظهر قوم في القرن الأول يقولون إن الله لا يعلم الشيء إلا بعد وقوعه ؛ قال عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما للذى أخبره عنهم – وهو يحيى بن معمر – : أخبرهم أني بريء منهم وأنكم براء مني ، والذى يحلف به عبد الله بن عمر ؛ لو أن لأحدhem مثل أُخْدِ ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر.
ثم روى عن أبيه عن النبي ﷺ حديث جبريل المتقدم^٣ ، لما سأله النبي ﷺ عن الإيمان ، فأجابه ، وذكر أركانه ، وعَدَ منها الإيمان بالقدر.^٤

فبراءة ابن عمر من إنكر علم الله بما سيكون في المستقبل ظاهرة في تكفيه إياهم ، وقد حكى القاضي عياض رحمه الله إجماع العلماء على كفر من قال بهذا القول ، فقال في شرحه على الحديث: القائل بهذا كافر بلا خلاف.^٥

الثاني: الكتابة ، أي الإيمان بأن الله كتب مقادير كل شيء إلى قيام الساعة في اللوح المحفوظ ، كتب ذلك قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال تعالى ﴿قُلْ لَنْ يَصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾^٦ .
وقال ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُبَرِّأَهَا﴾^٧ .
وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.^٨

^١ سورة الملك: ١٤ .

^٢ سورة طه: ٥٢ .

^٣ انظر مقدمة الكتاب.

^٤ رواه مسلم (٨).

^٥ انظر «شرح النووي على صحيح مسلم» ، حديث رقم (٨).

^٦ سورة التوبية: ٥١ .

^٧ سورة الحديد: ٢٢ ، وانظر للفائدة ما قاله الشنقيطي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة.

^٨ رواه مسلم (٢٦٥٣).

وعن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له: أكتب.
قال: ربّ ، وماذا أكتب؟

قال: أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة.

ثم قال عبادة لابنه: يا بني ، من مات على غير هذا فليس مني.^١

قلت: وفي هذين الأمرين – العلم والكتابة – يقول الله تعالى ﴿لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^٢.

الثالث: المشيئة ، ومعناها الإيمان بأن جميع ما يكون ويحصل في هذا الكون لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى ، أي بإذنه الكوني ، سواء كان مما يتعلق بأفعاله ، كالإحياء والإماتة وتدبير أمور هذا الكون ، أو مما يتعلق بأفعال المخلوقين ، من ذهاب ومجيء ، و فعل وترك ، وطاعة ومعصية ، وغير ذلك من أفعال العباد التي لا تعد ولا تحصى ، قال الله تعالى فيما يتعلق بفعله ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾^٣ ، وقال ﴿وَيَقْعُلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^٤ ، وقال ﴿هُوَ الَّذِي يُصْوِرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾^٥.

وقال تعالى فيما يتعلق بأفعال المخلوقين ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطَتْهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتُوكُمْ﴾^٦ ، فالاقتتال الذي هو فعل العبد لا يقع إلا بمشيئته ، أي بإذنه الكوني ، وقال ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾^٧ ، وقال ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾^٨.

فلا يقع شيء في هذا الكون إلا بمشيئة الله تعالى وإذنه الكوني ، سواء كان مما يتعلق بأفعاله أم بأفعال عباده ، لأن هذا الكون ملك الله ، فما دام الشيء ملكه فإنه لا يكون في ملكه إلا ما شاءه وأذن به ، ولا يكون في ملكه شيء بدون إذنه ، ولو كان يقع شيء بدون إذنه لكان ملكه ناقصا ، تعالى الله عن ذلك.

الرابع: الخلق ، أي الإيمان بأن جميع الكائنات خلقها الله تعالى بذواتها وصفاتها وأفعالها من العدم ، قال الله تعالى ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾^٩.

^١ رواه أبو داود (٤٧٠٠) والترمذى (٣٣١٩) واللفظ لأبي داود ، وصححه الألبانى رحمه الله.

^٢ سورة الحج: ٧٠.

^٣ سورة القصص: ٦٨.

^٤ سورة إبراهيم: ٢٧.

^٥ سورة آل عمران: ٦.

^٦ سورة النساء: ٩٠.

^٧ سورة الأنعام: ١١٢.

^٨ سورة الأنعام: ١٠٧.

^٩ سورة الزمر: ٦٢.

وقال ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾^١.

وقال عن نبي الله إبراهيم عليه السلام أنه قال لقومه ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^٢.

وقال ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَا بِقَدْرٍ﴾^٣.

وثمّمت دليلاً عقلياً على أن الله هو الخالق لأفعال العباد ، وهو أن الفعل وصف للفاعل ، والصفة تتبع الموصوف ، فإذا كان الإنسان مخلوقاً لله فكذلك أفعاله مخلوقة بدلالة التضمن ، لأنّ خالق الأصل خالق للفرع.

وبهذا تم الكلام على مراتب الإيمان بالقدر ، العلم والكتابة والمشيئة والخلق ، وقد جمع بعضهم مراتب الإيمان بالقدر في قوله:

علم كتابة مولانا مشيئته ... وخلفه وهو إيجاد وتكوين

فصل في بيان أنواع التقدير^٤

أنواع التقدير ثلاثة:

١. التقدير الأزلي^٥ وذلك قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة عندما خلق الله تعالى القلم ، فقال له: اكتب مقدار كل شيء حتى تقوم الساعة.^٦

٢. التقدير العمري ويكون عند تخليق النطفة في الرحم ، فيكتب إذ ذاك ذكورها وأنوثتها ، والأجل والعمل ، والشقاوة والسعادة ، والرزق وجميع ما هو لاقٍ ، فلا يزيد فيه ولا ينقص منه ، ودليله حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: حدثنا رسول الله عليه السلام وهو الصادق المصدوق قال: إن أحدكم يجمع خلفه في بطنه أربعين يوماً^٧ ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضبغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكاً ويؤمر بأربع كلمات ، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله ، وشققي أو سعيد ، ثم ينفح فيه الروح ... الحديث.^٨

^١ سورة الفرقان: ٢ .

^٢ سورة الصافات: ٩٦ .

^٣ سورة القمر: ٤٩ .

^٤ هذا الفصل مختصر من «معارج القبول» للشيخ حافظ الحكمي رحمه الله ، فصل: الإيمان بالقدر على أربع مراتب ، ثم زدت عليه كلاماً للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله.

^٥ تقدم بيان أن الأزل هو القدم.

^٦ تقدم ذكر الحدبين الدالين على ذلك في أول الباب.

^٧ وهذا في حال كونه نطفةً من ماء.

^٨ رواه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣).

٣. **التقدير الحولي** ويكون في ليلة القدر ، ويقدر فيها ما يكون في السنة إلى مثلها في السنة المقبلة ، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاكُمْ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَّةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْزَلِينَ﴾ * فيها يفرق كل أمر حكيم * أمراً من عندنا إِنَّا كُنَّا مُرْسَلِينَ^١.

قال الحسن البصري رحمه الله: والله الذي لا إله إلا هو إنما لففي كل رمضان ، وإنما الليلة التي يُفرق فيها كل أمر حكيم ، يقضى الله كلّ أجلٍ وخلق ورزق إلى مثلها.^٢

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يُكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر ، حتى الحجاج يقال: يحج فلان ويحج فلان.^٣
وأخرج الطبرى نحوه عن مجاهد.^٤

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله في تفسيره عند تفسير قول الله تعالى ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ :

أي يفصل ويميز ويُكتب كل أمر قدرىٰ وشرعىٰ حكم الله به ، وهذه الكتابة والفرقان الذي يكون في ليلة القدر إحدى الكتابات التي تُكتب وثمين ، فتطابق الكتاب الأول الذي كتب الله به مقدادير الخلاق وآجالهم وأزاقهم وأعمالهم وأحوالهم ، ثم إن الله تعالى قد وَكَلَ ملائكة تكتب ما سيجري على العبد وهو وهو في بطن أمه^٥ ، ثم وَكَلَ لهم بعد خروجه إلى الدنيا ؛ وَكَلَ به كراما كاتبين ، يكتبون ويحفظون عليه أعماله ، ثم إنه تعالى يقدر في ليلة القدر ما يكون في السنة ، وكل هذا من تمام علمه وكمال حكمته وإتقان حفظه واعتنائه تعالى بخلقه. انتهى.^٦

^١ الدخان: ٣ - ٥ .

^٢ رواه ابن حجر الطبرى وغيره عنه في تفسير الآية الكريمة ، واللفظ لابن حجر.

^٣ رواه ابن حجر الطبرى وغيره عنه في تفسير الآية الكريمة ، واللفظ لابن حجر.

^٤ وصححه الشيخ د. حكمت بشير ياسين كما في كتابه «التفسير الصحيح» (٤/٣١٣) ، ط ١ ، الناشر: دار المائز - المدينة.

^٥ أي ما كان في التقدير الأعلى.

^٦ أي ما كان في التقدير العمري.

^٧ وهكذا قال الشيخ محمد الأمين المختار الشنقيطي رحمه الله في تفسير الآية الكريمة في كتابه «أضواء البيان» ، وزاد ثلث فوائد فقال: فدعوى أنها (أي الليلة المباركة) ليلة النصف من شعبان - كما رُوي عن عكرمة وغيره - لا شك في أنها دعوى باطلة ، لمخالفتها لنص القرآن الصريح ، ولا شك أن كل ما خالف الحق فهو باطل.

والأحاديث التي يوردها بعضهم في أنها من شعبان ، المخالفه لصريح القرآن ؛ لا أساس لها ، ولا يصح سند شيء منها ، كما جزم به ابن العربي وغير واحد من المحققين.

فالعجب كل العجب من مسلم يخالف نص القرآن الصريح بلا مستند كتاب ولا سنة صحيحة.

ثم قال: وإيضاح معنى الآية أن الله تبارك وتعالى في كل ليلة قدر من السنة بين للملائكة ويكتب لهم بالتفصيل والإيضاح جميع ما يقع في تلك السنة إلى ليلة القدر من السنة الجديدة.

ثم قال: وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة يدل أيضاً على أن الليلة المباركة هي ليلة القدر ، فهو بيان قرآن آخر.

فوائد متفرقة في موضوع الإيمان بالقدر

هذه فوائد متفرقة في موضوع الإيمان بالقدر ، نذكرها على سبيل السرد ثم نفصل الكلام في كل واحدة بما يسر الله.

الفائدة الأولى - إثبات أن للعبد مشيئة

الفائدة الثانية - إذا أراد العبد فعل الشر ، فهل يُيسّره الله له؟

الفائدة الثالثة - الجمجم بين الآيات الواردة في إرادة الله هداية الناس وبين الآيات الواردة في عدم هدايتهم

الفائدة الرابعة - بيان المراد من وصف القدر بالشَّرِّ

الفائدة الخامسة - بيان بطلان احتجاج العبد بالقدر على فعل المعاصي وترك الطاعات

الفائدة السادسة - وجوب الرضا بما قضاه الله وقدره

الفائدة السابعة - بيان أحوال العباد إذا جرت عليهم المكاره من الأمور المقدمة

الفائدة الثامنة - بيان ثمرات الإيمان بالقدر

الفائدة التاسعة - بيان الفرق بين القضاء والقدر

الفائدة العاشرة - التوكى من الشرور لا يُعدُّ فراراً من قَدْرِ الله

الفائدة الحادية عشرة - الإيمان بالقضاء والقدر لا ينافي التوكيل

الفائدة الثانية عشرة - بيان ضلال فرقتين في باب القدر والرد عليهم

ويوضح ذلك أن معنى قوله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أي في ليلة التقدير لجمع أمور السنة ، من رزق وموت وحياة ولادة ومرض وصحة ونحوه ونحو ذلك من أمور السنة ... وعلى هذا التفسير الصحيح لليلة القدر فالتقدير المذكور هو بعينه المراد بقوله ﴿فِيهَا يُنْزَلُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾. انتهى كلامه رحمه الله.

تفصيل

الفائدة الأولى - إثبات أن للعبد مشيئة

الإيمان بالقدر لا ينافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية وقدرة عليها ، لأن الشرع الواقع دالان على إثبات ذلك له.

أما الشرع ؛ فقد قال الله تعالى في المشيئة ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَيْ رَبِّهِ مَا بَأَ﴾^١ ، وقال ﴿فَأَتُؤْخُذُ كُمْ أَنَّكُمْ شِئْتُمْ﴾^٢ .

وقال في القدرة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا أَسْتَطَعْتُمْ وَامْسِعُوا وَأَطْبِعُوا﴾^٣ ، وقال ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا أَنْتَسَبْتْ﴾^٤ ، وقال تعالى ﴿إِنَّا هُدِينَا السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كُفُورًا﴾^٥ ، وقال ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَرَاغُوا اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾^٦ ، فأثبتت في هذه الآيات أن للعبد مشيئة وقدرة ، إن شاء شكر وإن شاء كفر ، وإن شاء زاغ وإن شاء استقام ، وهكذا ، ثم يحاسِبُهُ اللَّهُ يوْمَ القيمة على عمله.

وأما دلالة الواقع على أن للعبد مشيئة ؛ فإن كل إنسان يعلم أن له مشيئة وقدرة ، بحاجة يفعل وبحاجة يتترك. لكن ينبغي التنبيه على أن مشيئة العبد وقدرته واقutan تحت مشيئة الله تعالى وقدرته وإذنه الكوني ، مع كونها باختيار العبد و فعله ، سواء كانت تلك المشيئة لعمل خير أو لعمل شر ، لقول الله تعالى ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^٧ ، وقال تعالى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^٨ .

وبيان ذلك أن الكون كله ملك الله تعالى فلا يمكن أن يكون في ملكه شيء بدون مشيئته وإذنه ، وهذا من تمام ربوبية الله تعالى على خلقه ، ألا يحدث شيء في هذا الكون إلا بإذنه الكوني القدري ، سواء كان ذلك الأمر الحادث مما يحبه الله أو مما لا يحبه. ومن هنا قسم العلماء إرادة الله تعالى إلى نوعين:

^١ سورة النبأ: ٣٩ .

^٢ سورة البقرة: ٢٢٣ .

^٣ سورة التغابن: ١٦ .

^٤ سورة البقرة: ٢٨٦ .

^٥ سورة الإنسان: ٣ .

^٦ سورة الصاف: ٥ .

^٧ سورة التكوير: ٢٩-٢٨ .

النوع الأول: إرادة كونية ، وهذه تتميز بميزتين ؛ الأولى أنها واقعة لا محالة ، فإذا أراد الله أن يُصابَ إنسانٌ بمرضٍ ، أو بلدٍ بزلزالٍ ؛ وقع ذلك الأمر لا محالة ، قال تعالى ﴿ولَكُنَ اللَّهُ يَفْعُلُ مَا يَرِيدُ﴾^١ ، وقال ﴿وَيَفْعُلُ اللَّهُ مَا يَشَاء﴾^٢ ، وقال تعالى ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا﴾^٣ ، أي: لا بد من وقوعه.

الميزة الثانية أنها قد تكون مما يحبه الله وقد لا تكون ، ومن ذلك أن الله خلق التوحيد والإيمان ، كما أنه خلق الشرك والكفر ، وهو يحب الأول ويبغض الثاني ، وشاء وجودهما معاً في الكون ليتلي عباده ، فرغَّب في الأول ورهَب من الثاني ، فمن آمن دخل الجنة ، ومن كفر دخل النار ، قال تعالى ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضِي لِعْبَادَهُ الْكُفَّارُ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضِيهُ لَكُمْ﴾^٤.

كما أنه خلق بهيمة الأنعام وأحلَّها ، وخلق الخنزير وحرَّمه ، وشاء وجودهما معاً في الكون ليتلي عباده ، فمن تمتع بما أحلَّ الله أجر إن شكر ، ومن تمتع بما حرم الله أُزِرَ على كل حال ، وصدق الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يُظْلَمُونَ﴾^٥.

والنوع الثاني من الإرادات الإرادة الشرعية ، وهي الإذن بوجود ما شرَّعَهُ الله من الشرائع وأحَبَّ فعله من العباد ، وهذه قد تقع من العبد وقد لا تقع ، خلافاً للإرادة الكونية ، ومن أمثلتها الصلاة والصيام وبر الوالدين وغيرها من الطاعات ، فهذه إرادة شرعية ، قد يقوم بها العباد وقد لا يقومون.

فصل

قد تتفق الإرادة الشرعية والكونية في آنٍ واحد ، فإنك إن صليت الظهر مثلاً مع الجماعة فإن الله قد أراد الإتيان بهذه الصلاة شرعاً وأذن بحصولها كونياً.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا الاتفاق في قوله سبحانه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيَطَّاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^٦ ، فقوله ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يدل على أن ذلك الاتفاق لا يقع إلا بإذنه الكوني القديري.^٧

وقد لا تتفق الإرادة الشرعية ولا الكونية ويتناهى حدوثهما ، فلو أن رجلاً لم يشرب الخمر قط ، كأبي بكر رضي الله عنه ، فعدم شربه للخمر لم يأذن الله به شرعاً ولا كوناً لأنَّه لم يقع.

^١ سورة البقرة: ٢٥٣ .

^٢ سورة إبراهيم: ٢٧ .

^٣ سورة الأحزاب: ٣٨ .

^٤ سورة الزمر: ٧ .

^٥ سورة يونس: ٤ .

^٦ سورة النساء: ٦٤ .

^٧ وانظر تقرير العلامة الشنقيطي رحمه الله في آخر كلامه في تفسير قوله تعالى من سورة الذاريات ﴿وَمَا خَلَقْتَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾ .

وقد تحصل الإرادة الشرعية ولا تحصل الكونية ، كإرادة الله أن يُسلم أبا طالب ، فهذه إرادة شرعية لأن الله يحبها ، ولكن الله لم يأذن بها كونا ، وشاهدها أنها لم تقع.

وقد تحصل الكونية ولا تحصل الشرعية ، ككفر أبي طالب ، لأنها وقعت كوناً مع أن الله يكرهها شرعا . والخلاصة أن الإرادة الكونية تتعلق فيما وقع ، سواء أحبه الله أم كرهه ، والإرادة الشرعية تتعلق فيما أحبه الله ، سواء وقع أم لم يقع.

فإن قيل: ما الحكمة من خلق الله لتلك الأفعال المحرمة وتلك الحيوانات المحرّم أكلها؟

فالمحواب أن الحكمة هي ابتلاء الناس بها ، ليتميز المطيع من العاصي ، والكافر من المؤمن ، فمن آمن واستجاب أجر ، ومن عصى وتولى أزر .

ولهذا فإن الله تعالى بحكمته العظيمة لم يشأ إيمان الناس جميماً مشيئة كونية قدرية ، فصير الناس بذلك مفطوريين على الإيمان بالله تعالى ، بل شاء ذلك مشيئة شرعية فحسب ، وخلق للعبد مشيئة واحتيارا ، فمن آمن دخل الجنة ، ومن كفر دخل النار ، وإلى هذا أشار الحق تبارك وتعالى في قوله ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميماً فأئن تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾^١ ، وقال تعالى ﴿ولو شاء الله بجمعهم على المهد﴾^٢ ، وقال تعالى ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداتها﴾^٣ .

وكذلك المصائب ، فإنها من تقدير الله الكوني ، والله تعالى قدّرها على الإنسان حكمة عظيمة ، فإن الإنسان إذا كان يرفل بثياب الصحة والغنى ربما شعر بشيء من الكبر والتترفع على الخلق أو وقع في شيء من الغفلة عن ذكر الله ، كما قال الله تعالى العليم بسائر خلقه ﴿كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى﴾^٤ ، فإذا مرض الإنسان انكسرت نفسه وتواضع للناس وشعر بضعفه ، وربما رجع لريه ، واستغفر عن ذنبه ، فالمصائب ليست مراداً من الله لذاتها ، وإنما لأمر آخر يعود على الإنسان بالصلاحية ، سواء أحاط العقل البشري بتلك الحكمة أم لم يحيط .

^١ سورة يونس: ٩٩ .

^٢ سورة الأنعام: ٣٥ .

^٣ وانظر تقرير الشيخ الشنقيطي رحمه الله في «أضواء البيان» عند تفسير قوله تعالى من سورة يونس ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميما﴾.

^٤ سورة الليل: ٥ - ١٠ .

^٥ سورة العلق: ٦ - ٧ .

الفائدة الثانية – إذا أراد العبد فعل الشر ، فهل يُيسّره الله له؟

قال الشيخ صالح بن فوزان الفوزان^١ حفظه الله في جواب السؤال المعون له:

قلم القضاء والقدر يجري على العباد ، والله جل وعلا قادر لكل أحد من الشقاوة والسعادة ما يكون العبد سبباً فيه ، فإن فعل الخير يسره الله للخير ، وإن فعل الشر يسره الله للشر ، قال تعالى ﴿فَأَمَا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَقَ بِالْحَسْنَى * فَسَيِّسَرَ لِلْيُسْرَى * وَأَمَا مَنْ بَخْلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَبَ بِالْحَسْنَى * فَسَيِّسَرَ لِلْعُسْرَى﴾^٢ ، فيكون العبد سبباً في شقاءه^٣ أو سعادته بحسب أعماله ومصالحه ، والله تعالى يقدر على العبد بحسب ما يفعله العبد وما يقصده.

وهذا هو الجمع بين الأمرين ؛ أن الأعمال بقدر الله ، وأنها بفعل العبد ، فالعبد سبب ، ولذلك فإن المجنون وغير العاقل والمكره والناسي لا يؤخذ بما صدر منه ، لأنه عن غير قصد ، وليس هذا من كسبه ولا من عمله ، إنما يؤخذ البالغ العاقل المدرك ، لأنه هو الذي يجني على نفسه أو يجني لها ، فإذاً أن يجني لها خيراً ، وإنما أن يجني عليها شراً. اهـ.^٤

الفائدة الثالثة – الجمع بين الآيات الواردة في إرادة الله هداية الناس وبين الآيات الواردة في عدم

هدايتهم

إن قيل: كيف الجمع بين كون الله يريد لعباده المداية وبين قوله ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^٥ وقوله ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^٦ وقوله ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^٧ وهو ذلك من الآيات؟

^١ هو الشيخ الفقيه الناب عن دين الله ، العالم في العقيدة والفقه ، المقدم في علوم الشريعة ، طالما دافع عن العقيدة الإسلامية ورد على أهل البدع ، جمعت ردوه فوقعت في ثلاث مجلدات ، له مؤلفات كثيرة في فنون متعددة ، أوصى بالرجوع إليه الشیخان الجليلان عبد العزیز بن باز و محمد بن عثیمین قبیل وفائزما ، حفظهم الله ذخراً للإسلام والمسلمین.

^٢ سورة الليل: ٥ - ١٠ .

^٣ أي شقاء نفسه.

^٤ «المنحة الربانية في شرح الأربعين النووية» ، ص ٩٧ ، (الناشر: دار العاصمة - الرياض) ، ط ١ ، بتصرف يسير. وانظر ما قاله الشنقيطي رحمه الله في هذا الباب في المواطن التالية:

١. «أضواء البيان» عند الكلام على قوله تعالى من سورة يس ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مَقْمُحُونٌ﴾.
٢. «أضواء البيان» عند الكلام على قوله تعالى من سورة النحل ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشَرِّكُون﴾.
٣. «أضواء البيان» عند الكلام على قوله تعالى من سورة بي إسرائيل ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قَلْوَبِهِمْ أَكْثَرَهُمْ أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْلٌ﴾.
٤. «دفع الإيهام» ص ١٢ عند الكلام على قوله تعالى في أول سورة البقرة ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قَلْوَبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غُشَاوَةً﴾.

^٥ سورة الصاف: ٥ .

^٦ سورة التوبه: ١٠٩ .

^٧ سورة التوبه: ٣٧ .

فاجلواب ما ذكره الشنقيطي رحمه الله في كتابه «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» حيث قال:
 الآية من العام المخصوص ، فهي في خصوص الأشقاء الذين أزاغ الله قلوبهم عن المدى لشقاوئهم الأزلية.
 وقيل: المعنى: لا يهدى لهم ما داموا على فسقهم ، فإن تابوا منه هداهم. انتهى كلامه رحمه الله.^١

الفائدة الرابعة - بيان المراد من وصف القدر بالشّرِّ

قول النبي ﷺ في حديث جبريل: (وأن تؤمن بالقدر خيره وشره) فيه مسألتان:
 الأولى: أن وصف القدر بالخير ظاهر ، وهو ما قدّر الله من الخير للإنسان من صحة وعلم ومال ونحو ذلك.

الثانية: أن المراد بوصف القدر بالشّرِّ أي شرّ ما قدّر على الإنسان من مرض أو فقر ونحوه ، لا أن القدر - الذي هو فعل الله تعالى - شرّ محض ، لأن أفعال الله لا تكون إلا عن خيرٍ وحكمةٍ بالغةٍ ، سواء علمها الإنسان أم لم يعلّمها ، ولهذا قال النبي ﷺ في دعائه ربه: والشّرُّ ليس إليك.^٢

ثم اعلم أيضاً أن هذا المفعول الذي هو شرّ قد يكون شرّاً في نفسه لكنه خيرٌ من جهة أخرى ، قال الله تعالى عن الفساد الذي يظهر في البر والبحر من زلازل وفيضانات ونحوها ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾^٣ ، فعلى هذا فالنتيجة طيبة ، وهي أن يذيقهم عقوبة معاصيهم فيرجعوا إلى الله ويتوبوا قبل أن يموتوا ، فصار الشر في هذا المقدور شراً إضافياً وليس شراً حقيقياً محسناً ، لأن نتيجة ذلك المقدور صارت خيراً.

ومما يحصل أيضاً من الشر من الأمور الكونية القدرية المرض ، فالإنسان إذا مرض فلا شك أن المرض شرٌ بالنسبة له ، لكنه خيراً له في الواقع ، وخيره يكمن في تكفير الذنب ، فقد يكون عليه ذنب لم يكفرها الاستغفار والتوبة لوجود مانع ما ، فتأتي هذه العقوبات لتکفر تلك الذنب.

ومن خير ذلك المرض أيضاً أن يعرف نعمة الله عليه بالصحة إذا مرض.

ومن خير ذلك المرض أنه يكون في هذا المرض أشياء تقتل جراثيم في البدن لا يقتلها إلا ذاك المرض ، بينما المريض لا يدرى.

^١ انظر كلامه في الكتاب المشار إليه ، تفسير سورة الصاف.

^٢ رواه مسلم (٧٧١) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

^٣ سورة الروم: ٤١ .

فالملقدادير الكونية التي يُقدّرها الله على عبده المؤمن فيها خير كثير له في الدنيا والآخرة ، وقد بين النبي ﷺ هذا في قوله: عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ؟ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له.^١

وعن أنس رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: عجبت للمؤمن ! إن الله لم يقض له قضاء إلا كان خيراً له.^٢

وكذلك الأمر بالنسبة لما يُقدّر الله تعالى من الأحكام الشرعية ، فحدّ الزاني مثلاً لغير الحصن أن يجعلد مائة جلدة ويُعرّب (أي يُبعد) عن بلده عاماً ، وهذا شرٌّ بالنسبة لذاك الزاني ، لأن فيه تعذيباً نفسياً وحسيناً له ، لكنه خير من وجه آخر في كونه كفارة له وزاجر له عن العود مرة أخرى ، بعكس لو لم يُقم عليه الحد ولم يُعرّب ، فإنه ربما يستمر في معصيته ويُصِرُّ عليها حتى يلقى الله وهو على ذلك ، وعندها فلا مقارنة بين عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة.

ومن خير ذلك القدر الشرعي – إقامة حد الزنى – أن يرتدع غيره ، فربما هم غيره بالزنى ، فانتشر الشر والععدوان على الأعراض والأمراض الفتاك وأبناء اللقطة وغير ذلك ، كما هو حاصل في كثير من بلدان العالم ، بخلاف إذا علم الإنسان أنه سيقام عليه الحد فإنه سيرتدع ، وهكذا سائر الحدود الشرعية فيها من النكبة ما فيه مصلحة المجتمع وتحقيق أمنه في الدنيا ، وكذلك السلام في الآخرة من عقوبة الوقوع في الكبائر ، وصدق الله تعالى في قوله ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾^٣.

وخلاصة القول أمان ، الأول ، أن الشر في المقدور لا في تقدير الله عز وجل ، وهو معنى قول النبي ﷺ: والشر ليس إليك.

الثاني: أن الشر الذي في المقدور ليس شراً محضاً ، بل قد ينتفع عنه من الخير ما هو أعظم منه ، فتكون الشرية أمراً إضافياً وليس حقيقة.^٤

^١ رواه مسلم (٢٩٩٩) عن صالح رضي الله عنه.

^٢ رواه أحمد (١١٧/٣) ، وصححه محققون «المسندي».

^٣ سورة البقرة: ١٧٩ .

^٤ انظر للفائدة ما قاله الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في تفسير الآية.

^٥ انظر كلام ابن عثيمين في «شرح الواسطية» (١/٢٦ - ٢٧).

الفائدة الخامسة - بيان بطلان احتجاج العبد بالقدر على فعل المعاصي وترك الطاعات

يحتاج بعض الناس بالقدر على ترك الواجبات أو فعل المعاصي ، وهذا الاحتجاج باطل من سبعة وجوه:

الأول: أن المشركين احتجوا بالقدر على وقوعهم في الشرك ، فرد الله عليهم ذلك في قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَأْفُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّسِعُونَ إِلَّا الظُّلَمُ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾^١ ، فلم يقرّهم الله على احتجاجهم بالقدر بقولهم ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكَنَا﴾ ، ولو كان لهم حجة بالقدر ما أذاقهم الله بأسه ، فمشيئة الله الكونية بأن يكون هناك شرك في العالم لا يلزم منه الرضى به ، فإن الرضى متلازم مع الإرادة الشرعية لا الكونية.^٢

الثاني: قول الله تعالى ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^٣ ، فلو كان القدر حجّة للمخالفين لم تقطع هذه الحجّة بإرسال الرسل ، بل استمرت باقية ، لأن المخالفة بعد إرسلهم واقعة ، ولأن القدر لا يبطل بإرسال الرسل ، بل هو باقٍ.

الثالث: حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار.

فقالوا: يا رسول الله ، أفلأ نتكل؟

فقال: أعملوا فكلّ ميسّر ، ثم قرأ ﴿فَآمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَقَ بِالْحَسْنَى﴾ إلى قوله ﴿لِلْعَسْرِ﴾.^٤
ولفظ مسلم: فكلّ ميسّر لما خلق له.

فالشاهد أن النبي ﷺ أمر بالعمل ، ونهى عن الاتكال على القدر.

الرابع: أن الله تعالى أمر العبد ونهاه ، ولم يكلفه إلا ما يستطيع ، قال الله تعالى ﴿فَأَنْتُمُوا اللَّهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾^٥ ، وقال ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^٦ ، ولو كان العبد مجبراً على الفعل لكان مكلفاً بما لا يستطيع الخلاص منه ، وهذا باطل ، ولذلك إذا وقعت منه المعصية بجهل أو نسيان أو إكراه فلا إثم عليه لأنّه معذور.

^١ سورة الأنعام: ١٤٨ .

^٢ وانظر تقرير الشيخ الشنقيطي رحمه الله في «دفع الإيهام» عند الكلام على قوله تعالى من سورة الأنعام ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكَنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ .

^٣ سورة النساء: ١٦٥ .

^٤ رواه البخاري (٤٩٤٥) ومسلم (٢٦٤٧).

^٥ سورة التغابن: ١٦ .

^٦ سورة البقرة: ٢٨٦ .

الخامس: أنَّ قدرَ الله تعالى سُرُّ مكتومٌ ، لا يُعلم به إلا بعد وقوع المقدور ، وإرادة العبد لما يفعله سابقة على فعله ، فتكون إرادته الفعل غير مبنية على علم منه بقدرة الله ، وحيثئذ تنتفي حجته بالقدر ، إذ لا حجة للمرء فيما لا يعلمه.

السادس: أنها نرى الإنسان يحرص على ما يلائمه من أمور دنياه حتى يدركها ، ولا يعدل عنها إلى ما لا يلائمه ويحتاج على عدوه بالقدر ، فلماذا يعدل عما ينفعه في أمور دينه إلى ما يضره ثم يحتاج بالقدر ، أليس شأن الأمرين واحدا؟

وإليك مثلاً يوضح ذلك: لو كان بين يدي الإنسان طريقان ، أحدهما ينتهي به إلى بلد كلها فوضى وقتل ونخب وانتهاء للأعراض وخوف وجوع ، والثاني ينتهي به إلى بلد كله نظام وأمن مستتب وعيش رغيد واحترام للنفوس والأعراض والأموال ، فأي الطريقين سيسلك؟

إنه سيسلك الطريق الثاني الذي ينتهي به إلى بلد النظام والأمن ، ولا يمكن لأي عاقل أبداً أن يسلك طريق بلد الفوضى والخوف ، ويحتاج بالقدر ، فلماذا يسلك في أمر الآخرة طريق النار دون الجنة ويحتاج بالقدر؟

مثال آخر: نرى المريض يؤمر بالدواء فيشربه ونفسه لا تشتهيه ، وينتهي عن الطعام الذي يضره فيتركه ونفسه تشتهيه ، كل ذلك طلباً للشفاء والسلامة ، ولا يمكن أن يمتنع عن شرب الدواء أو يأكل الطعام الذي يضره ويحتاج بالقدر ، فلماذا يترك الإنسان ما أمر الله رسوله ، أو يفعل ما نهى الله رسوله ، ثم يحتاج بالقدر؟

السابع: أن الحاج بالقدر على ما تركه من الواجبات أو فعله من المعاصي لو اعتدى عليه شخصٌ فأخذ ماله أو انتهك حرمة ثم احتاج بالقدر وقال: (لا تلمني ، فإن اعتدتني عليك وعلى ملكك كان بقدر الله) ؛ لم يقبل منه حجته ، فكيف لا يقبل الاحتجاج بالقدر في اعتداء غيره عليه ، ويحتاج بالقدر لنفسه في اعتدائه على حق الله تعالى؟

ويذكر أنَّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه رفع إليه سارق استحق القطع فأمر بقطع يده فقال: مهلا يا أمير المؤمنين ، فإنما سُرِقت بقدر الله .
قال: ونحن إنما نقطع بقدر الله .

الفائدة السادسة - وجوب الرضا بما قضاه الله وقدره

القضاء نوعان ؛ شرعي وكوني ، فأما الشرعي فإنه قضاء الله بتحريم ما حرم ، وإيجاب ما أوجب ، وإباحة ما أباح ، فالأول كعقوق الوالدين ، والثاني كالصلة ، والثالث كأكل الطيبات.

وأما القضاء الكوني فنوعان ؛ نوع محبوب للنفوس وملاائم للفطر كالمال والولد والصحة ، فإذا قضى الله هذا للعبد فإنه ينبغي له أن يعترف بأنه من عند الله ، ويشكّره عليه ، ويقوم بما أوجبه الله عليه تجاهه من زكاة واستعمال في طاعة ونحو ذلك.

والنوع الثاني من القضاء الكوني هو ما كان غير ملائم للإنسان وينقص عليه عيشه ، من مرض وفقد مال ووفاة ولد ونحو ذلك ، وأحوال الناس هنا لا تخرج عن أربعة:

الأول السُّخْط ، الثاني الصَّبَر ، الثالث الرَّضَا ، الرابع الشَّكْر.

فأما **السُّخْط** فمحرم ، والساخط يجد في نفسه سخط على تدبير الله عز وجل ، ولا يخلو من ضرب وجه أو شق جيب أو رفع صوت بنحيب وبكاء ، وأكثر ما يحصل هذا عند فقد عزيز كولد ونحوه ، وفي حق هذا قال النبي ﷺ : ليس منا من لَطَمَ الخدود^١ وشقَّ الجيوب^٢ ودعا بدعوى الجاهلية.^٣

والساخط لا يخلو من التحسّر واستعمال «لو» ، وفي الحديث: احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز^٤ ، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا ، ولكن قل: (قدَرَ الله ، وما شاء فعل) ، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان.^٥

والساخط لا يثاب على مصيّبته ، وسخطه لا يزيد إلا همّاً في الدنيا ، ووزراً في الآخرة ، والقدر جارٍ عليه لا محالة ، سواء رضي أم سخط ، نسأل الله العافية.

وأما **الصَّبَر** فمحمود ، والصابر لا يتسرّط بلسانه ولا يضرب بجوارحه ، بل قابض على قلبه ، شديد الحزن ، متجلد ، محتسب للأجر ، يلهمج لسانه بقول (الحمد لله على كل حال)^٦ ، (إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيّبتي ، واحلّ لي خيراً منها).^٧

^١ اللطم هو الضرب بالكف.

^٢ قال في «عمدة القاري»: الجيوب بضم الجيم جمع حبيب ، وهو ما يفتح من الثوب ليدخل فيه الرأس ، وهو الطوق في لغة العامة. (ودعا بدعوى الجاهلية) ؛ وهي زمان الفترة قبل الإسلام ، والمراد أنه قال في البكاء ما يقوله أهل الجاهلية مما لا يجوز في الشريعة ، كقولهم: واحبلأه ، واعضده ، ونحو ذلك. انتهى.

^٣ رواه البخاري (١٢٩٧) ومسلم (١٠٣) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، والله للفظ للبخاري.

^٤ أي لا تكسل.

^٥ رواه مسلم (٢٦٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

^٦ رواه ابن ماجه (٣٨٠٣) ، وحسنه الألباني رحمه الله.

^٧ احلّ لي أي أبدلي. انظر «النهاية».

^٨ رواه مسلم (٩١٨).

وَأَمَا الرِّضَا فَمُرْتَبٌ أَعْلَى مِن الصَّبَرِ ، وَفِيهَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ رَاضٍ رِضاً قَلْبِيَاً بِمَا كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، حَزْنَهُ قَلِيلٌ ، مُوقِنٌ بِأَنَّ قَدَرَ اللَّهِ نَافِذٌ لَا مُحَالَةٌ.

وَأَمَا الشُّكْرُ فَأَعْلَى الْمَرَاتِبِ ، وَفِيهَا يَكُونُ الْمَصَابُ قَدْ خَالَطَهُ شَيْءٌ مِنَ الْفَرَحِ بِمَا أَصَابَهُ لَمَّا يَرْجُوهُ مِنَ الْمُتَوْبَةِ ، فَيُشَكِّرُ اللَّهُ عَلَى مَصَابِهِ كَلِمًا تَذَكَّرُ ذَلِكُ ، كَمَا أَنَّهُ يُشَكِّرُ اللَّهَ عَلَى أَنَّ الْمُصِيبَةَ لَمْ تَكُنْ فِي دِينِهِ ، وَلَمْ تَكُنْ أَشَدُّ مَا هِيَ عَلَيْهِ ، وَيَقَارِنُ تَلْكُ الْمُصِيبَةَ بِسَائِرِ النَّعْمَ عَلَيْهِ.

الفائدة السابعة - بيان ما ينبغي للعبد أن يستحضره إذا جرى عليه مكروه

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه «الفوائد»^١:

إذا جرى على العبد مقدور يكرهه ؛ فله فيه ستة مشاهد:

أحدُها مشهد التوحيد ، وأنَّ اللَّهُ هُوَ الَّذِي قَدَرَهُ وَشَاءَهُ وَخَلَقَهُ ، وَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

الثاني مشهد العدل ، وأنَّه ماضٍ في حكمه ، عدْلٌ في قضاؤه.

الثالث مشهد الرحمة ، وأنَّ رحْمَتَهُ فِي هَذَا الْمَقْدُورِ غَالِبَةٌ لِغَضْبِهِ وَانتِقامَهُ ، وَرَحْمَتُهُ حَشُوْهٌ^٢.

الرابع مشهد الحكمة ، وأنَّ حَكْمَتَهُ سُبْحَانَهُ اقتضَتْ ذَلِكَ ، لَمْ يُقْدِرْهُ سُدِّيٌّ وَلَا قَضَاهُ عَبْشَا.

الخامس مشهد الحمد ، وأنَّه سُبْحَانَهُ الْحَمْدُ التَّامُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهِ.

السادس مشهد العبودية ، وأنَّه عبدٌ مُحْضٌ مِنْ كُلِّ وِجْهٍ ، تَجْرِي عَلَيْهِ أَحْكَامُ سَيِّدِهِ وَأَقْضِيَتْ بِهِ حَكْمُ كُوْنِهِ مَلِكُهُ وَعَبْدُهُ ، فَيُصْرِفُهُ تَحْتَ أَحْكَامِ الْقَدْرِ كَمَا يُصْرِفُهُ تَحْتَ أَحْكَامِ الدِّينِ ، فَهُوَ مُحْلٌ بِجُريانِ هَذِهِ الْأَحْكَامِ عَلَيْهِ. انتهى.

الفائدة الثامنة - بيان الفرق بين القضاء والقدر

القضاء والقدر متبادران إن اجتمعا ، ومترادافان إن افترقا ، أيَّ أَنْهَا إِذَا ذُكِرَا جَمِيعًا فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مَعْنَى ، وإن ذُكْرَ أَحَدِهِمَا مُفْرِداً فَإِنَّهُ يُعْنِي الْآخَرَ وَيَتَضَمَّنُهُ.

أَمَا الْقَدْرُ هُوَ التَّقْدِيرُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْلَّوْحِ الْمَحْفُوظِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.

وَأَمَا الْقَضَاءُ فَهُوَ الْقَضَاءُ وَالْحَكْمُ الَّذِي قَضَاهُ اللَّهُ فِي خَلْقِهِ إِذَا حَدَثَ فِي الدُّنْيَا ، مِنْ إِيجَادٍ أَوْ إِعدَامٍ أَوْ تَغْيِيرٍ.

^١ ص ٦١ ، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض.

^٢ أيَّ أَنَّ رحْمَتَهُ مُوجَودَةٌ فِي دَاخِلِ ذَلِكَ الْمَقْدُورِ ، غَيْرُ ظَاهِرَةٍ ، كَأَنَّهَا فِي أَحْشَائِهِ.

فعلى هذا فالتقدير – أو القدر – أوليٌّ ، ويكون في الأزل ، والقضاء يتبعه ، ويكون في الدنيا.

الفائدة التاسعة – التوفيق من الشرور لا يُعد فراراً من قدر الله

إذا استقبل العبد أمراً فيه ضررٌ ظاهرٌ عليه فعلم به ثم انصرف عنه فلا يُعد هذا فراراً من قدر الله ، بل هو من باب فعل الأسباب للوقاية من الشرور ، وهو مطلوبٌ شرعاً بل قد يكون واجبٌ عليه ، فقد روى عبد الرزاق في «مصنفه»^١ عن عبد الله بن العباس قال: خرج عمر بن الخطاب يريد الشام ، حتى إذا كان في بعض الطريق لقيه أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام ، قال: فاستشار الناس ، فأشار عليه المهاجرون والأنصار أن يمضي ، وقالوا: قد خرجننا لأمر ولا نرى أن نرجع عنه ، وقال الذين أسلموا يوم الفتح: معاذ الله أن نرى هذا الرأي ، أن نختار دار البلاء على دار العافية.

وكان عبد الرحمن بن عوف غائباً ، فجاء فقال: إن عندي من هذا علماً ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموه عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخربوا فراراً منه.
قال: فنادى عمر في الناس فقال: إني مُصَبِّحٌ على ظهيرٍ فأصبحوا عليه ، فقال له أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين: أَفْرَاراً من قدر الله؟

قال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم ، تَفَرُّ من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت لو كانت لك إبلٌ ، فهبطتَ وادياً له عُدُوناً^٢ ، إحداها خصبة والأخرى جدبة ، أليس إن رعيتَ الخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيتَ الجدبة رعيتها بقدر الله؟
قال: نعم.

قال: وقال له: أرأيت لو رعى الجدبة وترك الخصبة ، أكانت مَعْجَرَةً؟^٣
قال: نعم.

قال: فَسِرْ إِذَاً.

قال: فسار حتى أتى المدينة فقال: هذا محل وهذا المنزل إن شاء الله.
قال الزهري: فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب رجع بالناس يومئذ من سُرْغٍ.

^١ برقم (٢٠١٥٩) ، باب الوباء والطاعون.

^٢ أي على ظهر دابة ، يريد أنه سيرجع إلى بلده.

^٣ قال ابن الأثير: العدوة – بالضم والكسر – جانب الوادي. انظر «النهاية».

^٤ من العجز ، أي لو رعى الجدبة وترك الخصبة لستبه الناس إلى العجز والكسيل ، كيف يترك الرعي في الأرض الخصبة ويرعي في الأرض الجدباء ، فكذلك إن ذهبوا للشام لعَدَّ هذا عجزاً أثمن لم يرجعوا إلى المدينة.

^٥ هي أول الحجاز وآخر الشام ، بينها وبين المدينة ثلاث عشرة مرحلة ، وقيل سرْغٌ. انظر «معجم البلدان» ، مادة سرْغ.

الفائدة العاشرة – الإيمان بالقضاء والقدر لا ينافي التوكل

قال الشنقيطي رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿وَهُزِي إِلَيْكِ بِجِدْعِ النَّحْلَةِ ثُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطْبَا جَيِّنَا﴾^١: أَخَذَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ السَّعْيَ وَالتَّسْبِيبَ فِي تَحْصِيلِ الرِّزْقِ أَمْرٌ مَأْمُورٌ بِهِ شُرُعًا ، وَأَنَّهُ لَا يُنَافِي التَّوْكِلَ عَلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلا ، وَهَذَا أَمْرٌ كَالْمَعْلُومِ مِنَ الدِّينِ بِالصَّرُورَةِ ؛ أَنَّ الْأَخْذَ بِالْأَسْبَابِ فِي تَحْصِيلِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِ فِي الدُّنْيَا أَمْرٌ مَأْمُورٌ بِهِ شُرُعًا لَا يُنَافِي التَّوْكِلَ عَلَى اللَّهِ بِحَالٍ ، لِأَنَّ الْمُكَلَّفَ يَتَعَاطَى السَّبَبَ امْتِنَالًا لِأَمْرِ رَبِّهِ مَعَ عِلْمِهِ وَيَقِينِهِ أَنَّهُ لَا يَقْعُدُ إِلَّا مَا يَشَاءُ اللَّهُ وُقُوعُهُ ، فَهُوَ مُتَوَكِّلٌ عَلَى اللَّهِ ، عَامِّ أَنَّهُ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرًّ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ تَحْكُمَ تَأْثِيرِ الْأَسْبَابِ عَنْ مُسَبِّبَاتِهَا لَتَخْلَفَ.

وَمَمَّا يُوَضِّحُ أَنَّ تَعَاطِيَ الْأَسْبَابِ لَا يُنَافِي التَّوْكِلَ عَلَى اللَّهِ قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ يَعْنَوبَ ﴿وَقَالَ يَأَنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابِ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابِ مُتَفَرِّقةٍ﴾^٢ ، أَمْرُهُمْ فِي هَذَا الْكَلَامِ يَتَعَاطَى السَّبَبِ ، وَتَسْبِيبُ فِي ذَلِكَ بِالْأَمْرِ بِهِ ، لِأَنَّهُ يَكَافِعُ عَلَيْهِمْ أَنْ تُصِيبَهُمُ النَّاسُ بِالْعَيْنِ لِأَنَّهُمْ أَخَذُ عَشَرَ رِجَالًا أَبْنَاءَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَهُمْ أَهْلُ جَمَالٍ وَكَمَالٍ وَبَسْطَةٍ فِي الْأَجْسَامِ ، فَدُخُولُهُمْ مِنْ بَابِ وَاحِدٍ مَظِنَّةٌ لِأَنْ تُصِيبَهُمُ الْعَيْنُ ، فَأَمْرُهُمْ بِالْتَّفَرِقِ وَالدُّخُولِ مِنْ أَبْوَابِ مُتَفَرِّقةٍ تَعَاطِيَ الْلِسَبَبِ فِي السَّلَامَةِ مِنْ إِصَابَةِ الْعَيْنِ كَمَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ ، وَمَعَ هَذَا التَّسْبِيبِ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿وَقَالَ يَأَنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابِ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابِ مُتَفَرِّقةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلِيَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ، فَانظُرْ كَيْفَ جَمَعَ بَيْنَ التَّسْبِيبِ فِي قَوْلِهِ ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابِ وَاحِدٍ﴾ ، وَبَيْنَ التَّوْكِلِ عَلَى اللَّهِ فِي قَوْلِهِ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلِيَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ لَا يَحْفَى إِلَّا عَلَى مَنْ طَمَسَ اللَّهُ بِصِيرَتَهُ.

وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلا قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُسْقِطَ هَمَ الرُّطْبَ مِنْ عَيْرِ هَزِ الْجِدْعِ ، وَلَكِنَّهُ أَمْرَهَا بِالتَّسْبِيبِ فِي إِسْقَاطِهِ بِهِرْ الْجِدْعِ ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ فِي ذَلِكَ:

أَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِمَرْيَمَ ... وَهُزِي إِلَيْكِ الْجِدْعَ يَسَاقِطُ الرُّطْبُ
وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَجْنِيَهُ مِنْ عَيْرِ هَزِ ... جَنَّتُهُ وَلَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبٌ

انتهى كلامه رحمه الله.^٣

^١ سورة مرثيم: ٢٥ .

^٢ سورة يوسف: ٦٧ .

^٣ انظر تفسير الآية المذكورة في «أضواء البيان»، باختصار يسيراً.

الفائدة الحادية عشرة - بيان ضلال فرقين في باب القدر والرد عليهم^١

(وقد ضل في القدر طائفتان ، إحداهما الجبرية ، الذين قالوا إن العبد محبر على عمله وليس له فيه إرادة ولا قدرة .

الثانية: القدرة الذين قالوا إن العبد مستقل بعمله في الإرادة والقدرة ، وليس لمشيئة الله تعالى وقدرته فيه أثر .

والرد على الطائفة الأولى (الجبرية) ممكن بأدلة الشرع والواقع ، فأما الشرع ؛ فإن الله تعالى أثبت للعبد إرادة ومشيئة ، وأضاف العمل إليه ، قال الله تعالى ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾^٢ ، وقال ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءْ فَلِيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءْ فَلِيَكُفَّرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾^٣ الآية ، وقال ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ مُنْظَرٌ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلِيهَا وَمَا زِيَّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبْدِ﴾^٤ .

وأما الواقع ؛ فإن كل إنسان يعلم الفرق بين أفعاله الاختيارية التي يفعلها بإرادته ، كالأكل والشرب والبيع والشراء ، وبين ما يقع عليه بغير إرادته ، كالارتفاع والسقوط من السطح ، فهو في الأول فاعل مختار بإرادته من غير جبر ، وفي الثاني غير مختار ولا مرید لما وقع عليه)^٥ .

قلت: ولولا هذا التفريق بين الأفعال الاختيارية وغير الاختيارية ل كانت عقوبة العاصي من الظلم للعبد ، إذ كيف يُعَاقِبُ الإنسان على شيءٍ مجبرٍ عليه ليس له فيه اختيار ، ولكن ثواب المطيع عثا ، إذ كيف يثاب على شيء فعله بغير اختيار منه ، والبعث ينزع الله تعالى عنه ، قال تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبْشًا﴾^٦ .

إذن فالعبارة التي يتناقلها العامة (الإنسان مسیرٌ وليس مخيّرٌ) ليست صحيحة مطلقاً ، بل هو مخيّر في أمور ومسير في أمور.

قال ابن عثيمين رحمه الله: هذه العبارة لم أرها في كتب المتقدمين من السلف ، من الصحابة والتابعين وتابعائهم ، ولا في كلام الأئمة ، ولا في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أو ابن القيم أو غيرهم ، لكن حدثت هذه أخيراً وبدؤوا يُطنّطون بها ، ونحن نعلم أننا نفعل الأشياء باختيارنا وإرادتنا ، ولا نشعر أبداً أن

^١ ما هو محدد بين معکوفین منقول من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ١١٦ - ١١٧ .

^٢ سورة آل عمران: ١٥٢ .

^٣ سورة الكهف: ٢٩ .

^٤ سورة فصلت: ٤٦ .

^٥ وانظر أيضاً ما قاله الشنقطي رحمه الله في كتابه «دفع الإبهام» في هذا الباب في تفسير قوله تعالى ﴿فَأَلْهَمْهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ من سورة الشمس.

^٦ سورة المؤمنون: ١١٥ .

أحدا يُذكرنا عليها ، ويُسُوقُنا عليها سُوقاً ، بل نحن الذين نريد أن نفعل فنفعل ، وزنيد أن نترك فنترك.
انتهى باختصار يسير .^١

(والرد على الطائفة الثانية (القدرية)^٢ ممكن بأدلة الشع و العقل ، أما الشرع ؛ فقد بيَّنَ الله تعالى في كتابه أن أفعال العباد تقع بمشيئته ، فقال تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا افْتَلَ النَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَا جَاءُهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَقُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا افْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾^٣ ، وقال تعالى ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَاتَّيَّنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^٤ .

وأما العقل ؛ فإن الكون كله مملوك لله تعالى ، والإنسان من هذا الكون ، فهو مملوك لله تعالى ، ولا يمكن للملوك أن يتصرف في ملك المالك إلا بإذنه ومشيئته).

الفائدة الثانية عشرة - بيان ثمرات الإيمان بالقدر :

الإيمان بالقدر له ثمرات جليلة ، منها:

الأولى: الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب ، بحيث لا يعتمد على السبب نفسه ، لأن كل شيء بقدر الله تعالى.

الثانية: إضافة النعم إلى مُسديها ، فلا يعجب المرء بنفسه عند حصول مراده ، لأن حصوله نعمة من الله تعالى بما قدرَه من أسباب الخير والنجاح ، وإعجابه بنفسه ينسيه شكر هذه النعمة.

الثالثة: الطمأنينة والراحة النفسية بما يجرى عليه من أقدار الله تعالى ، فلا يقلق بفوائط محبوب أو حصول مكرور ، لكون ذلك من عند الله ، وحصل بقدر الله الذي له ملك السموات والأرض ، وهو كائن لا محالة ، فإذا علم المؤمن ذلك وتيقن به ؛ صبر على ذلك واحتسب ، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُبَرَّأُوهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلًا تَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَيْتُكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾^٥.

^١ «فتاوي الحرم المكي» (١/٧٢).

^٢ من هنا رجوع لكلام الشيخ رحمه الله في الرد على الطائفتين القدريه والجبرية ، ص ١١٧ من الكتاب المذكور.

^٣ سورة البقرة: ٢٥٣ .

^٤ سورة السجدة: ١٣ .

^٥ ثمرات الثلاث الأولى مستفادة من «شرح ثلاثة الأصول» لابن عثيمين ، ص ١١٥ - ١١٦ .

^٦ سورة الحديد: ٢٢-٢٣ .

قوله ﴿نَبِأَهَا﴾ أي نخْلِقُهَا ، والضمير عائد على المصيبة ، وقيل على الأنفس ، وقيل على الأرض ،^١ والكل صحيح.^٢

وعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له.^٣

الرابعة: رجوع العبد إلى ربه إذا علم أن ما أصابه من حسنة فمن الله ، وأن ما أصابه من سيئة فمن نفسه.

الخامسة: معرفة حكمة الله عز وجل بالنظر إلى ما قدر وقضى من الجريات والحوادث.

^١ قاله ابن عثيمين في «شرح الواسطية» (٢٠٦/٢).

^٢ رواه مسلم (٢٩٩٩).

خاتمة ووصية

وبهذا تم كتاب «ري الظمان من أركان الإيمان» ، أسأل الله تعالى أن يجعله شرابا هبينا لمن أراد أن يروي ظماء من أصول الدين الإسلامي ، التي من تمسك بها نجا ، ومن حاد عنها هلك ، وهي أصول متفقة عليها بين المسلمين ، ولها في دين الإسلام شأن عظيم ، وقد اعنى بها القرآن أشد العناية ، لأن غيرها متفرغ عنها ، ومبني عليها ، فإذا صلحت صلح دين المرء ، وإذا فسدت فسد تبعاً ، ولهذا كان النبي ﷺ يؤكّد عليها في خطب الجمعة ، قال ابن القيم رحمه الله:

وكذلك كانت خطبته ﷺ ؛ إنما هي تقرير لأصول الإيمان ، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وذكر الجنة والنار ، وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته ، وما أعد لأعدائه وأهل معصيته ، فيملا القلوب من خطبته إيماناً وتوحيداً ومعرفةً بالله وأيامه.

ومن تأمل خطب النبي ﷺ وخطب أصحابه ؛ وجدها كفيلةً ببيان المدى والتوحيد وذكر صفات الرب جل جلاله ، وأصول الإيمان الكلية ، والدعوة إلى الله ، وذكر آلاته تعالى التي تحببه إلى خلقه ، وأيامه التي تُخَرِّفهم من يأسه ، والأمر بذكره وشكراً الذي يحبهم إليه ، فيذكرون^١ من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحبه^٢ إلى خلقه ، ويأمرون من طاعته وشكراً ما يحبهم إليه ، فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم.^٣

قلت: فحربي^٤ بمن ولاه الله منبراً من منابر الدعوة إلى الله أن يعتني بذكر أركان الإيمان ، ويؤكّد عليها ، تأسياً بالنبي ﷺ في منهجه في الدعوة إلى الله.

فائدة لطيفة قبل الختام

سئل فضيلة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان حفظه الله عن الحكمة في ترتيب أركان الإيمان في الآيات والأحاديث فأجاب:

بدئت هذه الأركان بالإيمان بالله ، لأن الإيمان بالله هو الأساس ، وما سواه من الأركان تابع له. ثم ذكر الإيمان بالملائكة والرسل ؛ لأنهم الواسطة بين الله وخلقه في تبليغ رسالته ، فالملايك تنزل بالوحى

^١ أي النبي ﷺ وأصحابه في خطبهم ، وهم المشار إليهم في أول الكلام.
^٢ أي الله تعالى.

^٣ «زاد المعاد في هدي خير العباد» (١/٤٢٤-٤٢٣) ، باختصار ، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.

على الرسل ، والرسل يبلغون ذلك للناس ، قال تعالى ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونَ﴾^١.

ثم ذكر الإيمان بالكتب ، لأنها الحجة والمرجع الذي جاءت به الرسل من الملائكة والنبين من عند الله للحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، قال تعالى ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنَزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحُكُمُ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^٢.

ثم ذكر الإيمان باليوم الآخر ، لأنه ميعاد الجزاء على الأعمال التي هي نتيجة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله أو التكذيب بذلك ، فكان مقتضى العدالة الإلهية إقامة هذا اليوم للفصل بين الظالم والمظلوم ، وإقامة العدل بين الناس.

ثم ذكر الإيمان بالقضاء والقدر لأهميته في دفع المؤمن إلى العمل الصالح ، واتخاذ الأسباب النافعة ، مع الاعتماد على الله سبحانه ، ولبيان أنه لا تناقض بين شرع الله الذي أرسل به رسلاً وأنزل به كتبه وبين قضايه وقدره ، خلافاً لمن زعم ذلك من المبتدةعة والمشركين الذين قالوا ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدَنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ تَحْسُنُ وَلَا آتَيْنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ، سوّغوا ما هم عليه من الكفر بأن الله قدّره عليهم ، وإذا قدّره عليهم فقد رضيه منهم - ، فرد الله عليهم بأنه لو رضيه منهم ما بعث رسلاً بإنكاره ، فقال ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^٣.

انتهى كلامه حفظه الله.^٤

اللهم إنا نسألوك إيماناً صحيحاً ، وديننا سليماً ، ومرداً غير مخزي ولا فاضح ، والله أعلم ، وصلى الله على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليماً كثيراً.

وكتبه ماجد بن سليمان الرسي

١ سورة النحل: ٢ .

٢ سورة البقرة: ٢١٣ .

٣ سورة النحل: ٣٥ .

^٤ منقوله من شبكة المعلومات ، موقع شبكة سحاب السلفية.

هذا ثبت مختصر يحوي مراجع علمية لمن أراد التوسع على عقيدة "الإيمان" وأركانه
وقوادره ونواقه

كتب الإيمان المسندة

١. كتاب الإيمان ، عبد الله بن أبي شيبة ، تحقيق: محمد بن ناصر الدين الألباني ، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت
٢. كتاب الإيمان ومعالمه وسنته واستكماله ودرجاته ، أبو عبيد ، القاسم بن سلام المروي ، تحقيق: محمد بن ناصر الدين الألباني ، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت
٣. كتاب الإيمان ، ابن منده ، محمد بن إسحاق الأصفهاني ، تحقيق: د. علي بن محمد الفقيهي ، الناشر: دار الفضيلة - الرياض
٤. الجامع لشعب الإيمان ، أحمد بن الحسين البهقي ، تحقيق: د. عبد العلي عبد الحميد حامد ، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض
٥. مختصر شعب الإيمان للبهقي ، أبو القاسم عمر بن عبد الرحمن القزويني ، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ، الناشر: مكتبة دار البيان - دمشق
٦. صحيح شعب الإيمان للبهقي ، خالد بن عبد الرحمن العك ، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت
٧. أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان ، جمع: عبد العزيز بن عبد الله المبدل ، دار التوحيد للنشر - الرياض

تأصيلات في عقيدة الإيمان

٨. الإيمان (ويقع في مجموع الفتاوى (٤٦٠ - ٧/٥)) ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق: محمد بن ناصر الدين الألباني ، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت
٩. كتاب الإيمان ، ابن الفراء ، القاضي أبو يعلى ، محمد بن الحسين البغدادي ، تحقيق: د. سعود بن عبد العزيز الخلف ، الناشر: دار العاصمة - الرياض
١٠. شرح حديث جبريل ، المعروف بالإيمان الأوسط (ويقع في مجموع الفتاوى ٤٦١/٧ - ٦٤٠) ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق: د. علي بن بخيت الزهراني ، الناشر: دار ابن الجوزي - الدمام
١١. شرح حديث جبريل عليه السلام ، صالح بن فوزان الفوزان ، الناشر: دار العاصمة - الرياض
١٢. شرح أصول الإيمان (للشيخ محمد بن عبد الوهاب) ، صالح بن فوزان الفوزان

١٣. التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ، عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي ، دار أضواء السلف – الرياض
١٤. شعب الإيمان ، ابن كثير ، إسماعيل بن عمر ، تحقيق: أحمد فريد ، الناشر: دار الحقيقة – مصر
١٥. آراء الصوفية في أركان الإيمان ، سعد بن ناصر الشري ، الناشر: دار أشبليا – الرياض
١٦. مسألة الإيمان – دراسة تأصيلية ، علي بن عبد العزيز الشبل ، الناشر: دار المسلم – الرياض

قواعد في الإيمان – الرد على المرجئة

١٧. أقوال ذوي العرفان في أن أعمال الجوارح داخلة في مسمى الإيمان ، عصام بن عبد الله السناني ، مراجعة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان
١٨. اتحاف البلاء برد شبّهات من وقع في الإرجاء ، علي بن عبد العزيز الموسى ، تقدّم الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد ، الناشر: دار الكيان – الرياض
١٩. حقيقة الإيمان وبذل الإرجاء في القديم والحديث ، سعد بن ناصر الشري ، الناشر: دار أشبليا – الرياض
٢٠. تحفة الحب بأن جنس الأعمال من لوازم إيمان القلب – مبحث في بيان منزلة العمل الظاهر من الإيمان ، جمال بن إبراهيم أبو سريع ، دار التوحيد للنشر – الرياض

نواقض الإيمان الإعتقادية وضوابط التكفير عند السلف

٢١. نواقض الإيمان الإعتقادية وضوابط التكفير عند السلف ، محمد بن عبد الله الوهبي ، الناشر: دار المسلم – الرياض
٢٢. التبيان في تأصيل مسائل الكفر والإيمان (استقراء لكتب الشيخ عبد الرحمن بن سعدي) ، فتحي بن عبد الله الموصلي ، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض

قسم الأسماء والصفات

كتب مسندة عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين

٢٣. كتاب الأسماء والصفات ، أحمد بن الحسين البهقي ، تحقيق: عبد الله الحاشدي ، الناشر: مكتبة السوادي – الرياض
٢٤. كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل ، محمد بن إسحاق بن خزيمة ، تحقيق: أحمد بن علي المثنى القفيلي ، الناشر: مكتبة عباد الرحمن – مصر
٢٥. كتاب النزول ويليه كتاب الصفات ، علي بن عمر الدارقطني ، تحقيق: د. علي بن محمد الفقيهي ، الناشر:
٢٦. كتاب النعوت ، أحمد بن شعيب النسائي ، تحقيق: د. عبد العزيز الشهوان ، الناشر: مكتبة العبيكان – الرياض
٢٧. كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته على الاتفاق والتفرد ، محمد بن إسحاق بن مندہ الأصبهاني ، تحقيق: د. علي بن محمد الفقيهي ، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية – المدينة
٢٨. كتاب الأربعين في دلائل التوحيد ، عبد الله بن محمد الانصاري الھروي ، تحقيق: د. علي بن ناصر الفقيهي ، الناشر: مكتبة العلوم والحكم – المدينة
٢٩. إفراد أحاديث أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته غير صفات الأفعال في الكتب الستة ، حصة بنت عبد العزيز الصغير ، الناشر: دار القاسم – الرياض

تأصيات في عقيدة الأسماء والصفات

٣٠. الفتوى الحموية الكبرى (مقابلة على تسع نسخ) (وتقع في مجموع الفتاوى ١٢٠-٥/٥) ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق: د. حمد بن عبد الحسن التويجري ، دار الصميعي – الرياض
٣١. الدرة العثيمينية بشرح فتح رب البرية بتلخيص الحموية ، إعداد: غزاي الإسلامي وفهد العامدي ، الناشر: مكتبة الإمام الذهبي – الكويت
٣٢. التعليقات التوضيحية على مقدمة الفتوى الحموية ، صالح بن فوزان الفوزان ، الناشر: دار العاصمة – الرياض
٣٣. القواعد المثلثي في صفات الله وأسمائه الحسنى ، محمد بن صالح بن عثيمين ، دار أضواء السلف – الرياض

٣٤. التعليق على القواعد المثلثى ، عبد الرحمن بن ناصر البراك ، دار التدمرية – الرياض
٣٥. معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى ، محمد بن خليلة التميمي ، دار إيلاف الدولية – الرياض
٣٦. جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير توحيد الأسماء والصفات ، وليد بن محمد العلي ، الناشر: دار البشائر الإسلامية – بيروت
٣٧. نواقص توحيد الأسماء والصفات ، ناصر بن عبد الله القفارى ، الناشر: دار طيبة – الرياض
٣٨. الاحتجاج بالآثار السلفية على إثبات الصفات الإلهية ، والرد على المفوضة والمشبهة والجهمية ، عادل بن عبد الله آل حمدان ، الناشر: دار الأمر الأول – الرياض

شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العليا

٣٩. أسماء الله الحسنى (مجموع كلام ابن القيم في أسماء الله الحسنى) ، ابن القيم ، محمد بن أبي بكر ، جمع: يوسف علي بدبوى ، توزيع دار الدليقان – الرياض
٤٠. فقه الأسماء الحسنى ، عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر ، الناشر: دار التوحيد للنشر – الرياض

قسم الإيمان بالرسل والكتب – النبوات

٤١. الإيمان بالكتب ، محمد بن إبراهيم الحمد ، الناشر: دار ابن خزيمة – الرياض
٤٢. الحكمة من إرسال الرسل ، عبد الرزاق بن عفيفي ، الناشر: دار الصميدي – الرياض
٤٣. النبوات ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق: د. عبد العزيز بن صالح الطويان ، الناشر: دار العاصمة – الرياض

بحوث في الإيمان باليوم الآخر

٤٤. من بلاغة القرآن الكريم في محادلة منكري البعث ، بدرية بنت محمد العثمان ، الناشر: دار الراية – الرياض
٤٥. الحياة الآخرة ما بين البعث إلى دخول الجنة أو النار ، غالب بن علي العواجي ، الناشر: دار لينة – مصر
٤٦. البحور الزاخرة في علوم الآخرة ، محمد بن أحمد السفاريني الحنبلي ، تحقيق: عبد العزيز بن أحمد المشيقح ، الناشر: دار العاصمة – الرياض
٤٧. الجنائز وأحوال الموتى وأحوال الآخرة ، طارق بن عوض الله ، الناشر: دار ابن عفان – الخبر

الشفاعة

٤٨. كتاب الشفاعة (منتقى من البداية والنهاية) ، ابن كثير ، إسماعيل بن عمر ، انتقاء: علي بن محمد الرشيدى ، الناشر: دار البصيرة – الإسكندرية
٤٩. الشفاعة عند أهل السنة والرد على المخالفين فيها ، د. ناصر الجديع ، الناشر: دار أطلس الخضراء – الرياض

جزء الإيمان بالقدر خيرو وشره

٥٠. شرح التائية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، عبد الله بن عبد الرحمن بن جبرين ، الناشر: دار كنوز أشبانيا – الرياض
٥١. القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ، ومذاهب الناس فيه ، د. عبد الرحمن بن صالح المحمود ، الناشر: مدار الوطن – الرياض
٥٢. الإيمان بالقضاء والقدر ، محمد بن إبراهيم الحمد ، تقدیم سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ، الناشر: مدار الوطن – الرياض
٥٣. فتاوى تتعلق بالقضاء والقدر ، جماعة من العلماء ، جمع دخيل الله بن بخيت المطري
٤٥. المختصر في عقيدة أهل السنة في القدر ، إبراهيم بن عامر الرحيلي ، الناشر: دار الإمام أحمد – مصر

ثبات لأهم المراجع

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، الناشر: دار عام الفوائد - مكة
- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار ، عبد الله بن أبي شيبة ، تحقيق محمد بن عبد السلام ابن شاهين ، الناشر: مكتبة دار البارز - مكة
- شعب الإيمان ، أحمد بن الحسين البهقي ، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، ط ١ ، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت
- السنة ، أبي بكر أحمد بن محمد الخلال ، تحقيق د. عطية بن عتيق الزهراني ، الناشر: دار الراية - الرياض
- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومحابية الفرق المذمومة ، ابن بطة العكبي ، الناشر: دار الراية - الرياض
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، أبي القاسم هبة الله اللاذكي ، تحقيق د. أحمد بن سعد الغامدي ، الناشر: دار طيبة - الرياض
- الشريعة ، محمد بن الحسين الأجري ، تحقيق الوليد بن محمد النصر ، توزيع المكتبة المكية - مكة
- الشريعة ، محمد بن الحسين الأجري ، تحقيق عبد الرزاق المهدى ، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت
- كتاب السنة والرد على الجهمية ، عبد الله بن أحمد بن حنبل ، تحقيق أحمد بن علي الرياشي ، الناشر: دار ابن الجوزي - مصر ، ١٤٢٨ هـ
- كتاب الأسماء والصفات ، الحافظ أبي بكر البهقي ، تحقيق عبد الله بن محمد الحاشدي ، الناشر: مكتبة السوادي - الرياض
- عقيدة السلف وأصحاب الحديث ، إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني ، تحقيق نبيل بن سابق السبكي
- تعظيم قدر الصلاة ، محمد بن نصر المروزي ، تحقيق كمال بن السيد سالم ، الناشر مكتبة العلم - مصر
- شرح السنة ، الحسين بن مسعود البغوي ، تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط ، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، ابن عبد البر النمرى ، تحقيق عبد الله بن الصديق ، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب

- سيرة ابن هشام ، عبد الملك بن هشام الحميري ، الناشر: دار الخير - بيروت
- مسند أبي داود الطیالسی ، سليمان بن داود الطیالسی ، تحقيق د. محمد بن عبد المحسن التركی ، الناشر: دار هجر - مصر
- الزهد ، عبد الله بن المبارك ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت
- النبوات ، ابن تيمیة ، تحقيق د. عبد العزیز الطویان ، الناشر: دار أضواء السلف - الرياض
- العلو للعلی الغفار ، شمس الدين الذهبي ، تحریج أشرف عبد المقصود ، الناشر: مكتبة أضواء السلف - الرياض
- كتاب العرش ، لشمس الدين الذهبي ، تحقيق محمد حسن إسماعيل ، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت
- رسالة في إثبات الاستواء والفوقية ، عبد الله بن يوسف الجوني ، تحقيق د. أحمد معاذ حقي ، الناشر: دار طوبق - الرياض
- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، ابن قيم الجوزية ، تحقيق د. علي بن محمد الدخيل الله ، الناشر: دار العاصمة - الرياض
- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، اختصار: محمد الموصلي ، تحقيق سيد إبراهيم ، الناشر: دار الحديث - القاهرة
- فتاوى الحرم المكي ، الشيخ محمد بن عثيمین ، الناشر: دار طيبة - الرياض
- شرح العقيدة الواسطية ، الشيخ محمد بن عثيمین ، ط ٦ ، الناشر: دار ابن الجوزي - الدمام
- التوضیح والبيان لشجرة الإیمان ، الشیخ عبد الرحمن بن ناصر السعید ، تحقيق أشرف بن عبد المقصود ، الناشر: أضواء السلف - الرياض
- توضیح الكافیة الشافیة في الانتصار للفرقة الناجیة ، الشیخ عبد الرحمن بن سعید ، مجموع مؤلفات الشیخ عبد الرحمن بن سعید ، الناشر: مركز ابن صالح الثقافی - عنیزة
- الرسالة الواقیة لمذهب أهل السنة في الإعتقادات وأصول الديانات ، عثمان بن سعید الدانی ، تحقيق د. محمد بن سعید القحطانی ، الناشر: دار ابن الجوزي - الدمام
- الاقتصاد في الاعتقاد ، عبد الغنی بن عبد الواحد المقدسي ، تحقيق د. أحمد بن عطیة الغامدی ، الناشر: مکتبة العلوم والحكم - المدينة
- شرح ثلاثة الأصول ، محمد بن صالح بن عثيمین ، إعداد: فهد بن ناصر السليمان ، الناشر: دار الشریا - الرياض

- جامع بيان العلم وفضله ، يوسف بن عبد البر النمري ، تحقيق أبي الأشبال الزهيري ، الناشر: دار ابن الجوزي - الدمام
- اقتضاء العلم العمل ، الخطيب البغدادي ، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت
- البداية والنهاية ، ابن كثير ، الناشر: دار ابن كثير - دمشق
- طبقات الحنابلة ، أبي يعلى الفراء ، تحقيق د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، الناشر: مكتبة العبيكان - الرياض
- سير أعلام النبلاء ، شمس الدين الذهبي ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت
- تاريخ الإسلام ، شمس الدين الذهبي ، تحقيق د. بشار عواد معروف ، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت
- تذكرة الحفاظ ، شمس الدين الذهبي ، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت
- وفيات الأعيان ، ابن حلkan ، الناشر: دار صادر - بيروت

الموضوع	
مقدمة	●
مقدمات في الإيمان	●
معنى الإيمان لغة	○
معنى الإيمان شرعا	○
الإيمان يزيد وينقص	○
عنایة السلف بمسألة الإيمان	○
شعب الإيمان	○
علامة صدق الإيمان	○
أسباب قوة الإيمان	○
أقسام المؤمنين بحسب إيمانهم	○

فوائد الإيمان	○
● الركن الأول: الإيمان بالله ، ويتضمن أربعة أمور	
الأول: الإيمان بوجوده تعالى ، وقد دل على ذلك أربعة أمور:	○
الفطرة	■
العقل	■
الشرع	■
الحس	■
الثاني: الإيمان بريوبنته	○
الثالث: الإيمان بألوهيته	○
براهين توحيد الألوهية	■
البراهين الشرعية والعقلية على بطلان الشرك	■
○ الرابع: الإيمان بسمائه وصفاته	
مدخل	■

■ مقتضيات الإيمان بأسماء الله وصفاته أمران:	
● الأول: فهم الأسماء والصفات كما جاءت	
■ ذكر بعض الآثار عن السلف في فهم الصفات	
■ تقريرات بعض أئمة المذاهب في فهم الأسماء والصفات	
■ أقوال الحنفية	
■ أقوال الشافعية	
■ أقوال الحنابلة	
■ أقوال المالكية	
■ خلاصة	
● الثاني: التوقف في إثبات الأسماء والصفات على ما جاء في الكتاب والسنة ، وبيان ما يضادها	
■ ما يضاد الإيمان بأسماء الله وصفاته أقسام ثمانية:	
● التعطيل	
● التمثيل	

التكيف	●
التحريف أو التأويل	●
التفويض	●
تسمية الله بما لم يسم به نفسه ، أو وصفه بما لم يصف به نفسه	●
إنكار أن يكون الله أسماء	●
اشتقاق أسماء منها للعبودات الباطلة	●
فائدة في أن الإيمان بأسماء الله وصفاته على الوجه اللائق بالله من أفضل الأعمال وأعظم القربات ، وفوائد أخرى	■
خاتمة	■
ثمرات الإيمان بالله تعالى	■

● الركن الثاني: الإيمان بالملائكة
○ الإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور
■ الأول: الإيمان بوجودهم
■ الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم
■ الثالث: الإيمان بما علمنا من صفاتهم الخلقية
■ الرابع: الإيمان بما علمنا من أعمالهم العامة والخاصة التي يقومون بها امتثالاً لأمر الله تعالى
○ ثمرات الإيمان بالملائكة
○ فصل في الرد على بعض من ضل في باب الإيمان بالملائكة
● الركن الثالث: الإيمان بالكتب
○ الإيمان بالكتب يتضمن خمسة أمور
■ الإيمان بأنها أنزلت من عند الله حقاً
■ الإيمان بما علمنا اسمه منها

▪ تصديق ما صح من أخبارها
▪ العمل بأحكام ما لم ينسخ منها
▪ الإيمان بأنها تدعوا إلى عقيدة واحدة ، وهي التوحيد
○ فصل في بيان أعظم الكتب
○ فائدة في ميزة التوراة على الانجيل
○ الكتب السماوية متفقة على أمور و مختلفة في أمور
○ الحكمة من إنزال القرآن
○ تَمْيِيز القرآن العظيم عن غيره من الكتب السماوية
○ وجوه إعجاز القرآن
○ أحد عشر أمراً يُضاد الإيمان بالكتب
▪ الأول: تكذيبها
▪ الثاني: تحريفها
▪ الثالث: معارضة القرآن بالعقل
▪ الرابع: ادعاء أن القرآن الموجود بأيدي المسلمين اليوم ناقص

■ الخامس: تفضيل بعض الأوراد عليه
■ السادس: الإعراض عن التحاكم إليه
■ السابع: تفسيره بالأهواء والأقوال الباطلة
■ الثامن: إهانته كما يفعل السحرة
■ التاسع: الإعراض عن العمل بأحكامه
■ العاشر: القول بخلق القرآن
■ الحادي عشر: عدم الإيمان بالسنة الشريفة
○ ثمرات الإيمان بالكتب
● الركن الرابع: الإيمان بالرسل
○ ستة عشر فائدة في النبوات
■ بيان الغاية من إرسال الرسل
■ بيان الفرق بين النبي والرسول
■ أول الرسل نوح

■ آخر الرسل والأنبياء محمد ﷺ
■ لم تخل أمة من رسول يبعثه الله تعالى بشرعية مستقلة إلى قومه
■ دعوة الرسل واحدة ، وهي الدعوة إلى توحيد الألوهية
■ الرسل بشر اصطفاهم الله لحمل الرسالة
■ الرسل بشر مخلوقون ، ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء
■ الرسل تلحقهم خصائص البشرية من المرض والموت
■ وصف الله تعالى رسالته بالعبودية
■ فضل الله بعض النبيين على بعض
■ أفضل الرسل هم أولو العزم وهم خمسة
■ أفضل الرسل قاطبة هما الخليلين ، إبراهيم و محمد عليهما الصلاة والسلام
■ أفضل الخليلين محمد ﷺ
■ فائدة في انقسام الأنبياء إلى عبدٍ رسولٍ ونبيٍّ ملكٍ ، وأفضلية من كان عبداً رسولاً على من كان ملكاً نبياً

■	الرسل غالبون دائمًا
○	الإيمان بالرسل يتضمن سبعة أمور
■	الأول: الإيمان بأن الأنبياء كلهم دينهم واحد
■	الثاني: الإيمان بجمعاً من غير تفريق بينهم
■	الثالث: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم في القرآن أو صحيح السنة
●	فائدة في بيان أن الخضر كان نبياً عليه السلام
■	الرابع: التصديق بما صح عنهم من أخبارهم
■	الخامس: العمل بشرعية من أرسل إلينا منهم ، وهو محمد ﷺ
■	السادس: الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به
■	السابع: الإيمان بما أيدَّهم الله به من آيات
○	فصل في بيان نواقص الإيمان بالرسل
■	الأول: تكذيبهم
■	الثاني: تكذيب ما حاولوا به ولو كان جزءاً من الشريعة
■	الثالث: عدم الانقياد لشريعتهم

▪ الرابع: إيزادههم
▪ الخامس: الغلو فيهم
○ ثمرات الإيمان بالرسل
○ فصل في الرد على شبهة المكذبين بالرسل
○ ملحق يتضمن فائدتان: ▪ تقرير أن الخضر كان نبيا ، عليه الصلاة والسلام
▪ تقرير أن إخوة يوسف عليه السلام لم يكونوا أنبياء
● الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر
○ الإيمان باليوم الآخر يتضمن ستة أمور
▪ النفح في الصور
▪ بعث الأجساد
▪ حدوث باقي علامات الساعة الكبرى
▪ حشر الناس إلى أرض المحشر ، ويحصل فيه أربعة أمور
▪ فزع الناس

■ دنو الشمس من الخلائق
■ ورود الناس على حوض النبي ﷺ
■ الشفاعة العظمى
■ الحساب والجزاء
■ الإيمان بالجنة والنار
○ ذكر بعض مشاهد القيمة
■ تطأير الصحف
■ ضرب الصراط على متن جهنم ، وأصناف الناس أثناء مرورهم عليه
■ وقوف أنساب على قنطرة بين الجنة والنار
■ كلام المشركين في مواطن وختم الله على أفواههم في مواطن
■ اعتذار الكفار إلى الله تعالى
■ فصل في شفاعات النبي ﷺ للمؤمنين يوم القيمة
■ الأولى: شفاعته للمؤمنين في دخول الجنة
■ الثانية: شفاعته لمن لا حساب عليهم ولا عذاب في دخول

الجنة
■ الثالثة: شفاعته لعصاة المؤمنين من دخلوا النار في الخروج منها
■ الرابعة: شفاعته لعمه أبي طالب لتحفييف العذاب عنه
■ شفاعات الشفاء
■ النوع الأول: شفاعة الرسل لأقوامهم
■ النوع الثاني: شفاعة المؤمنين
■ النوع الثالث: فصل في شفاعة الشهداء
■ النوع الرابع من الشفاعات: شفاعة الأفراط
■ النوع الخامس: شفاعة الملائكة لعصاة المؤمنين في الخروج من النار ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخْرِجُ أَقْوَاماً تَكْرُمُهُ مِنْهُ بِلَا شَفَاعَةٍ مِنْ أَحَدٍ
■ النوع السادس: شفاعة القرآن
■ فصل في بيان شرطي قبول الشفاعة
○ فصل في بيان ما يتحقق بالإيمان باليوم الآخر
■ فتنة القبر

عذاب القبر ونعيمه	■
● من يستحق عذاب القبر	
● فوائد متفرقة تتعلق بعذاب القبر ونعيمه	
● فصل في الرد على من أنكر عذاب القبر	
○ فصل في الرد على منكري اليوم الآخر	
○ فائدة في أسماء اليوم الآخر	
○ ثمرات الإيمان باليوم الآخر	
● الركن السادس: الإيمان بالقدر خيره وشره	
○ الإيمان بالقدر يتضمن أربعة أمور	
■ العلم	
■ الكتابة	
■ المشيئة	
■ الخلق	
○ فصل في بيان أنواع التقدير	

التقدير الأزلي ■
التقدير العمري ■
التقدير الحولي ■
○ فوائد متفرقة في موضوع الإيمان بالقدر
الفائدة الأولى - إثبات أن للعبد مشيئة ■
الفائدة الثانية - إذا أراد العبد فعل الشر ، فهل يُيسّره الله له؟ ■
الفائدة الثالثة - الجمع بين الآيات الواردة في إرادة الله هداية الناس وبين الآيات الواردة في عدم هدايتهم ■
الفائدة الرابعة - بيان المراد من وصف العَدُور بالشَّر ■
الفائدة الخامسة - بيان بطلان احتجاج العبد بالقدْر على فعل المعاصي وترك الطاعات ■
الفائدة السادسة - وجوب الرضا بما قضاه الله وقدره ■
الفائدة السابعة - بيان أحوال العباد إذا جرت عليهم المكاره من الأمور المقدرة ■
الفائدة الثامنة - بيان الفرق بين القضاء والقدر ■

الفائدة التاسعة - التوقي من الشرور لا يُعدُّ فراراً من قَدْرِ الله	■
الفائدة العاشرة - الإيمان بالقضاء والقدر لا ينافي التوكيل	■
الفائدة الحادية عشرة - بيان ضلال فرقتين في عقيدة الإيمان بالقدر	■
الفائدة الثانية عشرة - بيان ثمرات الإيمان بالقدر	■
خاتمة ووصية	●
فائدة لطيفة قبل الختام	●
ثبت ملء أراد التوسيع في الإطلاع على عقيدة الإيمان وأركانه وقوادحه ونواقصه	●
مراجعة الكتاب	●